الكاتب الأكثر مبيعًا على قائمة نيويورك تايمز

جو هيل

الهاتف الأسود

نُشرت للمرة الأولى تحت اسم "شبح القرن العشرين".

THE BLACK PHONE

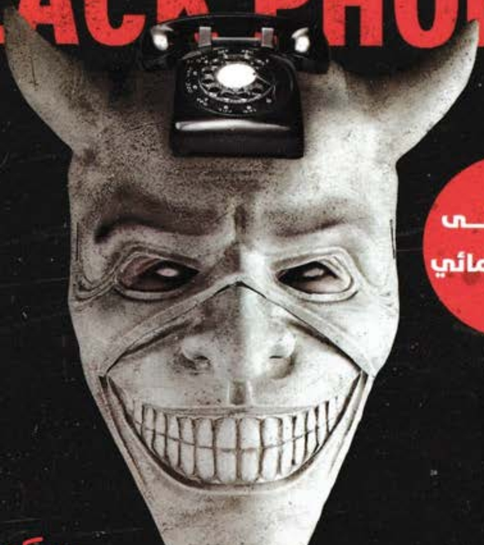

حُوِّلَت إلى فيلم سينمائي

مكتبة عصير الكتب

مجموعة قصصية | ترجمة: بسمة الخولي

الكاتب الأكثر مبيعًا على قائمة نيويورك تايمز

مكتبة

جو هيل

الهاتف الأسود

نُشرت للمرة الأولى تحت اسم "شبح القرن العشرين".

THE BLACK PHONE

حوّلت إلى فيلم سينمائي

مجموعة قصصية | ترجمة: بسمة الخولي

عصير الكتب

عصير الكتب

للنشر و التوزيع

إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

- العنوان الأصلي: The Black Phone
- العنوان العربي: الهاتف الأسود
- طُبِع بواسطة:
WILLIAM MORROW an imprint of HarperCollins
- حُقوق النشر:
copyrights © 2005, 2007 by Joe Hill
- حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب
- ترجمة: بسمة الخولي
- تحرير: محمد الجيزاوي
- تدقيق لغوي: نهال جمال
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- الطبعة الأولى: يونيو / 2023م
- رقم الإيداع: 29265 / 2022م
- الترقيم الدولي: 978-977-992-199-0

مكتبة

t.me/soramnqraa

الهاتف الأسود

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

telegram @soramnqraa

إلى لينورا..

نحن قصتنا المفضلة.

المحتويات

مقدمة 9

أفضل رعب حديث 13

شبح القرن العشرين 41

آرثر المثقوب 65

ستسمع الجراد يغني 89

أطفال إبراهام 113

أفضل من الوطن 137

الهاتف الأسود 161

في الملعب 185

العباءة 203

النفس الأخير 227

الشجر الشبحي 237

فطور الأرملة 239

بوبي كونروي يعود من الموت 251

قناع أبي 275

إحالة طوعية 301

شكر وتقدير 355

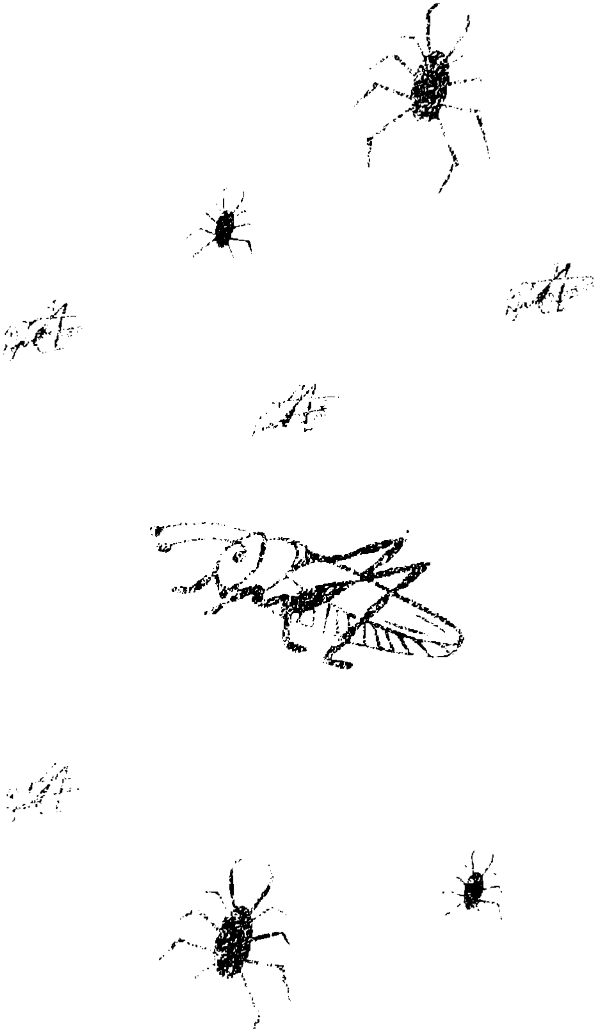

مقدمة

مكتبة
t.me/soramnqraa

قصص الرعب الحديثة ليست بارعة على الدوام، نظرًا إلى لجوء معظم ممارسي فن خَلق الرعب في الوقت الحالي إلى الرعب المعوي أكثر من النفسي، متناسين أن أكثر الحيوانات افتراسًا هي من ملكت القدرة الأكبر على التسلل. لا أعني بالطبع أن الرعب المعوي سيئ، لكن حقيبة الكُتاب المهرة تحوي على الدوام أكثر من خدعة.

لا تنتمي كل القصص داخل كتاب «شبح القرن العشرين» إلى لون الرعب. بعضها خارق للطبيعة، وأخرى تحمل الأجواء السوداوية المألوفة لقصة خيالية اعتيادية جدًا، واحدة تفتقد أي لون مروع، بل على العكس، تكاد تكون لطيفة ومحبَّبة. لكن كلها على السواء تتسم بالمهارة. يا أصدقائي وجيراني، جو هيل لعين ماهر. حتى تلك القصة عن الفتى الذي تحول إلى حشرة، ماهرة. لنواجه الواقع، كم عدد المرات التي واجهت فيها قصصًا ماهرة؟

قابلت جو هيل لأول مرة كاسم على قائمة المساهِمين في مختارات بعنوان الوجوه المتعدِّدة لفان هيلسينج، حرَّرته جين كافيلوس. على الرغم من أنني أنا الآخر نشرت قصة في هذا المجلد، فإني أعترف بأني لم أكن قد قرأت أيًا من قصص الكُتاب الآخرين عندما حان الوقت لتوقيع المجموعة في لقاء صغير بمكتبة تُدعى «باندمونيم» في كامبريدج، ماساتشوستس. كان جو هيل هناك مع توم مونتيليون وجين وأنا.

في تلك المرحلة، لم أكن قد قرأت أي كلمة كتبها، ولكن بمرور اليوم وجدت نفسي شاعرًا بالفضول تجاه جو هيل. الشيء الأكثر إثارة للاهتمام بالنسبة إليَّ الذي خرجت به من محادثاتنا، هو أنه كان يحب قصص الرعب نعم، لكنها كانت بعيدة كل البعد عن حبه الوحيد.

نشر قبلًا قصصًا عادية في المجلات «الأدبية» (وصدِّقوني، أنا أستخدم هذه الكلمة بشكل فضفاض لدرجة أنها قد تسقط) وحصل على جوائز بسببها. ومع ذلك وجد أنه يعود مرارًا وتكرارًا لكتابة الرعب والفانتازيا السوداء.

كن سعيدًا لأنه فعل، لو لم تكن سعيدًا الآن، ستكون قريبًا.

كنت لأقرأ الوجوه العديدة لفان هيلسينج في النهاية بالطبع، لكن بسبب لقائي مع جو، حركتُ أولوية قراءتها إلى أعلى كومة القراءة. قصته المنشورة فيها «أولاد إبراهام» عرضت صورة مُحكَمة ومثيرة للرهبة عن فكرة الأولاد الذين ينتهي بهم الأمر لاكتشاف خطايا أبيهم. ذكَّرتني القصة -بأفضل طريقة ممكنة- بفيلم مستقل يُدعى «الهشاشة».

أولاد إبراهام هي واحدة من القصص الممتازة، تقع في منتصف الكتاب الذي تمسك به حاليًّا، كانت جيدة بما يكفي لدرجة أنها جعلتني راغبًا في البحث عن المزيد من أعمال جو هيل. لكنه اعتاد نشر قصص قصيرة فقط، ومعظمها في أماكن لم يكن من المحتمَل أن أصادفها بشكل عرَضي. في الجزء الخلفي من رأسي دوَّنت ملاحظة لأراقب ظهور اسمه على أي عمل في المستقبل.

عندما سألني بيتر كروثر عما إذا كنت أرغب في قراءة أشباح القرن العشرين وكتابة مقدمة، كنت أعلم أنه لا ينبغي أن أوافق. ليس لديَّ الوقت الكافي للقيام بأي شيء آخر غير الكتابة وأن أكون مع عائلتي، ولكن الحقيقة هي أنني أردت قراءة هذا الكتاب. أردت إرضاء فضولي، لمعرفة ما إذا كان جو هيل جيدًا حقًّا كما أشار «إبراهام بويز» إلى أنه قد يكون.

لم يكن.

بل كان أفضل بكثير.

عنوان هذا المجلد مناسب بطرق تُعد ولا تُحصى. تتضمن العديد من الحكايات الأشباحَ بشكل أو بآخر، ويعكس البعض الآخر آثار أصداء القرن العشرين. في قصة «ستسمع الجراد يغني» يجمع المؤلف بين ولع ومعرفة

بأفلام الخيال العلمي والوحوش في الخمسينيات من القرن الماضي مع المخاوف من الحرب النووية، التي كانت مصدر إلهام لتلك الأفلام. التأثير هو روح الدعابة القاتمة والمشاعر التي طغت في الوقت نفسه على القصة.

ومع ذلك، ربما الشيء الأكثر أهمية الذي يتردد صدى عنوان هذه المجموعة فيه، هو المؤلف نفسه. هناك أناقة ورِقة في هذا العمل يذكراننا بعصر سابق، لجوان أيكن وأمبروز بيرس، من بومونت وماثيسون ورود سيرلينج.

في فضلى حالاته، يدعو هيل القارئ إلى إكمال المشهد، لتوفير الاستجابة العاطفية اللازمة للقصة لتكون ناجحة حقًّا. وهو يثير تلك الاستجابة ببراعة. هذه القصص التكميلية تظهر فقط عندما يكتشفها القارئ. تتطلب تواطؤك لتحقيق غايتها. إحدى تلك الحكايات البارزة في هذا الكتاب هي «أفضل رعب جديد»، حيث استحال إنكارًا لألفة معينة وإدراكًا بالطريق الذي تقود إليه الحكاية، ولكن بدلًا من الفشل، استغلت القصة هذه الألفة كأعظم إنجاز لها. دون تخمين القارئ للنهاية تقريبيًّا، لا يمكن للقصة أن تنجح.

في قصة الهاتف الأسود، يوجِّهك كقارئ للحميمية في ظهور الهاتف المنقِذ، والسوداوية في وجوده. حتى تجد نفسك مدفوعًا بعواطفك، مترابطًا مع شخصية القصة.

يبدو أن عددًا كبيرًا جدًّا من الكُتاب يعتقدون أنه لا يوجد مكان في الرعب للمشاعر الحقيقية، ليستبدلوا بالمشاعر الطبيعية، تلك التي تحدِث التأثير ذاته الذي يحدِثه نص مكتوب في سيناريو. على عكس ما يفعله جو هيل. واحد من تلك الأمثلة هو قصة بوبي كونور يعود إلى الحياة، والتي لا تُعد قصة رعب على الإطلاق على الرغم من أنها تدور بالكامل في موقع تصوير فيلم جورج روميرو الشهير، فجر الموتى الأحياء.

أودُّ التحدث إليكم عن كل قصة في هذا الكتاب، لكن خطر كتابة شيء ما يفصح عما بالقصة في مقدمة الكتاب كبيرٌ. بإمكاني أن أقول إنه إذا كان بوسعي مسح ذاكرة قراءة هذه القصص من ذهني، فسأفعل ذلك، فقط حتى يكون من دواعي سروري قراءتها مرة أخرى لأول مرة.

«أفضل من الوطن» و«شبح الشجر» قصص جميلة، «فطار الأرملة» هي لقطة مؤثرة لعصر آخر ولرجل ضل طريقه. «شبحِ القرن العشرين» تلمس الحنين في قلبي لعروض الماضي وحلقاتي المفضَّلة من «منطقة الشفق»،

ستسمع الجراد يغني هو والطفل المحبَّب لفرقة ثلاثية مع وليام بوروز وكافكا وقصة فيلم «هُم». «الأنفس الأخيرة» حُمِّل بنكهة برادبري. كل هذه القصص رائعة، وبعضها جيد بشكل مذهل. «قناع والدي» غريب للغاية ومزعج لدرجة أنه جعلني أشعر بالدوار.

قصة «إحالة طوعية»، التي اختتمت هذه المجموعة، هي من بين أفضل الروايات التي قرأتها على الإطلاق، وتعرض بوضوح نضج جو هيل كقاصٍّ. نادرًا ما يحدث أن يظهر الكاتب بشكل كامل مثل هذا. وعندما يحدث ذلك... حسنًا، أعترف بأنني ضحية اضطراب داخلي، أشعر بالابتهاج والرغبة في ضربه حتى الموت. «إحالة طوعية» بهذه الجودة.

قصة «آرثر المنفجر على اليد الأخرى»، قصة متسامية. حملت الكيفية التي يستطيع بها جو هيل مزج كل تلك المشاعر في لوحة واحدة. الحنين والخوف والحماس والغرابة.

مع الجهود الوليدة لمؤلف وصل حديثًا، سيتحدث المؤلِّفون والنقاد على حد سواء عن إمكانيات الكتاب، وقدراته.

كتاب شبح القرن العشرين هو وعود وفِّيَت.

كريستوفر جولدن برادفورد، ماساتشوستس

15 يناير 2005 منقح 21 مارس 2007

***

أفضل رعب حديث

قبل الموعد النهائي بشهر، مزق «إيدي كارول» طرف مظروف المانيلا الأصفر الذي تلقاه عبر البريد، لينزلق بين يديه عدد من مجلة تدعى «الشمال الأصلي للمراجعات الأدبية».

اعتاد «كارول» استقبال المجلات عبر البريد، أغلبها اختص بأدب الرعب، حاملًا عناوين كـ «رقصة المقبرة» وخلافه. عدد من الناس اعتادوا إرسال كتبهم له للمراجعة أيضًا، أكوام من الكتب تراكمت بأنحاء منزله كافة في بروكلين، أكوام على الأريكة في مكتبه، كومة بجوار آلة صنع القهوة، قصص رعب لم يكن لدى أحد وقت لقراءتها كلها. رغم أنه بذل جهدًا مضنيًا للمحاولة منذ زمن، حين كان لا يزال في بداية الثلاثينيات من عمره وقد عمل توًّا محررًا لمجلة «أفضل رعب حديث في أمريكا».

بفضل «كارول» وجد ستة عشر مجلدًا من المجلة طريقهم إلى الصحافة، حتى الآن ثُلثا حياته ابتلعتها هذه السلسلة. آلاف الساعات من القراءة، والمراجعة، وكتابة الرسائل وإرسالها، آلاف الساعات التي لن يتمكن من استعادتها أبدًا.

من بين كل المطبوعات الأدبية، كره المجلات على وجه الخصوص. كره الحبر الرخيص المُستخدَم في عدد لا بأس به منهم، والطريقة التي علق بها بأصابعه، فائحًا برائحة مثيرة للاشمئزاز ورافضًا الزوال.

الآن لم يعد حتى قادرًا على تحمل فكرة قراءة بعض تلك القصص، ناهيك بالانتهاء منها.

شعر بالضعف لمجرد تخيل تصفح قصة أخرى عن مصاصي دماء في علاقة مع مصاصي دماء آخرين، كافح للاستمرار في قراءة كل تلك النسخ الخيالية المبنية على الأعمال الأصلية لـ «لافكرافت،» لكن مع أول ذِكر لـ «الآلهة القديمة» كان يشعر بشيء بداخله يُصاب بالخَدر، كفقدان الإحساس بيدك أو قدمك حين تنقطع عنهما الدورة الدموية فجأة. بدأ يخشى أن هذا الجزء المُخدَّر كان روحه.

في مرحلة ما، بعد طلاقه، فكر «كارول» -بأمل أحيانًا- في التنحي عن وظيفة محرر «أفضل رعب حديث في أمريكا»، بعد أن تحولت الوظيفة إلى عبء مضنٍ خالٍ من البهجة. تلك الفكرة التي سرعان ما كان يتخلى عنها لأن هذه الوظيفة كانت تعني دخلًا منتظمًا من اثني عشر ألف دولار شهريًّا في البنك. الدخل الأساسي بجانب ما يُحَصله من القصص القصيرة التي يشارك بها في مجموعة قصصية ما، أو ورشة أدبية، أحيانًا لقاء أو حوار هنا أو هناك.

ودون الاثني عشر ألف الشهريين، سيتحقق أسوأ مخاوفه، سيضطر إلى البحث عن وظيفة حقيقية.

لم يكن «الشمال الأصلي للمراجعات الأدبية» عنوانًا مألوفًا لديه، مجلة أدبية بغلاف ورقي سميك مُحبَّب، مع طباعة لأشجار صنوبر مائلة. على الجهة الخلفية طابع أشار إلى أن المجلة إصدار من «جامعة كاتادين» بشمال نيويورك. فور أن فتحها، انزلقت من بين الصفحات ورقتان معًا جمع بينهما دبوس صغير بالأعلى. خطاب من المحرِّر. أستاذ للغة الإنجليزية يُدعى «هارولد نونان».

في الشتاء السابق تواصل رجل يعمل بدوام جزئي في الحرم الجامعي يُدعى «بيتر كيلرو» مع «نونان»، حين علم بحصول «نونان» على منصب المحرِّر الأدبي للمجلة بعد تقاعد المحرِّر السابق الذي تولى هذا المنصب لعشرين سنة، «فرانك ماكدين».

«نونان» أعلن أن باب تقديم الأعمال للمجلة مفتوح، وبالتالي عرض «بيتر» قصته التي تُدعى «فتى الأزرار: قصة رومانسية». وبالفعل أخبره «نونان» أنه

سيقرؤها من باب الذوق لا أكثر. لكنه حين بدأ بقراءتها أخيرًا ذُهل من سلاسة الأسلوب، والطبيعة المروِّعة للفكرة في الوقت ذاته.

بعد توليه المنصب، رغب «نونان» في تغيير مسار المجلة من نشر قصص معتادة إلى نشر ما قد يثير استفزاز بعض الجمهور.

كتب نونان في الخطاب: «وقد نجحتُ في مسعاي، ربما أكثر من اللازم».

فبعد أن أرسل قصة «فتى الأزرار» للتحرير لتُنشَر فيما بعد في «الشمال الأصلي»، تلقى طلبًا لمقابلة خاصة من رئيس قسم اللغة الإنجليزية في الجامعة، هاجمه فيها لفظيًّا بسبب استخدام «الشمال الأصلي» كوسيلة لعرض ما سماه بـ «مزحة أدبية طفولية»!

لم يكن «استفزاز» قرابة خمسين شخصًا ليسحبوا اشتراكهم فورًا من المجلة أمرًا مثيرًا للضحك، وبخاصة مع مجلة تبيع بضعة آلاف النسخ فقط. الداعمة الأكبر للمجلة كذلك في نوبة غضبها سحبت الدعم المالي بالكامل عن «الشمال الأصلي»، ووجد «نونان» نفسه مفصولًا عن منصبه، ليعود «فرانك ماكدين» مرة أخرى محرِّرًا، بعد أن توسلوا إليه لإنقاذ المجلة.

ختم نونان خطابه قائلًا:

ما زلت عند رأيي بأن فتى الأزرار -على الرغم من عيوبها- عمل أدبي خيالي مميز، وإن كان مؤلمًا ومثيرًا للتوتر. أتمنى أن تمنحه بعضًا من وقتك وأقر بأنك إن قررت ضمها إلى القصص الأخرى التي ستصل إلى «أدب الرعب الأفضل في السنة» سيكون هذا إبراء شخصيًّا لي بعد ما حدث.

لولا أنني أعتقد أنها لن تكون قراءة سعيدة، لكتبت لك «أتمنى لك الاستمتاع بالقراءة».

أفضل التمنيات.

هارولد نونان.

كان «إيدي كارول» قد عاد لتوه من الخارج حين مزَّق المظروف وبدأ في قراءة خطاب نونان بالمدخل، قلب الصفحات حتى بداية القصة وبدأ في القراءة مستغرِقًا فيها لما قارب خمس دقائق قبل أن يلاحظ أن حرارة جسده مرتفعة بشكل غير اعتيادي، ألقى بالجاكيت الذي كان يرتديه على الخطاف جوار الباب بإهمال وتقدم إلى الداخل بينما يقرأ حتى وصل إلى المطبخ ثم جلس على إحدى السلالم المؤدية إلى الطابق الثاني مواصلًا التقليب بين الصفحات.

مستلقيًا على الأريكة في مكتبه ورأسه مسنود إلى كومة الكتب، تابع نونان القراءة في ضوء نهار أكتوبر الخافت دون حتى أن يتذكر كيف وصل إلى هنا.

حين وصل إلى نهاية القصة أخيرًا قرأها بسرعة، ثم جلس شاعرًا بأن كيانه ينبض داخل قبضة من الحماس الغريب والرهبة. فكر في أن ما قرأه توًا كان أفظع، وأوقح، وأبشع قصة قرأها ربما على الإطلاق، هو الذي نال ما يكفيه من البشاعة والوقاحة خلال رحلته المهنية الموحِلة عبر المستنقع الأدبي، عاثرًا من حين إلى آخر على نوادر مزهِرة ومثيرة للاهتمام وسط كل هذا العفن. الآن كان واثقًا أن هذا العمل الذي بين يديه هو واحد من تلك الأزهار المتفتحة وسط الطمي. عليه أن يحصل على هذه القصة! فورًا عاد إلى صفحة البداية وبدأ في إعادة قراءة القصة للمرة الثانية.

كانت القصة عن الفتاة «كيت» التي في أحد الأيام -حين كانت في السابعة عشرة من عمرها تقريبًا في بداية القصة- وجدت نفسها فجأة بين يدَي عملاق بأسنان ذات تقويم من القصدير، وعينين نالت من بياضهما الصفراء. كبَّل يديها وسحبها ليلقي بها مقيَّدة في مؤخرة سيارته العملاقة، وهناك على الأرض أمام المقاعد الخلفية اكتشفت وجود جسد آخر لفتى في مثل عمرها تقريبًا، والذي ظنته ميتًا بسبب عملية التشويه البشعة التي نالت من وجهه، عينا الفتى كانتا مغطاتين بأزرار صفراء بوجه باسم، أمام مقلة عينيه وأسفل الجفون التي كانت بدورها مخيطة بخيوط لامعة من الصلب.

لكن حين تحركت السيارة، بدأ الفتى يتحرك، حاولت كتمان صرخة كادت تنفلت منها عندما امتدت يدا الفتى مستكشفتين جسدها، حتى وصلت إلى وجهها أخيرًا.

همس الفتى باسمه، «جيم»، كان بصحبة العملاق في أثناء سفره لما يقرب من أسبوع، بعد أن قتل العملاق والديه.

همس جيم: «ثقب عينيَّ».

- قال إنه رأى روحي تغادر مسرعة من الثقب، مصدِرة صوتًا أشبه بصوت النفخ في زجاجة كولا فارغة، صوت جميل للغاية. ثم وضع هاتين على عينيَّ ليبقي حياتي حبيسة داخل جسدي.

أشار جيم إلى الأزرار قبل أن يتابع: «أراد معرفة إلى متى سأتمكن من البقاء حيًّا من دون روح».

اصطحبهما السائق إلى أرض تخييم فارغة وبعيدة في إحدى الحدائق، وهناك بدأ بمحاولة إجبار جيم وكيت على إقامة علاقة معًا. لكن العملاق حين شعر بأن كيت فشلت في تقبيل جيم بالشغف الكافي، شق وجهها وقطع لسانها. وسط الفوضى، وصرخات جيم، والدماء. تمكنت كيت مترنحة من الهرب بين الأشجار، لثلاث ساعات ركضت تائهة حتى وصلت إلى الطريق السريع أخيرًا، في حالة من الهستيريا، والدماء تغطيها بالكامل.

لم يجدوا خاطفها قط، عاد مع جيم إلى السيارة وقادها إلى خارج المتنزه ثم -كما بدا- خارج حدود العالم كله. عجز المحققون عن إيجاد معلومة واحدة نافعة عن أي منهما، لم يتعرف أحد على جيم أو من أين أتى أو حتى من كانت عائلته، والمعلومات عن العملاق كانت أقل.

بعد أسبوعين من إطلاق سراحها أخيرًا من المستشفى، تلقت كيت عبر البريد الدليل الوحيد. مظروف وبداخله أزرار صفراء على شكل وجه ضاحك، مغطاة بدماء جفت وبصحبتها صورة ضوئية لجسر في ولاية كنتاكي.

صباح اليوم التالي وجد غواص -أسفل الجسر ذاته بالنهر- جسدًا ملقى لفتى، في حالة بشعة من التعفن والأسماك تسبح في مقلة عينيه.

كيت، التي كانت ذات يوم جذابة ومحبوبة، وجدت نفسها موضع إثارة للشفقة والرعب بين كل من عرفها. تفهَّمت ما أثاره مرأى وجهها في نفوس الآخرين، أخافها هي نفسها النظر إلى انعكاسها في المرآة. لفترة من الوقت ارتادت كيت مدرسة خاصة، وهناك تعلمت لغة الإشارة، لكنها لم تبقَ طويلًا. الآخرون المصابون بالإعاقات، الصم، والمشوَّهون، أثاروا اشمئزازها، هم واعتماديتهم الكلية على الآخرين.

حاولت كيت -دون توفيق أو حظ- استئناف حياتها الطبيعية. لم يكن لديها أصدقاء مقرَّبون، ولا مهارات وظيفية، بالإضافة إلى وعيها ببشاعة مظهرها، وعدم قدرتها على الكلام.

في أحد المشاهد المؤلمة بالذات، كُتب عن محاولة كيت استعادة شجاعتها بتسليم وعيها للسُّكر، حتى مرت -في إحدى المرات- بالقرب من رجل في حانة، لتقابلها سخريته هو وأصدقائه.

اضطرب نومها بسبب الكوابيس المتواصلة التي هاجمتها بانتظام، فيها استرجعت كيت تفاصيل اختطافها لكن باختلافات جذرية ومخيفة في كل مرة. في بعض الكوابيس، لعب جيم دور الشريك في عملية الخطف بدلًا من الضحية، اغتصبها بوحشية والأزرار العالقة على عينيه تعكس صورة مشوَّهة لوجهها الصارخ، الذي بفعل منطق اللاوعي الخاص بالأحلام، كان قد تحول بالفعل إلى قناع مشوَّه مشقوق. غالبًا ما تركتها هذه الأحلام مستثارة. وهو ما أخبرها معالجها النفسي بأنه عرض شائع في حالتها تلك، المعالج ذاته الذي رفدته بعدما اكتشفت أنه رسم صورة كاريكاتورية مروِّعة لها في دفتر ملاحظاته.

حاولت كيت تعاطي أشياء مختلفة لمساعدتها على النوم، الكحول ومسكنات الألم والهيروين. ما دفعها إلى الحاجة إلى المال لشراء المخدرات وبدوره إلى البحث عن هذا المال بخزانة والدها. قبل أن يضبطها متلبِّسة ويطردها. في الليلة ذاتها اتصلت بها والدتها لتخبرها أن والدها في المستشفى جرَّاء سكتة دماغية، ومن المستحسَن ألا تأتي لزيارته. بعدها بمدة قصيرة في مركز رعاية الأطفال ذوي الحاجات الخاصة، الذي عملت به كيت بدوام جزئي، دفع أحد الأطفال قلم رصاص بعين طفل آخر، ليصيبه بالعمى. ورغم أن الحادث لم يكن بأي حال خطأ كيت، فإنه خلال تداعياته أصبحت مشكلة الإدمان التي تعانيها معروفة للجميع، وعليه -بالطبع- فقدت وظيفتها. حتى بعد تغلبها على الإدمان، وجدت كيت نفسها عاطلة عن العمل.

ثم وبأحد أيام الخريف الباردة، في أثناء مغادرتها سوبر ماركت محليًّا، مرت كيت بجانب سيارة شرطة متوقفة بالخلف، غطاء المحرك مفتوح وبجواره رجل شرطة بنظارات ذات زجاج عاكس يفحص المحرك الذي ارتفعت حرارته أكثر مما يجب. بالمصادفة ألقت نظرة على المقعد الخلفي،

وهناك رأته، يداه مقيَّدتان خلف ظهره، أكبر بنحو عشر سنوات مما تتذكر، وقد اكتسب قرابة عشرين كيلوجرامًا إضافيًّا. عملاقها الخاطف.

حاولت السيطرة على أعصابها وهي تقترب من الشرطي الذي يعمل على المحرك، لتكتب له ملاحظة تسأله فيها عما إن كان يعرف الرجل في المقعد الخلفي. أخبرها الشرطي أنه قبض عليه في متجر لأجهزة الكمبيوتر بشارع بليزانت، في أثناء محاولته سرقة سكين صيد وشريط لاصق شديد التحمل.

عرفت كيت المتجر المذكور، كانت تسكن على بعد ناصية منه. خانتها ساقاها ليتأبط الشرطي ذراعها قبل أن تسقط. بدأت في كتابة ملاحظات محمومة، محاوِلة شرح ما فعله العملاق بها حين كانت في السابعة عشرة. عجز قلمها عن مواكبة أفكارها، وصارت الملاحظات التي تكتبها أقل منطقية شيئًا فشيئًا، حتى بالنسبة إليها، لكن الشرطي فهم المغزى. وأرشدها إلى المقعد جوار السائق وهو يفتح الباب مطمئنًا إياها.

أصابها التفكير في ركوب السيارة ذاتها مع خاطفها بالرعب، وبدأ الخوف يتحول إلى دوار. عجزت عن السيطرة على الرجفة التي نالت من جسدها بالكامل. ذكَّرها الشرطي أن الرجل العملاق بالخلف مقيَّد، يداه خلف ظهره ولن يؤذيها، لكن مصاحبتها له إلى مركز الشرطة لتدلي بأقوالها مهمة.

في النهاية استقرت في المقعد الأمامي، على ساقيها معطف الشرطي الشتوي، نصحها بارتدائه، سيبقيها دافئة، سيساعد في الحد من رجفتها. رفعت عينيها ناظرة إليه، مستعدة لكتابة رسالة شكر بدفتر ملاحظاتها، لكنها تسمرت مكانها غير قادرة على كتابة كلمة واحدة.

شيء ما، في الطريقة التي انعكس بها وجهها على عدسات نظارة الشرطي، شلَّها في موضعها. جوارها، أغلق الشرطي الباب، ثم تحرك لمقدمة السيارة لإرجاع غطاء المحرك إلى موضعه. بأصابع مخدَّرة مدت يدها لتفحص المعطف. في مقدمته عثرت على وجه مبتسم، مثبَّت في المقدمة عند الصدر، اثنين منهما، زر واحد على كل جانب. مدت يدها للباب لكنه أبى الفتح، النافذة هي الأخرى رفضت التحرك، الرجل ذو نظارة الشمس العاكسة الذي لم يكن بأي حال رجل شرطة، كان يبتسم ابتسامة بشعة. تحرك رجل الأزرار مبتعدًا عن مقدمة السيارة والمحرك، متجاوزًا بابها، ليفتح الباب

الخلفي مُطلِقًا سراح العملاق، فالمرء -على الرغم من أي شيء- بحاجة إلى أعين ليرى الطريق.

الضياع في غابة كثيفة سهل، بين متاهات الأشجار الكثيفة المتشابكة بوسع أي شخص التجول بلا نهاية في دوائر حتى يفقد طريق الخروج إلى الأبد. ولأول مرة بدأت كيت باستيعاب أن هذا بالضبط ما جرى معها. في أحد الأيام هربت من فتى الأزرار والعملاق راكضة إلى الغابة، هاربة، لكنها لم تشق طريقها إلى المفر قط. بطريقة ما ظلت كيت في متاهة الهرب منذ ذلك الوقت، تتعثر في الظلام بين الشجيرات، تدور في دوائر لا طائل منها حتى وصلت في النهاية إلى النقطة التي كان مقدرًا لها الوصول إليها منذ اللحظة الأولى. هذه الفكرة أراحتها بدلًا من إفزاعها، لسبب ما شعرت بأنها تنتمي إليهما، إلى هذا المكان وهذه اللحظة التي هي بها الآن. وجدت نوعًا من الراحة في ذلك الشعور، الانتماء، أخيرًا.

ما كان من كيت إلا أن استرخت في مقعدها أخيرًا، ودون وعي سحبت معطف فتى الأزرار حول كتفيها ليقيها من البرد.

***

بعد الانتهاء من القراءة لم يكن إيدي كارول متفاجئًا كثيرًا بما تعرَّض له نونان من انتقادات جرَّاء نشره لقصة فتى الأزرار. حملت القصة تيمة تدهور حال أنثى، لجوؤها إلى الهيروين لمساعدتها على التغلب على مشكلاتها العاطفية، والجنسية، والروحية. كان هذا سيئًا. على الرغم من أن شخصًا مثل «جويس كارول جيتس» مثلًا كتبت قصصًا بالتيمة ذاتها، ولاقت استحسانًا، بل فازت بجوائز أيضًا حين نُشرت في مجلة الشمال الحقيقي للمراجعات الأدبية. الخطيئة التي لا تُغتفر كانت من رأيه هي نهاية القصة الصادمة.

مع مراجعة كارول لما يقرب من عشرة آلاف قصة من أدب الرعب والخوارق، كان من الصعب مفاجأته بنهاية غير متوقَّعة في أي قصة، لكنه مع ذلك استمتع بالنهاية حتى وإن كان قد توقعها مسبقًا. المشكلة أن النهاية الصادمة -بغض النظر عن جودة تنفيذها- في الوسط الأدبي هي علامة على قلة الاحتراف، الكتابة السينمائية أو التجارية الرديئة. وقراء مجلة الشمال الحقيقي للمراجعات الأدبية كانوا كما تخيل كارول، مجموعة من الأكاديميين

في منتصف العمر، يدرسون سيرة أشخاص كـ «عزرا بوند» و«جريدل»، ويحلمون أحلامًا يائسة، مثيرة للشفقة بأن تصل إحدى قصائدهم إلى صفحات جريدة نيويورك تايمز. بالنسبة إلى هؤلاء كانت فكرة النهاية الصادمة في قصة قصيرة أشبه براقصة باليرينا تخرج ريحًا وسط عرض لباليه بحيرة البجع مثلًا. فكرة شاذة تأرجحت على الصراط بين البشاعة والكوميديا.

إما أن البروفيسور هارولد نونان لم يكن قد اعترك الحياة في البرج العاجي للوسط الأدبي منذ وقت طويل، وإما أنه كان يأمل دون وعي أن يُسرَّح من الوسط.

على الرغم من أن نهاية قصة فتى الأزرار جاءت سينمائية أكثر منها أدبية، فإن كارول وجد نفسه أمام قصة استثنائية لم يصادف مثلها في أي من المجلات الأدبية المختصة بأدب الرعب، ليس مؤخرًا على الأقل. لأن في خمس وعشرين صفحة، نجح الكاتب في كتابة قصة شبه واقعية عن امرأة تعاني، امرأة تتعرض للتدمير شيئًا فشيئًا بسبب متلازمة ذنب الناجين. حملت القصة لمحات من العلاقات الأسرية الفاشلة، والوظائف القذرة، والنضال من أجل الحصول على المال. كاد كارول أن ينسى رعب الصراع اليومي الطبيعي لأجل الحصول على ما يكفي ليسد الرمق، وسط قصص الرعب القصيرة التي لا يعنيها أو يميِّزها سوى وجود كوم من اللحم ينزف بين الصفحات.

وعى إيدي بمدى حماسه لتسوية حقوق النشر، وهو يقطع المكتب ذهابًا وإيابًا وقصة فتى الأزرار مطوية بيد واحدة. ألقى نظرة على انعكاسه في النافذة خلف الأريكة ليلمح ابتسامة انعكاسه تتسع حتى كادت تبدو غير لائقة، وكأنه سمع لتوه نكتة قذرة جيدة بشكل استثنائي.

كان كارول في الحادية عشرة من العمر حين اصطحبه أبناء عمومته لمشاهدة فيلم «السُّكنى» للمرة الأولى في أحد مسارح أوريغون. فور أن أظلم المسرح، وجد نفسه وحيدًا، معزولًا في خزانة من الظلال الخانقة وقد ابتلع الظلام رفاقه. طوال مدة العرض مرت لحظات تطلبت كل ذرة إرادة لديه كي لا يخفي عينيه، ومع ذلك كانت أعصابه تنبض بحماس وقوة. حين أنار المسرح أخيرًا من جديد كانت نهاياته العصبية تنتفض بقوة، سرت رعشة من الحماس داخل أوصاله وكأن أحدهم أوصل أعصابه كلها بسلك نحاسي ذي تيار عالٍ. الإحساس الذي طوَّر داخله حبًّا في الرعب.

بمرور الوقت واحترافه مراجعة أدب الرعب، خبت شعلة الحماس، اللهب صار يتمايل على استحياء. لم يختفِ لكنه صار أقرب إلى ذكرى شعور اختبره يومًا ما في الماضي البعيد، وكأنه ما صار يحرِّكه هو الحماس لذكرى اختبار الشعور وليس الشعور نفسه. في الآونة الأخيرة حتى تلك الذكرى أفلتت واختفت، حل مكانها الشعور بالملل والتكرار وعدم الاكتراث. كلما نظر إلى أكوام المجلات على طاولة القهوة أصابته الرهبة، النوع الخاطئ من الرهبة.

هنا، هنا والآن في مكتبه وقد انتهى توًّا من قراءة قصة فتى الأزرار. كان الشعور هذه المرة هو الشعور الأول الحقيقي، النهايات العصبية المشتعلة بالحماس، ارتجف، وعصيباته مشحوذة، غير معتاد هذه الجرعة من السعادة والامتلاء جرَّاء قراءة قصة. حاول التفكير في المرة الأخيرة التي نشر فيها قصة أحبها مثلما أحب فتى الأزرار، وسرعان ما أسرع إلى أحد الرفوف ليسحب العدد الأول من الشمال الحقيقي -الذي برأيه لا يزال العدد الأفضل- ليتذكر ما القصة التي أثارت حماسه وقتها.

قبل أن يتخطى الفهرس، وقعت عيناه على الإهداء المكتوب، الذي كان لزوجته آنذاك، إليزابيث، «إلى من ساعدتني في العثور على طريقي وسط الظلام». وقتها كتب الإهداء في موجة من العواطف الشبقة، النظر إلى الإهداء ذاته الآن تسبَّب في انتصاب الشعر على ذراعيه.

تركته إليزابيث بعد أن اكتشف أنها على علاقة مع مسؤول حساباتهما الاستثمارية لأكثر من عام، رحلت للإقامة مع والدتها بعدها مصطحِبة تريسي.

حين تحدث معها على الهاتف بعد أسابيع قليلة من رحيلها عن حياته قالت: «بطريقة ما أكاد أكون سعيدة لأنك قبضت علينا، لننتهي من كل هذا».

سألها: «تعنين العلاقة؟».

وأجابت: «لا، أعني كل هراء الرعب الخاص بك، وكل زوارك المنتظمين غريبي الأطوار هؤلاء، محبي الرعب، أولئك الحمقى المتعرقين الذين تستثيرهم الجثث. هذا هو أفضل جزء فيما حدث، التفكير في أن تريسي قد تنال فرصة لتعيش طفولة طبيعية الآن، وسأنال أنا أخيرًا فرصة الحياة بين أشخاص ناضجين طبيعيين بأفكار صحية».

لم يكفِها من السوء خيانتها له بهذه الطريقة، لكن استخدام تريسي كحجة في جدالهما هكذا أصابه بضيق التنفس والكراهية، حتى الآن، حتى

هذه اللحظة. دفع الكتاب بقوة إلى الرف مرة أخرى وانطلق إلى المطبخ لتحضير الغداء، وقد بدأت عزيمته وحماسه السابقان في الانطفاء قليلًا.

كان راغبًا في استغلال مشاعر الضيق لتقليل حماسه كي يتمكن من التركيز، وها قد نجحت الحيلة القديمة مرة أخرى وقدمت له ليزي خدمة عن بعد ستين كيلومترًا منه، ومن داخل فراش رجل آخر.

***

بعد ظهر اليوم ذاته حين أرسل رسالة بريدية إلى هارولد نونان يطلب فيها معلومات للتواصل مع كيلرو، رد نونان في أقل من ساعة برسالة مفادها أنه سعيد للغاية لأن إيدي أراد قصة فتى الأزرار لتُنشر بين أفضل القصص الصادرة حديثًا في أدب الرعب. لم يكن بحوزته للأسف عنوان بيتر كيلرو الإلكتروني، لكن كان معه عنوانه العادي، والأفضل، رقم هاتفه.

المشكلة أن الرسالة التي أرسلها كارول للعنوان عادت إليه من جديد مع ختم «رجوع إلى المرسِل»، وعندما حاول الاتصال برقم الهاتف، حصل على تسجيل: فُصل الخط. وقتها فقط تواصل تليفونيًّا مع هارولد نونان بجامعة كاتدين.

أقر نونان بصوت سريع ولين: «لن أفتعل الصدمة».

مع لمحة من الخجل في صوته تابع: «ترك لديَّ انطباعًا بأن الكتابة شيء عابر في حياته، أعتقد أنه يجمع بين عدة وظائف بدوام جزئي لدفع فواتيره. من رأيي إن أفضل طريقة للتواصل معه هي الاتصال بـ «مورتون بويد» من قسم الإشراف على الحدائق، غالبًا ستجد لديه معلومة عنه».

سأله كارول: «متى رأيته آخر مرة؟».

- في مارس الماضي، ذهبت لزيارته في شقته مباشرة بعد نشر فتى الأزرار، في خضم موجة الغضب التي أثارتها القصة، والقراء ينعتونها بـ «خطاب كراهية معاد إلى النساء»، مطالِبين الكاتب بنشر اعتذار وكل هذا الهراء. أردت إخباره بما يحدث، أعتقد أنني وقتها كنت آمل أنه سيرد بطريقة ما، سيدافع عنها أو ما شابه. لكنه لم يفعل، أخبرني بأن

رده سيكون ضعفًا. في الواقع الزيارة كلها كانت غريبة، ليست قصصه فقط، هو نفسه رجل غريب نوعًا ما.

سأله كارول: «ماذا تعني؟».

ضحك نونان: «لست واثقًا. ماذا أقول؟ أنت تعرف كيف عندما تصاب بالحمى، ستنظر إلى شيء طبيعي تمامًا مثل المصباح الموجود على مكتبك وسيبدو بطريقة ما غير طبيعي، وكأنه يذوب أو يستعد للابتعاد عنك. لقاء بيتر كيلرو بشكل ما قريب من هذا الشعور، لا أعرف لِم شعرت بهذا، ربما بسبب بعض الأشياء شديدة الغرابة التي حدثت هناك».

لم يقاطعه كارول قبلًا لكنه وجد نفسه يسأل الآن: «أشياء؟».

- حين ذهبت لرؤيته، أخوه هو من فتح الباب، شقيقه الأكبر، نصف عارٍ، وأعتقد أنه كان يبيت لديه أو ما شابه. لا أرغب في أن أبدو بلا حساسية لكن الرجل كان ممتلئًا بشكل غير اعتيادي، وموشومًا بشكل غير اعتيادي. على بطنه كان وشم لطاحونة قديمة مهجورة تتدلى منها جثة تتعفن. على ظهره وشم لجنين مع عينين مخربشتين وأنياب، طفل ميت يمسك بيده مبضعًا...

على الرغم منه، ضحك كارول رغم أن الوصف كان أكثر إثارة للتوتر من السخرية.

وتابع نونان: «لكن لأكون منصفًا، كان رجلًا طيبًا، قادني إلى الداخل وأحضر لي علبة صودا. جلسنا على الأريكة أمام التلفاز لنتحدث. ثم حدث شيء غريب، حين كنت على وشك إخبارهما بما يحدث في الحرم الجامعي، جلس الأخ الأكبر فجأة على الأرض، وبدأ بيتر في ثقب أذنه».

- ماذا؟!

- بالضبط كما أخبرك، في منتصف المحادثة أدخل بيتر إبرة ساخنة عبر الجزء العلوي من أذن أخيه. كم الدم المنبثق من الجرح كان لا يُصدَّق، حين نهض الرجل السمين بدا الأمر وكأنه أصيب برصاصة في جانب رأسه، كانت الدماء تسيل منه وكأنه خرج توًّا من فيلم كاري. وسألني بهدوء تمامًا إن كنت أرغب في علبة كوكاكولا أخرى.

هذه المرة ضحكا معًا على الخط -نونان وكارول- قبل أن يسود بينهما صمت ودي.

قطعه نونان فجأة ليقول: «كانا يشاهدان فيلمًا وثائقيًا عن حادث «جونس تاون»».

- ماذا؟

- على التلفاز، كانا يشاهدان فيلمًا وثائقيًا عن جونس تاون، والصوت مكتوب. بينما كنا نتحدث وبيتر يثقب أذن أخيه، تلك كانت اللمسة الأخيرة التي جعلت كل شيء حولي يبدو غير واقعي. لقطات الجثث على الأرض في غينيا الجديدة بعد أن تجرعوا معًا الـ «كوول إيد المسمَّم»، كل تلك الجثث في الشوارع، والطيور تلتهمها بالسماء، تسقط لتلقمها.

صمت نونان لحظة ليبتلع ريقه: «أعتقد أنها كانت حلقة مسجَّلة، بدا على وجهيهما الألفة تجاه ما يُعرَض، وكأنهما يكرران مشاهدة اللقطات ذاتها مرارًا، بدا الرجل وأخوه كالمنوَّمين».

مر صمت آخر بينهما، ثقيل هذه المرة من جانب نونان، لكن على الجانب الآخر تكررت جملة «مادة بحثية» في عقل كارول، لتشكِّل موافقة ضمنية غير منطوقة على ما كان الأخوان يشاهدان.

سأل نونان فجأة: «ألم تعتقد أن القصة قطعة رائعة من الأدب الأمريكي؟».

- فعلت، أعني... أجل أعتقد هذا.

- لا أعرف كيف سيشعر حيال انضمام قصته إلى مجموعتك، لكن شخصيًا أنا سعيد، آمل ألا أكون قد أخفتك بحكايتي عنه.

ابتسم كارول: «لا تقلق، أنا لا أخاف بسهولة».

***

لم يكن بويد من قسم الحدائق متأكدًا من مكان وجود الرجل أيضًا.

- أخبرني أن لديه أخًا يعمل بوظيفة عامة في بوغكيبسي. إما بوغكيبسي أو نيوبورج. لست متأكدًا بالضبط. هذه الوظائف العامة في المدينة تدر أموالًا جيدة، والشيء العظيم أنك بمجرد دخولك السلك الوظيفي لإحداها، لا يمكنهم طردك، لا يهم حتى إن كنت قاتلًا مهووسًا.

أثار ذكر بوغكيبسي اهتمام كارول. عَلِم أن واحدًا من تلك التجمعات التي تضم المهتمين بالخيال والرعب وما شابه، على وشك الانعقاد هناك بنهاية الشهر الجاري، شيء من قبيل «مؤتمر الغرائبيات السوداء»، أو «مؤتمر الأحلام السوداء»، الاسم والتيمة وقعت بهذا النطاق. كان مدعوًّا للحضور بالطبع لكنه صار يتجاهل تلك الدعوات. جزئيًّا لأن توقيتها صادف اقتراب موعد التسليم النهائي الذي كان ملتزمًا به. كليًّا بسبب إقلاعه عن هذه التجمعات أصلًا. على الرغم من ذلك داومَ على حضور مؤتمرات أخرى كل عام، كمؤتمر الفانتازيا العالمية، أو معسكر نيكون، التجمع الخاص بكُتاب الأدب السيريالي. وعدد قليل من اللقاءات الأكثر إثارة للاهتمام. تلك التجمعات كانت الجزء الصغير الذي لم يفقد شغفه به بعد في وظيفته، لأنه التقى أصدقاءه هناك. كما أنه أحب كل تلك الفعاليات الصغيرة بها، التي داومت على ترك بصمة إيجابية في ذاكرته.

مثل تلك المرة حين صادف بائع كتب في واحدة من تلك الفعاليات، عرض الكاتب الإصدار الأول من كتاب يُدعى «أحب غاليسبيرج في الربيع». رغم مضي سنين على آخر مرة زار فيها كارول غاليسبيرج، فإن شلالًا من الذكريات عاد ليتدفق بين ثنايا عقله فور أن وقف أمام الرجل يقلِّب في صفحات الكتاب الهشة البنية، التي علقت بها رائحة العُليات القديمة المهجورة والغبار. كان قد قرأ الكتاب للمرة الأولى في الثالثة عشرة من عمره، ولمدة أسبوعين احتضنه الكتاب بين صفحات وسطور أجَّجت حماسه وشغفه. اعتاد التسلل عبر نافذة حجرته مع الكتاب ليستقر أعلى سطح منزله ويقرأ، وكان هذا مهربه الوحيد من صرخات وصياح والديه المحتدِمة في الداخل.

تذكر ملمس ألواح السقف الخشن، والرائحة المطاطية للخبز تحت أشعة الشمس، والطنين البعيد لجزازة العشب، والأهم من ذلك كله، البهجة والفضول فور قراءة رواية جاك فيني الواقعية السحرية «وودرو ويلسون دايم».

اتصل كارول بمصلحة الأشغال العامة في بوغكيبسي، ونُقلت المكالمة إلى شؤون العاملين.

أجابه رجل بصوت هش ذي حشرجة: «كيلرو؟ أرنولد كيلرو؟ الرجل طُرد منذ ستة أشهر!».

ثم تابع: «أتعرف صعوبة الطرد من موقعك بالوظائف العامة؟ كيلرو أول شخص أرفده منذ سنوات لأنه كذب بشأن سجله الإجرامي».

صحَّح كارول: «لا، لا أعني أرنولد كيلرو، بل بيتر كيلرو، أرنولد ربما أخوه. عانى زيادة الوزن؟ مع الكثير من الأوشام؟».

- لا! لا على الإطلاق، بل العكس. كان رفيعًا، ضعيف الجسد، ذا يد واحدة فقط. قال إن يده اليسرى أكلها مكبس البالات.

- أوه!

توقف كارول عن الكلام متفاجئًا، بطريقة ما شعر أن الشخص الذي تحدث عنه الموظف ما زالت له علاقة ببيتر كيلرو، لذا سأل: «ما نوع المشكلة التي كان متورطًا بها؟».

- خرْق أمر قضائي بعدم التعرض.

من جديد وجد كارول نفسه يقول: «أوه!».

ثم صمت للحظة، قبل أن يعود ليقول: «مشكلات زوجية؟».

كان متعاطفًا مع الرجال الذين عانوا على أيدي محامي زوجاتهم، لكن الموظف قال بسخرية: «زوجته؟ لا بحق الجحيم، بل أمه، كيف يبدو لك ذلك الآن!».

- أتعرف إن كان على صلة ببيتر كيلرو؟ أو كيف يمكنني التواصل معه؟

- هل أبدو لك كسكرتير شخصي يا صديقي؟ هل انتهينا من الكلام هنا؟

بالفعل كان الكلام بينهما منتهيًا.

***

حاول الحصول على معلومات، بدأ في الاتصال بأشخاص يُدعَون «كيلرو» في منطقة بوغكيبسي الكبرى كلها، لكن لا أحد ممن تحدث إليهم تعرَّف على بيتر. في النهاية استسلم شاعرًا باليأس. بدأ كارول بتنظيف مكتبه وقد نال منه الغضب، جمع الأوراق ومزقها ثم ألقى بها في سلة المهملات دون النظر إلى ما كُتب فيها، التقط أكوامًا من الكتب بعصبية ليلقي بها من جانب إلى جانب، مدفوعًا بنفاد الصبر ونفاد الحلول.

في وقت متأخر من الظهيرة ألقى بجسده على الأريكة مفكّرًا فيما عليه أن يفعل، قبل أن يسقط في غفوة مفاجئة.

حتى في أحلامه كان غاضبًا، يطارد صبيًّا صغير الحجم سرق مفاتيح سيارته في أروقة سينما مهجورة، كان الصبي أسود وأبيض يومض ويرتعش مثل الأشباح، أو كشخصية في فيلم قديم. وواصل الضحك بهستيريا وقد بدا على وجهه أنه يعيش -في هذه اللحظات- أسعد أوقات حياته، يهز المفاتيح في الهواء وهو يركض. استيقظ كارول في النهاية محمومًا وشاعرًا لوهلة بزوال الخدر في عقله، مفكرًا في كلمة واحدة، بوغكيبسي.

بيتر كيلرو كان في مكان ما في ذلك الجانب من البلاد، ويوم السبت القادم سينعقد تجمع لمحبي الخيال والأدب -مؤتمر المستقبل المظلم- في بوغكيبسي. سيعجز كيلرو عن مقاومة حضور مثل هذا الحدث، وهناك سيتعرف عليه شخص ما، أي شخص. كل ما يحتاج إليه كارول هو أن يكون حاضرًا وسيجد كل منهما الآخر.

لم ينوِ كارول المبيت هناك، الرحلة بالكامل ستستغرق أربع ساعات وسيكون بإمكانه الذهاب والعودة متأخرًا في اليوم ذاته. وبالفعل في السادسة صباحًا قاد على سرعة 80 كم/ساعة بالممر الأيسر من الطريق السريع، أشرقت مرآة الرؤية الخلفية بخيوط الشمس التي بدأت في الولوج إلى سماء النهار خلفه، كان شعور الضغط على دواسة البنزين والسيارة التي تندفع غربًا مطارِدة الظلال الطويلة الرفيعة -مُرضيًا. ثم حضر إلى ذهن كارول ابنته الصغيرة، ذكرى جلوسها على المقعد جواره بالسيارة، فخفَّت قوة قدمه على البنزين وبدأ حماسه يخفت، قلَّت سرعته بشكل تدريجي على الطريق.

أحبت تريسي تلك التجمعات، أي طفل سيفعل، أي طفل سيحب رؤية مجموعة من الكبار يظهرون بمظهر الحمقى وهم يرتدون الأزياء التنكرية. لا يمكن لطفل مقاومة المتاهات الكبيرة من المعارض والطاولات التي ستحقق لك لذة الضياع وسط معروضات متنوعة غريبة، المكان الذي يُمكِّن رواده من شراء يد مقطوعة من المطاط مقابل دولار واحد. في واشنطن في تجمع محبي الفانتازيا العالمية، قابلت تريسي الكاتب «نيل جايمان» وأمضت ساعة في مشاركته لعبة كرة الطاولة. ما زالا يراسلان بعضهما بعضًا.

***

قرب الظهيرة أوقف كارول سيارته أخيرًا أمام بوابة مركز المؤتمرات في بوغكيبسي، وشق طريقه إلى الداخل. ازدحم المكان بروّاده، تردد صدى الضحكات والهدير الأجوف للموسيقى والنقاشات المتداخلة بين الجدران الخرسانية. لم يُعلِم أحدًا بقدومه، لكن إحدى المنظّمات عثرت عليه على أي حال، جاءت مهرولة لتقترب منه بحماس. امرأة سمينة بشعر أحمر مجعد ترتدي سترة رسمية مقلَّمة بزوائد من الخلف. اندفعت الكلمات بحماس من بين شفتيها: «لم تكن لديَّ أي فكرة!».

- لم نعرف أنك قادم! لم يخبرنا أحد!

- هل ترغب في شيء ما؟ هل أحضر لك مشروبًا؟

بالنهاية وجد كارول نفسه مع علبة كولا في يد واحدة، وسط تجمع صغير من الفضوليين، يتناقشون في الوقت ذاته عن الأفلام والكتب والأعداد الجديدة من أفضل أعمال الرعب حديثة الصدور. دفعه التجمع إلى التساؤل في نفسه عن السبب الذي منعه من التفكير في الحضور سابقًا، عَلِم أيضًا بتغيب أحد المتحدِّثين عن موعد ندوته -في الواحدة والنصف- لمناقشة قصص الرعب القصيرة، كانت مصادفة مثالية، صحيح؟

اصطحبوه إلى قاعة اجتماعات، مع صفوف من الكراسي القابلة للطي، وطاولة طويلة على أحد طرفيها إبريق من الماء المثلج في مواجهة الصفوف. جلس خلفها مع بقية أعضاء الندوة:

مدرس كتب كتابًا عن بو، محرِّر مجلة رعب على الإنترنت، كاتب محلي لأدب الفانتازيا المقدَّم للأطفال. قدَّمتهم المنظِّمة ذات الشعر الأحمر للحضور، لقرابة عشرين شخصًا أو نحو ذلك. ثم بدأ الجميع في تقديم الملاحظات الافتتاحية للندوة، كان كارول آخر من تحدث.

في البداية أخبرهم كارول بأن كل عمل خيالي انتمى إلى الفانتازيا، كلما خلق كاتب خيطًا أو تيمة، أو لنفترض أنه صنع صراعًا، فسيقوده هذا الخيط دائمًا إلى احتمالية تحول السياق إلى أدب الرعب. أخبرهم أنه انجذب إلى هذا اللون من الأدب بالذات لأن الكاتب يستطيع فيه جمع أي كمية ممكنة من العناصر الأدبية البسيطة، ليدفعها إلى أقصى إمكانية لها، ومنها يولد الرعب. آمن كارول -كما أخبرهم- بأن الفانتازيا أكثر صحة وصدقًا من

الأدب الواقعي، لأن الكاتب لا يحاول اللعب بين عالمين، ولأنها موغِلة في عالم الخيال، الذي هو أصلًا العالم الأصلي للأدب.

أخبرهم أن معظم الأعمال الحالية في الرعب أو الأعمال الأدبية الخيالية عمومًا كانت بشعة، تقليدًا مرهِقًا، إفلاسًا في الإبداع أحيانًا مبنيًا على قصة أخرى أقدم، هي ذاتها هراء. أخبرهم أن شهورًا مرت عليه أحيانًا دون مصادفة فكرة جديدة، ولا جملة تخطف الأذهان، أو شخصية واحدة لا تُنسى.

ثم قال إن الوضع لطالما كان هكذا، في أي مسعى فني وليس بالكتابة فقط. استغرق الأمر وقتًا طويلًا لإيجاد أعمال جيدة فعلًا، ياقوت وسط الرمال. إلى حينها كان على الكثيرين أن يخطئوا، يخرجوا بأعمال بشعة، كي يشرق بعد كل تلك المحاولات الفاشلة عمل واحد ناجح. الكل كان مرحبًا به ليحاول، يخطئ، يتعلم من أخطائه، قبل المحاولة من جديد. تحدث عن «كليف باركر»، و«كيلي لينك»، و«ستيف غالاغار»، وبالنهاية «بيتر كيلرو». تحدث علنًا عن قصة «فتى الأزرار»، قال لنفسه إن هذا مثال لعمل جديد ومثير وسيظل معلقًا بذهنه، محبوبًا دائمًا. الصدمة المخلوطة بالسعادة التي شعر بها حين انتهى من القصة، ستلازمه إلى الأبد.

في أثناء حديثه أدرك أن كل كلمة قالها كانت الحقيقة وما يشعر به بالفعل. وحين انتهى أخيرًا من الكلام، بدأ عدد قليل من الصف الخلفي في التصفيق، لينتشر الصوت إلى الصف التالي، متبوعًا بالصفوف الأخرى، كالموجة في البِركة، صار الجميع يصفق ثم نهض الكل للتحية.

تصبب عرقًا وهو يخرج من خلف الطاولة ليصافح بعض الأيدي، بعد انتهاء حلقة النقاش. خلع نظارته لمسحها على ذيل قميصه، وقبل ارتدائها مرة أخرى أمسك بيده شخص آخر، شخص رفيع، صغير الحجم. عندما وضع نظارته على أنفه، أدرك أنه كان يصافح شخصًا لم تغمره السعادة تمامًا بمقابلته -ليس مثل البقية- رجل نحيل مع أسنان ملتوية ملطَّخة بالنيكوتين وشارب صغير جدًّا أشبه برسم بالرصاص فوق شفتيه.

ماثيو جراهام، الرجل كان ماثيو جراهام، محرِّر لمجلة تُدعى «خيالات قيد التحلل». سمع كارول أن جراهام قُبض عليه بتهمة الاعتداء الجنسي على ابنة زوجته القاصر، على الرغم من أن القضية لم تصل إلى المحاكمة أو السجن على ما يبدو. حاول كارول عدم الخلط بين حياة المحرِّر الشخصية

ورأيه أو حكمه الخاص على المجلة ومحتواها، لكنه لم يعثر على أي شيء في «خيالات قيد التحلل» قابل لإعادة النشر بين الأعمال الأفضل في أدب الرعب الحديث. القصص كلها كانت عن مدمني مخدرات يغتصبون أي جثث تقع تحت أيديهم، فتيات يلدن شياطين في منازل قرب مقابر قديمة مهجورة، أعمال ملأى بالأخطاء الإملائية والإساءات المرعِبة لقواعد الكتابة.

على كلٍّ سأله جراهام بصوت بدا حياديًّا: «أليس بيتر كيلرو مميزًا فعلًا؟».

ابتسم: «نشرتُ قصته الأولى في «خيالات قيد التحلل»، أرسلت لك نسخة، ألم تصلك يا عزيزي؟!».

قال كارول: «للأسف يبدو أنها تاهت عني».

لم يكلِّف كارول نفسه عناء إلقاء نظرة على تلك المجلة منذ أكثر من عام، على الرغم من أنه استخدم أوراقًا منها مؤخرًا داخل صندوق فضلات قطته.

تابع جراهام: «ستحبه».

ابتسم لتظهر أسنانه الملوَّثة أكثر: «إنه واحد منا».

حاول كارول ألا يظهر على وجهه الاشمئزاز وهو يسأل: «هل تحدثت معه قبلًا؟».

- تحدثت معه؟ عزيزي، تناولنا الشراب معًا هنا هذا الصباح، فاتتك فرصة لقائه توًّا، كان هنا.

ثم وبابتسامة عريضة أكمل جراهام: «بوسعي إمدادك بعنوانه إن أردت، منزله ليس بعيدًا عن هنا».

***

في أثناء تناول غداء سريع في وقت متأخر من اليوم ذاته، قرأ القصة الأولى لبيتر كيلرو التي نُشرت في نسخة «خيالات قيد التحلل» والتي زوَّده ماثيو جراهام بها. كانت بعنوان «خنازير»، عن امرأة مضطربة عاطفيًّا أنجبت مجموعة من الخنازير الصغيرة. تتعلم الخنازير التحدث، والمشي على أرجلها الخلفية، وارتداء الملابس، مثل الخنزير في مزرعة الحيوانات. ومع ذلك في نهاية القصة يتوحشون، مستخدمين أنيابهم لتمزيق جسد والدتهم إلى شرائط رفيعة من اللحم. مع اقتراب انتهاء القصة، يخوضون معركة مميتة لمعرفة من الذي سيأكل ألذ قطع بجثتها.

كانت قصة مزعِجة ومثيرة للاشمئزاز، رغم ذلك كانت أفضل ما نشرته «خيالات قيد التحلل» على الإطلاق، مكتوبة بعناية مع جانب نفسي واقعي إلى حد كبير. لم تعجب كارول كثيرًا، وبخاصة لأن بأحد المقاطع التي يتقاتل فيها الخنازير لافتراس ثدي والدتهم، بدت القصة أقرب إلى عَيِّنة من مادة إباحية منها إلى قصة قصيرة.

وقتما قدَّم المجلة لكارول، طوى ماثيو جراهام قطعة فارغة من ورق الطباعة في الجزء الخلفي منها. عليها رسم خريطة ارتجالية لمنزل كيلرو، على بعد اثنين وثلاثين كيلومترًا شمال بوغكيبسي، في بلدة صغيرة تُسمى بيسليف. كانت في طريق كارول إلى المنزل، أعلى طريق متنزه خلاب يُدعى تاكونيك، الذي سيأخذه إلى الطريق السريع الرئيسي مرة أخرى. لم يرَ رقم هاتف. ذكر جراهام أن كيلرو عانى مشكلات مالية، وأن شركة الهواتف فصلت الخط عنه.

بحلول الوقت الذي وصل فيه كارول إلى تاكونيك، حطت بدايات الظلام بالفعل أسفل أشجار البلوط الضخمة، وجذوع التنوب الطويلة التي زينت جانب الطريق. بدا أنه الشخص الوحيد على طريق المتنزه، الذي مضى أعلى وأعلى متوغلًا عبر التلال والغابات. في بعض الأحيان، على ضوء المصابيح الأمامية، رأى قطعانًا من الغزلان تقف على حافة الطريق، أعينهم وردية ساطعة وسط الظلام، يراقبونه وهو يمر بمزيج من الخوف والفضول.

***

لم تكن بيسليف كبيرة، مركز تجاري، وكنيسة، مقبرة، ومحطة وقود، وعمود إنارة واحد يعمل. مر بها متبعًا طريقًا سريعًا ضيقًا عبر غابات الصنوبر. بحلول ذلك الوقت كان الليل قد فرد ستاره كاملًا وباردًا على كل شيء، حتى إن كارول صار بحاجة إلى تشغيل نظام التدفئة في سيارته. على الطريق بدأت سيارته في المعاناة بسبب الهزات العنيفة والارتداد بسبب طبيعة الأرض، التل شديد الانحدار جعل المحرك يئن من الجهد. أغمض عينيه للحظة حتى كاد يفوِّت منعطفًا حادًا، واضطر إلى الإمساك بعجلة القيادة بقوة لينعطف فجأة مانعًا إياها من الدوران والانزلاق عن جانب الطريق والسقوط إلى المنحدر.

بعد كيلومتر واحد، تحول الأسفلت إلى حصى وصارت القيادة مغامَرة داخل هوة من الظلام الدامس، أثارت الإطارات سحابة من الغبار الطباشيري لمعت أمام مصابيحه الأمامية، التي بدورها أضاءت المشهد الذي احتله رجل سمين يعتمر قبعة برتقالية زاهية، واقفًا ويده داخل صندوق بريد مع حروف مطبوعة بملصقات عاكسة على جانبه، «ك-ي-ل-و». رفع كارول قدمه عن البنزين لتبطئ السيارة.

رفع الرجل البدين يده لحماية عينيه، وهو يحدق إلى سيارة كارول، ثم ابتسم ابتسامة عريضة، وأمال رأسه في اتجاه المنزل، في لفتة عنت «اتبعني»، كما لو كان كارول زائرًا متوقَّعًا. بدأ في السير عبر الممر، وتبعه كارول عبر طريق ترابي ضيق بين صفين من أشجار الهملوك، التي ضربت غصونها النوافذ الجانبية والزجاج الأمامي لسيارته الصغيرة.

أخيرًا أفضى الممر الترابي إلى باب مزرعة مغبَّر يقبع خلفه منزل أصفر كبير، مع برج وشرفة تتهاوى احتضنت جانبَي المنزل. على إحدى النوافذ المكسورة ثُبت لوح من الخشب بمسامير، مرحاض مكسور أُلقي بإهمال بين الأعشاب الضخمة على الأرض. عند رؤية المكان، شعر كارول بالشعر ينتصب على ساعديه. أوقف سيارته بجوار جرار قديم مع سيقان برية من الذرة الهندية تنمو عبر غطاء المحرك المفتوح، وهو يتذكر مقولة شكسبير «الرحلة تنتهي بلقاء الأحبة»، ابتسم لمخيلته الغريبة وتوقف أخيرًا.

دفع مفاتيح سيارته في جيب معطفه وانطلق نحو الشرفة، حيث كان الرجل السمين ينتظر. قاده طريقه عابرًا بحظيرة بأبواب مزدوجة مغلَقة لكن الإضاءة داخلها كانت على أشدها، عبْر الأبواب المغلَقة سمع صيحات منشار كهربي. حوَّل نظره إلى المنزل ليلمح ظلًّا أسود يراقبه عبر إحدى نوافذ الطابق الثاني. أعلن إيدي كارول أنه أتى باحثًا عن بيتر كيلرو. حرَّك الرجل السمين رأسه نحو الباب، بلفتة «اتبعني» نفسها التي استخدمها لدعوة كارول إلى أعلى الممر. ثم استدار وسمح له بالدخول.

زُينت جدران القاعة الرئيسية شديدة القتامة بإطارات مهترئة، تتدلى من جدران أكلها الزمن، تحامل سلم من درجات ضيقة على ذاته، مرتفعًا بوهن ليقود إلى الطابق الثاني. علقت رائحة غريبة بكل شيء حول كارول، رائحة أشبه بالرطوبة والتراب لكنها حملت شيئًا آخر، ذكوريًّا لاذعًا تعرَّف عليه كارول على الفور، لكنه فضَّل تجاهله قدر الإمكان وكأنه لم يلحظ أي شيء.

قال الرجل السمين فجأة: «حفنة من الأشياء التي لا فائدة منها في هذه القاعة».

ثم بصوت مبتهج ومتألق قال: «اسمح لي بتعليق معطفك، لن تراه مرة أخرى».

تعجب كارول لكن لم يُعلِّق، سلَّم المعطف إلى الرجل السمين بصمت، الذي استدار صاعدًا الدرج وهو يصيح بنبرة حادة وغاضبة: «بيتر، هناك شخص جاء لرؤيتك».

التحول المفاجئ من صوته الهادئ الغريب إلى الصراخ الغاضب جعل كارول يجفل حتى كاد يقفز من مكانه مصدومًا. بالأعلى أصدرت الأرض الخشبية صريرًا قبل أن يظهر على قمة الدرج رجل نحيف يرتدي سترة وسروالًا قصيرًا، مع نظارات بإطارات بلاستيكية سوداء مربعة.

سأل الرجل: «كيف أساعدك؟».

أجاب كارول فورًا: «أُدعى إدوارد كارول، أنا المحرِّر المسؤول عن سلسلة أفضل أعمال الرعب الحديثة في أمريكا».

بحث كارول عن رد فعل في تعبيرات وجه الرجل النحيف، لكنه حين عجز عن إيجاد أي شيء في وجهه الصلد تابع: «قرأت إحدى قصصك، فتى الأزرار، في مجلة الشمال الحقيقي، وأحببتها فعلًا، كنت أرغب في ضمها إلى العدد الجديد من السلسلة لهذا العام».

توقف، ثم أضاف: «لم يكن الوصول إليك سهلًا».

قال كيلرو فجأة وهو يتراجع إلى الأعلى عبر الدرج: «تعال معي».

***

بدأ كارول في الصعود عبر السلم. دار الأخ السمين عبر القاعة متجوِّلًا من نقطة إلى نقطة، بدا تائهًا نوعًا ما، على إحدى يديه معطف كارول وباليد الأخرى حفنة من بريد عائلة كيلرو، توقف لوهلة لينظر إلى أعلى الدرج وفي يده مظروف مانيلا أصفر، مناديًا بسعادة: «هيي بيت! وصل ضمان أمي الاجتماعي!».

بحلول الوقت الذي وصل فيه كارول إلى قمة الدرج، كان بيتر كيلرو يعبر القاعة بالفعل إلى باب مفتوح في النهاية. بدا الممر نفسه في حال غريب

إلى حد ما، مائلًا، وشيء ما بالأرضية غير مريح، حتى إن كارول احتاج إلى استعمال الحائط كدعم أحيانًا، مالت ألواح الأرضية، بعضها مفقود والآخر غير ثابت بمكانه، حملت دلايات الكريستال الباقية في الثريا المعلَّقة وفرة من التراب وأنسجة العنكبوت. داخل عقل كارول بدأت النغمات الافتتاحية لـ «عائلة آدمز» تعمل تلقائيًّا، ليتردد صداها في رأسه.

وقعت غرفة كيلرو بالعلية أسفل السقف مباشرة. داخلها استندت طاولة خشبية إلى أحد الجدران وقد عملت كقاعدة لآلة كتابة يدوية يجاورها صندوق من الأوراق البيضاء المرتَّبة فوق لوح زجاجي.

سأل كارول فورًا: «هل كنت تكتب؟».

قال كيلرو: «لا أستطيع التوقف».

- جيد.

جلس كيلرو بينما عبر كارول حلق الباب لينضم إليه داخل الغرفة، لم يستطِع الذهاب إلى أبعد من ذلك دون أن يصطدم رأسه بالسقف. بدت عينا بيتر كيلرو عديمتَي اللون بشكل غريب، وجفونهما حمراء كما لو كانت متهيجة، واستمر في التحديق إلى كارول دون أن يرمش.

أخبره كارول أكثر عن المجلة، وعن المجموعات القصصية المنشورة فيها. عرض مائتَي دولار مقابل نشر القصة، بالإضافة إلى نسبة من الأرباح بالطبع. أومأ كيلرو برأسه، ولم يبدُ متفاجئًا ولا فضوليًّا بشأن التفاصيل. كان صوته متحشرجًا، خاويًا من الروح، حين قال «شكرًا لك».

ثم ودون سابق إنذار سأل: «ما رأيك في نهايتي؟».

أجاب كارول: «لقصة فتى الأزرار؟ أحببتها طبعًا. لم أكن لأرغب في إعادة طباعتها لولا أنني أحببتها».

- كرهوها جميعًا في جامعة كاتدين، كل أولئك الطالبات مع تنانيرهم المنفوشة وآبائهم الأغنياء. كرهوا الكثير من التفاصيل في القصة لكن بالأخص النهاية.

أومأ كارول: «لأنهم لم يتوقعوها. على الأرجح أثارت في أغلبهم شعورًا بالصدمة، ربما قفزوا عدة سنتيمترات من الخوف، النهايات الصادمة أصبحت موضة بائدة في الأدب الحديث».

رد كيلرو: «الطريقة التي كتبتُ بها النهاية في البداية، كانت مع مشهد خنق العملاق لها، وبمجرد أن تبدأ في الشعور بوعيها يتسرب، حتى تشعر باليد الأخرى تثبِّت الأزرار على عينيها. لكنني فقدت أعصابي وقطعت هذا الجزء. لا أعتقد أن نونان كان ليقبل نشره بهذا الشكل».

قال كارول: «في أدب الرعب غالبًا ما يكون ما تتركه خارج القصة هو الذي يعطي القصة قوتها».

شعر بوخز بارد من العرق على جبهته وهو يتابع: «سأذهب لإحضار نموذج العقود من سيارتي».

عجز كارول عن الإمساك بالسبب الذي دفعه ليتفوَّه بهذه الكلمات، لأن سيارته كانت خاوية من أي نماذج عقود أو أوراق رسمية. شعر فقط برغبة خانقة في مغادرة هذا المكان ليلتقط بعض الأنفاس الباردة في الهواء النقي بالخارج.

عبرَ الباب مرة أخرى إلى القاعة ثم إلى الدرج محاولًا السيطرة على نفسه حتى لا ينطلق مهرولًا إلى الخارج. بالأسفل تردد كارول محاوِلًا تخمين أين ذهب العملاق البدين مع سترته. تجول قليلًا باحثًا، لكن الممر الذي عبره كان يزداد قتامة كلما توغل به. في أسفل الدرج رأى بابًا صغيرًا له مقبض نحاسي، أبى أن يُفتَح حين أداره، لذا انتقل إلى الجهة الأخرى من القاعة باحثًا عن خزانة ثياب أو علَّاقة. من مكان قريب سمع أزيزًا، زيتًا يقدح، ضربات سكين، وشَمَّ رائحة البصل.

فتح بابًا على يمينه لتقابله غرفة طعام كبيرة، مع رؤوس حيوانات محنَّطة معلَّقة على الجدران. على الطاولة امتد مفرش طويل أحمر اللون وسطه صليب معقوف. ابتعد كارول عن الباب، أسفل الردهة مباشرة وعلى اليسار كان باب آخر، مفتوح ومطل على المطبخ. وقف الرجل السمين بالداخل خلف منضدة، صدره عارٍ ومرسوم بالوشوم، يقطع ما يشبه الكبد بساطور لحم. كان لديه حلقات حديدية صغيرة في صدره.

أوشك كارول على مناداته، حين عبر الرجل البدين ملتفًّا حول المنضدة ومشى إلى موقد الغاز، ليقلِّب ما كان في المقلاة. مع كل خطوة ارتجت أردافه الهزيلة والشاحبة بشكل مدهش داخل سرواله الرياضي الذي لا يرتدي سواه.

تراجع كارول مرة أخرى إلى ظلام القاعة مبتعدًا، وبعد لحظات استمر في السير بصمت.

الممر بالأسفل كان أكثر اعوجاجًا من شبيهه بالأعلى، كما لو أن المنزل بالكامل تأثر بهزة أرضية هائلة فصلت الجزء الأمامي عن الخلفي. أدرك كارول أن التجول أكثر وأعمق داخل منزل غريب بأرضية غير مصطفَة بعضها مع بعض فكرة غبية وغير منطقية، لكنه في الوقت ذاته كان عاجزًا عن التراجع. ظلت قدماه تحملانه إلى قلب البيت الغريب.

***

فتح كارول بابًا على اليسار، بالقرب من نهاية القاعة. أجفل من الرائحة الكريهة وأزيز الذباب. حملت الغرفة دفئًا غير مريح دل على وجود بشري داخلها. كانت الغرفة الأكثر ظلمة حتى الآن، غرفة نوم إضافية، أوشك على إغلاق الباب عندما سمع شيئًا ما يتحرك تحت ملاءات السرير في الظلام أمامه. غطى فمه وأنفه بيد واحدة وحاول الإتيان بخطوة إضافية للأمام منتظرًا أن تتكيف عيناه مع الضوء الخافت.

احتلت الفراش امرأة عجوز ضعيفة، الملاءة متشابكة عند خصرها وقد كشفت عن عريها، وقد بدا له أن دخوله صادف اللحظة التي رفعت فيها ذراعيها العظميتين فوق رأسها لتتمدد.

تمتم كارول محوِّلًا نظره: «آسف، آسف جدًّا!».

ومرة أخرى بدأ في دفع الباب لإغلاقه، ثم توقف، معاوِدًا النظر إلى داخل الغرفة. تحركت العجوز مرة أخرى تحت الملاءات. وذراعاها في الموضع ذاته، ممدَّدتين فوق رأسها. ما صدمه كانت الرائحة، الرائحة التي فاحت منها هي ما أجبره على البقاء والتحديق.

تأقلمت عيناه مع الظلام تدريجيًّا، حتى لاحظ بعد برهة سلكًا حول معصميها، مثبِّتًا ذراعيها على اللوح الأمامي للفراش. عيناها كادتا أن تكونا شِقين بالطول في وجهها، وأسفل الثديين المجعَّدين اللذين تهدلا على جذعها كأكياس صغيرة مهترئة، رأى ضلوعها، وحولها الذباب المتراكم يئز متصارعًا. من بين شفتيها الجافتين نبت لسان أسود، رطبت به جوانب فمها لكنها لم تتكلم.

تحرك كارول مبتعدًا بأقصى سرعة سمحت بها ساقاه المتيبستان، تجاهل الأخ السمين الذي رفع نظره له بشك، ولم يبطئ. قرب الباب الأمامي لمح على حافة مجال رؤيته ظل بيتر كيلرو أعلى الدرج، يراقبه بصمت.

صاح كارول بأعلى صوته: «سأعود مع العقود».

لدهشته لم يحمل صوته نبرة الخوف على الإطلاق بل أتى هادئًا على نحو غريب، لم يقفز أو يركض، واصل مراقبة خطواته، رغم أنه ارتطم رغمًا عنه بالباب الأمامي، فإنه كان حريصًا على أخذ خطواته الواحدة تلو الأخرى. في مئات أفلام الرعب التي مرت عليه عنى القفز والركض والنظر إلى الخلف، التواء الكاحل. الهرب احتاج إلى خطوات ثابتة، التظاهر بالثقة هو المخرج الصحيح. في الخارج التقط أول أنفاسه شاعرًا بهواء الليل البارد يكوي رئتيه.

***

كان أحد أبواب الحظيرة الضخمة مفتوحًا الآن. ألقى نظرة عليه وهو يواصل طريقه. رأى أرضية ترابية ملساء، وسلاسل صدئة وخطافات تتدلى من العوارض، يجاورهم منشار كهربي معلَّق على الحائط. خلف منضدة وقف رجل طويل القامة بيد واحدة. الأخرى كانت خشبية، والجلد المهترئ حولها ممتلئ بالندبات اللامعة. نظر إلى كارول دون كلام، وعيناه عديمتا اللون تحملان نظرة حذِرة عدوانية. ابتسم كارول وأومأ برأسه متظاهِرًا بالود.

فتح باب سيارته وانزلق فورًا خلف عجلة القيادة، في اللحظة التالية شعر بالذعر يخترق صدره. كانت مفاتيحه في معطفه. والمعطف ما زال بالداخل. كاد يصرخ من الصدمة، لكن الصرخة حلت محلها نوبة ضحك هستيرية. هذا أيضًا رآه في مئات من أفلام الرعب، قرأ عن هذه اللحظة في ثلاثمائة قصة. لا أبطال في أي قصة رعب عثروا على مفاتيح سيارتهم، أو اكتشفوا وسط الهرب أن السيارة ذاتها لا تعمل.

ظهر الأخ ذو اليد الواحدة جوار باب عربة النقل، وحدق عبر السيارة إلى اتجاه كارول. لوَّح بيده واليد الأخرى تفصل الهاتف الخلوي عن الشاحن، تفحصه. لا شبكة إرسال أو استقبال هنا. بطريقة ما لم يتفاجأ. ضحك مرة أخرى، الاختناق في صوته حرق أعصابه.

عندما نظر إلى الأعلى، رأى الباب الأمامي للمنزل مفتوحًا، وأمامه وقف شخصان يحدقان إليه. كان جميع الإخوة يحدقون إليه الآن. نزل من السيارة وبدأ يمشي بسرعة عبر الممر مبتعدًا عن المنزل والسيارة. لم يبدأ بالركض حتى سمع أحدهم يصيح فيه.

أسفل الممر، لم يستدِر ليتبع الطريق، بل عبره مباشرة مصطدمًا بالأشجار. جلدَته الفروع الرفيعة كالسوط على وجهه. تعثر ومزَّق ركبة سرواله، قام، وواصل الركض.

***

كان الليل هادئًا وصافيًا، والسماء قد امتلأت بنجوم تسطع وتغيب إلى أعماقها اللانهائية. توقف على جانب منحدر حاد، رابضًا بين الصخور، ليلتقط أنفاسه، شاعرًا بألم مرعب يمزق جانب جسده. سمع أصواتًا من أعلى التل، وأغصانًا تتكسر. سمع شخصًا ما يسحب حبلًا، ثم طنين محرك صغير، مرة، مرتان، ثم صراخ وهدير منشار كهربي ينبض بالحياة.

نهض وركض، نزولًا عبر التل، محلِّقًا عبر أغصان التنوب، قافزًا عبر الجذور والصخور دون أن يراها حتى. كلما ابتعد راكضًا، أصبح التل أكثر انحدارًا وانحدارًا، حتى أصبح الجري أشبه بالسقوط. صار الآن يركض بسرعة كبيرة عالمًا أنه عندما يتوقف أخيرًا سيتضمن ذلك الاصطدام بشيء ما وتحطيم جزء من جسده ونوبة ألم ستتركه عاجزًا.

في أثناء ركضه ومع كل قفزة عبر بحر الظلام والحجارة، شعر بفيض من مشاعر قد يفسِّرها البعض ذعرًا، لكن في عقله مذاقها كان كالبهجة، الحماس الجنوني. شعر مسبقًا بقدميه ترتفعان عن الأرض في كل لحظة، عالمًا بأن تلك اللحظة ستكون الأخيرة، لن تلمس قدماه الأرض بعدها أبدًا. عرف هذه الغابة، عرف هذا الظلام، تلك الليلة كانت مألوفة له، بعمله، بحياته، داخل عقله، كان يعرف ما يطارده، كان موقنًا بأن فرصته للنجاة ليست جيدة، وبأن هذه المرحلة في أي قصة هي مرحلة ما قبل النهاية مباشرة، عرف هذا طوال حياته حتى قبل أن تأتي اللحظة، عرف إيدي كارول نسبة واحتمالية إيجاد طريقك للنجاة إن بدأت في الركض داخل غابة، كما أيقن أنه إن كان بوسع أي شخص إيجاد نقطة النجاة من موقف كهذا، فسيكون هو.

***

شبح القرن العشرين

لطالما كان وقت الازدحام، هو الوقت الأنسب لرؤيتها.

حَكَت قصة معروفة عن الرجل الذي وجد طريقه إلى أحد العروض المتأخرة شبه الخاوية بمسرح شاسع، يكاد يتسع لستمائة مقعد. في منتصف الفيلم، نظر حوله ليكتشف أنها جالسة بجانبه، على كرسي كان فارغًا قبل لحظات فقط. يحدق إليها. تستدير لتبادله النظر. لديها نزيف في الأنف. عيناها واسعتان، حزينة. تهمس بهدوء: «رأسي يؤلمني». تخبره بأن لا بد لها من الخروج للحظة. تسأله: «هل ستخبرني بما فاتني في الفيلم؟» في هذه اللحظة، يدرك الرجل أن المرأة التي ينظر إليها صورة غير ثابتة، متذبذبة كالشعاع الأزرق الشبحي الذي يلقيه جهاز العرض. بوسعه رؤية المقعد التالي خلال جسدها. وفي اللحظة التي تنهض فيها تتلاشى.

ثم هناك قصة عن مجموعة الأصدقاء الذين يذهبون معًا إلى عرض في مسرح «برعم الورد» ليلة الخميس. أحد أفراد المجموعة يقرر الجلوس بجانب امرأة بمفردها، امرأة ترتدي اللون الأزرق. عند تأخر عرض الفيلم، يقرر الشخص الجالس جوارها إجراء محادثة ودية صغيرة. يسألها عما سيعرض غدًا. تهمس: «المسرح مُغلق غدًا. هذا هو العرض الأخير». بعد وقت قصير من بدء الفيلم تختفي المرأة. في الطريق إلى المنزل، قُتل الرجل الذي تحدث معها في حادث سيارة.

هذه، والعديد من الأساطير الأخرى التي اشتهر بها برعم الورد، محض أكاذيب. قصص أشباح يحكيها أشخاص شاهدوا الكثير من أفلام الرعب، ظانِّين أن بإمكانهم اختلاق قصة أشباح مثالية، مؤمنين بأن كلًّا منهم يعرف كيف -بالضبط- ستسير أحداث قصة عن شبح.

كان أليك شيلدون، صاحب مسرح «براعم الورد» من أوائل من رأوا شبح «إيموجين جيلكريست».

في الثالثة والسبعين، ظلت مسؤولية تشغيل جهاز العرض على عاتقه معظم الليالي. بعد تبادل الحديث مع أي شخص للحظات، تمكَّن أليك في كل مرة من معرفة ما إذا كان الشخص قد رآها حقًّا أم لا، ولكنه احتفظ بما يعرف لنفسه، لن ينعت أحد بالكذب أو ينفي قصة أي شخص أبدًا على الملأ، سيكون هذا سيئًا له ولعمله.

مع ذلك كان يعرف أن أي شخص قال إنه يمكنه الرؤية من خلالها لم يرَها على الإطلاق. البعض تحدثوا عن الدم المنبثق من أنفها وأذنيها وعينيها، قالوا إن نظرتها كانت متوسلة، بل وأحيانًا طلبت منهم العثور على شخص ما، وتقديم المساعدة لها. لكنها لا تنزف بهذه الطريقة، وعندما ترغب في الحديث، لم يكن ما سيخرج من فمها بغرض طلب الإسعاف الطبي من شخص ما.

يبدأ الكثير من أصحاب تلك القصص بجملة: «لن تصدق أبدًا ما رأيته للتو!».

وكانوا على حق، لم يصدق ولن يصدق. إلا أنه كان يستمع إلى كل ما قيل بهدوء وابتسامة صبور، بل ومشجِّعة أحيانًا.

أولئك الذين رأوها حقًّا لا يأتون بحثًا عن أليك ليخبروه عن رؤيتها. في أغلب الأحيان يجدهم، يصادفهم وهم يتجولون في الردهة بأعين زائغة وأقدام غير ثابتة، كمن تعرضوا لصدمة بشعة، شاعرين بأنهم في حاجة إلى الجلوس للحظات، الأمور ليست على ما يرام إطلاقًا. لا أحد منهم قال أبدًا: «لن تصدق ما رأيته توًّا»، لأن التجربة المرعبة ما زالت طازجة للغاية، ما زالت الصدمة حديثة حتى إن فكرة التصديق أو عدمه لن تخطر ببالهم إلا في وقت لاحق.

غالبًا ما يكون من هم بعد التجربة في حالة من الخضوع. كلما فكر في تأثير رؤيتها على أولئك الذين قابلوها، وجد نفسه يعود ليتذكر تأثيرها على الموسيقي الشهير «ستيفن جرينبيرج» بعد ظهر أحد أيام الآحاد الرائعة حين

خرج مذهولًا من عرض فيلم «الطيور» عام 1963. كان ستيفن في الثانية عشرة من عمره فقط، وسيعبر اثني عشر عامًا أخرى من الزمن قبل أن يصبح ناجحًا وشهيرًا ومعروفًا، لم يكن في ذلك الوقت الفتى الذهبي، كان مجرد فتى.

يومها كان أليك في الزقاق الخلفي لدار عرض «برعم الورد» يدخن، عندما سمع الباب الخلفي للمسرح يقعقع ثم ينزلق مفتوحًا. استدار ليرى طفلًا نحيفًا يميل مستندًا إلى جدار المدخل. فقط يميل مستندًا هناك، لم يدخل أو يخرج. حدق الصبي إلى ضوء الشمس الأبيض الساطع، بنظرة مرتبكة ومتسائلة لطفل صغير أيقظه أحدهم لتوه من نومٍ عميق.

تمكن أليك من رؤية الصفوف خلفه في الظلام، امتلأ المسرح بالأصوات الحادة الشاكية كصريخ العصافير المتجمهِرة على الغصون.

تحرك رواد المسرح بنفاد صبر في الظلام، وصائحًا قال أليك: «يا فتى، خذ قرارك. ستدخل أم ستخرج؟ أنت تسمح بدخول الضوء إلى القاعة! أغلق الباب».

أدار الطفل الذي لم يعرف أليك اسمه رأسه وحدق مرة أخرى إلى المسرح لبرهة طويلة، وكأنه يبحث في رأسه عن شيء ما. ثم خرج وانزلق الباب منغلِقًا خلفه، مصدِرًا صوت قرقعة خفيفًا بسبب المفصلات الهوائية.

ومع ذلك لم يذهب الطفل إلى أي مكان، ولم يقل أي شيء. كان برعم الورد يعرض فيلم الطيور لمدة أسبوعين، وعلى الرغم من أن أليك قد رأى آخرين يخرجون قبل أن ينتهي الفيلم، لم يكن أيٌّ ممن غادروا باكرًا منزعجين صبيًّا يبلغ من العمر اثنَي عشر عامًا. كان الفيلم من النوع الذي انتظره معظم الفتيان في ذلك العمر طوال العام، لكن من كان يعلم؟ ربما كان الطفل يعاني مشكلات في معدته أو أعصابه.

قال الطفل: «لقد تركت مشروب الكولا خاصتي في المسرح».

صوته بدا بعيدًا، بلا نغمة تقريبًا: «لا يزال ممتلئًا».

سأله أليك: «أتريد العودة والبحث عنه؟».

رفع الطفل عينيه ناظرًا إلى أليك نظرة ساطعة منتبهة، عرف أليك الإجابة في لحظتها: لا.

أنهى أليك سيجارته وأطفأها على الأرض بينما قال الطفل: «جلستُ مع السيدة الميتة».

أومأ أليك برأسه وتابع الطفل: «تحدثتْ معي».

- ماذا قالت؟

سأل أليك وهو ينظر إلى الطفل مرة أخرى، بادله الطفل النظر بعينين كانتا الآن واسعتين وملآنين بالذعر، ثم أجاب: «قالت أنا بحاجة إلى شخص أتحدث معه. عندما أتحمس لفيلم أحتاج إلى الحديث عنه».

كان أليك يعرف أنها عندما ترغب في الحديث إلى شخص ما، فهي دائمًا ما تريد التحدث عن الأفلام. ورغم أنها عادة ما تخاطب الرجال، فإنها في بعض الأحيان تجلس وتتحدث مع امرأة، كما في حالة «لويس» كمثال. بدأ أليك منذ فترة طويلة في محاولة جمع المعلومات عما يجعلها تظهر لأشخاص دون الآخرين أو تظهر بشكل عام، احتفظ بتلك الملاحظات في دفتر أصفر صغير حتى أصبحت لديه قائمة بأسماء الأشخاص الذين قابلتهم، وفي أي عرض ومتى:

(ليلاند كينج، في فيلم هارولد ومود، 72، جويل هارلو، في فيلم رأس الممسحة 77، هال لاش، بلود سيمبل، 1985، وكل تلك الأسماء الأخرى).

على مر السنين، طوَّر سيناريوهات محتمَلة واضحة حول الظروف التي من المرجَّح أن تدفعها للظهور، على الرغم من أن تفاصيل نظريته ظلت تخضع للمراجعة والتعديل باستمرار.

في شبابه احتلت المرأة الميتة أفكاره وذهنه لفترات طويلة، كان التفكير فيها يغلي كالحمم أسفل السطح الذي بدا هادئًا، ظلت هوسه الأول والأكبر. حين بدأ في ملاقاة النجاح، عندما صار رجل أعمال مهمًّا بالمجتمع، داخل الغرف التجارية ومجلس المدينة والاجتماعات، مضت أسابيع دون التفكير فيها. ثم يراها أحدهم فجأة أو يتظاهر برؤيتها، لتعود ذكراها مرة أخرى وتسيطر على كيانه بالكامل.

بعد طلاقه، احتفظت زوجته بالمنزل. وانتقل هو إلى غرفة نوم صغيرة واحدة تحت المسرح، لكن بعد فترة وجيزة، حين افتُتحت سينما جديدة خارج المدينة مزوَّدة بـ 8 شاشات عرض هائلة، بدأ الهوس يستحوذ عليه من جديد، ليس بها فقط بل بالمسرح كله، رغم أنه لا فرق كان هناك في الواقع بين

الاثنين، كلما فكر في أحدهما يقوده التفكير إلى الاخر. لم يتخيل قط وصوله إلى هذه السن وامتلاكه لهذا القدر الهائل من المال، أصبح لديه صعوبة في النوم، رأسه مملوء بأفكار جنونية يائسة وكلها حول كيفية حماية المسرح من السقوط إلى هاوية الفشل، يبقى مستيقظًا مفكرًا في المال، والدخل، والموظفين، والأصول القابلة للبيع.

وعندما يُشل عقله أخيرًا من فرط التفكير في المال، يبدأ في تخيل ما سيحدث له وإلى أين سيذهب إن أغلق المسرح. صوَّر له عقله دار مسنين، بمراتب تفوح منها رائحة المطهِّرات، وحجرة عامة بائسة يجتمع فيها الجميع لمتابعة المسلسلات الهزلية طوال النهار، يرى مكانًا يتلاشى فيه كيانه كورق الحائط الذي يبدأ بفقدان لونه شيئًا فشيئًا بعد تعرُّضه للكثير من ضوء الشمس.

رغم أن كل تلك الأفكار كانت بالسوء ذاته، فإن أسوأها كان تخيل مصيرها هي نفسها، إن أغلقَ «برعم الورد» أبوابه. يرى المسرح مجردًا من مقاعده، يتردد الصدى بين الجدران العارية، التراب يحتشد في الزوايا، قطع متحجرة من العلكة عالقة على الأسمنت. والمراهقون المحليون قد اقتحموا المكان المهجور للشرب وممارسة الرذائل، يرى زجاجات خمور مكسورة، واقيًا ذكريًّا مستعملًا ومتعفنًا على الأرض، كتابات على الجدران. يرى المكان وحيدًا ومُنتَهَكًا إلى الأبد حتى تبدأ هي في التلاشي داخله ببطء.

أو لن تتلاشى... تلك الفكرة كانت أسوأ.

***

رآها أليك وتحدث إليها للمرة الأولى حين كان في الخامسة عشرة من عمره، بعد تلقيه نبأ مقتل شقيقه في جنوب المحيط الهادئ بستة أيام. تلقى رسالة رسمية من الرئيس ترومان يعبِّر فيها عن تعازيه. ورغم أن الرسالة كانت رسمية ومطبوعة، فإن التوقيع كان توقيعه فعلًا بلا أي مجال للشك. لم يبكِ أليك وقتها، علِمَ بعد سنوات أنه قضى الأسبوع في حالة من الصدمة، فقدان الشخص الوحيد الذي أحبه أكثر من أي شيء في العالم، الوحيد الذي عنا له شيئًا حقًا، أصابه بصدمة عصبية. لكن بالطبع في عام 1945 لم يكن مصطلح «صدمة فقدان شخص عزيز» معروفًا، لا أحد آمن بها. الصدمات الوحيدة المعترَف بها وقتها كانت صدمات الجنود العائدين من الحرب.

لذا في الصباح التالي أخبر والدته أنه ذاهب إلى المدرسة كالمعتاد، ولم يفعل، لم يكن يذهب إلى المدرسة، كان يتجول وسط المدينة باحثًا عن المتاعب، يسرق قطع الحلوى من أحد المطاعم الصغيرة ليأكلها وحده في مصنع أحذية مهجور ومغلق.

فكر في كل أولئك الرجال الذين شُحِنوا إلى فرنسا، أو إلى المحيط الهادئ، ودماء مشحوذة بالسكر والغضب، ألقى الحجارة على النوافذ، مُجرِّبًا قدرته على رمي الكرات السريعة.

تجول في الزقاق خلف مسرح «برعم الوردة» ناظرًا عبر باب المسرح الذي كان شبه مفتوح، الجانب المواجه للزقاق بسطحه المعدني الأملس، بلا مقبض لكنه علم أنه قادر على فتحه بأظفاره. حين دخل إلى المسرح كانت الساعة 3:30 مساءً. ساحة العرض مزدحمة بالمتفرِّجين، أغلبهم من الأطفال ما دون سن العاشرة مع أمهاتهم. باب الطوارئ كان في منتصف الطريق إلى الجزء العلوي من المسرح، مخفيًّا بجانب مظلم من الحائط، لم يره أحد يدخل، ولا حين عبر الممر ليجلس على أحد المقاعد الخلفية.

أخبره شقيقه مرة عندما كان في المنزل في إجازة، قبل أن يذهب بلا عودة: «سمعت أن جيمي ستيوارت ذهب إلى المحيط الهادئ».

كانا يمرِّران كرة صغيرة بينهما في الحديقة الخلفية.

تابع أخوه: «ربما، في هذه اللحظة تحديدًا، كان السيد سميث يقصف السجادة اللعينة الحمراء لطوكيو بالقنابل، أليست الفكرة مجنونة؟».

كان «راي» - شقيق أليك- مغرَمًا بالسينما. اصطحب أليك إلى كل فيلم افتُتِح خلال شهور إجازته القليلة: «باتان، نحل البحر المقاتل، السائر في طريقي».

تابع أليك ما يعرَض على الشاشة، شيء ما عن آخر مغامرات راعي بقر مغنٍّ، برموش طويلة وفم داكن لدرجة أن شفتيه بدتا سوداوين. فشل أيًّا كان ما يعرَض في إثارة اهتمامه. حك أنفه متسائلًا عن كيفية الحصول على كولا دون نقود. ثم بدأ العرض الرئيسي.

في البداية عجز أليك عن استنباط نوع الفيلم، على الرغم من أن العقدة في حلقه أنذرته أنه في الغالب فيلم موسيقي. في البداية صعد أعضاء الأوركسترا على خشبة المسرح أمام خلفية زرقاء هادئة داخل الشاشة، متبوعين برجل

ذي قميص أبيض شاحب، الذي بدأ في إخبار الجمهور بالعرض الجديد الذي كانوا على وشك رؤيته.

حين بدأ الرجل في الحديث بحماس عن والت ديزني وفنانيها قبل بداية العرض، بدأ أليك في الانزلاق إلى الأسفل، منكمشًا داخل مقعده ورأسه بين يديه. بدأت الأوركسترا تعزف ليجد نفسه غارقًا وسط دوي آلات النفخ، والسيمفونيات المتلاحمة التي خلَّفتها الآلات الوترية.

في لحظات تحققت أسوأ مخاوفه، لم يكن سوى عرض موسيقي برسم كاريكاتوري، بالطبع كان رسمًا كاريكاتوريًّا! كان عليه استنتاج هذا من البداية من نوعية الحضور. عرض في منتصف الأسبوع في منتصف اليوم، مزدحم بالأطفال الصغار وأمهاتهم. يراقبون بحماس طفلًا كارتونيًّا بشفاهٍ حمراء يغني وسط سهول خضراء مترامية الأطراف.

بعد فترة، رفع رأسه وألقى نظرة خاطفة على الشاشة من خلال أصابعه، تابع الرسوم المتحركة المجرَّدة على الشاشة لفترة من الوقت، قطرات المطر الفضية تتصدر خلفية من الدخان المتصاعد، وأشعة من الضوء تتلألأ عبر سماء رمادية. في النهاية استقام ليواصل المشاهدة في وضع أكثر راحة. لم يعد متأكدًا تمامًا مما كان يشعر به.

شعر بالملل، لكن مع مزيج من الاهتمام، ثم صار مفتونًا بعض الشيء. مقاومة المشاهد المُنوِّمة التي توالت على الشاشة كاد يكون مستحيلًا، واحدًا تلو الآخر توالت التفاصيل أمام عينيه، أشعة حمراء متداخلة، وأفلاك تدور، وممالك طافية أعلى الغيوم، تتوهج بالقرمزي المصاحب لغروب الشمس.

تململ الأطفال الصغار بمقاعدهم، سمع فتاة صغيرة تهمس بصوت عالٍ: «أمي، متى سيُعرَض ميكي؟».

بالنسبة إلى الأطفال كان الأمر أشبه بالوجود في المدرسة. لكن بحلول الوقت الذي وصل فيه الفيلم إلى المقطع التالي، حيث انتقلت الأوركسترا من باخ إلى تشايكوفسكي، كان أليك جالسًا باستقامة، متابعًا باهتمام حتى إن رأسه مال قليلًا إلى الأمام وارتكز بساعديه على ركبتيه. شاهد الجنيات تتطاير عبر غابة مظلمة، تلامس الزهور وشبكات العنكبوت بعصيها المسحورة تنشر الندى المتلألئ على الأوراق اليانعة فتتوهج. أثارت مشاهد الجنيات الطائرة

داخله شعورًا غريبًا بالتوق والانتماء، حتى إن الفكرة واتته فجأة. في هذه اللحظة بإمكانه فقط الجلوس هنا مراقبًا إياها إلى الأبد.

***

- بوسعي الجلوس في هذا المسرح إلى الأبد.

همس شخص ما بجانبه. كان صوت فتاة.

- فقط أجلس هنا، أشاهد العروض، ولا أغادر أبدًا.

لم يكن يعلم أن هناك شخصًا يجلس بجانبه، قفز حين سمع الصوت بهذا القرب. لا، كان متأكدًا حين جلس أنه كان الوحيد في الصف. المقاعد الأخرى جواره كانت فارغة، أدار رأسه لرؤيتها.

خمن أنها تكبره ببضع سنوات فقط، لم تتخطَّ عشرين عامًا بأي حال من الأحوال، وجهها جذاب يكاد يكون فاتنًا، حتى إن ضربات قلبه تسارعت حين تحدثت معه. حثه عقله: «لا تفسد الفرصة». على الرغم من أنها لم تكن تنظر إليه على الإطلاق. كانت تحدق إلى شاشة العرض، تشاهد الفيلم مفتونة وعلى وجهها تعبيرات بدت كالطفل المنوَّم أمام شيء سحري. أراد أن يقول شيئًا، لكن صوته علق في حلقه مصدِرًا حشرجة غريبة.

مالت نحوه دون أن تبعِد نظرها عن الشاشة، ويدها اليسرى تلمس جانب ذراعه على المسند بخفة وهي تهمس: «آسفة لإزعاجك».

بهدوء شديد تابعت: «حين أتحمس لفيلم، أرغب في الحديث بشدة، لا يمكنني السيطرة على تلك الرغبة!».

في اللحظة التالية أدرك شيئين، الأول أن يدها على ذراعه كانت باردة، شعر بالبرودة القاتلة من خلال سترته، بردًا واضحًا لدرجة أذهلته قليلًا. الشيء الثاني الذي لاحظه هو قطرة دم واحدة على شفتها العليا، تحت فتحة أنفها اليسرى.

قال: «لديك نزيف في الأنف».

قالها بصوت عالٍ للغاية وتمنى فورًا أنه لم ينطق، صرخ عقله: «لديك فرصة واحدة فقط لإثارة إعجاب الفتاة، وهذه هي الطريقة التي تفتتح الكلام معها بها!». كان ينبغي له أن يجد لها ما يمسح به الدماء على أنفها، يساعدها، يهمس بكلمات مواسية أو مهتمة.

دفع يديه في جيوبه، باحثًا عما يمكنه تقديمه لها لمسح الدم، وللأسف لم يعثر على أي شيء. بدا له أنها لم تسمعه في الأساس، لم تش تعبيرات وجهها بأنها أدركت حتى أنها تحدثت.

كانت شاردة الذهن وهي تمسح ما تحت أنفها بظهر يدها، تركت الدماء بقعة دموية داكنة على شفتها العليا. تسمَّر أليك مكانه ويداه في جيوبه، محدِّقًا إليها فقط. كانت هذه هي اللحظة الأولى التي أدرك فيها أن شيئًا ما خطأ بهذه الفتاة الجالسة جواره، شيئًا غريبًا قليلًا فيما يحدث الآن، غريزيًّا تنحى بجسده مبتعدًا عنها.

***

ضحكت الفتاة على شيء ما في الفيلم، صوتها رقيق، لاهث، ثم همست: «هذا الفيلم غير مناسب للأطفال، هاري بريسل يحب هذا المسرح حقًّا، لكنه أحيانًا يعرض الأفلام الخاطئة في الأوقات الخاطئة. هاري بريسل، صاحب المكان».

انساب خيط آخر رفيع من الدماء عبر فتحة أنفها اليسرى لينسال إلى شفتيها، لكن شيئًا آخر لفت انتباه أليك. كانا جالسين في مؤخرة القاعة، مباشرة أسفل الخيوط الزرقاء الشبحية لآلة العرض. عبر تلك الخطوط رأى ذرات الغبار المتطايرة وحشرات عثة صغيرة طافية في شبح الضوء، حطت واحدة منها على وجه الفتاة، زاحفة إلى وجنتها، لكن بدا وكأنها لم تلاحظ على الإطلاق، وهو لم يجد في صدره الأنفاس الكافية ليكوِّن كلمات ينبِّهها بها حتى.

واصلت الفتاة بالهمس ذاته: «يظن أن الفيلم ما دام انتمى إلى الرسوم المتحركة، سيكون مناسبًا لأي سن. غريب كيف يحب هاري الأفلام إلى هذه الدرجة! لكنه في الوقت ذاته يعرف القليل جدًّا عنها! على كلٍّ لن يستمر في إدارة هذا المكان لوقت طويل».

التفتت نحوه وابتسمت، عجز عن الحركة، كانت أسنانها ملوَّثة بالدماء، وحطت عثة أخرى بيضاء كبيرة في أذنها.

ثم تابعت: «كان أخوك راي ليحب هذا الفيلم».

همس أليك بصوت مبحوح: «ابتعدي عني!».

قالت الفتاة: «أنت تنتمي إلى هذا المكان يا أليك».

ثم ختمت: «أنت تنتمي إلى هنا، معي».

تحرك أخيرًا، قافزًا من مقعده، وبدأ في التراجع عبر الصف مبتعدًا عنها، تحركت العثة من أذنها إلى شعرها، عيناه على وجهها الذي كان مراقِبًا إياه، استمر في التحرك متراجعًا حتى اصطدم بساق فتى بقميص مخطط يجلس في الظلام، كاد يصرخ، والفتى بدوره انتفض صائحًا: «حاذر إلى أين تذهب يا ذا الرأس الفارغ!».

للحظة فقط أبعد أليك عينيه عنها لينظر إلى الفتى ذي القميص المخطط، قبل أن يعود لينظر إليها.

الآن كانت غارقة في مقعدها، رأسها مائل على كتفها، الخيوط الدامية المتجلِّطة صارت تلوِّث رقبتها تاركة بقعة سوداء ضخمة هناك، عيناها تراجعتا في محجريهما، ساقاها منزلقتان ومفتوحتان وعلى حجرها علبة فشار مقلوبة. كانت ثابتة تمامًا، هامدة.

أبعد نظره عنها لينظر إلى الفتى الذي كاد يوقِعه للتو، الفتى نفسه راقبه بنظرات متسائلة، ثم نظر بدوره تجاه المكان الذي بقي أليك يحدق إليه، لم يبدُ عليه أنه يرى أي شيء. حين نظر أليك مرة أخرى، كانت الفتاة قد اختفت تمامًا، لا جسد، المقعد مرفوع، لا شيء.

جاء صوت سيدة من خلفه: «لو سمحت، هل يمكنك الجلوس؟ نرغب في رؤية الشاشة!».

كانت والدة الفتى السمين. الآن فقط بدأ أليك في التراجع المحموم عبر الصفوف، محاوِلًا ألا يصرخ. اصطدم بأجساد كثيرة وبسيقان عديدة، كاد يسقط أكثر من مرة، حين ضجت القاعة فجأة بالصرخات والصفير. صرخ وقد هوى قلبه إلى قدميه، على شاشة العرض ظهر ميكي ماوس أخيرًا. حضر ميكي ماوس إلى العرض في عباءته الحمراء الطويلة بعد طول انتظار.

اندفع أليك مبتعدًا، عبر الباب ذي الحافة المطاطية إلى المدخل. صدمه ضوء الظهيرة القوي وآلمته عيناه، بدأ يلهث، وانحنى ليسند يديه إلى ركبتيه، شعر بالدوار والتعب الشديدين. ثم فجأة جاء أحدهم ليمسك بكتفيه، يقتاده مبتعدًا إلى شرفة الطابق الثاني بحذر ومراعاة. ساعده على الجلوس وجلس أليك بقوة كمن سقط في مكانه.

الصوت الذي اقتاده قال بودٍّ: «اجلس هنا، التقط أنفاسك. ارتَح قليلًا، هل تظن أنك ستتقيأ؟».

هز أليك رأسه نفيًا فتابع الصوت: «لأنه لو لديك الرغبة في القيء، انتظر أرجوك حتى آتي لك بعلبة، القيء يصعب مسحه عن السجادة، ولا أحد يشم رائحة قيء هنا ويرغب في شراء الفشار».

الصوت جواره، أيًّا كان من هو. ابتعد للحظات ثم عاد من جديد بعد دقائق ليناول أليك كوبًا ورقيًّا وهو يقول: «خذ هذا، على حسابي، سيساعدك في تهدئة معدتك».

أمسك أليك بالكوب الكرتوني الزلق، تجمعت قطرات الماء على جانبيه، وجد الماصة بشفتيه دون أن يفتح عينيه، ثم بدأ في رشف الكولا الباردة، ساعدت الفقاقيع والكربون في تهدئة معدته فرفع رأسه لينظر أخيرًا إلى الرجل.

كان رجلًا طويلًا، بكتفين متهدلتين، شعر قصير أسود مقصوص فوق عينين بدا عليهما الإرهاق والشحوب من خلف إطار النظارة السميك، كان وسطه دائريًّا مائلًا للسمنة قليلًا.

وقبل أن يستطيع أليك منع نفسه قال: «هناك فتاة ميتة في الداخل».

لوهلة عجز عن التعرف على صوته الخاص حتى، شحب الرجل أمامه وبدا عليه التوتر، نظر بعيدًا بذعر وهو يقول: «لم تحضر لعرضٍ في الصباح قبلًا! ظننتُ أنها تأتي للعروض الليلية فقط، بحق الله إنه فيلم للأطفال، ما الذي تحاول فعله بي؟!».

فتح أليك فمه، لم يكن يعرف حتى ما سيقوله، شيء عن الفتاة الميتة على الأرجح، لكن ما خرج بدلًا من ذلك كان: «في الواقع ليس فيلمًا للأطفال حقًّا».

نظر إليه الرجل الضخم بانزعاج وهو يعقِّب: «بلى هو كذلك. إنه والت ديزني!».

حدق إليه أليك لحظة طويلة، ثم قال: «لا بد أنك هاري بارسيلز».

- نعم. كيف عرفت؟

قال أليك: «تخمين جيد».

ثم: «شكرًا على الكولا».

***

تبع أليك هاري بارسيلز خلف كشك الوجبات الخفيفة، عبر بابًا، ثم خرج إلى ممر يقود إلى بعض السلالم هبوطًا. قبل أن يفتح هاري بابًا على اليمين

سامحًا لهما بالدخول إلى مكتب صغير مزدحم. كانت الأرضية مزدحمة بعلب الأفلام. غطت ملصقات الأفلام الباهتة الجدران، متداخلة فوق بعضها بعضًا، بويز تاون، ديفيد كوبرفيلد، ذهب مع الريح.

قال هاري أخيرًا: «آسف لكونها أخافتك».

انهار على كرسي المكتب خلف مكتبه: «هل أنت متأكد أنك بخير؟ تبدو وكأنك على وشك الانفجار».

سأل أليك: «مَن هي؟».

أجابه هاري: «انفجر شيء في دماغها».

وأشار بإصبعه إلى صدغه الأيسر، وكأنه يتظاهر بتوجيه سلاح إلى رأسه: «منذ ست سنوات، خلال العرض الأول لساحر أوز، كان أفظع شيء يمكنك أن تراه، اعتادت المجيء طوال الوقت، كانت الزبونة الأكثر ثباتًا هنا. واعتدنا أن نتحدث معًا، ونتجّول في المسرح».

كان صوته مشتّتًا ومرتبكًا ومذهولًا.

ضغط يديه الممتلئتين معًا على سطح المكتب أمامه، وقال أخيرًا: «الآن، الآن تحاول إفلاسي».

- أنت رأيتها!

لم يكن سؤالًا. وأومأ هاري برأسه: «بعد شهور قليلة من وفاتها، أخبرتني أنني لا أنتمي إلى هنا. لا أعرف لماذا تريد أن تخيفني على الرغم من أنني كنت جيدًا معها. هل أخبرتك أن تذهب بعيدًا أيضًا؟».

لم يجِب أليك لكنه سأل: «لماذا هي هنا؟».

لا يزال صوته مبحوحًا، شعر بغرابة السؤال ولفترة من الوقت نظر هاري إليه من خلال نظارته السميكة بما بدا كتعبيرات ضياع.

ثم هز رأسه وقال: «لأنها غير سعيدة. ماتت قبل نهاية فيلم «ساحر أوز» وما زالت تعيسة لهذا السبب. أتفهَّم ما تشعر به، كان فيلمًا جيدًا وكنت لأشعر بالسوء لو أنني لم أكمله أيضًا».

صرخ أحدهم من الردهة فجأة: «مرحبًا؟ هل من أحد هنا؟».

صاح هاري مجيبًا: «دقيقة واحدة فقط».

ثم حدق هاري إلى أليك بنظرة متألمة: «سلمتني فتاة كشك الوجبات استقالتها أمس، بلا إشعار سابق ولا أي شيء».

- بسبب الشبح؟
- لا، سقط أحد أظفارها الصناعية في طعام شخص ما، وبَّختُها وأخبرتها ألا تضعها مرة أخرى لأن لا أحد يرغب في تذوق أظفار صناعية مع الفشار، تحججتْ بأن الكثير من الأولاد الذين تعرفهم يأتون إلى هنا وإذا لم تكن قادرة على وضع أظفارها فلن تعمل من أجلي، لذا الآن عليَّ أن أفعل كل شيء بنفسي.

قالها وهو ينهض تاركًا مكانه خلف المكتب، حاملًا في يده شيئًا ما، قصاصة جريدة: «سيخبرك هذا بالمزيد عنها».

ثم حدق إلى أليك بنظرة لم تكن مبتهجة أو ودودة تمامًا، لكنها حملت قدرًا من التحذير.

وأضاف: «لا تهرب. لا يزال يتعين علينا الحديث».

خرج متبوعًا بنظرات أليك المتعجِّبة، تساءل عن معنى النظرة الأخيرة المحذِّرة. ثم نظر إلى القصاصة. كان نعيًا منشورًا. الورق مجعَّد، والحواف بالية، والحبر باهت. بدا الأمر كما لو أن الورقة استُخدمَت وقُرئت أكثر من مرة. كان اسمها إيموجين جيلكريست، توفيت في التاسعة عشرة من عمرها، عملت في أحد محال بيع الأدوات المكتبية في ووتر ستريت. نعاها والداها، كولم وماري. تحدث الأصدقاء والعائلة عن ضحكاتها الجميلة، وروح الدعابة المُعدِية لديها.

تحدثوا عن مدى حبها للأفلام. شاهدت جميع الأفلام، شاهدتها في يوم الافتتاح، في العرض الأول. كان بإمكانها تسمية طاقم الممثلين بالكامل تقريبًا من أي صورة، كان الأمر أشبه بالسحر، حتى إنها كانت تعرف أسماء الممثلين الثانويين ولو كان لديهم سطر واحد ليتلوه في العرض. كانت رئيسة نادي الدراما في المدرسة الثانوية، مثَّلت في جميع المسرحيات، صنعت الديكور، ورتَّبت الإضاءات في المسارح.

قال أستاذ الدراما الخاص بها: «لطالما اعتقدت أنها ستكون نجمة سينمائية». «كان لديها تلك النظرات وتلك الضحكة. كل ما احتاجت إليه هو أن يوجِّه شخص ما الكاميرا نحوها وستصير مشهورة».

عندما انتهى أليك من القراءة، نظر حوله. كان المكتب لا يزال فارغًا. نظر إلى أسفل نهاية النعي وهو يفرك زاوية القصاصة بين الإبهام والسبابة. أصابه شعور ممرض بالظلم، وللحظة شعر بضغط بشع في مؤخرة مقلتيه، وخزات، وكأنه على وشك البكاء. شعر بالضيق لعيشه في عالم يمكن لفتاة تبلغ من العمر تسعة عشر عامًا فقط، ملأى بالضحك والحياة، أن تفقد حياتها هكذا دون سبب، لم يكن هذا منطقيًّا، أو مقبولًا، لم يعرف لِم شعر بهذا الكم من الغضب من أجلها، على الرغم من أنه لم يكن يعرفها حقًّا حين كانت حية، لو فكر في الأمر لثوانٍ لكانت مشاعره في تلك اللحظة تجاهها غير منطقية، كان هذا حتى بَدأَ التفكير في راي، في رسالة ترومان إلى والدته، مات راي بشجاعة، دفاعًا عن الحرية، أمريكا فخورة به.

تذكر حين اصطحبه راي إلى عرض «المقاتلات البحرية» هنا، في هذا المسرح بالذات. حين جلسا معًا وأقدامهما على المقاعد أمامهما، أكتافهما تتلامس، وحين قال راي: «انظر إلى جون واين، كان عليهم إحضار حاملتَي صواريخ، واحدة لحمله، وأخرى لحمل شجاعته».

كان الألم في صدر أليك شديدًا، حتى إنه عجز عن التحمل أكثر، التنفس صار مؤلمًا، فرك أنفه المبلل وبدأ في البكاء محاوِلًا عدم إصدار أي صوت قدر الإمكان. ثم مسح وجهه بطرف قميصه، أعاد النعي إلى مكتب هاري بارسيلز، نظر حوله إلى الملصقات وأكوام العلب الفولاذية. كان هناك لفة فيلم في زاوية الغرفة، ثمانية إطارات فقط أو نحو ذلك، تساءل من أين أتت، والتقطها لإلقاء نظرة فاحصة. على الغلاف رأى فتاة تغلق عينيها وترفع وجهها لتقبيل الرجل الذي عانقها بحميمية، مقدِّمة نفسها له. أراد أليك أن يُقبَّل بهذه الطريقة في وقت ما. شعر بإثارة غريبة لكونه يحمل قطعة حقيقية من فيلم في يده، وضعها في جيبه بلا تفكير.

خرج من المكتب عائدًا إلى أسفل الدرج. توجه إلى الردهة. توقع رؤية هاري خلف حاجز كشك تقديم الأطعمة، يخدم زبونًا، لكن لم يكن هناك أحد. تردد أليك متسائلًا أين ذهب. بينما كان يفكر في الأمر، أتاه صوت طنين خافت قادم من أعلى الدرج، ونقرات على جهاز العرض.

كان هاري يغيِّر البكرات.

***

صعد أليك الدرجات ودخل غرفة العرض، حجرة مظلمة ذات سقف منخفض وزوجين من النوافذ المربعة تطل على المسرح أدناه، يوجَّه جهاز العرض نفسه عبر إحداهما، الجهاز ذاته كان آلة كبيرة مصنوعة من الفولاذ المقاوِم للصدأ المصقول، مع ختم كلمة «VITAPHONE» على العلبة. على الجانب الآخر من الجهاز وقف هاري، مائلًا إلى الأمام ومحدقًا من النافذة ذاتها التي احتلها الجهاز باثًّا من خلالها شعاعه، سمع أليك خطوات هاري عند الباب وألقى عليه نظرة سريعة.

توقع أليك أن يطرده هاري، لكن الرجل لم يقل شيئًا، أومأ برأسه فقط وعاد إلى مراقبة المسرح الصامت، بدأ في ضبط الجهاز، ثبَّت بكرة العرض على مسارها بعناية رغم الظلام. من النافذة الأخرى الفارغة أطل أليك على المسرح بالأسفل، حدق لبرهة مستجمعًا شجاعته. ثم اقترب ليلصق وجهه بالزجاج محملقًا في الغرفة المظلمة بالأسفل.

أضاء المسرح باللون الأزرق الداكن في منتصفه، لتظهر الصور متتالية على الشاشة. قائد الأوركسترا من جديد، الأوركسترا مرة أخرى وخلفها الستار الأزرق، المُقدِّم ذو القميص الذي بدأ بتقديم العرض التالي. أدار أليك بصره ماسحًا صفوف المقاعد، لم يحتَج إلى وقت طويل ليرى المكان الذي جلس فيه بين مجموعة المقاعد الفارغة في الخلف. توقع رؤيتها هناك وقد انزلقت عن كرسيها، وجهها مائل نحو السقف والدم يغرِقها من أنفها إلى الأسفل، ربما ستحوِّل عينيها لتنظر إليه. فكرة رؤيتها ملأته بالرهبة وفي الوقت ذاته ببهجة غريبة. عندما أدرك أنها ليست هناك، تفاجأ قليلًا لشعوره بخيبة الأمل عوضًا عن الراحة.

بدأت الموسيقى:

في البداية سالت النغمات عن آلات الكمان، ترتفع وتنخفض في متواليات، ثم سلسلة من الدوي المروع للطبول وآلات النفخ، أصوات ذات طبيعة عسكرية تقريبًا. ارتفعت نظرات أليك مرة أخرى إلى الشاشة الوردية وظلت هناك. شعر ببرودة عارمة تعبر خلاله. انتصبت الشعيرات على ذراعيه، وتجعد جلده ليصير كجلد إوزة. على الشاشة، نهض الموتى من قبورهم، جيش من الأشباح البيضاء المموعة يتدفق من الأرض إلى أحضان الليل. يليهم شيطان ذو كتف مربعة مقرفصًا على قمة جبل، يغريهم، يناديهم.

سمعوا نداءه وساروا إليه، بوجوه حزينة وأكفانهم البيضاء الممزَّقة ترفرف حول أجسادهم الهزيلة. شعر أليك بأنفاسه تتسارع، فحبسها وهو يراقب مصدومًا ومنجذبًا.

شق الشيطان طريقه عبر الجبل، فاتحًا صدعًا للجحيم، قفزت النيران وقرقعت، وقفزت الأشباح ورقصت، وعرف أليك أن ما كان يراه على الشاشة يدور حول الحرب.

العرض كان يمس شقيقه الذي مات بلا سبب في جنوب المحيط الهادئ، أمريكا فخورة به. العرض عن الأجساد التي حملتها الأمواج، مشوَّهة بطريقة يصعب بها التعرف عليها، رطبة، منتفخة، ملقاة على حافة شاطئ أقصى حدود الشرق، وحيدة وميتة. كان العرض عن إيموجين جيلكريست، التي أحبَّت الأفلام وماتت وساقاها مفتوحتان ودماغها ممتلئ بالدماء وهي في التاسعة عشرة من عمرها، بينما ظل والداها كولم وماري حيَّين. كان العرض عن الشباب، أجساد الشباب التي كانت سليمة ثم صارت ملأى بالثقوب، تنسَل الحياة من شرايينهم، لم يتمكنوا من تحقيق حلم واحد، لم يعد بوسعهم تحقيق طموح واحد. الشباب الذين أحَبوا، وحظوا بالحب، وفي المقابل رحلوا بلا فرصة للعودة.

تاركين مجموعة من الذكريات الصغيرة المثيرة للشفقة والتي خلَّفها رحيلهم، وبضع كلمات بائسة في نعي، صلاتي معك اليوم، هاري ترومان الذي قال: «صلاتي معك اليوم»، و«كنت أعتقد أن المطاف سينتهي بها نجمة سينمائية عظيمة».

رن جرس الكنيسة في مكان ما، بعيدًا. راقب أليك. كان جزءًا من الفيلم. تلاشى الموتى. غطى الشيطان ذو الأكتاف المربعة نفسه بجناحين من الضخامة والسواد ما جعلهما يبتلعان وجهه، ثم يخفيانه تمامًا قبل بزوغ الفجر.

تحركت مجموعة من الرجال عبر الأرض أدنى الجبل، حاملين مشاعل يتراقص وهجها بهدوء مع نبضات الموسيقى الخافتة. السماء باردة، زرقاء تلألأت بميلاد شمس النهار، انبثق وهج الشروق من بين غصون أشجار البتولا والصنوبر الشمالي، راقب أليك برهبة وكأنه يحضر قداسًا حتى انتهى العرض أخيرًا.

جواره قال هاري: «أحببتُ دامبو أكثر».

أدارَ مفتاحًا على الحائط، وأضاء مصباحًا، لتُنار الغرفة بضوء أبيض قاسٍ. تمايل الشريط عبر جهاز العرض إلى آخره ثم انتهى وخرج من الطرف الآخر ملتفًا حول بكرة أخرى، الطرف الحر يدور ويدور، ينقر، يستمر في إصدار صوت الطقطقة الخافتة، حتى أوقف هاري جهاز التشغيل أخيرًا، ثم نظر إلى أليك ليعلِّق: «تبدو بحال أفضل. لقد استعدتَ لونك أخيرًا».

- عمَّ أردتَ التحدث؟

تذكر أليك النظرة الغامضة الحذِرة التي أعطاها هاري له عندما أخبره ألا يذهب إلى أي مكان، وخطر بباله الآن أن هاري ربما كان يعلم أنه قد حضر العرض دون شراء تذكرة، وربما كان على وشك مواجهة مشكلة.

لكن هاري قال: «أريد أن أعرض عليك استرداد مالك، أو تذكرتين مجانيتين لأي عرض تختاره، هذا أفضل ما يمكنني فعله».

حدق أليك إليه لفترة طويلة قبل أن يتمكن من الرد: «لماذا؟».

- لماذا؟

كرر هاري متعجبًا ثم أضاف: «كي لا تخبر أحدًا بما حدث اليوم، هل تعرف ماذا سيحدث لهذا المكان إن انتشرت القصة؟ هل تظن أن الناس سيدفعون المال للجلوس في الظلام مع فتاة ميتة ثرثارة؟!».

هز أليك رأسه. فاجأه اعتقاد هاري بأن إشاعة كون برعم الورد مسكونًا ستُبقي الناس بعيدين عنه، ظن أليك أن إشاعة كهذه سيكون لها تأثير معاكس تمامًا. سيدفع الناس بسعادة وسخاء مقابل خوض تجربة مرعبة في الظلام، لو لم يكن خوض التجارب المرعبة مصدرًا للجذب، لما نجحت أيٌّ من أفلام الرعب. ثم تذكر ما قالته له إيموجين. لن يبقى هاري في إدارة المكان لفترة طويلة.

مجددًا سأل هاري: «إذًا؟ ماذا اخترت؟ التذاكر؟».

هز أليك رأسه نفيًا فسأل هاري من جديد: «رد ثمن التذكرة هو إذًا».

- لا.

حين قالها أليك تجمدت يد هاري على محفظته، حدق إلى الفتى بنظرة متفاجئة بل وربما عدائية نوعًا: «ماذا تريد إذًا؟».

أجاب أليك: «ماذا عن وظيفة؟ أنت بحاجة إلى شخص يبيع الفشار. أعدك بألا أضع أظفارًا لاصقة في أثناء العمل».

حدق إليه هاري لفترة دون أي رد ثم أخرج يده من جيبه أخيرًا ليجيب: «هل بوسعك البدء مع عطلة نهاية الأسبوع؟».

***

في أكتوبر، سمع أليك أن ستيفن جرينبيرج قد عاد إلى نيو هامبشاير، حيث سيصوِّر المشاهد الخارجية لفيلمه الجديد على أرض أكاديمية «فيليبس إكستر»، عرض يضُم توم هانكس وهالي جويل أوسمنت، عن معلم منبوذ يساعد مجموعة من الأطفال المضطربين والعباقرة في الوقت ذاته. كانت تلك المعلومة كافية ليعلم أليك أن ستيفن في طريقه للفوز بأوسكار أخرى. لكنه على الرغم من هذا كان يفضِّل أعمال ستيفن الأقدم، الملأى بالإثارة والتشويق. فكر في قيادة سيارته إلى الموقع لإلقاء نظرة، متسائلًا إن كان سيحصل على الفرصة للتحدث مع أي من المجموعة. وربما لو تمكن من إثارة اهتمامهم، سيتحصل على فرصة للحديث مع ستيفن نفسه.

لكنه سرعان ما طرد الفكرة من رأسه، لا بد من أن هناك مئات الأشخاص في هذا الجزء من نيو إنجلاند والذين سيزعمون أنهم عرفوا ستيفن في الماضي، ولم يكن الأمر كما لو أن أليك عرف ستيفن بشكل شخصي، بعيدًا عن تلك المرة الوحيدة منذ سنين حين رآه ستيفن في برعم الوردة، وقت أن خاضا تلك المحادثة. لا أكثر ولا أقل.

لهذا السبب تحديدًا فوجئ أليك حين تلقى مكالمة بعد ظهر يوم الجمعة بالقرب من نهاية الشهر من المساعِدة الشخصية لستيفن. امرأة مرحة ذات صوت حماسي تُدعى مارسيا. أخبرته أن ستيفن كان يأمل في ملاقاته وسألته إن كان بوسعه الحضور صباح الأحد، حسنًا؟ سيكون هناك تصريح مرور خاص -بمدة محددة- في انتظاره في مدخل المبنى الرئيسي للأكاديمية.

أخبرته أنهم يتوقعون رؤيته قرابة الساعة العاشرة صباحًا، أخبرته المعلومة بصوتها الرنان قبل أن تغلق الخط ليدرك أليك أن ما تلقاه للتو ليس دعوة، بل استدعاء.

***

التقى أليك مساعدًا شخصيًّا ذا لحية قصيرة أمام المبنى الرئيسي، قبل أن يصطحبه إلى موقع التصوير. هناك وقف أليك مع نحو ثلاثين شخصًا آخرين يراقبون من مسافة بعيدة بينما يتجول هانكس وأوسمنت معًا عبر مربع أخضر مملوء بالأوراق المتساقطة، يهز هانكس رأسه بتأمل بينما يتحدث أوسمنت ويومئ له.

أمامهما عربة بعجلات تحمل رجلين مع معدات الكاميرا الخاصة بهما، خلفهما رجلان آخران يسحبان العربة على القضبان الحديدية المخصَّصة لها. بأحد الجوانب وقف ستيف مع مجموعة أخرى، يراقب ما يحدث عبر شاشة فيديو. لم يرَ أليك مرحلة صناعة الأفلام قبل خروجها للنور من قبل، لذا وقف يراقب ما يحدث ببهجة.

بعد أن حصل ستيفن على مبتغاه وصار راضيًا عن العمل، تحدث مع هانكس لبضع دقائق، ثم اتجه إلى حيث يقف أليك. كللت وجهه نظرة خجولة باحثة قبل أن تقع عيناه على أليك أخيرًا ليفتح فمه بابتسامة هائلة رأى أليك خلالها الفجوات بين أسنانه. رفع ستيف يده للتحية، وبادله أليك إياها وهو يبحث للحظات عن الصبي النحيف الذي التقاه يومًا في الوجه الناضج أمامه. سأله ستيفن إن كان راغبًا في السير بصحبته إلى كشك الخدمات للحصول على شطيرة نقانق وصودا.

في أثناء رحلتهما القصيرة معًا إلى الكشك، بدا ستيفن متوترًا. يخفي يديه في جيوبه ثم يعود ليخرجهما في أثناء الحديث. يلقي نظرات جانبية على وجه أليك، كان أليك يعرف أنه يتحرق شوقًا لفتح موضوع إيموجين لكنه لا يعلم من أين يبدأ أو كيف يطرح الموضوع بعد كل هذه السنين.

حين يبدأ في الحديث أخيرًا، يخبر أليك بذكرياته عن برعم الوردة، عن مدى تعلقه بالمكان وحبه، والأفلام التي رآها لأول مرة هناك. كل تلك الأفلام التي أثرت فيه. أومأ أليك مبتسمًا بلا تعقيب، متعجبًا من قدرة الرجل على حياكة الأكاذيب بهذه البراعة. لم يعد ستيفن قط إلى برعم الوردة بعد الحادث، ولم ير أيًّا من الأفلام التي يتحدث عنها الآن هناك قط.

أخيرًا، تلعثم ستيفن متسائلًا: «ألديك فكرة ماذا سيحدث للمكان بعد تقاعدك؟ أنا لا أعني أن عليك التقاعد أو أي شيء مثل هذا، أنا أسأل فقط. أتظن أنك ستدير المكان لفترة أطول؟».

رد أليك: «لا أظن أنني سأديره لفترة أطول».

وكانت الحقيقة، لكنه اكتفى بتلك الجملة دون أن يضيف أن هذا السؤال في الواقع هو السبب الحقيقي لرغبته في المجيء لمقابلة ستيفن. منذ تلقى الدعوة توقع أنهما سيتحدثان عن برعم الوردة، وأن ستيفن شديد الثراء، الذي اعتلى سلم النجاح، قادر على مساعدة أليك ومد طوق النجاة له. رَغِب في طلب المساعدة لكنه شعر بأن عليه ألا يتكلف عناء طلبها، سيحط من نفسه وسيبدو الأمر كما لو كان يطلب صدقة.

أخبره ستيفن أن دور السينما القديمة هي كنوز وطنية يجب الحفاظ عليها، وأنه -صدِّق أو لا تصدِّق- كان المالك لبعضٍ منها. اعتبرهم أماكن لإعادة إحياء الزمن القديم، كان راغبًا في إضافة برعم الوردة لهذه المجموعة للحفاظ عليها.

أو كما صاغها: «هذا أحد أحلامي».

عرف أليك أن هذه هي فرصته الآن لطلب المساعدة بشأن برعم الوردة، إخباره أن المكان في طريقه إلى الخراب، وأنه في الحقيقة قد بات على وشك الانهيار، المكان صار في حال يُرثى لها ومن المؤكد أنه سيغلق أبوابه قريبًا وإلى الأبد.

لكن عوضًا عن طلب المساعدة غيَّر أليك سير الحديث سائلًا: «ما هو مشروعك القادم؟».

افتقد الشجاعة للسؤال وانسحبت الفرصة ببطء من تحت قدميه.

أجابه ستيفن بنظرة جانبية: «مشروعي القادم؟ كنت أفكر في إعادة الإنتاج. لن تخمِّن أبدًا ما سأعيد إنتاجه».

ثم أمسك بذراع أليك فجأة ليضيف: «أعتقد أن العودة إلى نيو هامبشاير أعادت النبش في ذكريات قديمة، وأتاني حلم عن... رفيقتنا القديمة. هل تصدق هذا؟».

عرف أليك مَن يعنيه ستيفن بالضبط، لكنه ظل صامتًا بينما تابع ستيفن: «حلمت أن المسرح متهاوٍ ومغلق، مع ألواح خشبية على النوافذ وسلسلة حديدية ضخمة على الأبواب، ثم بالداخل، بالداخل سمعت فتاة تبكي. أليسَ هذا غريبًا؟».

ابتسم ستيفن بعصبية.

***

في أثناء ما كان يقود سيارته في طريقه إلى المنزل، انسابت قطرات العرق على جبهته، صحيح أن الشعور الخانق الذي لازمه بدأ في التلاشي لكنه كان متعجبًا لِم لَم يقل أي شيء عما يحدث في المسرح؟ لِم لَم يستطع قول أي شيء؟ جرينبيرج كاد يتوسل له لدعمه ماليًّا لإعادة برعم الوردة إلى الحياة. بدأ أليك يعتقد أنه أصبح عجوزًا أخرف أحمق، عديم الفائدة لرفضه مثل هذه الفرصة.

في المسرح كان لديه تسع رسائل صوتية مسجَّلة. الأولى كانت من «لويس ويزل» التي لم يسمع صوتها منذ سنوات، صوتها جاء هشًّا وضعيفًا وهي تستهل حديثها: «مرحبًا، هذه لويس ويزل من جامعة بوسطن...».

وكأن بإمكانه نسيانها. قابلت لويس إيموجين في عرض «رعاة منتصف الليل»، والآن صارت تدرِّس صناعة الأفلام الوثائقية لطلبة الدراسات العليا. عرف أليك أن الحدثين مترابطان وليست محض مصادفة، للسبب ذاته الذي دفع ستيفن جرينبيرج ليصير الرجل الذي أصبح عليه الآن.

على الآلة واصلت لويس رسالتها: «أيمكنك الاتصال بي؟ عليَّ الحديث معك... عن... اسمع، هلا اتصلت بي وحسب؟».

ضحكت ضحكة غريبة متوترة وهي تواصل: «هذا جنون، لن تصدق ما...».

زفرت بقوة ثم أنهت كلامها: «أريد فقط معرفة ما إذا كان هناك شيء يحدث في برعم الوردة حاليًّا، أعني شيئًا سيئًا. من فضلك اتصل بي».

الرسالة الثانية كانت من «دانا لويلين» التي قابلت إيموجين في عرض فيلم «الجماعة البرية»، الرسالة التي تلتها كانت من «شين ليونارد» الذي قابل إيموجين في فيلم «الجرافيتي الأمريكي»، ثم دارين كامبل الذي التقاها في «كلاب المحمية». تحدث بعضهم عن الحلم، حلم مطابق للحلم الذي وصفه ستيفن جرينبرج، سلسلة ضخمة على الأبواب ونوافذ مغلقة بعوارض خشبية، ومن الداخل صوت فتاة تبكي.

بعض الرسائل جاءت تروي الحلم فقط بينما رغب الآخرون في الحديث معه. بحلول الوقت الذي انتهت فيه الآلة من عرض الرسائل المسجلة، كان أليك يجلس ويداه متشابكتان يبكي بلا حول ولا قوة. نحو عشرين شخصًا رأوا إيموجين في الأعوام الخمسة والعشرين المنصرمة، نصفهم تقريبًا تركوا رسائل يرغبون فيها في الحديث مع أليك.

سيتواصل معه النصف الآخر خلال الأيام القليلة القادمة ليسألوا عن برعم الوردة، ليخبروه بحلمهم الغريب، سيتحدث معه كل من اختارته إيموجين للحديث في ليلة ما، أستاذ للدراما، مدير متجر تأجير فيديو، كاتب متقاعد كتب في شبابه مراجعات لأفلام كوميدية.

مجموعة كاملة من الناس الذين توافدوا على مسرح برعم الوردة وكأنهم ذاهبون لحضور قداس الآحاد في الكنيسة. أولئك الذين كتب صلواتهم تشايفسكي ولحَّن ترانيمهم جون ويليامز، والذين كانوا مؤمنين بقوة الأفلام حتى إن إيموجين عجزت عن مقاومة تقديم نفسها لهم.

***

بعد البيع، أغلق مسرح برعم الوردة لمدة شهرين للتجديد. مقاعد حديثة، نظام صوتي كامل على أحدث طراز. عَلَّق الحرفيون سقالات أسفل السقف وعملوا لوقت طويل بفرش صغيرة لاستعادة شكل الجص المتهالك. أضاف ستيفن موظفين جددًا للمساعدة يوميًّا، وعلى الرغم من أنه صار صاحب المكان الآن فإنه وافق على إبقاء أليك في الإدارة لبعض الوقت.

قادت لويس ويزل سيارتها إلى المسرح ثلاث مرات في الأسبوع لتصوير فيلم وثائقي عن التجديد، مستعينة بطلابها الخريجين ذوي المهارات المختلفة، كهربائيين، مهندسي صوت، متذمرين من العمل... إلخ.

رغب ستيفن في أن يعيد حفل الافتتاح مسرح برعم الوردة إلى أمجاده الماضية. حين عرف أليك أن ستيفن قرر أن يفتتح الحفل بعرض مميز لفيلمَي «الطيور» و«ساحر أوز» متتاليين، انتصبت الشعيرات على ساعديه لكنه لم يعلِّق، ولم يعترض.

فضَّلَ عدم الجدال.

في ليلة إعادة الافتتاح، كان المكان مزدحمًا كما لم يكن منذ زمن العرض الأول لفيلم التيتانيك، حضر مراسلو الأخبار المحلية لتصوير أشخاص بالداخل يرتدون أفضل ثيابهم وأغلاها. بالطبع كان وجود ستيفن أحد الأسباب الأساسية لكل هذا الازدحام، ولو أن أليك شك أن عددًا هائلًا كان ليزور المكان يوم الافتتاح حتى مع عدم حضور ستيفن، لمجرد رؤية التجديدات. وقف أليك وستيفن معًا لالتقاط الصور الفوتوغرافية مرتدين بذلات، متصافحين،

بذلة ستيفن اشتُريَت خصوصًا لأجله من ماركة «أرماني» لهذه المناسبة. أليك حضر ببذلة زفافه القديمة.

ينحني ستيفن مقتربًا منه، يضغط كتفه على صدره مرتين. ماذا ستفعل بعد هذا؟

قبل الحصول على أموال ستيفن، اعتاد أليك الجلوس خلف المنضدة لتوزيع التذاكر، ثم يصعد بنفسه لبدء تشغيل جهاز العرض. لكن ستيفن استأجر شخصًا ما لبيع التذاكر وتشغيل جهاز العرض.

قال أليك: «أعتقد أنني سأجلس وأشاهد الفيلم».

أجاب ستيفن: «احجز لي مقعدًا، قد لا أحصل على الفرصة حتى يبدأ عرض فيلم الطيور، لديَّ المزيد من المقابلات مع الصحافة هنا».

ثبَّتت لويس ويزل كاميرا على مقدمة المسرح، موجِّهة إياها نحو الجمهور، زوَّدتها بفيلم ذي سرعة تصوير وكفاءة عالية في الظلام، التقطت صورًا للحشد في أوقات مختلفة مسجِّلة ردود أفعالهم على عرض ساحر أوز. كانت هذه خاتمة فيلمها الوثائقي. الحشد الكبير المجتمع للاستمتاع بأحد أفلام القرن العشرين الكلاسيكية داخل مسرح قديم رُمم بشكل بديع، لكن فيلمها لم يكن سينتهي كما اعتقدت.

***

في اللقطات الأولى على بكرة لويس، سيكون بوسعك رؤية أليك جالسًا في الجزء الخلفي الأيسر من المسرح، ووجهه نحو الشاشة، نظارته تومض باللون الأزرق في الظلام. المقعد على يساره، في الممر، فارغ، المقعد الوحيد الفارغ في المسرح. في بعض اللقطات يمكن رؤيته وهو يأكل الفشار. في أحيان أخرى كان جالسًا هناك يشاهد وفمه مفتوح قليلًا، مع نظرة مأخوذة تقريبًا على وجهه.

ثم في إحدى اللقطات التالية استدار جانبًا ليواجه المقعد على يساره. وقد انضمت إليه امرأة ترتدي اللون الأزرق. مال إليها، ثم بدآ في تقبيل بعضهما بعضًا دون أن ينتبه أي من الحضور إليهما. ينتهي العرض، تعرف ذلك لأن صوت جودي جارلاند يرتفع وهي تقرأ الكلمات الخمس نفسها مرارًا وتكرارًا

بصوت رقيق. الكلمات التي يعرفها كل من شاهد الفيلم، أجمل خمس كلمات قيلت في أي فيلم.

في اللقطة التي تلت هذا مباشرة، أنارت أضواء المسرح كلها، واجتمع حشد من الناس حول جسد أليك، الذي غاص في مقعده. ستيفن جرينبيرج في الممر، يصرخ بشكل هستيري على شخص ما ليحضِر طبيبًا، طفل يبكي. انفجرت ضجة من الأحاديث المستثارة في بقية الحشد. لكن لا تهتم بهذه اللقطة. اللقطات التي جاءت قبلها مباشرة أكثر إثارة للاهتمام.

مدتها بضع ثوانٍ فقط، بضع مئات من الكادرات. هذه اللقطة لأليك ورفيقته المجهولة التي لم تظهر سوى بمساحة صغيرة للغاية من فيلم التصوير، لكنها صنعت سمعة لويس ويزل لسنوات قادمة، ناهيك بالمبلغ الهائل من المال، والبرامج التلفزيونية التي تمحورت حول الظواهر التي ظلت دون تفسير.

شاهدها وسيشاهدها المهتمون بما وراء الطبيعة، يجتمعون حولها، محاولين دراستها والكتابة عنها وتأكيدها، وفي الوقت نفسه سيحاول آخرون دحضها وتكذيبها.

اللقطة التي إن رأيتها مجددًا، سترى أليك ورفيقته، يقترب منها، تميل عليه وقد أغمضت عينيها، شابة للغاية، مستسلمة تمامًا، أليك وقد خلع نظارته، يحيط خصرها برفق ويقبِّلها بالطريقة ذاتها التي يحلم بها الكثير من الناس، لحظة تكاد لا تنتهي أبدًا، قبلة الأبطال في العروض السينمائية. رؤية اللقطات تدفعك لتتمنى لو أنك حبيس لحظة مماثلة، لحظة لا تنتهي أبدًا.

ويملأ الخلفية المظلمة صوت دوروثي الصغير الشجاع، آتيًا من ساحر أوز، متحدثًا بكلمات يعرفها الجميع.

***

آرثر المثقوب

عندما كنت في الثانية عشرة من عمري كان أعز أصدقائي قابلًا للنفخ.

كان اسمه آرت، أو آرثر روث، يهودي، هذا جعله صديقي اليهودي القابل للنفخ، على الرغم من هذا، أكاد لا أذكر تبنيه لمنظور يهودي بشكل خاص بشأن الحياة والموت، وما يحدث بعدهما، في كل تلك الأوقات التي قضيناها معًا، والتي كان الحديث عن الحياة والموت وما بعده، محورها.

أعتقدُ أن آرثر علِمَ أنه سيكون محظوظًا لو تسنت له النجاة عبر المرحلة الثانوية حتى. حين التقيته كان قد أوشك على لقاء حتفه بالفعل عشرات المرات، مرة لكل عام من أعوام حياته، لذا كان الموت دائمًا حاضرًا في ذهنه، وفكرة الحياة بعد الموت، بل وفكرة عدم وجود حياة أصلًا بعد الموت.

حين أقول «تحدثنا»، ولأكون صريحًا، فأنا أعني أننا تناقشنا، تجادلنا، أحبطنا بعضنا بعضًا، دعمنا بعضنا بعضًا. لكن أنا من كان يتحدث طوال الوقت. آرثر لم يكن لديه فم، لذا كلما رغب في قول أي شيء كان يكتبه في دفتر أوراق صغير ارتداه حول عنقه، معلَّقًا بخيط معقود، بأقلام تلوين حملها في جيبه طوال الوقت.

سلَّم واجبات المدرسة مكتوبة بأقلام التلوين، أجرى الاختبارات بأقلام التلوين. بإمكانك أن تتخيل الخطر الذي يمثِّله قلم رصاص حاد على صبي مصنوع من البلاستيك، مملوء بالهواء، يزن مائة جرام فقط.

أعتقد أن أحد أسباب كوننا أفضل الأصدقاء هو أنه كان مستمعًا رائعًا. وأنا بدوري كنت بحاجة إلى شخص ما للاستماع. والدتي لم تكن متاحة، ولم أستطع التحدث إلى أبي. هربت والدتي عندما كنت في الثالثة من عمري، أرسلت إلى والدي رسالة مشوَّشة ومرتبكة من فلوريدا، حول البقع الشمسية وأشعة جاما والإشعاع المنبعث من خطوط الكهرباء، حول كيفية تحرك الوحمة الموجودة على ظهر يدها اليسرى على ذراعها وعلى كتفها. بعد ذلك، بضع بطاقات بريدية، ثم لا شيء.

بالنسبة إلى والدي الذي عانى الصداع النصفي، فقد اعتاد الجلوس أمام العروض الرخيصة على شاشة التلفاز في غرفة المعيشة المظلمة طوال فترة ما بعد الظهيرة، وعيناه مبلَّلتان وبائستان. كره أن يضايقه أحد. لا يمكنك الحديث مع والدي عن أي شيء. كانت المحاولة حتى خطأ.

اعتاد الرد بـ: «بلا بلا بلا» مقاطعًا إياي في منتصف الجملة، ثم: «رأسي ينفجر، سينقسم إلى نصفين بسببك. أنت تقتلني هنا بكل هذا الكلام... إلخ».

لكن آرت أحب الاستماع، وفي المقابل، قدمتُ له الحماية. خشيني الأطفال، حظيت بسمعة سيئة. امتلكت مدية وأحيانًا اصطحبتها معي إلى المدرسة، أظهرها أمام الأطفال الآخرين عمدًا، بهذه الطريقة أبقيتهم خائفين، على الرغم من أن الشيء الوحيد الذي استخدمتها لطعنه كان جدار غرفة نومي، اعتدت الاستلقاء على السرير، ألقي بها تجاه الحائط الخشبي، بحيث تصيب الشفرة الجدار.. بوم!

في أحد الأيام عندما أتى آرت لزيارتي، رأى الثقوب في جداري. شرحت سببها، الكلام جاء بكلام ثم قبل أن أستوعب، كان يتوسل إليَّ ليجرب رميها بنفسه.

سألته: «ما مشكلتك؟!».

ثم تابعت: «هل أنت غبي؟ مستحيل طبعًا، انسَ ذلك!».

أخرج قلم تلوين بلون القرفة وكتب: «على الأقل دعني أراها!».

فتحت المدية، وحدق إليها بعينين واسعتين، في الواقع كان دائمًا يحدق إلى كل شيء بعينين متسعتين. كانت عيناه مصنوعتين من زجاج بلاستيكي ملتصقتين بوجهه، لم يتمكن من الرمش أو إغلاقهما، لكن النظرة التي

أعطانيها الآن كانت مختلفة، رأيت كم كان جادًّا في ملامحه حين توسل من جديد: «سأكون حذِرًا، أعدك».

سلمت المدية له، أمسك بها موجِّهًا طرف النصل إلى الأرض، ثم ضغط على الزر ليندفع النصل إلى الخارج، حدق إليها بيده ثم رماها تجاه الحائط دون أي تحذير مسبق. بالطبع لم يعلق النصل بالحائط، تطلب هذا ممارسة وهو ما لم يتدرب عليه، ومهارة وهو -لأكون صريحًا- لم يكن ليحصل عليها قط. ارتد النصل وعاد طائرًا نحوه، قفز في الهواء بسرعة حتى ظننت أنني أشاهد شبحًا. ثم سقطت السكين في المكان الذي احتله منذ ثوانٍ، قبل أن تختفي أسفل فراشي.

تحركت من مكاني لأسحب آرت بعيدًا عن السقف، قبل أن يكتب هو على ورقته: «كنت على حق، كان هذا غباء وأنا أحمق».

فأجبته: «بالفعل، أنت أحمق لا شك».

***

لكنه لم يكن أحمق أو غبيًّا. والدي أحمق. كان الأطفال في المدرسة أغبياء. بينما آرت كان مختلفًا، مختلفًا فقط وذا قلب طيب، لقد أراد فقط أن يحبه شخص ما. كما أنه كان صدقًا أكثر شخص مسالم عرفته على الإطلاق.

لن يؤذي ذبابة، بل حتى لو حاول إيذاء ذبابة، ومد يده ليصفعها، سيبعد يده لتطير الذبابة بعيدًا دون أي إصابات. كان كالأشخاص في الكتب المقدسة، الشخص المقدس الذي بإمكانه علاج الأجزاء المحطَّمة والمصابة منك بمجرد لمسة يد، هذا الذي لا يبقى في العالم لفترة طويلة كما تعلم، لأن المرضى يصلبونهم بمسامير ليراقبوا الحياة تنفد من أجسادهم ببطء.

كان هناك شيء مميز غير مرئي بآرت حفَّز رغبة كل الأطفال في المدرسة في ركل مؤخرته. كان قد انتقل إلى المدرسة للتو، الصبي الجديد بعد أن جاء والداه إلى المدينة، والداه كانا طبيعيَّين، مليئين بالدماء وليس بالهواء. ما عاناه آرت كان واحدة من تلك المصادفات الجينية التي تلعب الغميضة مع الأجيال لتظهر مع آخر شخص تتوقع أن تظهر معه. أخبرني آرت ذات مرة أن عمًّا كبيرًا له كان قابلًا للنفخ أيضًا، وأنه انزلق يومًا ما في كومة من الأوراق التي أشعلها بعض الناس للتدفئة لينفجر ميتًا.

في اليوم الأول من الدراسة، جعلت السيدة غانون آرت يقف في مقدمة الفصل الدراسي مقدِّمًا نفسه. أخبرت الجميع بكل شيء عنه بينما حنى رأسه خجلًا. كان أبيض، ليس قوقازيًّا، بل أبيض تمامًا كالأشباح أو الأعشاب الجليدية، بخيط مميَّز عبر رأسه بالكامل لينتهي بطرف يشبه الحلمة أسفل ذراعه، حيث أمكن ملؤه بالهواء من خلاله.

نبهتنا السيدة غانون حيال الركض حوله بالمقصات أو الأقلام، قالت إن علينا توخي الحذر لأن ثقبًا واحدًا من شأنه أن يقتله، كان على الجميع التمتع بالحساسية حوله. لم يكن بوسع آرت الكلام، وكان مهتمًّا برواد الفضاء، والتصوير، والقراءة.

قبل أن تدفعه نحو مقعده، أعطت دفعة صغيرة مشجِّعة، وبينما كانت تضغط بأصابعها عليه، صفَّر برفق. كانت هذه هي الطريقة الوحيدة التي أصدر بها الصوت. من خلال ثني جسده يمكن أن يصدر القليل من الصرير والأنين. عندما ضغط الآخرون عليه، كان يصدر صوتًا موسيقيًّا رقيقًا.

تمايل عبر القاعة ليختار مقعدًا، وبالفعل استقر جالسًا جواري. «بيلي سبيرز» الفتى الذي جلس خلفه مباشرة، استمر في إلقاء الدبابيس المكتبية تجاه رأس آرت طوال النهار، في البداية حاول آرت التظاهر بعدم الملاحظة، ثم في غفلة عن السيدة غانون كتب ملاحظة إلى بيلي: «توقف أرجوك! لا أريد إخبار السيدة غانون ولكن ليس من الآمن إلقاء دبابيس الورق عليَّ. أنا لا أمزح».

كتب بيلي ردًّا: «لا تثِر المتاعب وإلا لن يتبقى منك ما يكفي لإصلاح إطار حتى. فكِّر في الأمر».

منذ تلك اللحظة لم تصبح الأمور أسهل بالنسبة إلى آرت. في درس الأحياء، أقرنوا آرت بفتى يعيد الصف السادس يدعى «كاسيوس ديلاميتري». كان كاسيوس طفلًا سمينًا، بوجه بدين يترجرج، وشعر خفيف بغيض أعلى فمه المكشر دائمًا.

كان المشروع في الدرس عبارة عن تقطير الخشب، والذي تضمن استخدام لهب غاز، بدأ كاسيوس بالعمل، بينما راقبه آرت وكتب: «لا أصدق أنك حصلت على تقدير ضعيف في هذه التجربة عندما قمت بها العام الماضي، أنت تعرف تمامًا كيفية القيام بهذه الأشياء!».

ثم كتب: «اشترى لي والداي مجموعة معمل لعيد ميلادي. هل يمكن أن تأتي إلى منزلي لنلعب دور عالم مجنون في وقت ما؟».

بعد ثلاث أو أربع ملاحظات من هذا القبيل، قرر كاسيوس أنه قرأ ما يكفي، بدأ يعتقد أن آرت يعاني شذوذًا من نوع ما، خصوصًا مع حديثه عن دعوته للمنزل للعب دور الطبيب وما شابه. لذا حين لاحظ أن المعلم ابتعد لمساعدة مجموعة أخرى من التلاميذ، ولم يعد يعيرهما انتباهًا، دفع كاسيوس آرت إلى أسفل الطاولة ليربطه بقوة إلى إحدى الأرجل، من يديه ورأسه وجسده وكل شيء. وحين سأل السيد ميلتون إلى أين ذهب آرت، أخبره كاسيوس بأن الصبي اتجه إلى الحمام.

سأل السيد ميلتون: «حقًّا فعل؟».

ليومئ كاسيوس فيتابع المعلم: «هذا جيد، لم أكن أعرف حتى إن كان بإمكانه استخدام الحمام!».

في مرة أخرى، ثبَّت جون إريكسون آرت في أثناء فترة الراحة ليكتب على بطنه بقلم لا يُمحى «أمتعة مفقودة». استمرت العلامة على بطنه حتى الربيع.

كتب آرت لي في إحدى المرات: «الشيء الأسوأ فيما حدث هو أن أمي رأت الكلام، وعرفت أنني أتعرض للضرب والمعاملة السيئة يوميًّا. المضحك أنها استاءت لأن الكلمات تضمنت أخطاءً إملائية».

ثم كتب: «لا أعرف ما الذي توقعتْه كوني في الصف السادس، ألا تتذكر كيف تسير الأمور في الصف السادس؟ لكن دعني أسأل سؤالًا جادًّا، ما احتمال أن يعنِّفني بطل مسابقة التهجئة قبل انتهاء السنة؟».

أجبته: «بالطريقة التي تسير بها السنة بالنسبة إليك حتى الآن، أظن أن الاحتمال كبير».

***

إليكم كيف صرت أنا وآرثر أصدقاء.

خلال فترات الاستراحة بين الحصص، اعتدت التسكع بالجزء العلوي من الملعب قرب لعبة القضبان وحدي، أقرأ المجلات الرياضية. أنمي سمعتي بصفتي منحرفًا ومصدر خطر احتماليًّا. للمساعدة في الحفاظ على تلك

السمعة ارتديت سترة جينز سوداء، وعزفت عن تكوين صداقات أو الحديث مع الآخرين.

على بعد نحو مترين عن الأرض، أعلى لعبة تسلق القضبان فوق الأسفلت خلف مبنى المدرسة، كانت لديَّ إطلالة على الفناء بأكمله. في أحد الأيام رأيت «بيلي سبيرز» يتجول برفقة «كاسيوسوجون إريكسون». كان بحوزة بيلي كرة ومضرب، والثلاثة معًا استمروا في محاولة ضرب كرة عبر النافذة المفتوحة بالطابق الثاني. بعد خمس عشرة دقيقة من المحاولات الفاشلة، حالف الحظ جون إريكسون أخيرًا وأحرز هدفًا.

قال كاسيوس وقتها: «هذا ممل، فلتذهب الكرة إلى الجحيم. نحتاج إلى شيء آخر لتضييع الوقت».

في تلك اللحظة صرخ بيلي: «مرحبًا».

ثم: «انظر، ها هو آرثر آتٍ من هناك!».

التفوا حول آرثر الذي كان يحاول الهرب، وبدأ بيلي في قذفه في الهواء وضربه بالمضرب ليرى إلى أي مدى يمكنه أن يطير. في كل مرة يضرب فيها آرت بالمضرب كان يصنع صورة للمضرب على جسد الفتى، طار آرت في الهواء، مبتعدًا قليلًا ثم غاص برفق عائدًا إلى الأرض. بمجرد أن لمس كعباه الأرض بدأ في الجري، لكن السرعة لم تكن من صفات آرت. لذا عاد جون وكاسيوس لمهاجمته منتشيَيْن من إسقاطه وركله، لمعرفة إلى أي مدى يمكن لجسده التحمل وإلى أي مسافة يمكنه أن يحلِّق. استمر الثلاثة في ضرب آرت حتى كادت حياته تنتهي، كافح للهرب من أسفل قضبان التسلق لكن بيلي أمسك به من جديد وضربه على مؤخرته بالعصا مطلِقًا إياه عاليًا في الهواء.

طفا آرت قرب قمة قضبان التسلق، عندما لمس جسده القضبان الفولاذية علَّق أخيرًا ووجهه ساكن بالألم.

صرخ بيلي: «هيي، أعده إلى هنا».

لم أكن حتى تلك اللحظة قد تحدثت مع آرت قط. على الرغم من أننا نتشارك الفصول الدراسية، بل وجلسنا جنبًا إلى جنب في صف السيدة غانون، لم نتبادل كلمة واحدة قبلًا. نظر إليَّ بعينيه البلاستيكيتين الهائلتين ووجهه الخاوي من التعبير. حدقت إلى عينيه مباشرة قبل أن يمد يده إلى الطوق حول عنقه.

يخرِج قلم ألوان بلون أخضر ليكتب: «لا يهمني ما يفعلونه بي، لكن أيمكنك الذهاب بعيدًا؟ أكره أن أُطرَح أرضًا في وجود مشاهدين».

من الأسفل صرخ بيلي: «ماذا كتب؟!».

نظرت إلى الورقة، ثم إلى آرت الصامت، ثم إلى تجمع الأولاد في الأسفل. أذهلني في تلك اللحظة إدراكي أن بإمكاني شم رائحتهم تفوح حتى من مكاني هنا، رائحة بشرية رطبة، مزيج من العرق والحماس الذي قلب معدتي.

سألتهم: «لماذا تضربونه؟».

أجابني بيلي: «نحاول الحصول على بعض المرح فقط».

ثم قال كاسيوس: «نحاول رؤية إلى أي مدى بإمكاننا جعله يطير».

ثم تابع بحماس: «هيي عليك النزول إلى هنا والتجربة، سنركله من أعلى سطح المدرسة لنرى إلى أي مدى سيحلِّق!».

لم أرد لوهلة، ثم قلت: «لديَّ فكرة أفضل!».

كانت تلك الكلمة التي استخدمتها غالبًا قبل أن أنطق بما يقنع الأطفال حولي بأنني مختل عقليًا: «ما رأيك في تجربة إن كان بوسعي ركلك أنت من أعلى سطح المدرسة؟».

صاح بيلي: «ما مشكلتك؟! هل تعاني نوبة غضب أو ما شابه؟».

أمسكت بآرت، ثم قفزت من أعلى وهو تحت إبطي. قدماه تجاههم، محمولًا بأمان أسفل ذراعي. شحب وجه كاسيوس، وعاد جون إريكسون بضع خطوات للخلف.

قلت بلا تعبير: «أنتم مجموعة من الحمقى».

ثم مشيت بعيدًا، راودتني فكرة جعلت الشعر على رأسي ينتصب، تخيلت مضرب بيلي يقذف الكرة ليحطم جمجمتي من الخلف. لكنه لم يأتِ بأي فعل، تركنا نذهب.

***

خرجنا إلى ملعب البيسبول، وجلسنا على تل مترامٍ. كتب لي آرت ملاحظة تقول شكرًا، وأخرى قالت إنني لم أكن مضطرًّا لفعل ما فعلته لكنه كان سعيدًا

لأنني فعلت، وأخرى قالت إنه مدين لي. دفعت كل ملاحظة في جيبي بعد قراءتها، ولم أفكر في السبب.

في تلك الليلة، وحدي في غرفة نومي، أخرجت رزمة الأوراق المسحوقة من جيبي، كتلة بحجم ليمونة، جعلت كل ملاحظة وحدها ووضعتها جوار بعضها بعضًا على سريري، لقراءتها مرة أخرى. لم يكن هناك سبب وجيه لعدم التخلص منها، لكنني لم أفعل، احتفظت بها كلها عوضًا عن التخلص منها. كان الأمر كما لو أن جزءًا مني عرف -حتى في ذلك الوقت- أنني قد أرغب في الحصول على شيء لأتذكر به آرت بعد رحيله. احتفظت بالمئات من ملاحظاته خلال العام التالي، بعضها قصير، كلمتان، والبعض الآخر يقارب ست صفحات. لا يزال لديَّ معظمها، من أول ملاحظة سلَّمها لي، تلك التي قالت: «لا يهمني ما يفعلونه»، وحتى الأخيرة، التي انتهت بـ: «أريد أن أرى ما إذا كان هذا صحيحًا، إذا كانت السماء مفتوحة بالفعل في أعلاها».

***

في البداية لم يحب والدي آرت مطلقًا، ولكن بعد أن تعرف عليه بشكل أفضل تحول عدم الحب إلى كراهية.

سأل والدي في أحد الأيام: «لِم يقضي وقتًا طويلًا هنا؟ هل هو شاذ أو ساحر أو ما شابه؟».

أجبته: «لا يا أبي، آرت مجرد شخص قابل للنفخ».

- يبدو لي غير طبيعي.

صمتَ قليلًا ثم أضاف: «حسنًا، أتمنى أنك لا تنفخه هناك في غرفتك حين تكونان بالأعلى».

حاول آرت بناء علاقة جيدة مع والدي، لكن كل ما فعله كان يُساء تفسيره. كل ما كتبه كان يُساء فهمه، قال أبي في إحدى المرات شيئًا عن فيلم أعجبه، فكتب له آرت رسالة عن كيف أن الكتاب أفضل أيضًا. في تلك المرة وبعد رحيله قال والدي: «يعتقد أنني جاهل!».

في موقف آخر، لاحظ آرت كومة الإطارات البالية المتكدسة في الجراج الخلفي، وذكَّر والدي ببرنامج إعادة التدوير. إن ذهب بالإطارات القديمة سيحصل على خصم عشرين بالمائة على إطارات حديثة تمامًا. وقتها تذمر

والدي: «يظن أننا نفايات تعيش في مقطورة، القذر الذي يتدخل فيما لا يعنيه».

ذات يوم عدت أنا وآرت من المدرسة لنجد والدي أمام التلفاز وكلب بيتبول أسفل قدميه، حين رأى الكلبُ آرت نبح بشكل هستيري وقفز عليه. أصدرت كفوفه صوتًا زلقًا حين التحمت بوجه آرت البلاستيكي. أمسك آرت بكتفي وقفز عبر الهواء -يمكنه القفز لارتفاعات عالية حقًّا حين يرغب- ليمسك بالسقف مقلوبًا بينما نبح الكلب وتقافز أسفل منه.

سألت أبي: «ما هذا بحق الجحيم؟».

فأجاب: «كلب، فرد جديد بالعائلة، كما رغبتَ دائمًا».

قلت: «ليس حين يحاول أكل أحد أصدقائي».

نادى والدي آرت قائلًا: «ابتعد عن مروحة السقف يا آرتي، هذه لم تصمَّم لتقف عليها هكذا».

صحتُ معترضًا: «هذا ليس كلبًا، هذا آلة افتراس بشعر».

سأل أبي متجاهلًا إياي: «اسمع، هل ترغب في تسميته أم أسميه أنا؟».

في أثناء اختبائنا أنا وآرت في غرفة نومي، تبادلنا الملحوظات عن الأسماء. اقترحت:

«ندفة الثلج»، «فطيرة السكر»، «شروق الشمس».

بينما اقترح آرت في مفكرته الصغيرة: «ماذا عن «سعيد»؟ الاسم له وقع، أليس كذلك؟».

كنا نمزح ونحاول الحصول على مخرج جيد من موقف سيئ، وهو ما لم يفعله «سعيد». في غضون أسبوع واحد فقط، عانى آرت ثلاث تجارب موت وشيك جراء لقائه مع كلب أبي القبيح.

كتب آرت: «إن وضع يده عليَّ، سينتهي أمري. سيتركني ميتًا مليئًا بالثقوب».

***

سعيد الذي كان من المستحيل ترويضه، ترك فضلات متناثرة في كل مكان حول غرفة المعيشة، كانت رؤيتها صعبة نوعًا ما على البساط البني،

لكن حين داس والدي على إحداها بالمصادفة وهو حافي القدمين، طار عقله. طارد الكلب في كل مكان بمضرب كروكيه، صانعًا ثقبًا في الحائط، مهشِّمًا مجموعة من الأطباق على طاولة المطبخ في الطريق.

وبحلول اليوم التالي صنع مربطًا بسلسلة ضخمة في الفناء الجانبي، ووضع الكلب هناك، وهناك بقي الكلب فيما بعد. في تلك الفترة كان آرت متوترًا وخائفًا من المجيء إلى منزلي، فضَّل أن نلتقي في بيته. لم أرَ المغزى في البداية. بيته كان بعيدًا عن المدرسة، بحاجة إلى وقت طويل للوصول إلى هناك، بينما كان بيتي قاب قوسين منها أو أدنى.

سألته: «لِم أنت قلِق؟ الكلب مسلسَل في الحديقة، ليس الأمر كما لو أن الكلب سيكتشف فجأة كيفية فك السلاسل كما تعلم!».

كان آرت يعرف هذا، لكنه فضَّل عدم المجيء على أي حال. وحين فعل، كان بحوزته دائمًا بعض القطع من الإطارات المطاطية الخاصة بالدراجات لحمايته من أي حادث مفاجئ.

بمجرد أن بدأنا في الالتقاء بمنزل آرت أصبحت عادة، حتى إنني صرت أتساءل لِم كنا نلتقي في منزلي أصلًا قبل هذا. اعتدت المشي في الطريق ذاته لمرات طويلة حتى إنني مع الوقت توقفت عن ملاحظة أن حدود الطريق كانت بالطول الذي تظن معه أنها لن تنتهي أبدًا. صرت أتطلع إلى الذهاب إلى هناك، لنزهة ما بعد الظهيرة في الضواحي المتداخلة، مع المنازل المدهونة بألوان باستيل كأنها خرجت لتوها من عالم ديزني، الليموني، والبرتقالي كاليوسفي، والصدفي. حين كنت أعبر الطريق إلى الشارع المؤدي إلى منزل آرت، شعرت دائمًا أنني أمشي عبر مساحات شاسعة من السكون والنظام، في قلبها تشع كتلة من السلام والهدوء، هي بيت آرت، هي آرت ذاته.

***

لا يمكن لآرت الركض أو التحدث أو الاقتراب من أي شيء بنصل حاد، ولكن في منزله تمكنا من الترفيه عن أنفسنا. شاهدنا التلفاز. لم أكن مثل الأطفال الآخرين، ولم أكن أعرف شيئًا عن التلفاز. والدي كان يعاني صداعًا نصفيًّا رهيبًا طوال الوقت، وهذا عنى أنه التزم غرفة المعيشة طوال الوقت محتلًّا التلفاز طوال اليوم، متابعًا خمسة أنواع مختلفة من المسلسلات،

متحججًا بالصداع كما لو كان إعاقة. حاولت ألا أزعجه ونادرًا ما كنت أجلس معه لمتابعة أي شيء. شعرت بأن وجودي كان يشتّته.

لكن عند آرت، شاهدت كل ما أريد مشاهدته، وكان هو مستعدًّا لمشاهدة أي شيء أرغب في رؤيته، المشكلة أنني لم أكن أعرف كيف أستخدم جهاز التحكم عن بعد، أو كيف بوسعي الاختيار. فقدت معرفتي بسبب قلة استخدامه. كان آرت من هواة ناسا وبالتالي شاهدنا كل شيء له علاقة بالفضاء، لم نفوِّت أي فيلم وثائقي عن إطلاق مكوك فضائي.

كتب آرت: «أريد أن أصبح رائد فضاء، سأتكيف جيدًا مع انعدام الجاذبية في الخارج، بسبب انعدام وزني».

كان هذا عندما شاهدنا عملية بناء محطة الفضاء الدولية. تحدثوا عن مدى صعوبة قضاء الناس وقتًا طويلًا في الفضاء الخارجي. ضمور عضلاتك. ينكمش قلبك ثلاث درجات.

كتب آرت من جديد: «مزايا إطلاقي إلى الفضاء تزداد، ليس لديَّ أي عضلات للضمور، أو قلب ليتقلص. أقول لك، أنا رائد فضاء مثالي، خُلقت من أجل هذا!».

أجبته مازحًا: «أعرف الشخص المثالي لمساعدتك. إن سمحت لي بمكالمة بيلي سبيرز، سمعت عن رغبته في حشر صاروخ في مؤخرتك ورؤيتك تنطلق إلى الفضاء».

نظر إليَّ آرت بعينيه الضخمتين، ثم كتب سُبَّة من كلمتين في دفتره الورقي.

***

لم يكن التسكع أمام التلفاز في منزل آرت خيارًا متاحًا دائمًا؛ والده كان معلم بيانو يقدِّم دروسًا للأطفال في الغرفة ذاتها التي وضعوا بها التلفاز، وبالتالي في أوقات الدروس كنا ننتقل أنا وآرت إلى غرفته لنضيِّع وقتًا أمام شاشة الكمبيوتر الخاص به. المشكلة أن بعد نحو عشرين دقيقة من أصوات «جدِّف جدِّف جدِّف عبر النهر» القادمة من الأطفال بالأسفل، واستعدادنا التام لنطلق النار على بعضنا بعضًا، كنا نتبادل النظرات ثم نهرب قافزين عبر نافذة الحجرة دون حتى نقاش فيما سنفعله لاحقًا.

والدا آرت كانا موسيقيين، والدته كانت عازفة تشيلو، بجانب مهنة أبيه. أرادوا تعليم آرت الموسيقى لكنه كان خيبة أمل منذ البداية.

كتب في مرة: «بحق الله لا أستطيع حتى عزف صافرة».

كان البيانو خارج الحسبان، لأن آرت لم يمتلك أي أصابع، فقط إبهام ويد منتفخة تشكِّل باقي قبضته. احتاج إلى سنوات لتعلُّم مسك أقلام التلوين وكتابة ما يريد بشكل واضح مع يد كهذه. لأسباب واضحة كانت آلات النفخ كلها خارج الحسبة أيضًا، دون رئتين أو أنفاس. حاول تعلُّم الطبل لكنه كان عاجزًا عن الضرب بقوة كافية ليقترب من إجادته حتى.

اشترت له والدته كاميرا رقمية لتشجعه قائلة: «اصنع موسيقى بالألوان»، «اصنع ألحانًا من النور».

اعتادت السيدة روث دائمًا إبداء تصريحات غريبة كهذه. تتحدث عن أن لكل شيء أصلًا واحدًا، والجمال في الطبيعة وحكمة الأشجار، قالت قبلًا إن عدد الممتنين لرائحة العشب المقطوع غير كافٍ. أخبرني آرت أنني عندما لم أكن في الجوار، سألته عني، أخبرته أنها قلقة من عدم وجود منفذ صحي لإبداعي الداخلي، وأن عليَّ إطعام ذاتي الداخلية لأحقق السلام. اشترت لي كتابًا عن فن الأوريغامي رغم أنه لم يكن عيد ميلادي حتى، تعجبت حينها قائلًا لآرت: «لم أكن أعرف أن ذاتي الداخلية يمكن أن تشعر بالجوع!».

ورد آرت: «هذا لأنها بالفعل ماتت من الحرمان».

***

شعرت والدة آرت بالذعر عندما علمت أنه ليس لديَّ أي نوع من التدين. لم يأخذني أبي إلى الكنيسة أو يرسلني إلى مدرسة الأحد. قال إن الدين خدعة. كانت السيدة روث مهذبة جدًّا لدرجة أنها لم تتفوه بأي ملحوظة سلبية أمامي عن والدي، لكنها قالت أشياء عنه لآرت، وبدوره نقل آرت كلامها لي. أخبرت آرت أنه إذا أهمل والدي رعاية جسدي كما أهمل رعاية روحي، فسيكون في السجن، وسأكون في دار رعاية. أخبرت آرت أيضًا أنه إذا وُضعتُ في دار رعاية، فستتبناني، ويمكنني البقاء في غرفة الضيوف. أحببتها، وشعرت بقلبي ينفجر كلما سألتني إذا كنت أريد كوبًا من عصير الليمون. كنت سأفعل أي شيء تطلبه.

قلت لآرت: «والدتك غبية، أتمنى أن تعرف هذا. لا يوجد ما يُدعى بالوحدانية، أو الاتحاد بين البشر. كل واحد مسؤول عن نفسه، أي شخص يؤمن بأننا جميعًا إخوة في الروح سينتهي به الأمر أسفل مؤخرة كاسيوس في حصة الألعاب، يتنفس غازات بطنه».

أرادت السيدة روث اصطحابي إلى الكِنِيس، لا بغرض التبشير، فقط كتجربة تعليمية، للتعرف على ثقافات أخرى وكل ذلك. لكن والد آرت رفض رفضًا قاطعًا، لا فرصة، ليست مسؤوليتنا، هل أنتِ مجنونة! كانت تضع على سيارتها ملصقًا دينيًا وبجوارها كلمة فخر مع علامة تعجب.

لهذا السبب سألتُ آرت في إحدى المرات: «هيي آرت، لديَّ سؤال يهودي أريد أن أطرحه عليك، أنت وعائلتك مجموعة من اليهود الملتزمين، صحيح؟».

أجاب: «لا أعرف إن كانت صفة الملتزمين مناسبة، نحن متساهلون للغاية. لكننا نحضر الكنيس ونحتفل بالأعياد وما شابه».

سألت: «حسنًا، لِم تُختَنون؟».

كتب آرت: «كعرض للتحلي بالإيمان».

ثم تابع: «لكن ليس أنا، كان والداي صديقين لحاخام وتحدثا معه عن العملية بعد ولادتي مباشرة لمعرفة إن كان سيتعين عليهم فعلها».

- وماذا قال؟

- أخبرهما أنه لا يستطيع ختان شخص قد ينفجر في أثناء الطقس. ظنوا أنه يمزح لكنها أجرت بحثًا بعدها لتكتشف أنه لا داعي للختان ما دام يشكِّل خطرًا على حياتي.

قلت: «هذا مضحك».

***

اعتدت إثارة غيظ آرت بشأن والدته كلما حصلتُ على الفرصة، لم أستطع منع نفسي. كنت أبدأ الحديث فور أن تغادر الحجرة، أقول تعليقات من قبيل «بالنسبة إلى سيدة في عمرها ما زالت جميلة»، وفيمَ سيفكر آرت لو مات والده وتزوجت أنا والدته؟ على الجانب الآخر، لم يبدِ آرت قط أي ملاحظات بخصوص أبي، ولا كلمة خطأ بحقه. وإن رغب في إثارة غيظي، يكتب

الملحوظات عن جواربي غير المتطابقة، أو يسخر من طريقة لعقي لأصابعي بعد الأكل.

امتناع آرت عن التعليق على أبي لم يكن عصيًّا على الفهم، بل حمل السبب ذاته الذي دفعني للاستمرار في التعليق على والدته، كانت جيدة وبالتالي كان المزاح مقبولًا. لكن والدي؟ لو كان أعز أصدقائك قبيحًا، وأعني بقبيح مستوى غير ممكن من الدمامة، لن تمزح معه بشأن تحطيم المرايا.

في الصداقة -وبخاصة الصداقة بين ولدين- يُسمح لك بإلحاق قدر معين من الألم، هذا متوقَّع. لكن يجب ألا تتسبب أبدًا في إصابات خطيرة، يجب ألا تترك -تحت أي ظرف من الظروف- جروحًا تؤدي إلى ندبات دائمة.

***

كان منزل آرثر أيضًا المكان الذي نقرر فيه عادةً أداء واجباتنا المدرسية. نذهب إلى غرفته في وقت مبكر من المساء للدراسة. يكون والده قد انتهى من دروس البيانو بحلول ذلك الوقت، لذلك لم تكن هناك أي أصوات مزعجة آتية من الغرفة المجاورة لإلهائنا. استمتعت بالدراسة في غرفة آرت، واستجابت خلايا عقلي جيدًا للهدوء، أحببت العمل في مكان أحاطتني فيه الكتب، امتلك آرت رفوفًا ورفوفًا للكتب. أحببت وقت دراستنا معًا، لكنني لم أثق به أيضًا، لأنه خلال جلسات دراستنا ووسط كل هذا الهدوء، كان من المرجَّح أن يبدأ آرت في الحديث من جديد عن الموت.

عندما تحدثنا، حاولت دائمًا التحكم في المحادثة، لكن آرت كانت لديه القدرة على حشر الحديث عن الموت في كل محادثة ممكنة.

مثلًا حين قلت: «اخترعَ بعض العرب فكرة الرقم صفر، أليس هذا غريبًا؟ تخيل أنه كان على شخص ما أن يفكر في الصفر!».

أجابني: «لأن اللاشيء يمكن أن يكون شيئًا. هذا الشيء الذي لا يمكن قياسه أو رؤيته يمكن أن يظل موجودًا وله معنى. الشيء نفسه مع الروح، لو فكرت في الأمر».

في مرة أخرى في أثناء دراستنا لاختبار علوم سألت: «صح أم خطأ، الطاقة لا تفنى ولا تُستحدث من عدم، لكن يمكن تغييرها من شكل إلى آخر».

ليجيبني آرت: «أتمنى أن تكون هذه المعلومة صحيحة، لأنها تعني أنك ستستمر في الوجود بعد وفاتك، حتى لو تحولت إلى شيء مختلف تمامًا عما كنت عليه».

أخبرني بالكثير عن الموت وما قد يتبعه، لكن ما أذكره بشكل أفضل هو ما قاله عن المريخ. كنا نقدم عرضًا تقديميًا معًا، وقد اختار آرت كوكب المريخ كموضوع لنا، الفكرة تناولت عما إذا كان الرجال سيذهبون إلى هناك يومًا محاوِلين استصلاحه أم لا. كان آرت مهووسًا ومتحمسًا لفكرة استعمار المريخ، والمدن تحت الخيام البلاستيكية، وتعدين المياه من الأعمدة الجليدية. أراد آرت الذهاب بنفسه إلى هناك يومًا.

قلت له: «الخيال ممتع، ربما، لكن في الحقيقة كل هذا هراء. كل شيء أحمر. ستصاب بالعمى لو نظرت دائمًا إلى اللون الأحمر. كما سيكون كله كتلة من التراب البارد، سنتجمد من البرد هناك. لا ترغب حقًّا في فعل هذا صدقني، في الرحيل إلى هذا العالم وعدم العودة أبدًا».

حدق آرت إلى وجهي لبرهة طويلة، ثم انحنى رأسه، وكتب ملاحظة موجَزة بلون أزرق كالياقوت: «سأفعل هذا على أي حال، كلنا سنفعله في وقت ما».

ثم كتب: «كلنا يحصل على حياة رائد الفضاء سواء أردناها أم لا، في مرحلة ما سنترك جميعًا العالم إلى جانب آخر لا نعرف عنه أي شيء. هذا معنى كوننا أحياء في المقام الأول».

***

في الربيع، اخترع آرت لعبة تسمى «القمر الصناعي المراقب». عثرنا على مكان في وسط المدينة متخصص في بيع مستلزمات الحفلات، وهناك يمكنك شراء مجموعة من البالونات الممتلئة بالهيليوم مقابل مبلغ بسيط. اتفقت مع آرت أنني سأحصل على حفنة منها، سنلتقي في مكان ما وبحوذة آرت كاميرته الرقمية.

بمجرد أن سلمته البالونات، ابتعد عن الأرض محلِّقًا في الهواء. بينما كان يطفو هناك مع البالونات حملته الرياح بعيدًا. حين يصل إلى ارتفاع يرضيه كان يترك بالونتين، ثم يبدأ في التقاط الصور، وهكذا. عندما يصبح مستعدًّا للنزول بشكل كامل كان يترك البالونات كلها ليهوي أرضًا، وكنت أتحرك أنا

للقائه في المكان الذي هبط فيه. ثم نذهب معًا إلى بيته لمشاهدة الصور على حاسوبه الشخصي، صور لأشخاص يسبحون بمسبحهم الخاص، رجال على سطح منازلهم، صوري وأنا أقف في الشارع ووجهي بقعة صغيرة بلا ملامح على هذا البعد. الصور كلها ظهر بها حذاء آرت يتدلى من الحافة السفلية لإطار الصورة.

بعض الصور كانت أفضل حين التقطها من ارتفاعات منخفضة، عندما كان على بعد أمتار قليلة فقط من الأرض، مثل الوقت الذي حمل فيه ثلاثة بالونات فقط ليسبح في الهواء فوق بيت كلبنا، في جانب منزلي. أمضى الكلب طوال النهار مربوطًا بالسلسلة، ينبح بشكل محموم على النساء اللواتي يعبرن جوار البيت مع عربات أطفال، أو على شاحنة الآيس كريم، أو السناجب. دار في كل مكان سمحت له به السلسلة حتى حدود السور، تناثرت حوله عشرات من أكوام الطعام المجفف والفضلات. وسط المشهد كان الكلب نفسه. وفي كل صورة التقطها آرت له كان يقفز على ساقيه الخلفيتين وفمه مفتوح يبرز اللسان الوردي داخله، عيناه مثبتتان على حذاء آرت الرياضي.

بعد تلك الصور قال آرت: «أشعر بالسوء، يا لها من ظروف سيئة ليعيش فيها الكلب!».

أجبته: «لا تفكر بمؤخرتك، الكلاب مثل سعيد هذا ستجعل المكان أبشع لو أُطلِق سراحها، الفضلات وبقايا الطعام حوله هي فكرته عن حديقة مثالية».

علَّق آرت كاتبًا: «هذا ما لا أتفق معه مطلقًا!».

لكن الوقت لم يغيِّر من آرائي في هذا النقاش. في اعتقادي -كقاعدة عامة- أن مخلوقات من أمثال كلبي، وهنا أعني الكلاب والبشر على حد سواء، غالبًا ما يركضون أحرارًا بدلًا من العيش في أقفاص، ورغم هذا ما يرغبون في رؤيته دائمًا هو عالم من الطين والبراز، بلا فن أو ترتيب، عالم لا أمل فيه أو أحاديث عن الثقافة أو الكتب أو الروحانيات أو الغرائبيات. عالم كل المسموح فيه هو النباح الهستيري للجوع والكراهية.

***

في صباح أحد أيام السبت، في منتصف أبريل، فتح والدي باب غرفة النوم، وأيقظني برمي حذائي الرياضي على سريري: «عليك الذهاب إلى طبيب الأسنان بعد نصف ساعة. اضبط مؤخرتك على وضع السرعة القصوى».

تمشيت إلى المكان، كان على مسافة بضع بنايات فقط، وجلست في غرفة الانتظار لمدة عشرين دقيقة وأنا في حالة نعاس من الملل، قبل أن أتذكر فجأة أنني وعدت آرت بالذهاب إلى بيته بمجرد استيقاظي. سمح لي موظف الاستقبال باستخدام الهاتف للاتصال به، وأجابت والدته: «غادر ليرى ما إذا كان سيجدك في منزلك».

اتصلت بوالدي فقال: «لم يأتِ، أنا لم أرَه».

- ترقَّب وصوله إذن.

- نعم، نعم في الواقع. لديَّ صداع، وآرت يعرف كيف يستخدم جرس الباب.

جلست على كرسي طبيب الأسنان، وبفمي مذاق الدم والنعناع، عانيت عدم الارتياح ونفاد الصبر، ربما لأنني لم أثق بوالدي ليكون لائقًا مع آرت في غيابي. واصل مساعد طبيب الأسنان لمس كتفي طالبًا مني الاسترخاء.

عندما انتهيت أخيرًا وخرجت، كانت زرقة السماء باهرة وصافية. سطعت الشمس بقوة حتى إنها آلمت عينيَّ. كنت مستيقظًا لمدة ساعتين الآن لكن ما زلت أشعر برأسي قطنيًّا وباهتًا، وعانيت لأبقى منتبهًا.

ركضت.

أول شيء رأيته عندما اقتربت من منزلي كان الكلب، بلا سلسلة، لم ينبح في وجهي، كان على بطنه بين العشب، رأسه بين كفوفه، رفع رأسه الناعس ليشاهدني أقترب، ثم ترك عينيه تنغلقان من جديد. حاولت معرفة ما إذا كان مستلقيًا فوق كومة من البلاستيك الممزَّق. عندما سمعت صوت نقر ضعيف خلفي. أدرت رأسي لأرى آرت في الجزء الخلفي من سيارة والدي الكبيرة، ينقر بيديه على الزجاج برفق. اتجهت إلى الباب وفتحته. في تلك اللحظة قفز الكلب عن العشب لينبح بهستيريا. أمسكت بكلتا ذراعَي آرت وبدأت في الركض.

أغلقَت أسنان الكلب على قطعة من ساقي الراكضة. سمعت صوت تمزيق، وتعثرت، لكنني ظللت أركض.

ركضت حتى مزق الألم جانبي، وحين لم يعد هناك كلب على بعد ستة مبانٍ على الأقل مختبئًا في حديقة شخص ما بدأت في تفحص ساقي. كان سروالي مشقوقًا من ركبتي إلى كاحلي. تنفست بقوة غير قادر على إصدار أي صوت عدا الصرير المتألم في مواجهة المشهد أمامي.

آرت بدا غريبًا، وقد فقد لونه الأبيض المعتاد، وصار جسده ذا غسق ذهبي الآن وقد تقلص إلى نصف حجمه تقريبًا. منظره كان كقطعة المارشميلو المحمَّصة أكثر من اللازم. انساب رأسه على جسده، وبدا كما لو كان قد فقد القدرة على رفعه من جديد.

كان آرت يعبر حديقتنا الأمامية حين انقضَّ الكلب فجأة من خلف إحدى العجلات. في اللحظة المناسبة أدرك آرت أنه لن يتمكن من التفوق على سرعة الكلب بالركض، الركض سيتركه مع مؤخرة مثقوبة بجروح مميتة لا أكثر. عوضًا عن هذا قفز إلى داخل العربة وأغلق الباب. النوافذ كانت أوتوماتيكية ولم يكن هناك أي طريقة لفتحها أو فتح الباب نفسه، حاول الكلب الدخول لكنه لم يستطع. ولأن الحرارة تخطت العشرين بالخارج فقد قاربت الأربعين في الداخل. راقب آرت بفزع الكلب وهو ينتظر بجوار السيارة.

جلس الكلب على العشب سعيدًا بالحصار، لم يتحرك. أنصت آرت إلى جزازات العشب في البعيد، مرت الساعات، وبدأ الفتى في الذبول من الحرارة. صار مريضًا ومترنحًا، شاعرًا بجلده البلاستيكي ينصهر ليلتصق بالمقاعد. كتب لي وهو يحكي: «ثم ظهرت أنت في الوقت المناسب، وأنقذت حياتي».

امتلأت عيناي بالدموع، لم آتِ في الوقت المناسب على الإطلاق. وآرت لم يعد كما كان قط. بقي جلده مصفرًا وعانى مشكلة الانكماش. استمر والداه في ضخه بالأكسجين ولفترة من الوقت بدا أنه سيكون على ما يرام، لكنه سرعان ما يعود ليترهل من جديد. ألقى الطبيب نظرة واحدة عليه وأخبر والديه ألا يؤجلا رحلة عالم ديزني لسنة أخرى.

أنا أيضًا بدأت بالمعاناة، وقعت في حالة مرعبة من البؤس. لم يعد بإمكاني الأكل، أو النوم، عانيت آلامًا بشعة بمعدتي.

قال والدي ذات ليلة على العشاء: «امسح تلك النظرة عن وجهك وتقبل الأمر. الحياة تستمر».

حاولت تقبل الأمر بالفعل، رغم أنني أعرف أن سلسلة الكلب لم تنفك من تلقاء نفسها، أحدثتُ ثقوبًا في إطارات سيارة والدي من فرط الغضب، وتركت المدية بها حتى يعرف والدي مَن فعلها، فور أن رآها طلب رجال الشرطة لاعتقالي.

وضعوني في سيارة الدورية، تحدثوا معي لوقت طويل، أخبروني بأنهم سيعيدونني إلى المنزل إن التحقت ببرنامج إعادة تأهيل. في اليوم التالي حبست الكلب في السيارة ووضعت فضلاته على مقعد السائق. رد فعل والدي كان أن جمع كل الكتب التي أهداني آرت إياها، برنارد مالامود وراي برادبري وإسحاق باشيفيس سينجر، وأحرقهم على الشواية.

سألني وهو يضع البنزين عليهم: «ما شعورك الآن أيها الغبي؟!».

أجبته: «لا أبالي».

في ذلك الصيف، أمضيت الكثير من الوقت بصحبة آرت، الذي كتب لي: «لا تغضب. لا أحد يستحق اللوم».

قلت: «أخرج رأسك من مؤخرتك».

لكن بعد ذلك لم أستطع قول أي شيء آخر لأن مجرد النظر إليه دفعني إلى البكاء.

***

في أواخر أغسطس اتصل بي آرت، أراد أن نلتقي عند تلة على بعد أربعة أميال من منطقة «سكارسويل كوف». بحلول ذلك الوقت كنت معتادًا المشي لمسافات كبيرة بسبب رحلاتي إلى منزله، لذا لم أجد أي مشكلة في المشي إلى هناك، كانت بصحبتي العديد من البالونات تمامًا كما طلب مني.

سكارسويل كان شاطئًا مظللًا ومغطى بالحصى أمام البحر، حيث يذهب الناس للصيد مستغلين حركة المد والجزر. لم يكن هناك أحد باستثناء صيادين عجوزين جالسين على الشاطئ المنحدر. آرت أيضًا كان هناك، بدا جسده ناعمًا ومتهدلًا ورأسه مائلًا إلى الأمام، ورقبته القصيرة شبه مختفية، جلست جواره. أمامنا على بعد أقل من كيلومتر، ضربت الأمواج -الثلجية ذات الزرقة الشاحبة- الشاطئ.

سألته: «ماذا يحدث؟ لِم نحن هنا؟».

كتب: «هل تعلم أن الناس قد وصلوا إلى الفضاء الخارجي دون صواريخ؟ حلَّق تشاك ييغر بطائرة نفاثة عالية الأداء، عاليًا لدرجة أنها بدأت تسقط إلى أعلى وليس إلى أسفل. حلَّق عاليًا للغاية، فقدت الجاذبية السيطرة عليه. كانت طائرته تندفع إلى خارج طبقة الستراتوسفير. ذاب كل اللون من السماء. بدا الأمر وكأن السماء الزرقاء عبارة عن ورق، مع ثقب يحترق في منتصفها، وخلفها كان كل شيء أسود. كل شيء كان مليئًا بالنجوم. تخيَّل!».

نظرت إلى رسالته، ثم إلى وجهه. عاد يكتب مرة أخرى. كانت رسالته الثانية أبسط: «وصلت إلى النهاية، جديًا، ضقت ذرعًا بكل شيء، أُفرَغ من الهواء من 15 إلى 16 مرة في اليوم وأحتاج إلى شخص ليضخني بالهواء كل ساعة. أشعر بالمرض طوال الوقت وأكره هذا، هذه ليست طريقة للحياة».

قلت: «أوه لا، لا آرت...».

اغرورقت عيناي بالدموع: «الأمور ستتحسن».

كتب آرت ببساطة: «لا، لا أعتقد ذلك. لم يعد الأمر يتعلق بما إذا كنت سأموت. يتعلق الأمر بمعرفة أين سألقى نهايتي. ولقد قررت».

نظر إليَّ ثم كتب: «سأرى إلى أي مدى يمكنني أن أرتفع. أريد أن أرى ما إذا كان هذا صحيحًا. إذا كانت السماء مفتوحة بالأعلى».

***

لا أذكر ماذا قلت له وقتها. أعتقد أنني صحت بالكثير من الأشياء. طلبت منه ألا يفعل ذلك، وألا يتركني. قلت إن ذلك ليس عادلًا. قلت إنه ليس لديَّ أي أصدقاء آخرين. قلت إنني كنت دائمًا وحيدًا. تحدثت حتى أصبح كل شيء داخلي مصدومًا ومختنقًا، حتى بكيت عاجزًا عن التفوه بالمزيد. أمسكني بذراعيه البلاستيكيتين وأخفيت وجهي في صدره.

أخذ البالونات مني وربطها حول معصم واحد. أمسكت بيده الأخرى وسرنا إلى حافة الماء. اندفعت الأمواج وملأت حذائي الرياضي. كان البحر شديد البرودة مما جعل عظام قدمي تنبض. حملته وأمسكته بكلتا ذراعيَّ وضغطت عليه حتى أصدر صريرًا حزينًا. تعانقنا لفترة طويلة، ثم فتحت ذراعيَّ.

تركته يذهب، آملًا أنه إذا كان هناك عالم آخر فعلًا، حياة أخرى بعد حياتنا، فلن يُحكَم علينا بقسوة شديدة على الأشياء التي ارتكبناها بشكل خاطئ هنا، على الأقل أن تُغفر لنا الأخطاء التي ارتكبناها بدافع الحب. كنت أعرف أن ما أفعله خاطئ بشكل ما، تركه يذهب. لكنني تركته. حلّق بعيدًا وحوَّل مساره تيار الهواء، كان ينظر إليَّ وهو يتمايل فوق الماء، وذراعه اليسرى مرفوعة عاليًا فوق رأسه، والبالونات متصلة بمعصمه. مال رأسه بزاوية، لذلك بدا وكأنه يراقبني.

جلست على الشاطئ وشاهدته يذهب، راقبته حتى لم يعد بإمكاني تمييزه عن طيور النورس التي كانت تحلق ثم تغطس فوق الماء، على بعد أميال قليلة. بدا مجرد بقعة واحدة تسبح في السماء. لم أتحرك. لم أكن متأكدًا من أنني أستطيع القيام. بمرور الوقت، صار الأفق أكثر دكنة، وحملت السماء درجات أكثر من الأسود وأقل من الأزرق والرمادي. تمددت على الشاطئ، مراقبًا النجوم تتدفق عبر الظلام في السماء. راقبت حتى نال مني النعاس، افترشت الأرض ونمت في عتمة الليل.

عندما بدأت الدراسة مرة أخرى كنت أعاني مشكلات نفسية، أبكي لرؤية أي مكتب فارغ، لم يعد بإمكاني أداء واجباتي المنزلية أو الرد على الأسئلة. رسبت وصرت مضطرًّا إلى إعادة الصف مرة أخرى.

والأسوأ من هذا، لم يعد أحد يخشاني بعد الآن. كان من الصعب أن يخافوني بعد رؤيتي أبكي عدة مرات. لم يعد لديَّ مديتي، صادرها والدي، ضربني بيلي ذات يوم بعد المدرسة حتى فقدت إحدى أسناني ونزفت شفتاي، تلاه جون إريكسون. الذي كتب على جبهتي بقلم يصعب مسحه «الحقيبة القذرة»، كانت مفرداته غير واضحة وقضيت فترة طويلة أحاول فهم ما كتب.

نصب لي كاسيوس ديلاميتري كمينًا في يوم آخر، أمسك بي وطرحني أرضًا ليقفز فوقي ساحقًا إياي تحت ثقله، غادر الهواء رئتيَّ وانكمشت على الأرض مهزومًا، الآن فهمت ما كان يشعر به آرت.

تجنبت عائلة روث. أردت أكثر من أي شيء أن أرى والدة آرت، لكنني بقيت بعيدًا. كنت خائفًا إذا تحدثت معها، فسوف أفقد السيطرة على نفسي وأفشي السر، أنني كنت هناك في النهاية، وأنني وقفت بين الأمواج وتركت آرت يذهب. كنت خائفًا مما قد أراه في عينيها. من جرحها وغضبها.

بعد أقل من ستة أشهر من العثور على جثة آرت المنكمشة وهي تنزلق في الأمواج على طول شاطئ سكارسويل الشمالي، كانت هناك لافتة للبيع أمام مزرعة روث. لم أرَ أيًّا من والديه مرة أخرى. كتبت لي السيدة روث أحيانًا رسائل تسألني عن حالتي وماذا كنت أفعل، لكنني لم أرد مطلقًا.

خرجت عن مساري المعتاد في المدرسة الثانوية، لأبدأ بممارسة رياضة القفز بالزانة، حققت أداء رائعًا حتى إن مدربي في السباقات قال إن قانون الجاذبية لا ينطبق عليَّ، كان غبيًّا لا يعرف أي شيء عن الجاذبية، لأنني وبغض النظر عن المدى الذي ارتفعته بعد قفزاتي، كنت أحط دائمًا عائدًا إلى الأرض، تمامًا مثل أي بشري آخر.

أكسبتني رياضة القفز منحة في كلية حكومية، بقيت وحيدًا هناك واحتفظت بأسراري لنفسي. لم أتعرف على أحد في الكلية وأعدت أخيرًا بناء صورتي المفقودة كمعتل اجتماعيًّا. تحاشيت الحفلات، لم أواعد الفتيات، لم أتعرف على أي شخص، صرت منبوذًا.

كنت أعبر الحرم الجامعي ذات صباح، حين رأيت فتاة صغيرة تتجه نحوي، بشعر أسود داكن كسواد الليل، لامع وكأنه منقوع بالزيت. ارتدت سترة ضخمة وتنورة بطول الكاحل. زي حيادي للغاية كأمين مكتبة. على الرغم من ذلك، كانت تملك هيئة مذهلة، أردافًا نحيفة، نهدين ناضجين، عينين متسعتين زرقاوين كالكريستال، وبشرتها بيضاء مثل آرت.

كانت هذه المرة الأولى التي أرى فيها شخصًا جديدًا قابلًا للنفخ منذ أن انجرف آرت بعيدًا مع بالوناته. صفر شاب خلفي كالذئب حين عبرت، تركته يمر جواري وحين اقترب مني مددت قدمي ليتعثر ويسقط. تطايرت كتبه في كل مكان قبل أن يصرخ: «هل أنت مختل؟!».

أجبته: «نعم، بالضبط».

كان اسمها روث جولدمان، وكان لديها رقعة مطاطية دائرية على كعب إحدى القدمين حيث خطت على قطعة من الزجاج المكسور عندما كانت طفلة صغيرة، وقطعة مربعة أكبر على كتفها اليسرى حيث طعنها فرع حاد ذات مرة في يوم عاصف. أنقذها التعليم المنزلي والوالدان المهووسان بالحماية من المزيد من الضرر. كانا متخصصين في اللغة الإنجليزية.

كان كاتبها المفضل كافكا، لأنه يفهم الشر والعبثية. كان الكاتب المفضل لديَّ هو مالامود لأنه يتفهم الشعور بالوحدة.

تزوجنا في العام ذاته الذي تخرجت فيه. وعلى الرغم من أنني بقيت متشككًا في مبدأ الحياة الأبدية، فإنني بدأت أخيرًا في الحديث معها بأريحية عن الروح، الحياة الأخرى، ماذا يحدث بعد الموت. هل بوسعي ادعاء أنني تحولت إلى الإيمان بتلك المعتقدات؟ لا، لأنني لم أكن مؤمنًا بأي شيء في البداية لأتحول عنه.

كان حفل زفافنا يهوديًّا، مع كؤوس بدأت تحت قطعة قماش بيضاء، وانتهت مطحونة أسفل كعوب الأحذية.

ذات يوم أخبرتها عن آرت. كتبت لي بقلم رصاص شمعي: «هذا محزن جدًّا. آسفة للغاية».

وضعت يدها على يدي وسألت: «ماذا حدث؟ هل نفد منه الهواء؟».

أجبت: «بل نفدت منه السماء».

***

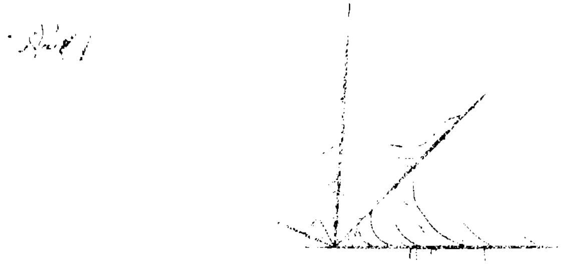

ستسمع الجراد يغني

1

استيقظ فرانسيس كاي من أحلام لم تتركه مضطربًا كالكوابيس، بل مبتهجًا، وجد نفسه بها وقد تحول إلى حشرة.

لم يتفاجأ، كان يعتقد أن هذا قد يحدث. ليس كما حدث بالضبط لكن شيئًا من هذا القبيل. فكر بأمل، بتخيُّل، ولفترات طويلة، أنه مع الوقت سيتعلم السيطرة على الصراصير عن طريق التخاطر، وبالوقت أيضًا سيصنع جيشًا منها ليبعث بها كي تقاتل من أجله، كما في ذلك الفيلم بطولة «فينسينت برايس». حتى ولو لم يتحول بصورة كاملة، ربما يتحول جزئيًّا، ربما رأسه فقط، يتحول ليصبح رأس ذبابة ينبت الشعر الأسود الأشعث منه، وعيناه المنتفختان تصيران عاكستين كمرآة ترى فيها آلاف الوجوه الصارخة.

كان لا يزال يرتدي جلده السابق مثل معطف، جلد ما كان عليه عندما كان إنسانًا.

أربع من أرجله الست خرجت من الفتحات المعتادة للأطراف في ردائه اللحمي الرطب، الشاحب، ذي الدمامل والرائحة الكريهة. حين رأى جلده القديم المتهاوي شعر بقليل من النشوة، أيها الرب الرحيم! جسده بدا غريبًا وهو مستلقٍ على ظهره، ساقاه المفتوحتان ذات المفصلات، انثنتا للأمام والخلف متمايلتين بلا حول ولا قوة فوق جسده. كانت ساقاه مغطاتين بقشور منحنية باللون الأخضر المعدني اللامع، لامعة مثل الكروم المصقول،

وفي الشمس التي انسلت عبر نوافذ غرفة نومه، لمع سطحها بانعكاس لألوان قزح، انتهت بخطافات سوداء محنية تخرج منها آلاف الشعيرات التي تشبه الشفرات.

لم يكن فرانسيس مستيقظًا تمامًا بعد، كان يخشى اللحظة التي يذهب فيها النوم عنه وينتهي الحلم بالكامل، يعود جلده لينغلق على جسده كالمعطف المناسب تمامًا، يختفي شكل الحشرة. استمر في محاولة التظاهر بالنوم لبعض الدقائق الأخرى بعد الاستيقاظ، معتقدًا أن اللحظة التي سيدرك فيها عقله بالكامل أن كل هذا من صنع خياله، ستقتله خيبة الأمل. سيُشق رأسه نصفين، لن يتمكن من التحمل حتى إنه سيضطر إلى تأجيل الذهاب إلى المدرسة اليوم.

ثم تذكر أنه كان يخطط لتخطي المدرسة على أي حال. اعتقد هيوي تشيستر أن فرانسيس كان يراقبه بطريقة غريبة في غرفة خلع الملابس بالصالة الرياضية، وقت تبديل ملابسهم بعد الحصة. أخرج هيوي غائطًا من المرحاض بعصا وألقاه على فرانسيس ليعلمه ألا يحدق إلى الرجال الآخرين، أثار الفعل حماسه حتى إنه قرر أن الفعلة تستحق تحولها إلى رياضة جديدة خاصة. خاض هيوي والشباب الآخرون نقاشًا حول ما يمكن تسمية رياضتهم الجديدة تلك. حازت «تفادي الغائط» التفضيل، ثم «الفضلات بعيدة المدى»، التي جاءت في المركز الثاني. وبالتالي قرر فرانسيس وقتها البقاء بعيدًا عن هيوي تشيستر وعصابته وصالة الألعاب الرياضية بل والدراسة بأكملها يومًا أو يومين حتى تهدأ الأوضاع.

أحب هيوي فرانسيس قبلًا، أو لم يحبه بالضبط لكنه استمتع باستعراض قدراته أمام الآخرين، استمتع برؤية فرانسيس يأكل الحشرات أمام الجميع. كان هذا في الصف الرابع. في الصيف السابق، أقام فرانسيس مع عمته ريغان في مقطورتها في مدينة توبا. ريغان التي داومت على صناعة وجبة من الجراد المغطَّس في دبس السكر، لتطهوه قبل تقديمه بعد الظهيرة مع الشاي.

كان مشهدًا مميَّزًا حقًّا، رؤيته وهو يُطبَخ. اعتاد فرانسيس الاتكاء على وعاء دبس السكر المملوء بالفقاعات برائحته التي لعبت على الخيط الشاحب بين المحبب والكريه. يراقب غرق الجراد الصغير بنشوة. أحب مذاقه المقرمش

مع الطعم الزيتي العشبي المميَّز والسكر. وأحب ريغان، تمنى لو يبقى معها إلى الأبد، لكن والده جاء بالطبع واصطحبه بعيدًا.

لذا في أحد الأيام في أثناء المدرسة وقع في خطأ إخبار هيوي عن الجراد المغطى بالسكر، وهيوي بالطبع رغب في رؤيته يأكل الحشرات. لم يكن الجراد أو دبس السكر متاحًا، لذا لجأ فرانسيس إلى اصطياد صرصور وأكله. كره الطعم البشع والمرير، كره المذاق المعدني القذر الذي تركه على لسانه، لكن هيوي ضحك، وشعر فرانسيس بالفخر لأنه جعله يضحك. مثل الجراد الغارق في دبس السكر، شعر فرانسيس وقتها باختناق ممزوج بالحلاوة.

بعد ذلك الموقف جمع هيوي أصدقاءه لعرض المسخ الذي يأكل الصراصير. جلبوها معهم، تناولها فرانسيس، سحق عثة بأجنحة خضراء شاحبة والتهمها، سأله الأطفال عما شعر به وكيف كان مذاق الحشرات، رد على السؤال الأول بـ: «جائع».

والسؤال الثاني بـ: «مثل مذاق أعشاب الحديقة».

سكب العسل لجذب النمل، ثم شفطه بأنبوب بلاستيكي ليختفي في فمه واحدة تلو الأخرى. ارتفعت الآهات من الجمهور، وابتسم سكران بحلاوة شخصيته الجديدة. لم يكن مشهورًا من قبل، عانى الوحدة كثيرًا، لذا كان على أتم استعداد لاحتمال ما لا يمكن تحمله ليحظى بإعجابهم. ما أخطأ في تقديره هو ما سيحتمله جمهوره نفسه. في فترة ما بعد الظهيرة في إحدى المرات، أمسك بمجموعة من الذباب الطائر حول فضلات كلب ما، وابتلعها، مستمتعًا بأنين القرف الصادر من المجموعة حوله. لكن الذباب على الفضلات كان طعمه مروِّعًا، مختلفًا تمامًا عن الجراد المحاط بالسكر أو النمل.

أزعج الطعم معدته، وبدأ الجميع فيما بعد بمناداته بخنفساء الروث القذرة. ذات يوم وجد فأرًا ميتًا موضوعًا في صندوق طعامه. في حصة الأحياء، رشقه هيوي وأصدقاؤه بالضفادع منتزَعة الأحشاء وقت خروج السيد كروس من الصف.

استلقى فرانسيس على سريره تاركًا نظراته تنجرف عبر السقف، من خيوط الحشرات الدقيقة المتلوية إلى ذرات التراب العالقة في أشعة الشمس، تتذبذب بفعل النسيم الخافت الذي لم يكن كافيًا لكسر الحرارة، والذي صنعته المروحة المتهالكة في الزاوية. كان يعيش بمفرده مع والده وصديقة والده،

في الغرفة بمؤخرة محطة الوقود. تطل النوافذ على أشجار يابسة وحشائش تكلل طريق مجرى مائي مغطى بالقمامة قرب مكب نفايات البلدة. يليها تل صغير، ثم الجانب الآخر حيث الشقق المطلية بالأحمر حيث سقطت القنابل وانفجرت في بعض الليالي.

رآها مرة واحدة، القنبلة. حدث هذا عندما كان في الثامنة. بذاك اليوم استيقظ على دفقة الرياح والدخان في الجزء الخلفي من محطة الوقود، ورأى أعشابًا متناثرة يحملها الهواء. وقف على سريره، لينظر من خلال إحدى النوافذ العالية في الحائط، ورأى الشمس تشرق من الغرب في الساعة الثانية صباحًا، كرة غازية من ضوء النيون الملوَّن بالدم، تغلي في السماء وسط عمود رفيع من الدخان. راقبها حتى شعر بألم شديد يتصاعد في مؤخرة مقلتَي عينيه.

***

تساءل عما إذا كان الوقت قد تأخر. لم يمتلك ساعة، لكنه لم يعد قلقًا بشأن الوقت في الآونة الأخيرة. نادرًا ما لاحظه أساتذة الصف على أي حال، أو لاحظه أحد إن ولج غرفة في المجمل. أنصت لبعض الوقت للأصوات الآتية من العالم خارج غرفته. سمع التلفاز، مما يعني أن «إيلا» كانت مستيقظة. كانت إيلا صديقة والده، امرأة سمينة ذات ساقين ممتلئتين بالدوالي تقضي اليوم كله على الأريكة أمام الشاشة.

كان جائعًا، عليه أن ينهض قريبًا. مع ذاك التفكير أدرك فجأة أنه ما زال يمتلك جسد حشرة. استيعاب فجائي نبَّه حواسه كافة مرة واحدة.

نظر حوله، تساءل إذا ما كان جلده القديم قد انزلق عن ذراعيه وعلق به، أراد أن يرى ما إن كان بوسعه التحديق إلى وجهه القديم وقد تكوم على الأرض.

حاول الوصول إلى الحائط، استخدم جسده ليدير نفسه، لكن حركاته كانت غير متناسقة ورجلاه ذاتا المفاصل ترتعشان وترفرفان في كل اتجاه ما عدا الذي يرغب فيه. شعر بضغط غازي أسفل بطنه، حاول الجلوس، وفي تلك اللحظة أدى الضغط إلى انفجار آتٍ من مؤخرته. أصدر صوتًا مثل الهواء العابر من ثقب إطار. شعر بدفء غير طبيعي حول رجليه الخلفيتين، ونظر إلى الأسفل في اللحظة المناسبة ليرى غازًا يتماوج عبر الهواء، كالحرارة التي تخلِّفها الشمس الحارقة وإطارات الشاحنات على الطريق السريع.

كان هذا مضحكًا. ضرطة حشرة آدمية، أو ربما اسم حركة أمعاء وحش حشري ملائم أكثر؟ لم يكن متأكدًا بعد من الاسم الذي سيطلقه على ما حدث، لكنه اعتقد أنه شعر بالبلل هناك. ارتجف من الضحك، وللمرة الأولى أصبح مدركًا لبعض الصفائح النحيفة والصلبة، المحصورة بين منحنى ظهره والزوائد المتكتلة من جسده السابق. تساءل عن ماهيتها. كانت جزءًا منه، وشعر أنه قد يكون قادرًا على تحريكها مثل ذراعيه، فقط لم يكونا ذراعين.

تساءل عما إذا كان أي شخص سينتبه إلى ما يحدث له، تخيل نقرات إيلا على الباب، قبل أن تطل برأسها للداخل، كيف ستصرخ، وكيف سيسقط فمها مفتوحًا على مصراعيه بحيث يبرز ذقنها المزدوج، وعيناها الشبيهتان بعينَي الخنزير تحدقان إليه، لامعتين بنظرة مرتاعة. لكن لا، إيلا لا تأتي إلى غرفته أبدًا.

شكَّل القيام عن الأريكة مشكلة كبيرة بالنسبة إليه. لفترة من الوقت اعتاد أن يحلم بخروجه في يوم من الأيام من غرفته على ست أرجل، سائرًا أمامها مباشرة، كيف ستصرخ وتتراجع مرعوبة! هل كان موتها بنوبة قلبية احتمالًا واردًا؟ تخيل أن صرخاتها تخنقها، والجلد الموجود تحت مكياجها الرخيص يتحول إلى لون رمادي منطفئ، جفونها تتراجع، والعينان تتدحرجان ليختفي البؤبؤ إلى داخل جمجمتها وتتحول مقلتاها بالكامل إلى كتلة من البياض اللامع.

اكتشف فرانسيس أن بوسعه القفز عن طريق رفع جسده بالكامل إلى الأعلى ثم إلى الجانب ليتحرك، متحركًا أقرب لحافة الفراش، بدأ في رسم سيناريو لما بوسعه فعله بعد إصابة إيلا بالنوبة القلبية. بعين عقله تخيل ترك البيت ليتقافز عبر وهج صباح أريزونا الحار إلى منتصف الطريق السريع، رأى في رأسه بالفعل السيارات تنحرف لتتجنب الاصطدام به، أبواقها تصرخ، إطاراتها تئن على الأسفلت. الناس يقودون السيارات مباشرة لتصطدم بأعمدة الهاتف.

الجميع يصرخ: «ما هذا الشيء اللعين؟!»، يسحبون بنادقهم عن الرفوف... لا، بإعادة التفكير. ربما كان قرار الابتعاد عن الطريق السريع أقرب إلى الصواب.

أراد شق طريقه إلى منزل إريك هيكمان، ليذهب إلى الطابق السفلي وينتظره هناك. كان إريك نحيلًا في السابعة عشرة من العمر مصابًا باضطراب جلدي أدى إلى ظهور عشرات الحبوب على وجهه، نبت من معظمها شعر أسود كثيف كشعر العانة، نما كذلك من زوايا فمه ليبدو كشوارب الأسماك. لذا بات معروفًا في جميع أنحاء المدرسة باسم «سمكة الخنزير». التقيا معًا -فرانسيس وإريك- أحيانًا لمشاهدة الأفلام، معًا شاهدا فيلم «الذبابة» مرتين.

أحب فرانسيس إريك، لكنه عرف أنه سيتبول على نفسه لو رآه هكذا. على الجانب الآخر، كان إريك ذكيًا، قرأ كل كتب ميكي سبيلان وسيتمكن من وضع خطة لما على فرانسيس فعله في حالته هذه، ربما يجلب له شيئًا يأكله. شعر بمعدته تقرقر، كان يرغب في تناول أي شيء ذي مذاق حلو، دينغ دونغ، توينكيز... أي شيء.

***

في اللحظة التالية سمع فرانسيس، لا! بل أحس بصوت والده يدلف غرفة المعيشة. كل خطوة خطاها خلقت اهتزازًا خفيفًا أحس به فرانسيس عبر الإطار الحديدي لسريره، كل خطوة خلخلت الهواء الجاف الساخن حول رأسه. كانت الجدران الجصية لمحطة الوقود سميكة نسبيًا، عازلة للأصوات بشكل جيد. لم يكن بإمكانه من قبل أن يسمع بوضوح محادثة تجري في الغرفة المجاورة. الآن، في حالته الجديدة، شعر عوضًا عن السمع، بكل ما قالته إيلا وكيف أجابها والده، شعر بأصواتهما كسلسلة من الترددات المنخفضة، التي حركت الهوائيات الحساسة للغاية في أعلى رأسه. كان صوتهما مشوَّهًا وأعمق من المعتاد وكأن محادثتهما تجري تحت الماء ولكنها كانت مفهومة تمامًا.

قالت إيلا: «أنت تعلم أنه لم يذهب إلى المدرسة».

فسأل والده: «عمَّن تتحدثين؟».

- فرانسيس لم يذهب إلى المدرسة اليوم، كان هنا طوال الصباح.

- هل هو مستيقظ؟

- لا أعلم.

- ألم تتفقديه؟

- أنت تعرف أنني لا أحب استخدام قدمي كثيرًا كي لا يؤلمها الوزن.

غمغم والده: «بقرة كسولة».

وبدأ يتقدم نحو باب فرانسيس مرسِلًا رجفات من الخوف والحماس عبر قرون الاستشعار الجديدة في جسد الفتى. بحلول ذلك الوقت، كان فرانسيس قد وصل إلى حافة السرير، دون جسده القديم، الذي ظل ملقى بإهمال في وسط الفراش، كتلة من الجلد منزوعة العظام مغطاة بالدماء. وازن فرانسيس نفسه على الأطراف الحديدية الممتدة على طول السطح الخارجي لسريره، وتعثر في جلده القديم الذي بقي عالقًا فيه، لم يكن متأكدًا بعد كيف سيهبط. سمع صوت حذاء أبيه يرن على الجانب الآخر من الباب، فاندفع إلى الأمام، منزعجًا من فكرة أن يجده عاجزًا على ظهره. قد لا يتعرف عليه والده ويلجأ مباشرة إلى البندقية المعلَّقة على الحائط في غرفة المعيشة، على بعد خطوات قليلة فقط، ليطلق النار ثاقبًا بطنه، مفجِّرًا أحشاء خضراء في كل مكان.

حين ألقى فرانسيس بنفسه عن حافة السرير فجأة، تمزقت خِرق لحمه القديم بصوت أشبه بتمزق ملاءة الفراش. سقط، انقلب ثم وازن نفسه واعتدل، وأقدامه الست تضرب الأرض بخفة لم تكن مألوفة له في أيامه القديمة كإنسان.

كان ظهره لباب غرفة النوم، لم يكن لديه وقت للتفكير، ولهذا السبب فعلت ساقاه بالضبط ما كان يفترض بهما فعله. دار ورجلاه الخلفيتان تتحركان إلى اليمين بينما سيقانه الأمامية تعتدل إلى اليسار، ليعدِّلا من وضع جسده الذي قارب المترين. شعر من جديد بالألواح الغريبة على ظهره ترفرف، لم يكن أمامه سوى لحظات ليتساءل عن ماهيتها بالضبط قبل أن يطل وجه أبيه الصارخ عبر الباب: «ما الذي تفعله هناك أيها الأحمق؟ عليك الذهاب إلى المدرسة اللعينة».

انفتح الباب بقوة. عاد فرانسيس إلى الوراء ورفع ساقيه الأماميتين عن الأرض. أصدر فكه السفلي صوتًا يشبه النقر، مثل شخص ينقر بسرعة على آلة كتابة يدوية.

تسمر والده أمام الباب المفتوح، إحدى يديه لا تزال ممسِكة بالمقبض، علق نظره بجسد ابنه المتحول الجاثم على الأرض بالحجرة. وببطء تلاشى كل لون من وجهه حتى بدا كتمثال شمعي يقف على الباب.

ثم صرخ، صوت حاد ثاقب أرسل نبضًا كهربائيًا عاليًا عبر الهوائيات على رأس فرانسيس، ليصرخ فرانسيس نفسه، على الرغم من أن ما خرج منه لم يشبه بأي حال من الأحوال صرخة بشرية. كان الصوت أشبه بشخص ما يهز صفيحة رقيقة من الألمنيوم، صوت متموج لا إنساني.

بحث عن مخرج، النوافذ العالية بالحائط فوق سريره لم تكن كبيرة بما يكفي، مجرد سلسلة من الفتحات الواسعة التي لا يزيد ارتفاعها على قدم. سقطت نظرته على سريره واستقرت هناك لحظة مأخوذًا. كان قد رفس شراشفه في الليل، وركلها حتى نهاية الفراش. الآن سبحت الشراشف ذاتها في مادة بيضاء تشبه البصاق، ذائبة تسود ببطء في طريقها للتحول إلى كتلة من المادة العضوية المحروقة.

كان السرير مترهلًا في المنتصف. جسده القديم هناك، جلد ممزَّق لصبي انفلق نصفين من المنتصف، لم يرَ وجهه لكنه رأى يدًا واحدة، أصابعها ملوية للداخل، اللحم بارز وممزَّق، المادة العضوية الفوارة البيضاء انتشرت على الفراش وبدأت تلامس بقايا الجسد. كلما لامست جزءًا، تقرحت الأنسجة فيه وتصاعد منها الدخان. تذكر فرانسيس اللحظة التي أصدر فيها ريحًا وشعر بسائل يخرج من جسده. بطريقة ما كان مسؤولًا عن وجود السائل الفوار الأبيض.

بطريقة ما كان هذا المشهد من فعله.

***

ارتج الهواء بصوت اصطدام ثقيل مفاجئ. نظر إلى الوراء ورأى والده على الأرض وأصابع قدمه تشير إلى الأعلى. حدق أمامه إلى غرفة المعيشة، حيث كانت إيلا تكافح للاعتدال على الأريكة. بدلًا من أن تتحول إلى اللون الرمادي وتقبض يدها على صدرها، تيبست لمرآه، أصبحت تعابيرها ثابتة وخاوية. أمسكت بزجاجة كوكاكولا في يدها رغم أن الساعة لم تتعدَّ العاشرة صباحًا بعد، جلست مشلولة والزجاجة مرفوعة في منتصف الطريق إلى شفتيها.

قالت: «يا الله!».

بنبرة صوت مدهوشة ولكنها عادية نسبيًا: «فقط انظر إليك».

بدأت الكوكاكولا تقطر من الزجاجة، لتنساب على ثدييها، لكنها لم تلاحظ.

كان عليه أن يذهب، ولم يكن هناك سوى مخرج واحد. ربض إلى الأمام، بشكل بهلواني في البداية، عرج إلى اليمين وهو في طريقه عبر المدخل وتسلق جانبه، على الرغم من أنه بالكاد شعر بنفسه وهو يفعل، تسلق فوق جسد والده فاقدًا الوعي. واصل مسيرته وهو يمر بين الأريكة وطاولة القهوة، موجِّهًا نفسه نحو باب الخروج. رفعت إيلا قدميها بلطف على الأريكة للسماح له بالمرور.

كانت تهمس لنفسها الآن، بخفوت لن يسمعه شخص جالس مباشرة جوارها. رغم هذا لم تفوِّت هوائيات فرانسيس حرفًا، ارتجفت اللواقط مع كل جملة تفوهت بها: «وَمِنَ الدُّخَانِ خَرَجَ جَرَادٌ عَلَى الأَرْضِ، فَأُعْطِيَ سُلْطَانًا كَمَا لِعَقَارِبِ الأَرْضِ سُلْطَانٌ، وَقِيلَ لَهُ أَنْ لا يَضُرَّ عُشْبَ الأَرْضِ، وَلاَ شَيْئًا أَخْضَرَ وَلاَ شَجَرَةً».

كان عند الباب الآن. توقف مؤقتًا، منصتًا: «إلا النَّاسَ فَقَطِ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ خَتْمُ اللهِ عَلَى جِبَاهِهِمْ. وَأُعْطِيَ أَنْ لا يَقْتُلَهُمْ بَلْ أَنْ يَتَعَذَّبُوا خَمْسَةَ أَشْهُرٍ. وَعَذَابُهُ كَعَذَابِ عَقْرَبٍ إِذَا لَدَغَ إِنْسَانًا. وَفِي تِلْكَ الأَيَّامِ سَيَطْلُبُ النَّاسُ الْمَوْتَ وَلا يَجِدُونَهُ، وَيَرْغَبُونَ أَنْ يَمُوتُوا فَيَهْرُبُ الْمَوْتُ مِنْهُمْ».

ارتجف فرانسيس في مكانه، دون إدراك السبب حقًّا، كان شيء في كلماتها، شيء هز أعماقه بعنف. رفع ساقيه الأماميتين إلى الباب. دفعه ليفتحه، وانطلق خارجًا إلى النهار الحارق.

***

2

لمسافة قاربت الكيلومتر على مد البصر، غطت القمامة الأرض، نفايات مجتمعة لخمس مدن معًا. كان جمع القمامة هو الصناعة الرئيسية لشركة كاليفورا. اثنان من كل خمسة رجال بالغين في البلدة يمتهنون العمل في القمامة، واحد من كل خمسة كان في قسم التجارب الإشعاعية بالجيش متمركزًا في معسكر كاليفورا، على بعد كيلو ونصف إلى الشمال. المتبقون

يقبعون في المنزل لمشاهدة التلفاز، وخدش تذاكر اليانصيب، وأكل العشاء المجمَّد الذي اشتروه بقسائم الطعام الخاصة بهم. كان والد فرانسيس هو الاستثناء النادر، شخص يمتلك عمله الخاص. أطلق والده على نفسه اسم رجل أعمال. كانت لديه فكرة يعتقد أنها قد تحدث ثورة في أعمال محطة الوقود. أطلق عليها الخدمة الذاتية. عنى هذا خدمة العميل نفسه بنفسه، ملء خزان الوقود الخاص بسيارته دون مساعدة، برسوم تشابه تلك التي تمتلكها المحطات ذات الخدمات الأعلى في أماكن أخرى.

في أسفل المجرى، شكَّل الانحدار الصخري المطل من الأعلى صعوبة منعت مَن بالأسفل مِن رؤية أي مَعلم من معالم كاليفورا. حين أطل فرانسيس بجذعه هناك، كان بوسعه رؤية مَعلم واحد فقط عبر الارتفاع الحاد. قمة سارية العلم الضخم أمام محطة وقود والده. العلم نفسه الذي اعتبروه العلم الأكبر في الولاية. كان كبيرًا بما يكفي لتغطية ثماني عشرة شاحنة نقل، وثقيلًا بما يكفي لتعجز حتى أعتى العواصف عن تحريكه. رآه فرانسيس يرفرف مرة واحدة فقط طوال حياته، ليس حين ضربت العواصف كاليفورا، بل وقت سقوط القنبلة.

حصل والده على الكثير من المهام العسكرية. كان كلما اضطر إلى الخروج من مكتبه لسبب ما، على سبيل المثال، لمساعدة شخص يعاني مع سخونة محرك سيارته الجيب. يرتدي الجزء العلوي من الرداء العسكري، مع كم من الميداليات فوق قميصه تومض وتلمع على صدره الأيسر. أغلبها كان تقليدًا رخيصًا اشتراه. على عكس زيه الرسمي الذي حصل عليه في الحرب العالمية الثانية، هذا كان حقيقيًّا.

أحب والده الحرب وذكرياتها، قال ذات مرة وهو يرفع علبة الشراب وكأنه يقترح نخبًا، وقد تلألأت عيناه بالذكريات: «لا تضاهي أي علاقة تلك التي تحصل عليها بعد أن قصفت للتو بلدة لتساويها بالتراب».

***

اختبأ فرانسيس داخل إحدى حاويات القمامة، ضغط نفسه بين الأكياس البلاستيكية المنتفخة، منتظرًا بخوف مطاردات الشرطة، مستعدًّا للأصوات المروِّعة والمدوِّية لطائرات الهليكوبتر، وهوائياته تنتفخ وتنتصب. لكن لم تكن هناك سيارات شرطة قط، ولا طائرات هليكوبتر. مرة أو مرتان، جاءت

شاحنة صغيرة من أعلى الطريق الترابي المتعرج بين أكوام القمامة، وقتها كان يضغط نفسه بشدة إلى الوراء، مستمرًا في الاختباء داخل الفجوة بين أكياس النفايات، التي لم يظهر منها سوى قرون الاستشعار لديه. لكن هذا كان كل شيء. خَفَّت حركة المرور في نهاية مكب النفايات، الذي كان على بعد كيلومتر تقريبًا من مركز المعالجة، حيث وَقَع العمل الحقيقي.

في وقت لاحق اعتلى أحد أكوام القمامة الأكبر للتأكد من أنه لن يحاصَر إذا أتى أحد ما، لم يكن محاصَرًا، لكنه لم يبقَ في العراء فترة طويلة، وهج الشمس المباشر أصابه بالدوار بعد فترة قليلة من التعرض له، شعر بأنه متعَب ومخدَّر وكأنه ضُخَّ بالنوفوكايين. في الجزء الخلفي من مكب القمامة على الجانب الآخر، لمح قنوات متعرجة أكثر ضيقًا، لمح شاحنة متوقفة على الطريق الأسمنتي فنزل زاحفًا إلى هناك. ظن أنها بدت مهجورة وكانت كذلك فعلًا. الممرات أسفلها امتلأت بالظلال الخفيفة المنعِشة، شعر باللذة، التسلق أسفل الشاحنة كان منعشًا كالغطس في البحيرة.

بدأ يستريح ويسترخي حتى أعاد إريك هيكمان انتباهه إلى ما حوله من جديد. لا يعني ذلك أن فرانسيس نام بالمعنى الحرفي، لكنه كان راكدًا ومستريحًا وبحالة من السكون الشديد، شيء لا يشبه اليقظة لكنه ليس نومًا بالمعنى الكامل للنوم. سمع خطوات وسحب قدمَي إريك على الأرض على بعد اثني عشر مترًا تقريبًا، ورفع رأسه. ضاقت عينا إريك خلف نظارته أسفل شمس الظهيرة. اعتاد إريك التحديق وعيناه تضيقان بهذه الطريقة في أثناء القراءة، أو وقت الغرق في التفكير، حركة نجحت دومًا في تحويل ملامح وجهه إلى تعبيرات تشبه القرود، تعبير غير مريح دفع الآخرين طوال الوقت إلى الرغبة في ضربه.

فح إريك بصوت عالٍ: «فرانسيس!».

كان يحمل كيسًا ورقيًا بنيًا مغطى بالدهون، الذي ربما حمل فيه غداءه، لدى رؤيته شعر فرانسيس بوخز حاد من الجوع، لكنه لم يخرج.

صرخ إريك محدقًا من جديد: «فرانسيس، هل أنت هنا في مكان ما؟».

أراد فرانسيس إظهار نفسه لكنه لم يستطع، ما منعه هو فكرة أن إريك كان موجودًا فقط في هذه النقطة لإغرائه كي يخرج إلى العراء. تخيل فرانسيس فريقًا من القناصين جاثمين على تلال القمامة، يراقبون الطريق من خلال

بنادقهم بحثًا عن بعض العلامات التي تثبت وجود جرادة عملاقة في المكان. تمسَّك بالأرض أسفل منه، جاثمًا ومتوترًا، يراقب أكوام القمامة مستعدًّا للهرب مع أقل حركة.

حبس أنفاسه. سمع قعقعة. كان مجرد غراب.

***

في النهاية كان عليه أن يعترف لنفسه بأنه سمح للقلق بالسيطرة عليه. جاء إريك بمفرده. تبع ذلك بعد لحظة إدراك أنه لا أحد يبحث عنه، لأنه لن يصدق أحد والده إذا أخبرهم بما رآه. إذا حاول إخبارهم أنه اكتشف حشرة عملاقة في غرفة نوم ابنه، جاثمة بجانب جثة الأخير المنزوعة الأحشاء. سيكون محظوظًا إن لم ينتهِ به الأمر في المقعد الخلفي لسيارة شرطة، في طريقه إلى جناح الطب النفسي في توكسون. لن يصدقوه حتى لو قال إن ابنه مات، ببساطة لأن لا جسد أو جلد تبقى، بعد أن أذابت إفرازات مؤخرة فرانسيس اللبنية ذات الرائحة الحمضية كل شيء.

في الهالوين الماضي، قضى والده الليلة غارقًا في عرقه، حبيسًا بسجن المقاطعة. بالكاد يمكن اعتباره شاهدًا موثوقًا به. قد تدعم إيلا قصته لكن كلماتها لا تساوي شيئًا هي الأخرى. اعتادت الاتصال بمكاتب الشرطة في كاليفورا، أحيانًا أكثر من مرة في الشهر الواحد، للإبلاغ عن رؤية سحب تشبه وجه يسوع، كان لديها ألبوم صور كامل من السحب التي زعمت أنها تحمل وجه مُخلِصها، قلب فيه فرانسيس في إحدى المرات غير قادر على رؤية أي معالم دينية في أي سحابة بأي صورة، اللهم إلا من سحابة كادت تشبه رجلًا سمينًا جالسًا ويحمل فأسًا.

ربما اختفاء فرانسيس سيدفع الشرطة المحلية إلى البحث عنه بنفسها بالطبع، لكنه لم يكن متأكدًا من مدى نشاطهم في عملية البحث تلك. كان في الثامنة عشرة من عمره، حرًّا فيما يفعله وما يختاره، وغالبًا ما غاب عن المدرسة فترات من دون إبداء أي تفسير. لم يكن هناك سوى أربعة ضباط لتنفيذ وحفظ القانون في كاليفورا، الضابط «جورج ووك» وثلاثة رجال آخرون يعملون بدوام جزئي.

كانت قوة الشرطة هنا محدودة للغاية. على أي حال كان عليه ألا يقلق بشأن ما إذا كان أي شخص يبحث عنه. بدأ يسقط في أحلام اليقظة حول

وجبات الطعام الخفيفة، لم يتذكر آخر مرة ضربه جوع مماثل لما يشعر به الآن.

على الرغم من سطوع الشمس في السماء التي بدا سطحها وكأنه مطلي بالمينا الزرقاء، فإن ظلال الظهيرة صنعت أماكن أبرد عبر المجرى، حيث حُجِبَت الشمس خلف رف الصخور الحمراء إلى الغرب. توغل من أسفل المقطورة، وانتقل عبر القمامة، وتوقف عند كيس انشق وانسكبت محتوياته. بدأ يبحث عبر البقايا بقرون الاستشعار الخاصة به. وسط الأوراق المقطّعة، أكواب الفلين المحطَّمة، حفاضات الأطفال، بالداخل اكتشف مصاصة حمراء متسخة. انحنى إلى الأمام وأخذها بالكامل في فمه بحركة خرقاء، مع عصا من الورق المقوى، أمسك بها بفكه السفلي، ولعابه يسيل على التراب.

للحظة امتلأ فمه بنفحة قوية من الحلاوة السكرية، وشعر بالدم يندفع إلى قلبه. لكنه أدرك لاحقًا وجود لسعة فظيعة في صدره، وبدأ حلقه ينغلق. انقلبت معدته. بصق المصاصة في اشمئزاز. لم يكن الحال أفضل مع أجنحة الدجاج نصف المأكولة التي اكتشفها. تذوق بقايا اللحم والدهون القليلة على العظام وشعر بالرغبة في التقيؤ فورًا.

تطاير الذباب الأزرق بجشع حول كومة النفايات. نظر إليهم بامتعاض، وفكر في صيدهم. أكلت بعض الحشرات حشرات أخرى لكنه لم يكن يعرف كيفية الإمساك بها دون يديه -على الرغم من أنه شعر بأنه كان سريعًا بما فيه الكفاية- وبالكاد كان بإمكان نصف دزينة من الذباب الأزرق تخفيف جوعه ومعاناته. استمر الشعور بالصداع والجوع، فكر في الصراصير المسكرة وجميع الحشرات الأخرى التي أكلها، التي افترض أن التحول الذي أصابه قد حدث له بسببها في البداية، قبل أن يقفز استيعابه إلى الشمس المشرقة في الساعة الثانية، والطريقة التي جاءت بها الرياح محطة الوقود محمولة على بساط من الغبار والحرارة، الطريقة التي ارتج بها المبنى حتى تساقطت الذرات الرمادية من السقف، والانفجار المهيب في البعيد.

في إحدى المرات، صدم والد هيوي تشيستر أرنبًا بالخطأ بسيارته على ممره الخاص، خرج من السيارة ليكتشف أن الشيء الذي أمامه كان بأربع أعين وردية غير طبيعية. أحضره معه إلى المدينة للتباهي به، لكن بعدها ظهر عالم بيولوجيا مع عريف واثنين من أفراد الأمن العسكريين ومعهم

بنادق آلية، طالبوا بالأرنب، دفعوا خمسمائة دولار للرجل للتوقيع على أوراق تنص على أنه لن يتحدث عن الأرنب من جديد.

في مرة أخرى، بعد أسبوع واحد فقط من أحد الاختبارات في الصحراء، انتشر ضباب كثيف ورطب تفوح منه رائحة كريهة كلحم الخنزير المقدَّد على المدينة بأكملها. غطى الضباب الكثيف كل شيء لدرجة أنهم ألغوا المدرسة، وأغلقوا السوبر ماركت ومكتب البريد. طار البوم في النهار، وأتت أصوات دوي وهدير الرعد المنخفض من داخل الظلال الضبابية الرطبة طوال اليوم. خرق العلماء في الصحراء الحجاب بين العوالم، صنعوا ثقوبًا في السماء والأرض، وربما نسيج الكون نفسه. بل وربما أشعلوا النار في السحب.

لأول مرة بدأ فرانسيس يفهم بوضوح أنه كان مسخًا، شيئًا غريبًا ملوَّثًا غير طبيعي يجب سحقه أو التستر عليه، ينتمي مع عريف بدفتر شيكات حكومي وحقيبة مستندات قانونية مُلزِمة. إدراك هذا كان صعبًا في البداية، ربما لأن فرانسيس اعتاد الشعور بأنه مسخ، شيء لا يرغب الآخرون في رؤيته.

في خيبة أمل دفع نفسه بعيدًا عن كيس القمامة الممزَّق، متحركًا دون تفكير. ساقاه الخلفيتان دفعتاه في الهواء، ورفرفت القشور المتصلِّبة على ظهره بشراسة. هوت معدته إلى الأسفل بين أحشائه. كانت الأرض المنحنية بشدة والملأى بالقمامة تتمايل تحته. انتظر السقوط، لكنه لم يفعل، وجد نفسه يتحرك في الهواء، وهبط بعد لحظة على أحد تلال القمامة الضخمة، واستقر في بقعة لا تزال تحت ضوء الشمس. انفجرت أنفاسه من جسده. لم يكن يعرف حتى إنه كان يكتمها.

وازن نفسه للحظة هناك، تغلب عليه إحساس بالصدمة وشعر بوخز دبابيس وإبر في أطراف قرون الاستشعار الخاصة به. لم يكن قد تسلق فقط، بل طار، بحق يسوع، لقد طار!

طار مرتفعًا تسعة أمتار في هواء أريزونا. لم يفكر فيما حدث لفترة طويلة، ظل يخشى التفكير فيما يحدث من كثب. أطلق نفسه إلى الهواء مرة أخرى. أحدث جناحاه صوت صرير شبه ميكانيكي، وشعر بنفسه ينقلب في السماء منتشيًا، فوق بحر من النفايات المتحلِّلة التي تخلص منها الآخرون وتنتظر إعادة التدوير في الأسفل. نسي للحظة أنه بحاجة إلى تناول الطعام. نسي أنه قبل ثوانٍ قليلة فقط كاد ينال منه اليأس. تدلت ساقاه بجانبه، ومع

اندفاع الهواء في وجهه، حدق إلى الأرض القاحلة على بعد ثلاثين مترًا أدناه، مفتونًا بمنظر ظلِّه الغريب وهو يطير عبرها.

***

3

بعد غروب الشمس، وعلى ظلال الضوء الخافت في السماء، عاد فرانسيس إلى منزله. لم يكن لديه مكان آخر يذهب إليه وكان جائعًا جدًّا. كان هناك إريك بالطبع، ولكن للوصول إلى منزله كان عليه عبور عدة شوارع، ولن يحمله جناحاه عاليًا بما يكفي ليبقى خفيًّا عن الأنظار.

جلس القرفصاء لفترة طويلة بين الأشجار على الحافة الخلفية لمحطة البنزين. المضخات مغلقة، الأنوار مطفأة أعلاها، الستائر انسدلت لتحجب ما خلف نوافذ المكتب الأمامي. لن يغلق والده المكان أبدًا باكرًا هكذا. كان كل شيء هادئًا تمامًا في نهاية شارع إستريلا، باستثناء الشاحنات العابرة بين الحين والآخر لم تكن هناك أي علامة على الحياة أو الحركة في أي مكان. تساءل عما إذا كان والده في المنزل، لكنه لم يستطع تخيل أي احتمال آخر. لم يكن لدى والده أي مكان آخر يذهب إليه.

ترنح فرانسيس -رأسه خفيف، شاعر بالدوار- إلى الباب الأمامي. رفع نفسه على رجليه الخلفيتين، وألقى نظرة خاطفة على غرفة المعيشة. ما رآه هناك كان مختلفًا تمامًا عن أي شيء رآه من قبل، أربكه ذلك، وتمايل شاعرًا برعشة غريبة تعبر جسده كله.

كان والده ممددًا على الأريكة، وقد انقلب على جانبه، ووجهه مدفون في حضن إيلا. كانا نائمين على الأغلب. أحاطت إيلا والده بذراعيها، وأصابعها الممتلئة المغطاة بخواتمها مطوية على ظهره. بالكاد كان على الأريكة، لم يكن هناك مكان له وبدا كما لو أنه قد يختنق ووجهه مضغوط على صدرها هكذا. لم يتذكر فرانسيس آخر مرة رأى فيها أباه وإيلا يعانقان بعضهما بعضًا، ونسي مدى صغر حجم والده مقارنة بحجم إيلا. وجهه مدفون في صدرها يشبه طفلًا بكى لينام في حضن أمه. كانا كبيرين جدًّا في السن، بلا أصدقاء أو معارف، مهزومين حتى وهما نائمان، مظهرهما هذا منحه إحساسًا

مؤلمًا بالندم، فكرته التالية كانت أن حياته معهما انتهت. إذا استيقظا ورأياه من جديد، سيتحول المشهد إلى صراخ وإغماء ثم أسلحة وشرطة.

بيأس، كان على وشك التراجع عن الباب والعودة إلى المكب، عندما رأى الوعاء على المنضدة، على يمين الباب. أعدت إيلا سلطة تاكو. لم يستطع رؤية الوعاء، لكنه تعرف على الرائحة، شم كل شيء بصورة أوضح الآن، رائحة الصدأ على سلك الباب الأمامي، والعفن الفطري في السجادة المبلَّلة بشراب الشعير المسكوب، بإمكانه التقاط رائحة رقائق الذرة المالحة، والهامبرغر المطبوخ في صلصة الفلفل الحار. تخيل شرائح كبيرة من الخس، طرية مع عصارة اللحم، وامتلأ فمه باللعاب.مكتبة سُر مَن قرأ

انحنى فرانسيس إلى الأمام، رافعًا رقبته لإلقاء نظرة على الوعاء. كانت الخطافات المسننة الموجودة في مقدمة قدميه الأماميتين مضغوطة بالفعل على شراع الباب، وقبل أن يدرك ما كان يفعله، دفع وزن جسده الباب ليسقط في الداخل. ألقى نظرة خفية على والده وإيلا. لم يتحرك أي منهما. كان الزنبرك الموجود داخل الباب قديمًا ومشوَّهًا. عندما انزلق عابرًا من خلاله، لم ينكسر الباب خلفه، بل أُغلق بنحيب جاف، يئن برفق على الإطار. كان هذا الصوت الخفيف مرتفعًا بدرجة كافية ليسقط قلب فرانسيس عميقًا إلى داخل صدره.

لكن كل ما فعله والده هو الغوص بشكل أعمق في الشق المجعَّد بين ثديَي إيلا. تسلل فرانسيس إلى جانب الطاولة وانحنى فوق الوعاء. لم يتبقَ شيء تقريبًا، باستثناء حساء دهني من صلصة التاكو، وقليل من القطع الرطبة من الشعير الملتصقة بداخل الطبق. حاول أن يصطاد أحدها، لكن يديه لم تعدا يديه. انزلقت الشفرة الشبيهة بالمجرفة في نهاية قدمه على الجزء الداخلي من الوعاء، محرِّكة الطعام في كل الأنحاء فقط. حاول الإمساك بها في أثناء مرورها على حافة الطبق، لكنها انحرفت فقط عن الخطاف المعقوف بأطرافه، وسقط الوعاء كله على الأرض مصدرًا دويًا هائلًا.

انحنى فرانسيس أرضًا، مذهولًا وتسمر. من خلفه أصدرت إيلا أصوات استيقاظ مرتبكة وغامضة، تبعها طقطقة فولاذية غريبة. حين نظر إلى الوراء، كان والده منتصبًا على قدميه، على بعد أمتار قليلة منه. مستيقظًا، لا، بل تام الاستيقاظ منذ ما قبل سقوط الوعاء حتى. عندما رآه فرانسيس شعر على الفور أنه كان يتظاهر بالنوم منذ البداية. حمل والده البندقية بيده

مفتوحة وجاهزة للتلقيم، مؤخرتها تتأبط ذراعه. جواره على الجانب الآخر كان صندوق القذائف على الأريكة. حمل البندقية طوال هذا الوقت مخفيًا إياها بينه وبين إيلا.

فتح والده فمه مع نظرة اشمئزاز وعجب، نقصت بعض الأسنان من فمه، وتلك التي بقيت كانت سوداء متحلِّلة.

قال: «أيها المسخ القذر».

فتح علبة القذائف متابعًا: «أعتقد أنهم سيصدقونني الآن».

حوَّلت إيلا وزنها من جهة إلى أخرى ودفعت نفسها لتسترق النظر من خلف الأريكة مطلِقة صرخة خافتة: «يا إلهي! يا يسوع!».

حاول فرانسيس التحدث، حاول أن يخبرهما بأن لا، لا لن يؤذيه، لن يؤذيهما. لكن ما خرج هو ذلك الصوت، مثل شخص يهز بشراسة قطعة معدنية مرنة.

بكت إيلا متسائلة: «لماذا يحدث هذا الضجيج؟».

كانت تحاول الوقوف على قدميها، لكنها غرقت بعمق في الأريكة، ولم تستطع نصب جسدها.

صاحت: «ابتعد عنه».

نظر إليها والده: «ماذا تعنين بابتعد؟ سأفجِّر هذا الشيء، سأظهر مع جورج ووكر الذي سخر مني ونعتني بالكذب، سنرى من يضحك الآن».

ضحك والده ويداه ترتعشان، سقطت القذيفة منهما وهو يكمل: «ستظهر صورتي على الصفحة الأولى من الجرائد صباح الغد».

عثرت أصابعه على قذيفة أخرى، ولقم البندقية. تخلى فرانسيس عن محاولة التحدث ورفع ذراعيه أمامه، رفع خطافاته المسنَّنة في إشارة إلى الاستسلام.

صرخت إيلا: «إنه يفعل شيئًا ما!».

صاح بها والده: «هلَّا تصمتين أيتها العاهرة الصاخبة؟».

ثم تابع وهو يغلق البندقية: «إنه مجرد مسخ، لا يهمني حجمه، لكن ليس لديه أي فكره عما يفعله».

اندفع فرانسيس، بهدف دفع والده والهرب إلى الباب الخلفي فقط، لكن ساقه اليمنى الحادة التي بدت كالسيف الزمردي، أحدثت خطًّا مائلًا أحمر بطول وجه والده. بدأ الجرح في صدغه الأيمن، ممتدًّا عبر تجويف عينه وجسر أنفه، لينتهي في محجر عينه الأخرى وعلى مسافة أربع بوصات على خده الأيسر.

انفتح فم والده، بدا وكأنه فغر فاه مصدومًا، انطلقت البندقية مع دوي مذهل دفع بكهرباء مرعبة عبر الهوائي الحساس على رأس فرانسيس. انفجر شيء ما قرب كتفه، وسقط جزء من الجدار خلفه. صرخ فرانسيس برعب وألم، أصوات أخرى مشوهة كرنين المعدن أكثر صخبًا هذه المرة.

تحرك، سقطت ساقه الأخرى المعقوفة، وتأرجحت كبلطة مع ثقله بالكامل إلى أسفل. اصطدمت بصدر والده، شعر بصدمة على طول الطريق حتى المفصل الأول في ذراعه. حاول فرانسيس الابتعاد وانتزاع ذراعه من جذع والده. لكنه بدلًا من هذا، أزال جسد والده كله عن الأرض ورفعه إلى الهواء. كانت إيلا تصرخ وتخدش وجهها بكلتا يديها. أرجح ذراعه إلى أعلى وإلى أسفل، محاوِلًا نفض والده عن الجزء المعقوف في نهايات ذراعه. أصبح والده فجأة كدمية انقطعت حبالها، جسده يتأرجح في الهواء بلا حول ولا قوة.

كان صوت صراخ إيلا مؤلمًا للغاية، وظن فرانسيس أنها ستفقده وعيه. ضرب والده بالحائط. اهتزت محطة الوقود. لكن هذه المرة عندما سحب ذراعه بعيدًا، انفك جسد والده. انزلق على الحائط، ويداه مطويتان فوق الجرح الذي ثُقِب في صدره. ترك لطخة داكنة على الجص خلفه. لم يكن فرانسيس يعرف ما حدث للبندقية. ركعت إيلا على الأريكة، تتأرجح ذهابًا وإيابًا، وتصرخ وتخدش وجهها دون وعي. سقط عليها فرانسيس، وهو يقطِّعها بيديه المشفَّرتين. بدا الأمر وكأن فريقًا من الرجال يقودون المجارف في الوحل الرطب. لعدة دقائق كانت الغرفة صاخبة مع صوت حفر غاضب.

***

4

لفترة طويلة بعد ذلك، اختبأ فرانسيس تحت الطاولة وانتظر أن يأتي شخص ما وينهي الأمر. احتل الألم جسده. كان نبضه شديدًا وسريعًا مع غصة في حلقه. لم يأتِ أحد.

في وقت لاحق، سارع إلى المكان الذي سقط به جسد والده وجلس جواره. انزلق جسد أبيه على طول الجدار حتى استقر رأسه فقط عليه، وجسده ممدَّد على الأرض. كان والده دائمًا رجلًا هزيلًا وجائعًا، لكن مع جلوسه بهذه الوضعية ورأسه مستلقٍ على صدره، بدا فجأة سمينًا على عكس عادته، مع ذقن وفك عريضين. فكّر فرانسيس أن بإمكانه حز رأس والده كاملًا بيديه ذاتَي المناجل التي كانت بمنزلة أسلحة قتل الآن، لم يستطع تحمل رؤية ما فعله بإيلا.

كانت معدته مضطربة. عاد الضغط الغازي الحاد كما في الصباح الباكر. أراد إخبار شخص ما بأسفه، كان ما حدث فظيعًا، وتمنى لو يتمكن من التراجع عما فعل، لكن لم يكن هناك مَن يخبره، ولم يكن بإمكان أحد فهم صوت الجندب الجديد الذي أصدره حتى لو حاول الشرح. رغب في البكاء، أطلق الريح بدلًا من الدموع، وتدفقت المادة الرغوية الحامضة في بضع رشقات متقطعة على الأرض.

تناثرت على جذع والده، نقعت قميصه. بدأ جسده يتآكل مصدِرًا هسيسًا. قلب فرانسيس وجه والده بين يديه من جانب إلى آخر. محاوِلًا رؤية ملامح والده القديمة فيه، من زوايا مختلفة. لكن بغض النظر عن الطريقة التي حوَّله بها فرانسيس. كان الوجه المشقوق المشوَّه بين يديه الآن غريبًا وغير مألوف.

رائحة مثل دهن لحم الخنزير المقدَّد المحترِق، لفتت انتباه فرانسيس، وعندما نظر إلى أسفل رأى معدة والده قد تفسخت وتحولت إلى ما بدا كوعاء مملوء بالحساء الوردي السائل، تلألأت عظام ضلوعه الحمراء، تتشبث بها عقدة خيطية من نسيج نصف مذاب. شعر فرانسيس بضيق معدته بسبب الجوع المؤلم اليائس. انحنى أكثر لاستعراض الفوضى التي أحدثها الحمض بأطرافه، ثم عجز عن الانتظار أكثر، كَبحُ جماح نفسه استحال. ابتلع أحشاء

والده السائلة بفمه الكبير، وفكه السفلي ينقر. أكله من الداخل إلى الخارج، ثم ترنح، نصف ثمل، أذناه تطنان، بطنه يؤلمه من الامتلاء.

***

تمايل واستلقى أسفل الطاولة ليستريح بعدها. من خلال الباب الحاجز كان بوسعه رؤية الطريق السريع، في حالة أشبه بالمنوَّم، راقب الشاحنات الضخمة تتمايل وتتسابق عبر الصحراء، المصابيح الأمامية تضيء السواد الكامل هناك لوهلة، ثم تختفي تمامًا مبتعِدة عن الأنظار. أعاد له مشهد تلك المصابيح الأمامية وضوئها الذي انزلق بسهولة كاسرًا الظلمة، الإحساس المخدِّر الذي شعر به عندما حلَّق مندفعًا عبر السماء.

جعله التفكير في الهواء النقي الدافئ راغبًا في التنفس بعيدًا عن هنا، عن الرائحة حوله. دفع الباب الحاجز شاعرًا بالامتنان لو طار الآن. بطنه لا يزال يؤلمه. مشى إلى منتصف ساحة انتظار السيارات المكسوَّة بالحصى، وأمال رأسه إلى الوراء، ناظرًا إلى سماء الليل. تألقت ذراع مجرة درب التبانة كزبد البحر في السماء السوداء. سمع بوضوح شديد صراصير الليل تغني في الأعشاب، وطنينها الحزين يرتفع وينخفض، يرتفع وينخفض. افترض أنهم نادوه على الدوام.

سار في منتصف الطريق السريع دون خوف، منتظرًا أن تأتي شاحنة، أن تنهمر عليه أضواء مصابيحها الأمامية. انتظر صرخة الفرامل، والصراخ الخائف والمتفاجئ خلف المقود. لكن لم تحدث أي حركة على طول الطريق. كان ممتلئًا جدًّا ومضى ببطء. لم يكن قلقًا بشأن ما سيحدث له بعد الآن. لم يكن يعرف إلى أين يتجه، ولم يهتم. كانت كتفه تؤلمه قليلًا. لم تكن قذائف البندقية قد اخترقت درع جسده بالطبع، لم تكن قادرة على ذلك، لكنها أصابت الجسد تحت الدرع بكدمات طفيفة وتلك كانت تؤلم.

ذات مرة، حين ذهب مع والده إلى مكب النفايات في الماضي، تناوبا على استخدام البندقية لإصابة العلب، والجرذان، وطيور النورس.

قال والده يومها: «تخيل أنهم الجنود الألمان اللعينون».

لم يكن لفرانسيس أن يعرف كيف كان شكل الجنود الألمان أصلًا، لذا تظاهر بأنه يطلق النار على الأطفال في المدرسة بدلًا من الجنود. جعلته

ذكرى ذلك اليوم في المكب عاطفيًا قليلًا تجاه والده، والأوقات الجيدة التي أمضاها معه. والده الذي تحول إلى وجبة طعام لانقة في النهاية. حقًا لو فكرت، ما التضحية الأكبر التي قد يقدمها أب لولده؟

مع أول خيط وردي للشمس نزف عبر سماء الليل، وجد نفسه خلف المدرسة. جاء إلى هناك دون أن يقصد، ربما قادته ذكرى ما حدث ظهيرة ذلك اليوم. حين ذهب لإطلاق النار مع والده. مبنى المدرسة كان صرحًا طويلًا، مبنيًا من الطوب بصفوف من النوافذ الصغيرة. فكر في مدى قبح وقذارة شكل هذا المبنى، ثم فكر أن حتى الدبابير كانت في حال أفضل من هذا، وقد بنت منازلها بين الغصون العالية، محمية من النسيم البارد بين كتل الأزهار ذات الرائحة الحلوة.

تقدمت سيارة إلى ساحة الانتظار، وتحرك فرانسيس إلى جانب المبنى مقترِبًا من زاوية تبقيه بعيدًا عن الأنظار، سمع صوت باب السيارة ينغلق، استمر في التراجع إلى الوراء ناظرًا إلى الجانب وإلى الأسفل حيث رأى خط النوافذ المطلة على الطابق السفلي. دفع رأسه عبر أحدها، مع أول نافذة جربها أصدرت المفصلات البالغة من العمر أربعين عامًا صريرًا قبل أن تنفرج سامحة له بالسقوط عبرها.

***

انتظر فرانسيس بهدوء تام في أحد أركان القبو، خلف بعض الأنابيب المكسوة بالمياه الجليدية، بينما ارتفعت أشعة الشمس على صف النوافذ المرتفعة في الجدار. في البداية كان الضوء ضعيفًا ورماديًا، ثم ظلًّا رقيقًا ليمونيًا، أضاء عالم الطابق السفلي من حوله كله ببطء، كاشفًا عن جزازة العشب، وصفوف من الكراسي المعدنية القابلة للطي، وعلب الطلاء المكدَّسة. استراح لفترة طويلة دون أن ينام، هامدًا لكن يقظًا، كما فعل في اليوم السابق في المجرى القديم أسفل المقطورة في مكب النفايات. كانت الشمس مشرقة تمامًا الآن على النوافذ المواجهة للشرق حين سمع أولى صفعات الخزانات المعدنية في الأعلى، والأقدام على السلالم. ثم انهمرت أصوات عالية، متداخلة وغزيرة.

صعد الدرج متجهًا إلى الأعلى، استمع إلى الأصوات، ورغم اقترابه منها بدت وكأنها تبتعد، شعر وكأنه يشق طريقه إلى داخل مغلف معزول عن أي

صوت. فكر في القنبلة، الضوء الأحمر الحارق كالشمس يغلي على أرضية الصحراء في الساعة الثانية صباحًا، الرياح الغريبة تضرب محطة الوقود. ثم ومن الدخان يخرج الجراد على الأرض. واصل التسلق شاعرًا ولأول مرة بالنشوة، بالهدف، بأنه يعرف ما عليه فعله الآن.

كان الباب الحديدي في الأعلى مغلقًا، ولم يكن لديه فكرة عن كيفية فتحه. ضربه بذراعيه القويتين الجديدتين. هزت خطافاته الباب بقوة، وانتظر.

أخيرًا فُتح الباب. على الجانب الآخر وقف إريك هيكمان. خلفه كانت القاعة مكتظة بالأطفال، يضعون حاجياتهم في خزاناتهم وهم يتبادلون الصيحات والحديث. كان المشهد أشبه بمشاهدة فيلم صامت يدور على شاشة. نظر عدد قليل من الأطفال في طريقهم تجاهه. تصلبوا حين رأوه. وقفوا مجمَّدين في وضعيات غير طبيعية بجوار الخزائن. فتحت فتاة ذات شعر أشقر رملي فمها لتصرخ. كانت تحمل مجموعة من الكتب التي انزلقت الواحد تلو الآخر من يدها لتسقط بلا صوت على الأرض.

أطل إريك عليه من خلال العدسات المرقطة بالشحوم لنظارته السميكة بشكل باعث على السخرية. ارتجف في حالة من الصدمة، وتراجع خطوة، لكن بعد ذلك انفتح فمه بابتسامة لا تصدَّق صارخًا: «رائع!».

سمعه فرانسيس بوضوح.

اندفع فرانسيس، قاطعًا عنق إريك بفكه السفلي، مستخدمًا ذراعيه كزوجين كبيرَي الحجم من الكلابات القاطعة للسياج. قتله أولًا لأنه كان يحبه. سقط إريك وساقاه ترفسان في رقصة محتضِرة بلا دماغ، وتناثر دمه على الفتاة ذات الشعر الرملي، التي لم تتحرك بل وقفت هناك فقط تصرخ. وانطلقت جميع الأصوات دفعة واحدة، في هدير سمع قرع الخزانات، ركض الأقدام، وصرخات التوسل إلى الله. اندفع فرانسيس إلى الأمام، دافعًا نفسه بالأرجل الخلفية المفصلية الضخمة، ضاربًا الجميع دون جهد، دافعًا إياهم إلى الأرض أسفل منه. هيوي تشيستر تحرك إلى نهاية القاعة. محاوِلًا الجري والهرب. ضربه بأحد مخالب ذراعه عبر ظهره ليعبر المخلب خارجًا من الجهة الأخرى بلا مجهود يُذكَر، دافعًا إياه عبر الهواء.

انزلق هيوي على طول ذراع فرانسيس ذات المخالب الخضراء، وأصدر أصواتًا متحشرجة مختنقة. تحركت قدماه في الهواء بشكل هزلي، كما لو كان لا يزال يحاول الركض.

عبر فرانسيس الطريق الطويل، وهو يجرح ويقتل، رغم أنه ترك الفتاة ذات الشعر الرملي، التي جثت على ركبتيها تصلي ويداها مطويتان. قتل أربعة في القاعة قبل أن يصعد إلى الطابق العلوي. وجد ستة آخرين محتشدين تحت الطاولات في أحد مختبرات الأحياء، وقتلهم أيضًا. في طريق العودة، فكر في قتل الفتاة رغم كل شيء، لكن عندما عاد إلى الطابق السفلي كانت قد غادرت.

كان فرانسيس عاكفًا على تمزيق قطع من هيوي لأكلها عندما سمع صدى مشوهًا أشبه بقرع بوق بالخارج. قفز على الحائط، وصعد رأسًا على عقب عبر السقف، دافعًا نفسه نحو نافذة مغبرة. هناك تقف الشاحنات العسكرية على الجانب الآخر من الشارع والجنود يرمون أكياس الرمل على الأرض. سمع صوت قعقعة فولاذية لمحرك ضخم، ونظر إلى الطريق المؤدي إلى شارع إستريلا. كان لديهم دبابة أيضًا. حسنًا، اعتقد. كانوا في حاجة إليها.

ضرب فرانسيس بيده ذات المخالب عبر النافذة الأمامية وكأنها رأس رمح، تناثرت شفرات من الزجاج في الهواء. اليوم كان مشرقًا وقد هبَّت الرياح من الخارج. بدأ الرجال بالصراخ عبر مكبرات الصوت بالأوامر. توقفت الدبابة وبدأ عمود إطلاق الذخيرة في الدوران.

تحرك الجنود متخذين أماكنهم حين دفع فرانسيس بجسده بالكامل عبر النافذة المكسورة، إلى السماء في الأعلى، وأجنحته تضرب الهواء صانعة صوتًا أشبه بمنشار كهربي يقطع اللحم.

عندما ارتفع أخيرًا عبر السماء فوق المدرسة.

بدأ فرانسيس في الغناء.

***

مكتبة
t.me/soramnqraa

أطفال إبراهام

بحث ماكسيميليان عنهم في الجراج وحظيرة الماشية، حتى إنه ألقى نظرة داخل غرفة تبريد الماء، على الرغم من أنه علم منذ اللحظة الأولى أنه لن يجدهم هناك. رودي لن يختبئ في مكان كهذا، رطب وبارد، بلا نوافذ ولا مصدر ضوء، مكان تفوح منه رائحة الخفافيش يشبه القبو. لم يذهب رودي قط إلى قبو منزلهم إذا كان بإمكانه تجنب الذهاب إلى هناك، خافَ أن يُغلق الباب خلفه، ويجد نفسه فجأة محاصَرًا في الظلام الخانق.

فحص ماكس الحظيرة أخيرًا، لكنهم لم يكونوا مختبئين هناك أيضًا، عندما عاد إلى الباب، صدمهُ أن الغسق قد حل. لم يتخيل قط أن الوقت تأخر لهذه الدرجة.

صرخ: «لن نلعب هذه اللعبة، لا مزيد من اللعب، رودولف، علينا الذهاب».

عندما نطق «علينا» خرجت الكلمة بصوت عالٍ، كالضوضاء، كصوت عطسة الحصان. كان يكره صوته، ويحسده أخوه الأصغر على النطق الأمريكي الواثق. وُلِد رودولف هنا، ولم يرَ أمستردام قط. عاش ماكس السنوات الخمس الأولى من حياته هناك، في شقة بإضاءة خافتة تفوح منها رائحة الستائر المخملية المتعفنة ورائحة كريهة تشبه المراحيض آتية من القنال في الأسفل.

صرخ ماكس حتى احترق حلقه، لكن في النهاية، مع كل هذا الصراخ لم تظهر سوى السيدة كاتشنر التي تمهلت في مشيتها عبر الشرفة، تحيط جسدها بذراعيها بحثًا عن الدفء. رغم أن الطقس لم يكن باردًا في المقام

الأول. عندما وصلت إلى الدرابزون، أمسكت به بكلتا يديها وتدنت إلى الأمام مستندة عليه.

في مثل هذا الوقت بالخريف الماضي، كانت السيدة كاتشنر ممتلئة الجسم بشكل مقبول، وجهها يتورد من حرارة المطبخ، مع بروز محبب في خديها السمينين. الآن بدا وجهها شاحبًا، عيناها محمومتان وقد غاصتا في التجويف العظمي داخل جمجمتها.

أخبرتهم ابنتها «آرلين» هامسة -التي كانت تختبئ في هذه اللحظة مع رودي في مكان ما- بأن والدتها أبقت دلوًا من الصفيح جوار الفراش، وأن والدها حين حمله لإفراغه خارج المبنى، كان الدلو ممتلئًا بمقدار إصبعين بشيء ذي رائحة سيئة يشبه الدماء.

قالت السيدة كاتشنر بهدوء: «يمكنك الذهاب إذا أردت يا عزيزي».

ثم أكملت: «سأخبر أخاك أن يعود إلى منزلكم عندما يزحف خارجًا من أيٍّ كان المكان الذي اختبأ فيه».

سأل ماكس: «هل أيقظتك يا سيدة كاتشنر؟».

هزت رأسها نفيًا. فأردف بصوت عالٍ فيه بحة الشعور بالذنب: «آسف لإخراجك من فراشك».

ثم وبتردد أضاف: «هل تظنين أن البقاء خارج فراشك هنا في الخارج فكرة جيدة؟».

قالت بسخرية وزاوية فمها ترتفع: «هل أنت طبيبي؟ ماكس فان هيلسينج؟ ألا تظن أنني أحصل على ما يكفيني من والدك؟».

بسرعة قال: «لا يا سيدتي. أعني... نعم، سيدتي».

لو كان رودي هنا، لقال شيئًا ذكيًّا يفجِّر منها الضحكات، لجعلها تصفق بيديها مبتسمة.

كان مكان رودي في الراديو، نجمًا شابًّا في برنامج ترفيهي يديره شخص ما. على عكس ماكس الذي عجز عن ترتيب كلماته، أو معرفة ما عليه قوله في اللحظات المناسبة، أيًّا كان ما سيرد به، لن ينتزع الضحكات من الآخرين. لم يكن مصدر صمته هو انزعاجه من لهجته فقط، على الرغم من أنها سببت عقدة دائمة له وكانت تدفعه للتحدث بأقل كلمات ممكنة. لكن أيضًا مزاجه،

طبيعة شخصيته التي جعلته غالبًا غير قادر على الخروج عن صمته وفتح أحاديث.

قطع أفكاره صوت المرأة تقول: «إنه صارم جدًا بشأن إبقائكما في الداخل قبل حلول الظلام، أليس كذلك؟».

أجاب: «بلى سيدتي».

قالت: «هناك الكثيرون هنا مثله، وكأنهم أحضروا معتقدات القرى القديمة معهم. كنت أعتقد أن والدك لكونه طبيبًا متعلمًا، لن يؤمن بالخرافات ومثل هذه الأشياء».

قمع ماكس رغبته في الرد مع القشعريرة التي سرت عبر جسده. كان القول بأن والده مؤمن بالخرافات هو تقليل سافر لطبيعة والده، حتى كاد التعبير يكون مضحكًا.

تابعت قائلة: «لا أظن أنه سيقلق كثيرًا على شخص مثلك، لا يمكنني تخيل أنك واجهت أي مشكلات في حياتك قبلًا».

رد ماكس: «شكرًا سيدتي».

لكن ما أراد قوله حقًا هو أنه يتمنى أكثر من أي شيء أن تعود إلى الداخل وتستلقي وتستريح. بدا له أحيانًا أنه يعاني مشكلة في التعبير عن نفسه. في كثير من الأحيان، عندما رغب بشدة في قول شيء ما، كان يشعر بأن قصبته الهوائية تنغلق على الكلمات، مما يقطع الهواء عنه ليعجِزه عن التنفس. أراد مساعدتها. تخيل أنه يتأبط ذراعها، قريبًا بما يكفي لاستنشاق رائحة شعرها. أراد أن يخبرها أنه صلى من أجلها في الليل، ليس ظنًّا منه أن لصلواته أي قيمة، كان ماكس قد صلى من أجل والدته أيضًا، لكن ذلك لم يُحدِث أي فرق. لم يقل أيًّا من هذه الأشياء. شكرًا لك سيدتي؛ كانت أكثر من كافية.

قالت: «اذهب، أخبر والدك أنني طلبت من رودي البقاء ومساعدتي على تنظيف المطبخ».

أجاب: «نعم سيدتي، شكرًا سيدتي، فقط أخبريه أن يسرع من فضلك».

على طريق الذهاب، ألقى ماكس نظرة إلى الوراء، أمسكت السيدة كاتشنر بمنديل يغطي شفتيها، لكنها أبعدته فورًا ولوَّحت به له في لفتة حب سريعة جعلت ماكس يشعر بالمرض ينخر فيه حتى النخاع، رفع يده لتحيتها ثم

ابتعد. تبعه صوت أنفاسها المتحشرجة وسعالها القاسي ككلب أفلت من رباطه وبدأ في مطاردته بعيدًا عن المكان.

حين وصل إلى بيته كانت السماء مظللة بالأزرق الداكن الأقرب إلى السواد الآن، باستثناء توهج خافت كشعلة تحتضر في الغرب حيث اختفت الشمس توًّا. كان والده جالسًا في الشرفة ينتظر والكرباج بيده. توقف ماكس أسفل الدرج ناظرًا إليه، راقب عينَي والده المغلقتين اللتين يصعب رؤيتهما أسفل حاجبيه الكثيفين اللذين بدوا كالصوف.

انتظر ماكس أن يقول شيئًا. لم يفعل. أخيرًا استسلم ماكس وتحدث بنفسه: «لا يزال هناك ضوء».

- الشمس غابت.

- كنا عند آرلين، لا تبعد عن هنا عشر دقائق حتى.

- نعم، لأن بيت السيدة كتشنر آمن للغاية، حصن حقيقي، محمي من قِبل مزارع يستطيع بالكاد الانحناء، يعاني الروماتيزم هو وفلاحة أمية متألمة يأكل السرطان أحشاءها.

حاول ماكس الدفاع: «ليست أمية».

انتبه لنبرته الدفاعية، لذا عندما تحدث مرة أخرى جاء صوته أكثر عقلانية: «لا يمكنهم تحمل الضوء. أنت قلت هذا بنفسك، إن لم يكن الظلام قد حل بعد فلا داعي للخوف. ما زال هناك ضوء بالسماء».

أمال والده برأسه، ترك الجملة تعبر دون جدال ثم سأل: «أين رودولف؟».

- خلفي تمامًا.

رفع الرجل العجوز رأسه ناظرًا إلى الطريق الفارغ خلف ماكس باستعراض مبالغ فيه فعدل ماكس كلامه: «عنيت أنه سيأتي خلفي، هو فقط توقف لمساعدة السيدة كاتشنر في تنظيف شيء ما».

- تنظيف ماذا؟

- كيس دقيق، على ما أعتقد. انسكب ونشر الفوضى على كل شيء، أخبرتْه أنها ستنظِّفه بنفسها لكن رودي قال إنه يريد المساعدة، وطلبَ مني العودة حتى لا تتساءل إلى أين ذهبنا، سيكون هنا في أي لحظة.

جلس والده ساكنًا تمامًا، ظهره متصلب، ووجهه بلا تعبير. ثم، فقط عندما اعتقد ماكس أن المحادثة انتهت، قال ببطء شديد: «وتركته يبقى؟».

رأى ماكس على الفور -مفزوعًا- الفخ الذي أوقع نفسه فيه، أدرك بيأس أن الأوان فات ليبحث عن مخرج، لذا أجاب مستسلمًا: «نعم سيدي».

- ليمشي في الظلام وحده عائدًا إلى المنزل؟
- نعم سيدي.
- أرى هذا. اذهب إلى الداخل، لدروسك.

شق ماكس طريقه صعودًا باتجاه الباب الأمامي الذي كان مفتوحًا جزئيًا. شعر بجسده يتصلب حين عبر جوار كرسي والده الهزاز، متوقِّعًا الكرباج في أي لحظة. بدلًا من هذا وحين اندفع والده عن الكرسي، أمسكت يده بمعصم ماكس بقوة، ضاغطًا حتى كاد ماكس يشعر بعظام رسغه تنكسر.

تنفس والده بصوت عالٍ، الصوت الذي تعلم ماكس أن ما يليه هو نوبة غضب، وفح قائلًا: «أنت تعرف أعداءنا، ومع ذلك تفضِّل البقاء مع أصدقائك حتى يحل الليل؟».

حاول ماكس الإجابة، لكنه لم يستطع، شعر أن قصبته الهوائية تنغلق، وشعر أنه يختنق مرة أخرى بسبب الأشياء التي يريد قولها، بلا جرأة للتفوه بها.

تابع والده: «رودولف، متوقَّع منه ألا يتعلم، إنه أمريكي، هنا يعتقدون أن من حق الطفل تعليم أبويه، أرى كيف ينظر إليَّ حين أتحدث، محاوِلًا ألا يضحك. هذا سيئ، لكن على الأقل حين يعصاني رودولف، يفعلها متعمِّدًا، يحاول كسر كلامي. لكن أنت، أنت تفعلها بغباء، دون تفكير، ثم تتساءل لِم لا أطيق النظر إليك في أغلب الوقت. السيد بارنوم لديه حصان، حصان مفكر ذكي حتى إنه يعتبره أحد أعظم إنجازات «سيركه». لو كنت تفهم ما أخبرك به بنصف كفاءة هذا الحصان حتى، لكنت سأعتبرك معجزة مثله».

ترك معصم ماكس، وخطا ماكس مترنحًا إلى الوراء، وذراعه تنبض.

أكمل والده: «اذهب إلى الداخل، لا أريد رؤيتك، سترغب في نيل قسط من الراحة، هذا الطنين المزعج غير المألوف في رأسك، هو طنين التفكير في كلامي. اعتَده».

حرك والده يده أمام رأسه فقال ماكس: «نعم سيدي».

أدرك ماكس أن نبرته جاءت غبية ومثيرة للاشمئزاز. وتساءل لِم بدت اللهجة ذاتها على والده مثقفة وقوية، بينما حين خرجت من فمه جعلته يبدو كعامل مزرعة هولندي غبي وممل، شخص يجيد حلب الأبقار ربما لكن سيسيطر عليه الرعب والفزع إذا حدق إلى صفحات كتاب مفتوح. اتجه ماكس إلى المنزل دون تركيز في خطواته، فضرب رأسه على كومة بصيلات الثوم المتدلية من أعلى إطار الباب. من خلفه شخر والده.

في المطبخ جلس ماكس أمام مصباح مشتعل في أقصى نهاية الطاولة، لا يكفي لتبديد الظلام المتراكم بالغرفة. انتظر يستمع، رأسه مرفوع حتى يتمكن من الرؤية عبر النافذة والأرض خلفها. كان كتاب قواعد اللغة الإنجليزية مفتوحًا أمامه، لكنه لم ينظر إليه، لم يجد الإرادة لفعل أي شيء سوى الجلوس وانتظار رودي.

بعد فترة صار الظلام شديدًا بحيث عجز عن رؤية الطريق نفسه أو أي شخص قادم منه، صارت أشجار الصنوبر كالأشباح السوداء المحفورة وسط سماء شابه لونها الوهج الأخير الخافت للفحم المحتضر، ثم تلاشى الوهج لتحل محله اللآلئ الساطعة في سماء الليل الحالكة.

أنصت ماكس لحركة والده في الكرسي الهزاز، صوت الأنين والقرع الناعم للمنحنيين الخشبيين يتحركان ذهابًا وإيابًا فوق ألواح الشرفة. دفع ماكس يده خلال شعره قابضًا على البصيلات بين يديه، هامسًا لنفسه: «هيا وودي هيا»، أراد أكثر من أي شيء أن ينتهي الانتظار.

ربما كانت ساعة هي ما مرت، أو ربما خمس عشرة دقيقة.

ثم سمعه، صوت قدمَي أخيه الناعمتين في التراب الطباشيري على جانب الطريق، تباطأ عندما دخل إلى أرضهم، لكن ماكس شك أنه كان يجري طوال الطريق إلى هنا، وهي فرضية تأكد منها بمجرد أن تحدث رودي. على الرغم من أنه حاول استخدام لهجته المعتادة الخفيفة، فإنه كان شديد الانفعال، ولم يكن بإمكانه التحدث إلا على دفعات.

***

- آسف آسف. السيدة كوتشنر. حادث. طلبت مني المساعدة. أنا أعرف. متأخر.

توقف الكرسي عن الحركة. أصدرت الألواح صوتًا حين وقف أبوهما على قدميه قائلًا: «أخبرني ماكس. وهل نظفتَ الفوضى؟».

- نعم، أوه، أجل. آرلين.. ركضت آرلين عبر المطبخ. لم تكن تنظر، السيدة كوتشنر أسقطت كومة من الأطباق.

أغمض ماكس عينيه، وثنى رأسه إلى الأمام، وشد جذور شعره حتى بدأ يشعر بالألم.

قال الأب: «يجب ألا تتعِب السيدة كوتشنر نفسها، إنها مريضة. في الواقع أعتقد أنها بالكاد تستطيع النهوض من الفراش».

عقَّب رودي فورًا: «هذا ما اعتقدته أنا أيضًا».

كان صوته أسفل الشرفة، وقد بدأ يستعيد هدوءه: «لم يحل الظلام بشكل كامل بعد حتى».

- فعلًا؟ آه. عندما يصل المرء إلى سني، تضعف رؤيته بعض الشيء، وغالبًا ما يخلط الغسق بالليل. ظننت غروب الشمس جاء وانتهى منذ عشرين دقيقة. ما الوقت الآن؟

سمع ماكس صوت والده وهو يفتح ساعة جيبه، تنهد بقوة. من الخارج جاء صوت والده: «لكن الخارج مظلم جدًّا لأتمكن من قراءة الساعة حتى، حسنًا. اهتمامك بمساعدة السيدة كاتشنر مثير للإعجاب».

قال رودي، واضعًا قدمه على الدرجة الأولى من الشرفة: «أوه، لم يكن شيئًا».

عقَّب والدهما بصوت هادئ، لطيف، بنبرة تخيل ماكس أنه يخاطب بها المرضى في المراحل الأخيرة من الموت: «لكن في الحقيقة، عليك أن تهتم أكثر بمساعدة نفسك رودولف».

قال رودي: «أنا آسف، أنا كذلك».

- أنت آسف الآن. لكن ندمك سيكون أكثر بعد لحظات.

شق الكرباج الهواء بصوت هائل، ثم هبط برنين لحمي، وصرخ رودي، الذي كان على وشك بلوغ عشرة أعوام خلال أسبوعين. طحن ماكس أسنانه،

ويداه ما زالتا تحفران في شعره، ضغط معصميه على أذنيه، محاولًا عبثًا حجب أصوات الصراخ، وضربات الكرباج على اللحم والعظام.

بسبب تغطية أذنيه لم يسمع صوت والدهما يدخل. نظر إلى الأعلى عندما سقط عليه ظل. وقف إبراهام في مدخل القاعة، شعره أشعث، وياقته منحرفة، وكرباجه على الأرض. انتظر ماكس أن يُضرَب به، لكن لم يفعل.

قال الأب: «ساعد أخاك في الدخول».

نهض ماكس بلا ثبات واقفًا على قدميه. لم يستطع مقابلة نظرات الرجل العجوز فخفض عينيه، ووجد نفسه يحدق إلى الكرباج بدلًا من ذلك. كان ظهر يد والده مليئًا بالدماء.

سحب ماكس نفسًا خائفًا ومرتبكًا، قال الأب: «أرأيت ما أجبرتني على فعله؟».

لم يرُد ماكس. ربما لم يكن هناك إجابة صحيحة أو متوقَّعة. وقف والده هناك لفترة أطول، ثم استدار، ومضى بعيدًا إلى الجزء الخلفي من المنزل، نحو المكتب الخاص به الذي كان دائمًا مغلقًا، الغرفة التي مُنعوا من دخولها دون إذنه. لعدة ليالٍ نام الأب هناك، كان بوسعهما سماعه وهو يصرخ في نومه ويشتم باللغة الهولندية.

***

صرخ ماكس: «توقف عن الجري، سأمسك بك في النهاية».

راوغ رودولف عبر الحظيرة، أمسك بالدرابزون الحديدي وتسلقه، وهرع إلى جانب المنزل، وضحكاته تصدح خلفه.

صرخ ماكس: «أعدها!».

وقفز على الطريق دون أن يبطئ من سرعته، ارتطم بالأرض دون أن يفقد اتزانه. كان غاضبًا، غاضبًا حقًّا، غضبه حمل تحكمًا في النفس غير متوقَّع، غير متوقَّع لأن بنيانه كان على غرار والده. بأبعاد هائلة كجاموس ماء تعلم المشي على قائمتيه الخلفيتين، على النقيض من رودي، الذي ورث بنية والدتهما الرقيقة لتتماشى مع بشرته الخزفية، كان سريعًا لكن ماكس كاد يحاصره على أي حال. لم يعتد رودي النظر كثيرًا من فوق كتفه إلى الخلف، أو تخطيط المكان الذي سيتجه إليه. كان على مقربة من المنزل وحين يصل

إلى هناك، سيحاصره ماكس جوار الحائط. سيتمكن بسهولة من قطع الطريق عليه إذا حاول الركض إلى اليمين أو اليسار.

لكن رودي لم ينعطف إلى اليسار أو اليمين. أعلى رأسه كانت نافذة مكتب والدهما مفتوحة بنحو قدم، كاشفة عن الظلام البارد داخل المكتب. أمسك رودي بإطار النافذة ناظرًا من خلف كتفه هذه المرة، لا يزال يحمل خطاب ماكس بيد واحدة، وفي حركة سريعة رفع نفسه عبر النافذة وحط في الداخل في الظلام.

أيًّا كان ما شعر به والدهما بشأن عودتهما إلى البيت بعد حلول الظلام، لم يكن هناك مقارنة بما سيكون رد فعله لو اكتشف أن أيًّا منهما دخل مكتبه الخاص. لكن والدهما لم يكن هنا، رحل بسيارته الفورد إلى مكان ما، ولم يبطئ ماكس من سرعته للتفكير فيما سيحدث لو عاد والده فجأة. قفز ممسكًا بكاحل أخيه، ظنًّا منه أنه سيسحب الطفيل الصغير الأحمق إلى الخارج، لكن رودي صرخ ولوى قدمه بعيدًا عن قبضة ماكس. سقط في الظلام ووقع فوق ألواح الأرضية في ضربة قوية اهتز بسببها الزجاج في مكان ما في المكتب.

دون تفكير سحب ماكس نفسه عبر النافذة، صاح شقيقه من الداخل: «احذر ماكس إنها...».

دفع ماكس بنفسه إلى المكتب مع انتهاء أخيه من الجملة: «سقطة كبيرة».

***

كان ماكس في مكتب والده من قبل بالطبع، في بعض الأحيان حين دعاهم إبراهام إلى «الحديث»، وهو ما عنى أنه سيتحدث وهم سيستمعون، لكنه لم يدخل الغرفة قط عن طريق النافذة. انكفأ إلى الأمام، وألقى نظرة مذهولة على الأرض تحته بثلاثة أقدام تقريبًا، وأدرك أنه على وشك السقوط بوجهه. عند نهاية رؤيته أبصرَ مائدة مستديرة بجانب أحد كراسي والده ذي الذراعين، ومد يده لإيقاف سقوطه. لكن سرعة هبوطه استمرت في سحبه إلى الأمام وسقط على الأرض بالفعل. في اللحظة الأخيرة أدار وجهه جانبًا ليتلقى أغلب الصدمة على كتفه اليمنى. جواره قفز الأثاث من موضعه، انقلبت الطاولة كاملة وسقط كل شيء عليها. سمع ماكس دويًّا ثم تهشّم زجاج، ذلك الصوت الذي آلمه أكثر من رأسه أو كتفه.

على بعد أمتار منه جلس رودي على الأرض، الابتسامة الحمقاء ما زالت على وجهه وبيده المظروف نصف المجعَّد، منسيًّا.

لحسن الحظ لم تتحطم الطاولة، لكنها بقيت منكفئة على جانبها، تحطمت حبَّارة قديمة على الأرض، تاركة قطرات لامعة بالقرب من ركبة ماكس. تناثرت مجموعة من الكتب على السجادة الفارسية، وحلَّقت بعض الأوراق فوق رأسيهما منجرفة ببطء لتسقط بحفيف خفيف على الأرض.

أشار ماكس إلى نقطة الحبر ليصيح: «أرأيت ما أجبرتني على فعله؟».

ثم أجفلَ، مدركًا أن هذا هو بالضبط ما قاله والده له قبل بضع ليالٍ، لم يرغب في رؤية صوت والده يخرج منه ولا كلماته، لم يرغب في الحديث كما لو كان دمية خشبية يستخدمها المتحدث من البطن، وتبقى هي دمية خشبية لفتى ذي رأس فارغ.

قال رودي: «سنرميها بعيدًا».

- إنه يعرف مكان كل شيء في مكتبه. سيلاحظ أنها مفقودة.

- لا، لا يأتي إلى هنا إلا ليشرب البراندي، يطلق الريح ثم ينام على الأريكة. جئت إلى هنا عدة مرات، أخذتُ ولاعته للتدخين في الشهر الماضي ولم يلاحظ.

سأل ماكس: «فعلت ماذا؟».

حدق إلى أخيه الصغير بمزيج من المفاجأة والحسد. كان الأخ الكبير في المعتاد هو من يرتكب الحماقات ثم يتباهى بها لاحقًا.

قطع رودي تفكير ماكس: «لمَن هذه الرسالة التي كان عليك أن تذهب وتختبئ هناك لكتابتها؟ هاه؟ رأيتك تكتبها من فوق كتفك كما تعلم».

ارتفع صوت رودي متظاهِرًا بالرومانسية مقلِّدًا ما كتب: «ما زلت أتذكر كيف أمسكتِ بيدي...»».

اندفع ماكس إلى أخيه، لكنه كان بطيئًا جدًّا، فقد فتح رودي الرسالة وبدأ يقرأ، مع كل سطر كانت الابتسامة تتلاشى والخطوط التعبيرية تكلِّل جبينه، حتى سحب ماكس الرسالة بعيدًا بقوة.

سأل رودي مرتبِكًا: «ماما؟».

قال ماكس: «كان واجبًا مدرسيًّا، أخبرتنا السيدة لاودن أن علينا كتابة رسالة إلى شخص ما، لو اخترنا شخصًا لتوجيه رسالة إليه فمن سيكون. بوسعنا ابتداع شخصية أو اختيار شخصية تاريخية أو... شخص مات».

- وكنت ستسلم هذه إلى السيدة لاودن؟! ستتركها تقرؤها؟!

- لا أعلم، لم أنتهِ منها بعد.

لكنه كان قد بدأ يدرك بالفعل أنه ارتكب خطأ، وأنه سمح لنفسه بالانقياد حول العديد من الاحتمالات الرائعة لكلمة «ماذا لو؟» لم يستطع المقاومة، وبدأ في كتابة أشياء شخصية للغاية لم يكن لأحد أن يقرأها، كتب كيف كان يفتقدها، كيف كانت الوحيدة التي بوسعه الحديث معها، وأنه أغلب الوقت يشعر بالوحدة الشديدة الآن. تخيل أنها تقرأ ما يكتبه حقًّا، بطريقة ما في مكان ما، ربما كتب ما كتبه لأنه تخيل أنها وسط النجوم في الأعلى، تبتسم بعطف وهي تراقب ما يسطِّره عبر الورق. كان خيالًا سخيفًا وساذجًا وطفوليًّا، شعر فجأة بالحرج الشديد كونه استسلم له.

كانت والدته بالفعل ضعيفة ومريضة حين اضطرتها الفضيحة هي وعائلتها إلى مغادرة أمستردام. عاشوا لفترة في إنجلترا لكن السمعة الرهيبة لما فعله والدهم تبعتهم إلى هناك أيضًا، رغم شك ماكس في أنه لن يعرف ما فعله والده تحديدًا، لكن الفضيحة دفعتهم إلى الرحيل إلى أمريكا.

لفترة من الوقت ظن والده أن الأمور استقرت أخيرًا، حصل على منصب محاضِر في الجامعة، ودفع مدخراته كافة لشراء مزرعة جميلة في الضواحي القريبة، لكن في نيويورك، التقاه العميد. أخبرَ إبراهام فان هيلسينج أنه لا يستطيع بضمير حي تركه يعمل مع شابات لم يبلغن سن الرشد دون إشراف. عرف ماكس الآن أن من قتل والدته كان والده. كما لو كان قد خنقها بوسادة في فراش المرض. لم يكن السفر هو ما جعلها تهوي إلى نهايتها، رغم حملها ورغم معاناتها من مرض في الدم جعل أي لمسة تترك كدمات على جسدها، لا، كان الإذلال. لم تتمكن مينا من النجاة وتخطي الفضيحة التي جلبها والده، تلك التي أجبرت عائلتهم بالكامل على الفرار.

قال ماكس: «تعال، دعنا ننظف المكان ونخرج من هنا».

عدَّلَ وضع الطاولة وبدأ في جمع الكتب، لكنه أدار رأسه عندما قال رودي فجأة: «هل تؤمن بمصاصي الدماء، ماكس؟».

كان رودي على ركبتيه فوق السجاد العثماني بأرض الغرفة، وقد انحنى لجمع بعض الأوراق التي استقرت هناك، ثم مكث ناظرًا إلى حقيبة الطبيب الموضوعة جانبًا، عابثًا بحبات المسبحة الملتفة حول المقابض.

حذَّره ماكس: «دع هذا وشأنه، نحن بحاجة إلى التنظيف، وليس إحداث فوضى أكبر».

- هل تؤمن؟

ظل ماكس صامتًا لفترة طويلة ثم: «تعرضت أمي للهجوم، لم يعد دمها بعدها كما كان قط، أصابها المرض».

- هل قالت هي إنها تعرضت للهجوم أم هذا ما قاله هو؟

- ماتت عندما كنت في السادسة، لم تكن لتخبرني بأي شيء وأنا في هذا العمر.

سأله رودي: «لكن هل تظن أننا في خطر؟».

كانت الحقيبة أمام رودي مفتوحة الآن، مد يده لالتقاط حزمة ملفوفة بعناية في قماش أرجواني ملكي، صدر صوت خشب يحتك بخشب من بين القماش.

- هل تصدق أن مصاصي الدماء في الخارج في انتظار فرصة للنيل منا إن لم نكن حذرين؟

- لا أستبعد أي شيء، مهما بدا الاحتمال بعيدًا.

كرر شقيقه: «مهما كان الاحتمال بعيدًا».

ثم ضحك بهدوء، كاشفًا عن وتد يبلغ قطره تسع بوصات من الخشب الأبيض المتوهج داخل حامل جلدي، وتابع: «حسنًا، أعتقد أن هذا كله هراء، محض هراء».

أثار مسار المناقشة أعصاب ماكس. شعر للحظة برأسه خفيفًا من الدوار، كما لو أنه وجد نفسه فجأة يحدق من فوق مرتفع شديد الانحدار. وربما كان هذا هو الوضع حقًّا الآن. كان يعرف دائمًا أنهما سيخوضان هذه المحادثة يومًا ما وخشي فكرة إلى أين ستقودهما. لم يكن رودي قط أكثر سعادة مما كان عليه في أثناء خوض جدال، لكنه لم يتابع شكوكه قط إلى نقطة الاستنتاجات المنطقية، كان بإمكانه نعت كل شيء لا يعجبه بالهراء، لكنه لم

يتوقف قليلًا للنظر فيما عناه ذلك عن والدهما، الرجل الذي كان يخشى الليل كشخص لا يستطيع السباحة ويخشى المحيط. كاد ماكس يجزم أن كل هذا صحيح، أن مصاصي الدماء حقيقيون، لأن الاحتمال الآخر بأن والدهما كان دائمًا في قبضة مرض ذهان، فكرة فظيعة ومدمِّرة.

***

كان عاكفًا على التفكير في كيفية الرد عندما لفت انتباهه إطار صورة، انزلق في منتصف الطريق تحت كرسي والده. كان وجهه إلى أسفل، لكنه عرف ما سيراه عندما قلبه. كانت صورة قديمة للغاية لوالدته، صوِّرت في مكتبة منزلهم في أمستردام ذات يوم، وهي تعتمر قبعة بيضاء من القش، وخيوط شعرها تبرز من أسفلها عبثية ومتناثرة حول وجهها.

رفعت يدًا واحدة في إيماءة غامضة، بحيث بدت وكأنها تلوِّح بسيجارة غير مرئية في الهواء. انفرجت شفتاها، قائلة شيئًا ما، غالبًا ما تساءل ماكس عن كلماتها في تلك اللحظة. تخيل لسبب غامض داخله أنه وقف خارج الإطار في تلك اللحظات، طفل في الرابعة من عمره، يحدق إليها بجدية. شك في أن يدها المرفوعة كانت محاولة منها لصرفه، لمنعه من دخول حيز الصورة. لو كان هذا صحيحًا فهذا عنى أن صورتها حُفظت إلى الأبد وهي تنادي اسمه.

سمع صوت كشط ورنين لسقوط الزجاج وهو يلتقط إطار الصورة ويقلبه. تحطمت لوحة الزجاج في المركز بالضبط، بدأ يهز الأنياب الصغيرة اللامعة من الزجاج ليفصلها، حملها خارج الإطار ووضعها جانبًا، محاذرًا ألا يخدش أيٌّ منها الورق اللامع تحته. سحب إسفينًا كبيرًا من الزجاج من الزاوية العلوية للإطار، وانفك ركن المطبوعة معه. حاول إعادة الورقة إلى مكانها.

ثم تردد، عابسًا، وشك للحظة أن عينيه قد أُرهقتا وأنه بدأ يرى الأشياء مزدوجة. خلف صورة والدته، وُضعت صورة أخرى، مخفية بعناية. أخرج صورة أمه من الإطار وبدأ يحدق إلى الصورة الأخرى التي أُخفيت خلفها، ضائعًا. ثم انتشر خدر جليدي في صدره زاحفًا إلى حلقه، نظر حوله وشعر بالارتياح لرؤية رودي، لا يزال راكعًا على السجاد العثماني، يدندن لنفسه، يدحرج الأوتاد مرة أخرى في كفنها المخملي.

عاود النظر إلى الصورة السرية، كانت المرأة فيها ميتة، عارية من الخصر إلى أعلى، وكان ثوبها ممزَّقًا، مطويًّا إلى الأسفل حتى منحنى خصرها. كانت ممددة في سرير محاط بأربعة أعمدة ذات ستار، مثبَّتة هناك بحبال ملفوفة حول حلقها، وذراعاها مسحوبتان إلى فوق رأسها.

كانت شابة وربما جميلة وقتها، التأكد كاد يكون مستحيلًا؛ إحدى العينين منغلقة، والأخرى مفتوحة بالكاد، شق طفيف أظهر اللمعة غير الطبيعية في مقلة العين تحتها. فمها فغر بالقوة، وحوى كرة بيضاء مشوَّهة. كانت تعض على الكرة، شفتها العلوية سُحبت لتظهِر الصف الصغير والمتساوي من أسنانها العلوية. كان جانب وجهها قد تغير لونه بسبب الكدمات. بين منحنيات ثدييها الكثيفين الحليبيَّين، رُشق وتد من الخشب الأبيض، وأغرق الدم قفصها الصدري الأيسر بالكامل.

حتى عندما سمع صوت السيارة في المرأب الأمامي، لم يكن قادرًا على الحركة، وعجز عن إبعاد نظرته عن الصورة، ثم نهض رودي، شد كتف ماكس، وأخبره أنه يجب عليهما الذهاب. صفق ماكس الصورة على صدره لمنع شقيقه من الرؤية.

قال: «اذهب، سأكون خلفك مباشرة».

رفع رودي يده عن ذراعه ومضى. ارتجفت يدا ماكس على إطار الصورة، وهو يكافح من أجل إعادة صورة المرأة المقتولة إلى مكانها، ثم لمح شيئًا آخر وتسمر مكانه من جديد. لم يكن قد لاحظ حتى هذه اللحظة الشكل الموجود في أقصى اليسار في الصورة، رجل على الجانب القريب من السرير، كان ظهره للمصور، وكان منحنيًا وقريبًا جدًّا من الفراش، رأسه مغطى بقبعة سوداء مسطحة الحواف، يرتدي معطفًا أسود، مسربَلًا بالكامل في السواد حتى إنه بدا كحاخام غامض. لم تكن هناك طريقة مؤكَّدة لمعرفة هويته، لكن ماكس كان متأكدًا، عرفه من الطريقة التي مال بها رأسه، الطريقة الحذِرة المتصلِّبة التي وازن بها الرأس على الرقبة السميكة. في يده حمل بلطة، وحقيبته الطبية باليد الأخرى.

توقف محرك السيارة بأزيز وصوت صفيحي يترجرج. وضع صورة المرأة الميتة في الإطار وأعاد صورة مينا فوقها، ثم وضع الإطار بالكامل دون زجاج

على طرف المنضدة، حدق إليها لبرهة ليكتشف برعب أنه وضع صورة مينا بالمقلوب، مد يده إلى الإطار حين بكى رودي: «هيا هيا!».

واقفًا على أطراف أصابعه في الخارج أسفل نافذة: «من فضلك ماكس».

ركل ماكس الزجاج المكسور تحت الكرسي، وصعد إلى النافذة وصرخ، أو حاول الصراخ لأن الهواء في رئتيه نفد، لم يستطع إجبار ما تبقى من هواء على مغادرة حلقه.

وقف والدهما خلف رودي، وهو يحدق إلى ماكس من فوق رأس رودي. لم يره أخوه، ولم يكن يعلم أنه كان هناك، حتى وضع والدهما يديه على كتف الفتى. لم يكن لدى رودولف أي مشكلة في الصراخ على الإطلاق، وقفز كما لو كان ينوي القفز مرة أخرى إلى المكتب.

حدق الرجل العجوز إلى ابنه الأكبر، وبادله ماكس النظر ورأسه خارج الزجاج ويداه مسنودتان على الإطار.

قال والده: «إذا أردتَ، يمكنني فتح الباب لتخرج عبره، لن يحمل خروجك الدراما ذاتها، لكن على الأقل ستكون قد غادرت بشكل ملائم».

صرخ ماكس: «لا لا شكرًا لا أنا... أعلم أن هذا خطأ، أنا آسف».

- الخطأ هو عدم معرفة عاصمة البرتغال في اختبار الجغرافيا. هذا هنا! شيء آخر.

توقف مكانه، خفض رأسه وملامح وجهه تكاد تكون صخرية. أطلق سراح رودي واستدار فاتحًا يده، مشيرًا إلى الأرض في إيماءة عنت اخرج إلى هنا. قبل أن يقول: «سنناقش ما حدث في وقت لاحق. الآن إذا لم تكن لديك مشكلة، فسوف أطلب منك مغادرة مكتبي».

حدق إليه ماكس. لم يسبق لوالده أن تردد قبلًا في تنفيذ العقوبات، ودخول مكتبه يستحق جلدًا مريعًا على أقل تقدير، حاول التفكير في سبب تأجيل العقوبة. صعد ماكس، ثم قفز وسقط على الأرض. نظر رودي إليه بعين متوسِّلة متسائلًا عما يمكنهما فعله الآن. رفع ماكس رأسه نحو الإسطبل، وبدأ في المشي ببطء متعمَّد وشقيقه الصغير جواره.

لكن قبل أن يتمكنا من الهرب، سقطت يد والده على كتف ماكس: «دوري كان حمايتك دائمًا، ماكسيميليان».

صمت ثم أكمل: «ربما الآن بفعلتك تخبرني أنك لا ترغب في تلك الحماية؟ عندما كنت صغيرًا، غطيت عينيك في المسرح حين جاء مشهد قتل كلارنس، لكن في وقت لاحق، عندما ذهبنا لحضور ماكبث، دفعتَ بيدي بعيدًا، أردتَ أن ترى. الآن أشعر أن التاريخ يكرر نفسه. صحيح؟».

لم يرُد ماكس. أخيرًا أطلق والده سراحه، لكن قبل أن يبتعد لأكثر من عشر خطوات، تحدث مرة أخرى: «أوه! كدت أن أنسى، لم أخبركما إلى أين ذهبت ولماذا، لكن لديَّ خبرًا سيحزن كليكما. أتى السيد كاتشنر إلى هنا راكضًا حين كنتما في المدرسة، قابلته على الطريق وهو يصرخ: يا دكتور، أيها الطبيب، تعال بسرعة، زوجتي. كانت تحترق بالحمى، وعلمت أنها يجب أن تسافر إلى مستوصف الدكتور روزين في المدينة. لكن للأسف لجأ إليَّ المزارع بعد فوات الأوان. في أثناء اقتيادها إلى سيارتي سقطت أمعاؤها خارج جسدها مرة واحدة... بلوب».

أصدرَ صوتًا لزجًا بلسانه ليوضِّح الفكرة، ثم قال: «سأنظف بذلاتنا، الجنازة يوم الجمعة».

***

لم تأت آرلين كاتشنر إلى المدرسة في اليوم التالي. مرًّا أمام منزلها في طريقهما إلى بيتهما لكن النوافذ كانت مغلقة، الستائر مسدَلة في الداخل، المكان كله فاح بالهدوء والرهبة كأنه مهجور. الجنازة ستكون في المدينة في اليوم التالي، وبالتالي خمنا أن آرلين ووالدها ذهبا إلى هناك للانتظار، كان لديهما عائلة في القرية ومن المرجَّح أنهما فضَّلا البقاء معهم. حين وصل الولدان إلى المنزل كانت السيارة الخاصة بوالدهما متوقفة هناك بالفعل، والأبواب المؤدية إلى الطابق السفلي مفتوحة.

أشار رودي إلى نفسه ثم إلى الإسطبل، امتلكوا حصانًا واحدًا فقط يُدعى رايس واليوم كان دور رودي في تغيير السرج وتنظيفه، ذهب رودي إلى الإسطبل ودخل ماكس المنزل بمفرده. كان جالسًا أمام طاولة المطبخ حين سمع الباب الجانبي المزدوج للقبو يغلَق بقوة، صعد والده الدرج ووقف هناك بالمدخل أمامه.

سأله ماكس: «هل تعمل على مشروع ما في الأسفل؟».

حدق إليه والده فترة، عيناه مثبَّتتان عليه ثم قال: «سأخبرك في وقت لاحق».

راقبه ماكس يُخرِج مفتاحًا فضيًّا من جيب صدريته ويديره في القفل على باب القبو. لم يستخدم المفتاح قبلًا، وحتى تلك اللحظة، لم يعرف ماكس بوجود مفتاح أصلًا.

ظل ماكس متوترًا بقية فترة ما بعد الظهر، سارقًا نظرات خاطفة إلى باب القبو من حين إلى حين، وقد أثار وعد والده «في وقت لاحق، سأكشف لك عما أفعل في وقت لاحق» شكوكه. لم تأتِ الفرصة للتحدث مع رودي حول ما حدث على العشاء، النقاش حول ما عناه والدهما، ما قد يكشف عنه، لكنهما عجزا عن تبادل الحديث بعدها أيضًا، في أثناء جلوسهما معًا وكتبهما المدرسية مفتوحة على طاولة المطبخ. عادة يذهب والدهما مبكرًا إلى مكتبه ليحظى بوقت خاص، وهناك يختفي حتى الصباح، لكن الليلة بدا مضطربًا، استمر في الدخول والخروج من المكتب، ليغسل كوبًا، ليجد نظارات القراءة الخاصة به، وفي النهاية لإضاءة مصباح زيتي. أشعل الفتيل ليظهر الشعاع الأحمر الخافت المتذبذب عبر الزجاج، ووضع المصباح أمام ماكس.

ثم استدار متجهًا إلى القبو، ليفتح القفل مشيرًا إليهما: «يا ولدين، اذهبا إلى الأسفل وانتظراني، لا تلمسا شيئًا».

ألقى رودي نظرة مرعوبة على الباب ثم إلى ماكس. كره رودي القبو بسقفه المنخفض ورائحته وأنسجة العنكبوت في الزوايا. اعتاد التوسل إلى ماكس كي يرافقه إذا كلَّفه والدهما بأي مهمة في الأسفل. فتح ماكس فمه ليسأل، لكن الأب كان قد اختفى من الحجرة، مبتعدًا إلى المكتب. نظر ماكس إلى رودي الذي هز رأسه في صمت.

وعده ماكس: «كل شيء سيكون على ما يرام، سأعتني بك».

***

حمل رودي المصباح تاركًا ماكس يمضي أمامه على الدرج، خلق المصباح -بلونه البرونزي المشبع بالحمرة- ظلالًا تمددت، وتقافزت، وتراقصت وسط ظلام مُقبِض امتد مبتلِعًا الطريق حتى القاع. تقدم ماكس وسط الظلام يتبعه رودي كظله، ألقى نظرة بطيئة ومترددة حوله. على يسار الدرج كانت

منضدة، فوقها وُضع شيء ما في كومة مغطاة بملاءة متسخة. بدت ككومة من الثياب المتراكمة فوق بعضها بعضًا أو كومة من الطوب. صعب معرفة ماهيتها في الظلام دون الاقتراب، ولذا تسلل ماكس بخطوات بطيئة متحركًا تجاه الطاولة، مفكِّرًا في الكشف عما هناك. كاد يصل، يمد يده لسحب الغطاء، لكنه توقف وقد أدرك فجأة ما تحت الشراشف البيضاء.

وقف رودي خلفه مباشرة مختلِسًا النظرات ثم قال: «علينا الذهاب ماكس».

لم يكن ماكس قد أدرك أن رودي تبعه إلى هنا، ظنه ماكس ينتظر على الدرج.

لكن رودي كرر: «علينا الذهاب... الآن!».

وعرف ماكس أنه لا يقصد مجرد الخروج من القبو، بل الخروج من المنزل، والهرب من المكان الذي عاشا فيه لمدة عشر سنوات بلا عودة.

لكن الأوان كان قد فات على التظاهر بأنهما هوك وجيم، بطلا القصة الخيالية في طريقهما إلى الهرب من البيت المظلم إلى النور والحرية. من خلفهما جاء صوت خطوات والدهما يطأ خشب الأرض بقوة، أحدثت الألواح صريرًا ونظر ماكس تجاهه على الدرج، في يده حمل الرجل حقيبة الأدوات الطبية التي رأياها سابقًا بالمكتب.

بدأ والدهما في الكلام: «لا يمكنني إلا أن أستنتج».

تابع: «من عملية السطو الصغيرة على مكتبي، أنكما طوَّرتما أخيرًا اهتمامًا بالعمل السري الذي ضحيت بالكثير من أجله، قتلت في الماضي ستةً من الموتى الأحياء بيدي، وآخرهم العاهرة المريضة في الصورة التي ظلت مختبئة في مكتبي، والتي أعتقد أن كليكما رآها».

ألقى رودي نظرة مذعورة على ماكس، الذي هز رأسه فقط مشيرًا إليه كي يصمت.

استمر والدهما في الحديث: «اعتدت تدريب الآخرين على فن تدمير مصاص الدماء، بما في ذلك الزوج الأول المأسوف عليه لوالدتك، جوناثان هاركر، باركه الرب، ولذا وبأريحية أفخر بأني مسؤول ولو بصورة غير مباشرة عن ذبح ربما خمسين شخصًا من نوعهم القذر والمصاب. الآن، كما

أرى، حان الوقت الذي يتعلم فيه أولادي كيف يتم ذلك. كيف تتأكد، وكيف ترد الهجوم على من يحاولون مهاجمتك».

قال رودي فورًا: «لا أريد أن أعرف».

وقال ماكس في الوقت ذاته: «لم يرَ الصورة».

وبدا أن والدهما لم يسمع أيًّا منهما. انتقل إلى منضدة العمل، والشكل المغطى بالقماش عليها. رفع أحد أركان الشرشف ونظر تحته، وأصدر صوتًا يوحي بالموافقة، ثم سحب الغطاء بعيدًا.

كانت السيدة كاتشنر عارية، وذابلة بشناعة، وجنتاها غائرتان، وفمها مفتوح. كان بطنها مفتوحًا بشكل مستحيل تحت ضلوعها، كما لو أن كل شيء بداخلها قد امتُصَّ بضغط الهواء. غطتها كدمات بنفسجية مزرقَّة بسبب الدماء التي استقرت هناك. أنَّ رودي بألم وأخفى وجهه في جانب ماكس.

وضع والدهما حقيبته الطبية بجانب جسدها وفتحها: «هي بالطبع ليست واحدة من الموتى الأحياء، مجرد جسد ميت آخر، مصاصو الدماء الآخرون غير منتشرين ولن يكون من المستحسَن وجودهم في معملي، لم أستطع وضع يدي على واحد لآتي به للتدريب على أي حال، لكنها ستفي بالغرض».

من داخل حقيبته أزال حزمة الأوتاد الملفوفة في المخمل.

سأل ماكس: «ماذا تفعل هنا؟!».

- موعد دفنها غدًا، لكن اليوم سأشرِّح الجثة لأغراضي البحثية الخاصة، السيد كوتشنر تفَهَّم، أسعده التعاون إذ عَنى ما أفعله أن امرأة أخرى لن تموت بهذه الطريقة في المستقبل.

كان لديه الآن مطرقة في يد ووتد ضخم في اليد الأخرى.

بدأ رودي في البكاء.

***

شعر ماكس بجسده يتحرك خارجًا عن إرادته، جزء منه بقي هناك في الخلف بمكانه جوار أخيه، يداه حول كتفيه المرتجفتين، يطوِّق رودي الذي بكى: «أرجوك، أرغب في الصعود إلى أعلى».

بينما الجانب الآخر منه يتحرك بثبات تجاه والده. شاهد ماكس نفسه يسير بخطى ثابتة تجاه الأب الذي حدق إليه بمزيج من الفضول والإعجاب. سلم ماكس المطرقة، شعر بها في يده. وهكذا ببطء عاد إلى جسده مرة أخرى مدركًا. وزن المطرقة بيده يشد ذراعه نحو الأسفل. أمسك والده بيد ماكس الأخرى ورفعها، جذبها إلى ثديَي السيدة كاتشنر الهزيلين. ضغط بأطراف أصابع ماكس على نقطة بين ضلعين، ونظر ماكس إلى وجه المرأة الميتة، فمها مفتوح وكأنها تسأل: «هل أنت طبيبي؟ ماكس فان هيلسينج؟».

قال والده: «هنا».

واضعًا أحد الاوتاد في يد ماكس: «هنا، الوتد يضرب في هذه النقطة حتى أقصاه. في الظروف الحقيقية ستتبع الضربة الأولى بكاء، هستيريا وألفاظ نابية، ثم صراع محموم للهرب. اللعين لن يموت بسهولة أبدًا. تصالح مع هذا وتجاهله، لا تكف عن عملك حتى تدق العصا إلى آخرها، حتى تتخلى عن الصراع ضدك وسينتهي».

رفع ماكس المطرقة، حدق إلى وجهها وتمنى أن يقول إنه آسف، إنه لا يريد أن يفعل ذلك. عندما ضرب المطرقة، ومع دوي صدى، سمع صرخة عالية اخترقت أذنيه حتى كاد يصرخ بنفسه، معتقدًا للحظة أنها كانت هي، لا تزال على قيد الحياة بطريقة ما، ثم أدرك أن رودي كان مصدرها. امتلك ماكس بنيانًا قويًا، بصدره الواسع كالجاموس البري وأكتاف المزارع الهولندي. مع الضربة الأولى دفع بالوتد إلى أكثر من ثلثَي الطريق إلى الداخل. احتاج فقط إلى ضربة واحدة إضافية ليختفي الوتد بالكامل. كان الدم الذي أحاط بالخشب باردًا وله قوام لزج.

تمايل ماكس، شعر برأسه خفيفًا، وأمسك والده بذراعه، هامسًا في أذنه وذراعاه حوله ضاغطًا عليه بشدة حتى صرخت أضلاعه: «جيد».

شعر ماكس بقدر من الإثارة التلقائية تجاه العاطفة الشديدة الواضحة في عناق والده، ثم بدأ يشعر بالغثيان حين قال والده: «الإساءة لحاوية الروح البشرية حتى بعد مغادرة الروح منها، ليس بالأمر السهل، أعلَم».

استمر والده في عناقه بينما حدق ماكس إلى فم السيدة كاتشنر المفتوح، وصفٍّ أسنانها الرقيقة العلوية. وجد نفسه يتذكر الفتاة في الصورة، وكرة الثوم البيضاء محشورة في فمها. ليتساءل فجأة: «أين أنيابها؟».

أجفل والده: «مَن؟ ماذا؟».

التفت ماكس، أدار رأسه لينظر إلى وجه والده: «في صورة الفتاة الميتة، لم يكن لديها أنياب».

حدق والده إلى وجهه ثم أغمض عينيه ليجيب: «تختفي بعد موت مصاص الدماء مباشرة كالسحر... بوف».

أطلق سراحه، وتمكن ماكس أخيرًا من الشعور بجسده ومن التنفس بشكل طبيعي.

استقام والدهما ليقول: «الآن تبقت خطوة واحدة إضافية، يجب إزالة الرأس، وحشو الفم بالثوم. رودولف!».

أدار ماكس رأسه ببطء، كان والده قد تراجع خطوة إلى الوراء. في يده حمل بلطة، لم يعرف ماكس من أين أتت. كان رودي على الدرج، على بعد ثلاث درجات من القاع، وقف مضغوطًا على الحائط، وقد دفع معصمه الأيسر ليغطي فمه كاتمًا صراخه. هز رأسه، ذهابًا وإيابًا، نفيًا، بشكل محموم.

مد ماكس يده ليمسك بالبلطة، أدار يده حول المقبض وقال بثقة: «سأفعلها أنا».

أدرك بنوع من الذعر أنه كان لديه استعداد جسدي طبيعي ورثه عن والده لقطع اللحم، لرؤية الدماء والبقاء في حالة من التماسك، لكن والده سحب البلطة بعيدًا ودفع ماكس إلى الخلف بقوة حتى إنه اصطدم بالطاولة مدحرِجًا مجموعة من الأوتاد التي تناثرت في الغبار على الأرض، وصاح فيه: «لا، ونظِّف هذه الفوضى».

اندفع رودي إلى الأعلى، لكنه انزلق على الدرجات، فقدَ توازنه وسقط على أربع ضاربًا ركبتيه بالأرض. أمسكه والده من شعره وجذبه إلى الوراء، عائدًا إلى الأسفل جوار الطاولة، وألقاه على الأرض. ارتطم رودي بالأرض مثيرًا موجة من التراب، تدحرج على بطنه، تحدث بصوت يصعب سماعه: «أرجوك لا، أنا خائف. أتوسل إليك، لا تجبرني».

بمطرقة في يد ونصف دزينة من الأوتاد في الأخرى، تقدم ماكس إلى الأمام عازمًا على التدخل، لكن والده استدار، أمسك بمرفقه بقوة، ودفعه على الدرج صائحًا: «أنت، إلى الأعلى... الآن!».

تحرك ماكس لكنه تعثر على الدرج وكاد يسقط، حبس أنفاسه مستعيدًا توازنه. حاول والده الإمساك بذراع رودي لكن الأخير تحرك بعيدًا إلى ركن الغرفة الأبعد كسرطان بحر يركض على الشاطئ.

قال الأب: «تعال هنا، رقبتها هشة، لن يستغرق الأمر وقتًا طويلًا، سأساعدك».

هز رودي رأسه، منكمشًا في الزاوية جوار صندوق فحم.

ألقى والده بالفأس في التراب غاضبًا: «إذن ستبقى هنا حتى تكون في حالة ذهنية أفضل تسمح لك بالطاعة».

استدار ممسكًا بذراع ماكس ودفعه نحو قمة الدرجات.

صرخ رودي منتفضًا: «لا!».

نهض رودي محاولًا الركض، تعثر في البلطة على الأرض وسقط، مدميًا ركبتيه من جديد، قام بسرعة لكن بحلول ذلك الوقت كان والده يدفع ماكس عبر الباب أعلى الدرج، ويتبعه خلاله، ثم أغلق الباب خلفهما. ضرب رودي الجانب الآخر بعد لحظة، وقت أن كان والدهما يدير المفتاح الفضي في القفل.

صرخ رودي باكيًا: «أرجوك!».

ضرب الباب من جديد: «أنا خائف! أنا خائف! أريد أن أخرج!».

وقف ماكس في المطبخ، كانت أذناه تطنان، أراد أن يصيح في والده: «توقف، افتح الباب»، لكنه لم يستطع إخراج الكلمات، وشعر بحلقه ينغلق. كانت ذراعاه معلَّقتين على جانبيه، مهملَتين، ويداه ثقيلتان، كما لو كانتا مصنوعتين من الرصاص المصبوب. الأشياء بداخلها جعلتها أثقل، المطرقة، الأوتاد.

لهث والده لالتقاط أنفاسه، وجبهته العريضة ترتكز على الباب المغلق. عندما تراجع أخيرًا، كان شعره مشعثًا وياقته غير مهندمة.

نظر إلى ماكس قائلًا: «هل ترى ما جعلني أفعل؟».

شهق ثم تابع: «والدتك كانت كذلك، تمامًا مثله، دائمًا في حالة هستيرية، غير مطيعة. كانت في حاجة إلى الإجبار على الطاعة، لتتعلم الحزم».

استدار الرجل العجوز لينظر إليه، في اللحظة التي سبقت ضربة ماكس، رأى الأخير تعبيرات الصدمة والتساؤل، قبل أن تلتحم المطرقة مباشرة بفك

أبيه السفلي مصدِرة قرقعة هائلة. الضربة جاءت قوية حتى إن ماكس شعر برعشة تمتد من أصابعه بطول ذراعه، كانت قوية حتى إن والده سقط على ركبتيه، لكن ماكس اضطر إلى ضربه مرة أخرى ليسقط أخيرًا على ظهره.

أُغلقت جفون إبراهام عندما بدأ في الانزلاق غائبًا عن الوعي، لكنها عادت وفُتحت من جديد حين جلس ماكس فوقه. فتح والده فمه ليقول شيئًا ما، لكن ماكس سمع بما فيه الكفاية، اكتفى من الحديث، لم يكن الحديث مصدر قوته ولم يكن يحب الحديث على أي حال. ما همَّه الآن هو العمل بين يديه، المهمة التي كان على وشك تنفيذها، عمل كان لديه غريزة طبيعية له، بل ربما وُلد من أجله.

وضع رأس الوتد حيث أراه والده وضرب المقبض بالمطرقة. اتضح أن ما قاله له الرجل العجوز في القبو كان صحيحًا. كان هناك نواح وألفاظ نابية وصراع محموم للفرار، لكنه انتهى بسرعة.

***

أفضل من الوطن

ظهر والدي على شاشة التلفاز وهو على وشك أن يُطرد خارج اللعبة مرة أخرى، عرفت أن المشجعين في مدرجات ملعب «تايجر» هم الآخرون أدركوا هذه اللحظة، لأنهم جميعًا أصدروا أصواتًا وقحة مشجِّعة. أرادوا طرده، كانوا يتطلعون إلى هذه اللحظة.

عرفت أنه سيطرد لأن رجل القاعدة استمر في محاولة الابتعاد عنه، بينما تبعه والدي في كل مكان ويده اليمنى بالكامل في الأسفل على مقدمة بنطاله، ويده اليسرى تشير بغضب في الهواء. المذيعون ثرثروا بحماس لينقلوا للمشاهدين في المنزل ما كان والدي يحاول إخبار الرجل به، رغم تجاهل الرجل له.

قال أحد المذيعين: «يمكنكم مراقبة كيف تسير الأمور الآن، دعوني أخبركم أن موجة الانفجار الانفعالي آتية عاجلًا وليس آجلًا».

ضحكت عمتي ماندي بعصبية وهي تنادي: «جيسيكا، قد ترغبين في رؤية هذا. إيرني على وشك فقدان أعصابه».

خطت والدتي إلى باب المطبخ لترى ما يدور عبر شاشة التلفاز، تتكئ على إطار الباب وذراعاها متصالبتان أمام صدرها، في حين قالت ماندي: «لا يمكنني مشاهدة هذا، هذا مزعج للغاية».

افترشت العمة ماندي أحد طرفَي الأريكة، بينما كنت أنا على الطرف الآخر، قدماي تحتي وكعباي مضغوطان في أردافي. أتأرجح ذهابًا وإيابًا. لا أستطيع

البقاء ساكنًا. شيء ما بداخلي يحتاج فقط إلى التأرجح. فمي مفتوح ويأتي بذلك الفعل الذي يكرِّره كلما شعرت بالتوتر. لا أدرك حتى أنني أفعل ذلك حتى أشعر بالرطوبة الدافئة على زاوية فمي. عندما أكون متوترًا، يصير فمي مفتوحًا هكذا، ينفد اللعاب من الزاوية ويتسرب في النهاية إلى أسفل ذقني. عندما أشعر بالضيق والعصبية مثلما أنا الآن، أقضي وقتًا طويلًا في إصدار أصوات المص الصغيرة تلك التي تعيد البصاق إلى داخل رأسي مرة أخرى.

يضع حكم القاعدة الثالثة، كومينز، نفسه بين والدي وويلكي حكم القاعدة الرئيسية، مما يوفر لويلكي فرصة الهروب. بوسع أبي الالتفاف حول كومينز، لكنه لا يفعل ذلك. هذا تطور إيجابي غير متوقَّع، علامة على أنه قد يُتجنَّب الأسوأ.

فمه ينفتح وينغلق، ويده اليسرى تلوِّح، وكومينز يستمع ويبتسم ويهز رأسه بطريقة تدل على الفهم لكنها حازمة. والدي غير سعيد.

فريقنا يخسر أربعة إلى واحد. ديترويت لديه لاعب مبتدئ يرمي الكرة، رجل لم يفز قط بأي مباراة في الدوري في حياته، رجل خسر في الواقع جميع كراته الخمس حتى الآن، ولكن على الرغم من أدائه المتوسط المتواصل، سجل إلى الآن ثماني ضربات في خمسة أدوار فقط. والدي غير سعيد بشأن الضربة الأخيرة التي جاءت بعد حركة التأرجح المحدَّد، والتي من المفترض فيها أن يتوقف الضارب عن التأرجح للسماح للكرة بالمرور دون ضربها. كان غاضبًا لأن ويلكي وصفها بأنها ضربة دون النظر إلى حُكم القاعدة الثالثة لمعرفة ما إذا كان الحَكَم قد تحقق من تأرجحه أم لا. هذا ما كان من المفترَض أن يفعله، لكنه لم يفعل.

لكن ويلكي لم يكن بحاجة إلى مراجعة ما فعله كومينز في القاعدة الثالثة. كان من الواضح أن الضارب، رامون دييغو، ترك رأس المضرب يلوِّح ضاربًا، ثم حاول بحركة سريعة من معصميه أن يعيد المضرب مرة أخرى لخداع الحكام ليعتقدوا أنه لم يتأرجح، لكنه بالفعل تأرجح، الجميع شاهده يفعلها. الجميع علموا أنه مخادع، باستثناء والدي.

أخيرًا قال والدي بضع كلمات أخيرة، ثم استدار عائدًا إلى المقاعد.

كان في منتصف الطريق إلى هناك، حرًّا وواضحًا على الشاشة، حين استدار ليصيح بكلمات معنِّفة مستحَقة باتجاه ويلكي المنحني بالقاعدة

الرئيسية ينظف مستطيل القاعدة بفرشاته الصغيرة، ومؤخرته العريضة بارزة في الهواء في طريق والدي. مهما كان ما صاح به والدي، فقد دفع ويلكي ليستدير مترنحًا على ساق واحدة سمينة مشيرًا بإصبعه تجاه والدي، الذي ألقى قبعته على الأرض فورًا ليتحرك راكضًا باتجاه القاعدة.

عندما حدث هذا، أول ما فكرت فيه هو كيف أن شَعر والدي بدا جنونيًّا، بعد أن أمضى ستة أدوار محاصَرًا داخل القبعة، الآن خرج للهواء غارقًا في العرق، عبثت به رياح ديترويت ليصبح في كل مكان، جانب مسطَّح، بينما الآخر مبلَّل ومتلاصق حتى خلف رقبة الرجل المصابة بالحروق.

تطاير شعره وهو يصرخ وماندي جواري تقول: «يا إلهي انظروا إليه!».

أومأت والدتي: «أجل، لحظة أخرى مشرقة لإيرني فيلتز».

يضع ويلكي ذراعيه فوق صدره، ليس لديه المزيد ليقوله لوالدي. الأخير يركل الأوساخ على حذائه. مرة أخرى يحاول كومينز الدخول بينهما، لكن والدي يركل الأوساخ عليه. مزَّق والدي سترته ورماها في الميدان، ثم ركلها، ركلها حتى خط القاعدة الثالثة ثم التقطها محاوِلًا رميها للخارج، لكنها سقطت على بعد عدة مترات فقط. تجمَّع بعض لاعبي فريق تايجرز أمامه في المقاعد، وسرعان ما غطى أحدهم فمه بالقفاز حتى لا يراه والدي يضحك. حوَّل وجهه إلى مجموعة من الرجال خلفه، وكتفاه ترتجفان.

قفز والدي باتجاه المقاعد المخصَّصة للفريق، باتجاه ثلاثة تلال من أكواب الشرب المكدَّسة فوق بعضها بعضًا على أحد الجدران، ليضرب الكومة كلها بيديه دافعًا إياها لتنفجر ساقطة على العشب. لم يمس المبردات نفسها التي سيرغب الفريق في الشرب منها فيما بعد. استدار والدي ليلتقط خوذة راميًا إياها باتجاه القاعدة الثالثة، تدحرجت في الملعب وهو يصرخ في ويلكي وكومينز قبل أن يعبر جوار المقاعد، ينزل بعض الدرجات، ثم يذهب. باستثناء أنه لم يرحل فعلًا، عاد ليظهر من جديد بقمة السلالم فجأة مثل القاتل بقناع الهوكي في الأفلام الذي دائمًا ما يختفي ثم يعود ليقتل ويقتل مرة أخرى، سحب والدي مضربًا من كومة المضارب، ثم حفنة منها، ليلقي بالكومة كلها محطِّمًا إياها على العشب، وهو يصرخ والبصاق يتطاير وعيناه تدمعان.

بحلول تلك اللحظات، كان الضارب قد تمكن من استعادة سترة والدي وأحضرها له على الدرجات المؤدية إلى المقاعد، لكنه وقف خائفًا من الاقتراب. لذا كان على والدي التقدم وانتزاعها من بين يديه وهو يطلق جولة أخرى من الصراخ، مرتديًا السترة بالمقلوب والورقة في مؤخرتها تلوح خلف رقبته. ليختفي مرة أخيرة عن الأنظار، هذه المرة إلى الأبد. أطلقتُ أنفاسًا لم أكن أعرف أني أكتمها.

قالت عمتي: «هذه هي نهاية العرض».

تلاها مجيء والدتي خلفي لتدفع أصابعها بشعري معلِنة: «حان وقت الحمام يا فتى، الجزء الأفضل من اللعبة انتهى».

في غرفة النوم خلعت ملابسي كاملة حتى بقيت بثيابي الداخلية فقط، كنت على وشك الذهاب إلى الحمام بنهاية القاعة حين رن الهاتف في غرفة والدي، دخلت ملقيًا بجسدي على الفراش راقدًا على بطني وأنا أجيب: «منزل فليتز».

جاء صوت والدي: «مرحبًا هومر، لديَّ دقيقة استراحة لذا فكرت في الاتصال لأقول ليلة سعيدة، هل شاهدت المباراة؟».

أجبته وأنا أمتص اللعاب الذي سال: «أجل».

لم أرغب في أن يسمع الصوت لكنه سمعه على أي حال لأنه سأل: «هل أنت بخير؟».

- إنه فمي، يفعل ذلك الشيء من جديد، لا أستطيع السيطرة عليه.

- هل وتَّرت نفسك من جديد؟

- أجل.

في اللحظة ذاتها نادت أمي من الأسفل متسائلة: «مع من تتحدث عزيزي؟».

فصحت: «أبي».

جاء صوته من الجهة الأخرى ليسأل: «هل تظن أنه خرقَ القواعد؟».

- في البداية لم أكن متأكدًا، لكن رأيت الإعادة. يمكنك القول إنه فعل هذا نعم.

قال والدي: «أوه! اللعنة».

انضمت والدتي إلى المحادثة من سماعة الهاتف الملحق بالمطبخ لتقول: «مرحبًا».

أجاب أبي: «كان لديَّ ثوانٍ ففكرت في الاتصال لأقول للفتى تصبح على خير».

- مما رأيته، يحبَّذ لو حصلت على استراحة لباقي الليلة.

- لن أكذب وأقول إنني كنت مهذَّبًا.

قالت والدتي: «مهذَّبًا لا، مُلهمًا بالتأكيد. إحدى لحظات البيسبول الرائعة التي تدفع الروح البشرية للتغريد والغناء، مثل تسجيل هدف كامل، أو ضرب الكرة الثالثة إلى داخل قفاز اللاقط مباشرة، هناك شيء سحري في رؤية إيرني فليتز وهو يصف الحكم بالجرذ مُقبِّل المؤخرات، ليجره الرجال في معطف مجانين معقود من الخلف إلى خارج الملعب بعدها».

كل ما قاله والدي: «حسنًا».

- لا أدري إيرني، أظن أن ما حدث بدا سيئًا فعلًا.

- أعرف أعرف، أنا أعمل لإصلاح هذا.

- حسنًا تفعل.

- حسنًا، اللعنة، أنا آسف، أعني هذا، لا أمزح، أنا آسف فعلًا.

توقف ثم تابع: «لكن أخبريني بشيء».

- ماذا؟

- هل رأيتِ الإعادة؟ هل بدا وكأنه خدعني فعلًا؟

***

التسريب الذي يحدث بزاوية فمي عندما أشعر بالتوتر، لم يكن الشيء الوحيد الذي أعانيه، فقط أحد الأشياء الأكثر وضوحًا، ولهذا السبب أذهب لرؤية الدكتور فابر مرتين في الشهر. نجتمع أنا والدكتور فابر معًا للحديث عن استراتيجيات التعامل مع الأشياء التي تصيبني بالضغط النفسي، وهي كثيرة، على سبيل المثال، لا أستطيع حتى النظر إلى ورق القصدير دون أن أصاب بالضعف والمرض، كما أن صوت سحق ورق القصدير يسبِّب آلامًا ممرِضة تنتشر في أسناني وتصل إلى طبلة أذني، كما أنني لا أستطيع الوقوف وأفقد

توازني حين أسمع صوت إرجاع شريط الفيديو في جهاز العرض. أضطر إلى مغادرة الغرفة بسبب الطريقة التي يصدر بها صوت الآلة عندما يلتف البكر داخل الشريط للخلف. رائحة الطلاء الجديد أو أقلام التحديد الملوَّنة غير المغطاة. هذه... هذه في مستوى آخر، لا أرغب في تخيل الحديث عنه حتى.

نفرَ الآخرون أيضًا من عادتي في تفكيك طعامي لفحص مكوناته. فعلت هذا مع الهامبرجر. تأثرت بشدة بسبب عرض رأيته خلال التلفاز في إحدى المرات عما يمكن أن يصيبك لو تناولت لحمًا سيئًا. تحدثوا عن بكتيريا الكولاي، عن أمراض القولون، عن جنون البقر. حتى إنهم أحضروا بقرة مصابة بالجنون وعرضوها وهي تؤرجح رأسها من جانب إلى آخر.

عند شرائنا الهامبرجر من ويندي، أطلب من والدي فكَّه من ورق القصدير من أجلي، أضع كل جزء على حدة وأتخلص من أي خضراوات تبدو مشبوهة، أشم البرجر جيدًا لأتأكد من أنه ليس بائتًا، في مرتين -لا ليس واحدة فقط- بل مرتين، اكتشفت أنه بائت ورفضت تناول الطعام.

وفي المرتين أدى رفضي إلى شجار بيني وبين أمي حول إن كان البرجر سيئًا حقًا، وبالطبع في مثل هذه الأحيان كان الشجار ينتهي بطريقة واحدة فقط، الطريقة التي فعلتها في أغلب المواقف المشابهة، أستلقي على الأرض، أصرخ، وأركل أي شخص يحاول لمسي، ما سمَّاه الدكتور فابر بالاضطراب الهستيري.

في الغالب ما أفعله الآن هو التخلص من الهامبرجر في سلة المهملات دون مناقشة. لست سعيدًا بهذا، بإمكاني القول بثقة إنني لست سعيدًا كوني أعاني مشكلات مع الطعام. أكره طعم السمك، لن آكل لحم الخنزير أبدًا لاحتوائه على القليل من الديدان البيضاء التي تهرب من اللحم النيء حين تصب عليه الكحول. ما أحببته حقًا هو رقائق الذرة. كنت لآكلها خلال الوجبات اليومية الثلاث لو كان بوسعي. سلطة الفاكهة أيضًا من المفضلات لدي.

عندما أكون في الحديقة، أستمتع بكيس من الفول السوداني، لن آكل النقانق ولو خيَّرتني بينها وبين جميع أنواع الشاي في الصين، الذي لن أشربه على أي حال لأن الكافيين يسبب لي نوبات الصراخ، والنشاط المفرط، ونزيف الأنف.

***

الدكتور فابر رجل طيب. في أثناء جلوسنا على أرضية مكتبه للعب «كاندي لاند» ناقشنا مشكلتي مع البرجر، ليقول بجدية: «أعرفُ الجنون حين أراه، لكن هذا... هذا مستوى آخر تمامًا! أن يبيع ماكدونالدز برجر منتهي الصلاحية؟ سيفقدون رخصتهم، يمكنك مقاضاتهم!».

يتوقف ليحرك قطعة من قطع اللعبة ثم ينظر إلى أعلى متابعًا: «أنا وأنت، علينا الحديث بخصوص هذه المشاعر السيئة التي تراودك عندما تضع الطعام في فمك. أعتقد أنك تبالغ. تترك خيالك يفزِعك. سأخبرك بشيء آخر. لنفترض أنك حصلت عن طريق الخطأ على بعض الأطعمة الفاسدة، والتي يجب أن أقول إنه حادث غير مرجَّح لو رغِبتْ سلسلة ماك في ألا تُرفع دعوى قضائية ضد مؤخراتهم. أنا أعني افتراضًا. يمكن للناس تناول بعض الأشياء الكريهة دون الموت كما تعلم».

أجبته: «تود ديكي، اللاعب في القاعدة الثالثة في فريقنا، أكل سنجابًا ذات مرة».

رفعت عينيَّ لأكمل: «مقابل ألف دولار، حدث هذا حين كان في فريق الشباب. عندما سحقتْ حافلتهم سنجابًا على الطريق، أكله فقط. قال إن الناس في بلده يأكلونه هكذا».

حدق الدكتور إلى وجهي بغباء وعلى ملامحه المستديرة اللطيفة نظرة اشمئزاز.

سأل: «من أين أتى تود؟».

- مينيسوتا، الجميع هناك يعيش على السناجب، أو هذا ما قاله تود. بهذه الطريقة يوفِّرون المزيد من المال لأشياء أكثر أهمية مثل البيرة وتذاكر اليانصيب.
- هل أكل السنجاب نيئًا!
- أوه لا، قلاه أولًا مع الفلفل الحار المعلَّب. قال إنه أسهل مالٍ حصل عليه على الإطلاق، ألف دولار. مبلغ كبير بالنسبة إلى فتى قاصر. جمع قرابة عشرة رجال، مائة دولار لكل منهم. قال إن الأمر كان يشبه أكل شطيرة برجر عادية.

أومأ الدكتور ثم قال: «هذا يعيدنا إلى قضية ماكدونالدز، إذا أكلَ تود ديكي سنجابًا أزاله عن أسفلت ساحة السيارات، فليس بإمكاني بضمير مرتاح كطبيب الجزم بأنك ستعاني أي أعراض سيئة لو أكلت شطيرة بيج ماك».

غمغمت فقط: «أها».

أرى وجهة نظره، أراها حقًّا. كان الطبيب يريد أن يقول إن تود ديكي رياضي محترف وشاب قوي البنية، ومع ذلك يأكل كل هذه الأشياء البشعة مثل السنجاب مع الفلفل الحار، وبيج ماك مع كل هذه الشحوم التي تتناثر على ذقنك في أثناء أكله، ولا يعاني جنون البقر. لديَّ نقطة فقط أردت نقاشها. أنا أعرف تود ديكي، والرجل ليس بخير على الإطلاق، هناك شيء خطأ به، شيء خطأ للغاية في داخله. عندما يدخل تود ساحة اللعب، يفعل تلك الحركة دائمًا، يقرِّب فمه من قفازه ويهمس في راحة يده.

رامون دييجو، اللاعب في الفرقة ذاتها وأحد أعز أصدقائي أخبرني أنه يهمس: «اضربهم، اضربهم وأحرقهم. سيرتفعون بسرعة كبيرة، اضربهم وأحرقهم، أو اعتدِ عليهم. في كلتا الحالتين، تفوز أو تحرقهم أو تضاجعهم، تبًّا لهم، تبًّا لهم، اللعنة على هذا الرجل اللعين، اللعين».

يقول رامون إن تود يستمر في الهمس حتى يتناثر البصاق على قفازاته.

أيضًا عندما يتحدث الرجال الأكبر في تجمعات محبي الكرة، التي لا يُسمح لي بسماع بعض الحديث فيها لكنني أفعل على أي حال (حاول قضاء وقت طويل مع لاعبين طوال الوقت ولا تتعرض لهذا النوع من الحديث لو كنت تقدر)، قالوا إن تود الذي كان واحدًا من اللاعبين في فريق «من أجل يسوع المقدس» ينصت لمن يتحدث بوجه منتفخ ونظرة غريبة في عينيه، وأحيانًا في أكثر من موقف ودون سابق إنذار، كانت عضلات جانب وجهه الأيسر تبدأ في الارتجاف بشكل غير طبيعي. وهو حتى لا يدرك أن وجهه يفعل هذا حين يفعله.

رامون يظن أن تود شخص غريب وكذلك أظن أنا. أكلَ سنجابًا أم لا، هناك فرق بين أن تكون لاعب بيسبول باردًا ضخمًا تشرب 45 نوعًا مختلفًا من البيرة، وأن تبدو كقاتل متسلسل مجنون يهمس في قفازه وعضلات وجهه تنقبض بلا تحكم.

***

تعامل والدي بشكل جيد مع جميع مشكلاتي، مثل الوقت الذي اصطحبني فيه في رحلة على الطريق وبقينا في فندق فورسيزونز في شيكاغو للمشاركة في مباراة مع وايت سوكس.

أقمنا في جناح به غرفة معيشة كبيرة، في أحد طرفيه باب في غرفة نومه، وفي الطرف الآخر باب في غرفتي. بقينا مستيقظين حتى منتصف الليل نشاهد فيلمًا عُرض على إحدى قنوات الكابل الإضافية، تناولنا العشاء، طلب لي قطع فاكهة من خدمة الغرف دون أن أخبره بأنني أريدها حتى. جلس على كرسيه، غائصًا وعاريًا باستثناء شورت، وأصابع يده اليمنى عالقة بحزام الخصر المطاطي، الحركة التي كان يفعلها دائمًا في أي وقت لا تكون والدتي حاضرة فيه، يشاهد التلفاز شاردًا.

في أثناء السهرة، غفوت في وقت عرض الفيلم، لم أتذكر ما حدث بالضبط لكن كل ما تذكرته أنني استيقظت حين رفعني عن الأريكة الجلدية ليحملني إلى غرفة نومي، وجهي في صدره أتنفس رائحته الطيبة، التي لا أستطيع وصفها، لكنها تحتوي على عطر عشبي، رائحة قريبة من الأرض النظيفة، والأعشاب، والعرق في خزانات الملابس، والجلد القديم. أراهن أن رائحته تشبه رائحة المزارعين، وأن الأخيرة تلك بالجودة نفسها هي الأخرى.

بعد رحيله استلقيت وحدي في الظلام، مرتاحًا بقدر ما يمكن وسط الملاءات الباردة، عندما لاحظت لأول مرة أنينًا رقيقًا حادًّا، سيئًا مثل إعادة شخص ما لف شريط في جهاز الفيديو. في اللحظة التي أدرك فيها ذلك تقريبًا، أتلقى أول نبضة ألم في أسناني الخلفية.

لم أعد أشعر بالنعاس بعد الآن، وقد دفعني الألم إلى استيقاظي جزئيًّا، وقد أحاطتني الأغطية الباردة، لذا أجلس وأستمع إلى العالم المشبَّع بالأصوات من حولي. حركة المرور في الشارع تتأرجح على طول الطريق والأبواق تطن من مسافة بعيدة. أمسكت بالمنبه لأضعه على أذني، لكن الصوت لم يكن آتيًا منه. رفعت نفسي عن السرير، أهو مكيف الهواء؟ في معظم الفنادق كان مكيف الهواء عبارة عن خزانة فولاذية مقابِلة للحائط أسفل النافذة. لكن ليس في الفور سيزونز، كان أفضل من هذا الهراء.

المكيف كان ممتازًا والغرفة كانت جيدة، لكن الصوت ظل مستمرًّا، لذا تعقبته إلى فتحة تهوية رمادية مشقوقة في السقف، وبالوقوف تحتها تمكنت

من التأكد من أن هذا هو الجاني. الأنين كان أكثر مما أستطيع تحمله. طبلة أذني آلمتني. التقطت كتابًا بغلاف سميك كنت أقرؤه من حقيبتي ووقفت تحت فتحة التهوية ملقيًا بالكتاب عليها: «كن هادئًا! اسكت! توقف عن ذلك! لا مزيد من هذا!».

ضربت فتحة التهوية بضع ضربات جيدة مع الكتاب، حتى سمعت صوتًا قويًّا، وخرج المسمار من إحدى الزوايا لتسقط الشبكة الحديدية لفتحة التهوية كاملة من جانب واحد. لكن لسوء الحظ استمر الأنين. المشكلة أنه الآن صار يصدِر ضجيجًا متواصلًا كما لو أن قطعة معدنية في مكان ما بالداخل انفصلت وصارت تضرب الجدران مع الهواء. اللعاب البارد تساقط على جانب فمي لا إراديًّا. أعدت ابتلاع البصاق وأنا ألقي نظرة أخيرة عاجزة على فتحة التهوية المحطَّمة ثم ذهبت إلى غرفة المعيشة وأصابعي على أذنيَّ، كان الصوت أسوأ هناك. لم يعد بإمكاني الذهاب إلى أي مكان دون تغطية أذنيَّ بيديَّ.

لذا مدفوعًا بقوة الصوت، تحركت إلى غرفة والدي. دخلت وأنا أمسح البصاق عن ذقني معلنًا: «أبي، هل يمكن أن أنام هنا جوارك؟».

انتبه أبي ناظرًا إليَّ ثم قال: «ماذا؟ حسنًا، لكن احذر لأنني قد أطلق ريحًا في أثناء النوم».

اندفعت على السرير وسحبت الأغطية فوقي، في حجرته أيضًا استمر الطنين.

سألني: «هل أنت بخير؟».

- مكيف الهواء. يوجد ضوضاء في مكيف الهواء. إنه يؤذي أسناني. لا أستطيع إيقافه، لا يمكنني العثور على زر إيقافه.
- لوحة التحكم في غرفة المعيشة جوار الباب الأمامي.

قلت وأنا أنزلق عن حافة السرير: «سأذهب لأطفئه».

أمسك بذراعي: «ماذا؟! لا، انتظر. هذه شيكاغو، ونحن في يونيو، الحرارة أربع وخمسون سيليزيوس اليوم، لو أطفأته سنختنق حتى الموت».

- لكن ألا يمكنك سماعها؟! هل تسمع الطريقة التي تطن بها؟ أسناني تؤلمني. هذا سيئ كما لو كان هناك فريق من الناس يأكلون القصدير في المكيف.

سكت للحظة طويلة وقد بدا عليه أنه يحاول الاستماع بنفسه ثم قال أخيرًا: «نعم، أنت على حق. تطن كالقصدير، لكنه شر لا بد منه في هذا المكان وإلا سنختنق مثل حشرات داخل إناء».

***

صوت حديثه كان له تأثير مهدئ عليَّ، على الرغم من أنني حين تسلقت الفراش جانبه لأغرق بين الأغطية، شعرت ببرودتها القارصة المميزة لجميع أغطية الفنادق، استعاد جسدي بعضًا من الدفء مرة أخرى، لم أعد أرتجف كما في السابق رغم أن الصوت المتواصل في الخلفية جعل الألم ينبض في فكي وخلف طبلة أذني. لم يكذب والدي حين أخبرني بشأن إطلاق الريح أيضًا، لكن بطريقة ما كانت الرائحة النفاذة المقزِّزة مُطمئِنة أكثر من قضاء الوقت وحدي في فراشي الخاص مع هذا الصوت.

قبل أن أغفل، قرر والدي فجأة وهو يقفز خارجًا من الفراش ليشير إليَّ: «هيا، إليك ما سنفعله».

انزلقت خارجًا لأتبعه خلال الظلام إلى الحمام. ضغط زر الإنارة ليعم الضوء. الحمام كان مساحة شاسعة من الرخام ذي اللون البني الفاتح، والحوض به صنابير ذهبية، في الزاوية دوش بباب من الزجاج المموَّج. الحمام المثالي الذي يحلم به الجميع. بجانب الحوض مجموعة من زجاجات صغيرة من الشامبو والبلسم وغسول البشرة وعلب الصابون، ووعاء بلاستيكي من عِصي تنظيف الأنف القطنية، وآخر من كرات القطن. فتح والدي إناء الكرات القطنية وحشر واحدة في كل أذن. ضحكت على منظره وهو يقف هناك مع زغب فضفاض من القطن يتدلى من أذنيه الكبيرتين اللتين أحرقتهما الشمس.

قال: «هاك، ضع بعضًا من هذا في أذنيك».

حشرت الكرات القطنية عميقًا بأذنيَّ، مع وجود القطن في مكانه، يملأ العالم هدير عميق أجوف، هدير جسدي الخاص، الصوت المستمر لتدفق الدم والهواء إلى داخلي، صوت أجده محببًا للغاية.

أنظر إلى والدي الذي يقول: «همخمي تشمن يحمو ستمل ههمهرمر ثرم هررر شمندهوثممنهار؟».

صرخت به: «ماذا؟!».

فابتسم، هز رأسه وهو يصنع حرف O بإصبعه الإبهام والسبابة وعاد كلانا إلى الفراش، هذا ما عنيته بأن والدي كان يحسن التعامل مع مشكلاتي، تمتع كلانا بليلة رائعة ونوم هادئ، وفي صباح اليوم التالي طلب خدمة الغرف ليحضر لي علبة من سلطة الفواكه وفتّاحة علب للإفطار.

***

لا يتعامل الجميع بشكل جيد مع مشكلاتي، مثال على ذلك عمتي ماندي.

جربت العمة ماندي حظها في الكثير من الأشياء التي لم يكتمل أي منها ولم يذهب الطريق بها إلى إجادة أي منها. ساعدها أبي وأمي على دفع رسوم الذهاب إلى مدرسة التصوير، لأنها اعتقدت أنها خُلقت لتصبح مصوِّرة، آمنت بهذا لبعض الوقت حتى إنهما ساعداها في بدء معرض فني في كيب كود. لكن كما قالت العمة ماندي بعدها، لم تتبلور الفكرة كاملة قط، لم تجد الراحة في التصوير، لم تشعر بنقرة التقبل تلك مطلقًا.

بعدها ارتادت معهد السينما في لوس أنجلوس، تناولت القهوة في أثناء جلوسها لكتابة هذا السيناريو أو ذاك. تزوجت رجلًا اعتقدَت أنه سيكون روائيًا، لكن تبين أنه مجرد مدرس لغة إنجليزية، علاوة على ذلك لم يكن مدرسًا سعيدًا جدًّا أو ناجحًا، وكان على العمة ماندي أن تدفع له مصاريفه، لذا حتى كونها متزوجة لم يتم بشكل جيد.

ما قالته العمة ماندي عن كل هذا هو أنها ما زالت تحاول اكتشاف طريقها في الحياة، ما زالت تحاول معرفة ما المفترَض بها فعله. ما قاله والدي هو أنها مخطئة لو ظنت أن سؤال هدفها في الحياة لم يُجَب بعد، كانت بالفعل الشخص الذي ستظل عليه بقية حياتها، كانت مثل براد ماكجاني، لاعب الميدان الأيمن عندما تولى والدي إدارة الفريق، الذي كان يظن أنه خُلق ليكون ضاربًا، رغم أنه لم يحقِّق سوى أهداف بسيطة أمام كرات سهلة التسديد أصلًا، لم يسبق له أن حقَّق نجاحًا في موسم البيسبول، على الرغم من أنه كان واحدًا من خمسة وعشرين لاعبًا آخرين وصلوا إلى التصفيات. كان قد بدأ

نجمه يخبو وينهار، هذا ما قاله والدي عنه. انجرف ماكجوان من فريق إلى فريق بسبب ماضيه الذي سجل فيه قرابة 229 هدفًا. بسبب أرقامه الجيدة، ولأنهم اعتقدوا أنه شخص ذو مهارات، ما دام أحرز هذه الأهداف في الماضي، سيطوِّر من نفسه ليفوز بأكثر مستقبلًا، لكن ما لم يروه أنه تطور بالفعل، تطور إلى الحالة التي وصل إليها الآن.

فرصته الجيدة أتت وذهبت بالفعل، لا يوجد الكثير من الفرص لأولئك الشباب الذين يجدون أنفسهم وسط لعبة البيسبول، أو النساء في منتصف العمر اللاتي يتزوجن الأشخاص الخطأ ويكتشفن فجأة أنهن لسن سعيدات أبدًا بما يفعلنه أو بوضعهن الحالي. ليقضوا وقتهم في التفكير فيما كان ليقدمه العالم لتصبح حياتهم أفضل. لا فرص جيدة آتية لأيٍّ منا حقًا.

هذا ما كان يخشاه، وبخاصة حين ينظر إليَّ، على الرغم من كل ما يقوله الدكتور فابر فأنا لست أفضل حالًا مما كنته في أي وقت مضى، أنا في الحال ذاته، بلا فرص أخرى قادمة، وحالتي ليست مثالية، لكنها لن تتغير.

لذا أنا في غنى عن إيضاح أنه بسبب اختلافات فلسفتهما في الحياة والنظرة إلى العالم، لم يكن الحب متبادَلًا بين العمة ماندي وأبي، على الرغم من أنهما تظاهرا بغير ذلك أمام والدتي كي لا تغضب.

في إحدى المرات صباح يوم أحد، اصطحبتني العمة ماندي في رحلة أنا وهي فقط إلى شمال تامونت، لأن أمي أخبرتها أنها مستاءة لأنني قضيت الصيف كله أتسكع في الحديقة ذاتها، وعلى الرغم من أنني كنت أعلم أنها قلقة لأن فريقي كان قد فوَّت خمس ضربات متتالية في آخر لعبة، كانت قلقة أن الضغط النفسي سيؤذيني أكثر، وكانت على حق. البصاق السائل من فمي كان على أقصاه تلك الفترة. لم يكن هكذا من قبل.

لا أعرف لماذا شمال ألتامونت. عندما تتحدث العمة ماندي عن السفر، كانت تتحدث دائمًا عن الذهاب إلى «شارع لينكولن»، كما لو أن شارع لينكولن في شمال ألتامونت هو أحد تلك الأماكن الشهيرة التي يعرفها الجميع ويرغب دائمًا في زيارتها، بالطريقة ذاتها التي يمر بها الناس عبر فلوريدا لزيارة عالم والت ديزني، أو لزيارة برودواي حين يذهبون إلى مدينة نيويورك.

شارع لينكولن جميل، على الرغم من كل شيء، كشارع هادئ في نيو إنجلاند، على تل شديد الانحدار والطريق مبني بالطوب وغير مسموح بالقيادة

فيه. الناس هناك كانت تركب الخيل عوضًا عن العربات، أحيانًا كان بوسعك رؤية فضلات الخيول تقبع كالفطائر وسط الطريق. خلاب فعلًا.

نزور سلسلة من المتاجر سيئة الإضاءة تفوح منها رائحة الباتشولي، معًا. نذهب إلى متجر عرض سترات ضخمة مصنوعة من صوف اللاما المربَّى في فيرمونت، وهذه الموسيقى الهادئة تلعب في الخلفية، نوع من الموسيقى التي تتضمن المزامير، وأصوات القيثارة غير الواضحة، والفلوت الحاد المشابه لصوت الطيور. في متجر آخر، نلقي نظرة على الأبقار الخزفية التي هي آخر أعمال الحرفيين المحليين، وقد برزت ضروعها الخزفية الوردية تحتها وهي موضوعة فوق حوامل من السيراميك، بينما تصدع من نظام الصوت في المتجر نغمات فرقة الروك «غريتفل ديد».

بعد عشرات المتاجر بدأت أشعر بالملل من كل شيء، كنت أنام بشكل سيئ طوال الأسبوع، بالإضافة إلى الكوابيس وما شابه، كل هذا المشي جعلني مرهَقًا، مستفَزًّا، والمكان الأخير الذي قصدناه لم يحسِّن مزاجي على الإطلاق. كان متجر تحف في كوخ أُعيد استخدامه، هنا لم أر نظامًا صوتيًّا، لا موسيقى الهيبي ولا أغاني أحدث، فقط الأصوات البشعة لمباراة الأحد المنقولة عبر ستيريو صغير على منضدة الاستقبال. جلس المالك خلفه. رجل عجوز يرتدي ثيابًا رسمية وعلى وجهه تعبير يائس وشارد وهو يستمع للعبة وإبهامه في فمه.

تسكعت جوار المكتب لأنصت محاوِلًا اكتشاف ما يدور في اللعبة. كنا في الملعب، هوب دانيل رجلنا، يدور إلى اليمين، وباليسار خرج آخر، هوب دانيال يخطط لأرجحة المضرب، في انتظار تحقيق هدف قريبًا.

كان المذيع يقول وصوته يأتي عبر المذياع: «كان هوب فظيعًا في الآونة الأخيرة مع المضرب، حقق بالكاد أهدافًا خلال الأيام الثمانية الماضية، لذا عليك أن تبدأ في التساؤل عن صحة قرار أرني بتركه في الفريق مع معاناته بكل مرة يضطر فيها إلى المرور بقاعدة. الكرة تضرب الآن، بارتريدج يأخذ موقعه ويضرب، هوب ديل يؤرجح المضرب بطريقة سيئة، أعني سيئة للغاية، الكرة كانت شديدة السرعة، لقد سقط، أعتقد أنه مصاب».

قالت العمة ماندي إننا سنذهب إلى حديقة «ويلهاوس» للنزهة، اعتدت حدائق المدينة والمناطق العشبية المفتوحة ذات المسارات الممهَّدة من

الأسفلت والفتيات يتزلجن بأحذية التزلج ذات العجلات المصنوعة من الألياف اللدنة في الأرجاء. هذه الحديقة كانت أكثر قتامة من حديقة المدينة. مزدحمة بأشجار التنوب القديمة، الممرات من الحصى الأزرق الذي لا يسمح طبعًا بالتزلج، لا يوجد ملعب، لا ملاعب تنس، لا ملاعب كرة قدم.

فقط كآبة أشجار الصنوبر الهائلة متشابكة الأغصان بلا حتى أشعة شمس مباشرة أو رياح لطيفة. لم نقابل أحدًا في الطريق على الإطلاق.

قالت العمة ماندي: «هذا هناك هو مكان جيد للجلوس، فوق هذا الجسر الصغير الجميل المغطى».

نقترب من المنطقة المفتوحة حيث الجسر، رغم أن الأشجار أقل، فإن الضوء هنا أيضًا محجوب وخافت بطريقة ما، يتحول الطريق أمامنا إلى مسار غير متساوٍ يقود إلى جسر مغطى معلَّق فوق نهر واسع بطيء الحركة، على الجانب الآخر من الجسر هناك مرج عشبي به بعض المقاعد. نظرة واحدة فقط وأيقنت أنني لست معجبًا على الإطلاق بهذا الجسر المغطى الذي كان يتدلى بوضوح من منتصفه.

كان الجسر بلون أحمر يشبه سلالم شاحنات الإطفاء منذ زمن بعيد، اللون الذي ذهب أغلبه الآن بفعل العفن والمطر، ومن الواضح أنه لا أحد بذل مجهودًا لاستعادته أو تجديده، فبدا قديمًا، ومقشَّرًا، وحافلًا بالشظايا، ومن المستحيل الثقة فيه. داخل الممر نفسه تراكمت أكياس القمامة على الجوانب، بعضها مفتوح وقد أطلت منه النفايات. ترددت في مكاني لكن العمة ماندي شقت طريقها إلى الداخل بسرعة إلى الأمام. تأرجحت في مكاني من ساق إلى ساق بحماس فاتر، حتى إنني بقيت في مكاني في حين وصلت العمة ماندي إلى الجهة الأخرى بالفعل.

عند المدخل توقفت مرة أخرى. مزيج من الروائح الكريهة الحلوة، رائحة العفن والفطريات. بين أكوام أكياس القمامة امتزجت رائحتها برائحة المجاري. ترددت مرتبكًا، لكن العمة ماندي كانت قد خرجت بالفعل من الجانب الآخر وبدأت تغيب عن نظري، جعلني هذا أشعر بالتوتر وبأنني تُركت وحدي هنا، لذا أسرعت.

ما حدث بعدها هو أنني لم أقطع سوى عدة أمتار حين توقفت فجأة، مستنشقًا بعمق، ما شممته جعلني أقف متسمِّرًا في مكاني، غير قادر على

المواصلة. كانت رائحة القوارض، رائحة تشبه رائحة قشر الشعر، مختلطة مع نفحة من الأمونيا، الرائحة التي شممت مثلها من قبل في الأقبية والسندرات، رائحة الخفافيش.

تخيلت فجأة سقفًا مغطى بالخفافيش. تخيلت أني أميل رأسي إلى الوراء لأرى مستعمرة من آلاف الخفافيش تغطي السقف في تموجات بنية اللون وجذوعها محاطة بأجنحة غشائية. تخيلت الخفاش يصدر صريرًا مثل الصرير شبه المسموع لمكيفات الهواء السيئة وأجهزة الفيديو عند الترجيع. أتخيل الخفافيش، لكن لا يمكنني إجبار نفسي على النظر إلى الأعلى للبحث عنها.

الخوف سيقتلني إذا رأيت واحدًا. أخذت بضع خطوات محسوبة متوترة إلى الأمام وداست قدمي على جرائد قديمة. صوت سحق بشع. قفزت إلى الخلف، الصوت جعل قلبي ينتفض متألمًا في صدري.

هوت قدمي على شيء ما، ربما فرع شجرة. تدحرج تحت كعبي، ترنحت إلى الخلف وأنا أحرك ذراعي لأستعيد توازني. في النهاية تمكنت من المحافظة على توازني دون أن أسقط إلى الأمام. التفتُّ لألقي نظرة على ما خطوت عليه توًّا.

لم يكن فرع شجرة على الإطلاق، بل ساق رجل، رجل استلقى على الأرض جانبًا وأوراق الشجر تغطيه. يعتمر قبعة بيسبول قذرة، كان يومًا ما باللون الأزرق الداكن، لكن اللون تلاشى حتى صار أبيض تقريبًا حول حوافها التي لطختها بقع داكنة من بقايا العرق. ارتدى سروال جينز وقميصًا منقوشًا يشبه قميص الحطابين. لحيته علقت فيها أوراق شجر، ولأول وهلة بدأت أشعر بالذعر وأنا أحدق إليه وقد أدركت أنني دست على ساقه توًّا ولم يتحرك.

حدقت إلى وجهه شاعرًا أنني في أحد الكتب المصوَّرة، وخزَني الرعب. على طرف نظري تحرك وميض لشيء ما لفت انتباهي، كانت ذبابة، حطت على شفة الرجل العلوية لامعة كأنها سبيكة معدنية مصبوبة. ترددتْ لوهلة على حافة فمه، ثم تسلقتْ إلى الداخل لتختفي، ولم يستيقظ الرجل.

صرختُ دون أن أتفوه بكلمة إضافية، استدرتُ عائدًا إلى الجانب الآخر من الجسر وأنا أصرخ بصوت أجش مناديًا ماندي: «عمة ماندي، عودي! تعالي الآن!».

في لحظة، ظهرت في نهاية الجسر البعيدة مجيبة: «لماذا تصرخ هكذا؟».

- عمتي ماندي، ارجعي، ارجعي، من فضلك!

أصدرتُ صوت مص لأبتلع لعابي، ولأول مرة ألاحظ وقتها أن لعابي كان يسيل بغزارة.

بدأت تعبر الجسر عائدة إليَّ ورأسها منخفض، كما لو كانت تمشي في مجابهة رياح عاتية: «يمكنك التوقف عن هذا الصراخ الآن. توقف! لماذا تصرخ؟».

أشرت: «لهذا السبب! لهذا السبب!».

توقفت بعد أن كانت قد قطعت ربع الطريق ونظرت إلى العجوز المتيبس الذي يرقد هناك في القمامة.

حدقت إليه لبضع ثوانٍ ثم قالت: «أوه! بسببه. حسنًا تعال، سيكون بخير. دعه وشأنه ولنهتم نحن بشؤوننا الخاصة».

- لا، عمتي ماندي، علينا أن نذهب! من فضلك عودي! من فضلك.

- لن أستمع لمبرر أحمق آخر، تعال إلى هنا.

- لا

صرخت ثم صرخت من جديد: «لا، لن أفعل!».

استدرت وركضت، الذعر يتعاظم داخلي، ومعه الشعور الممرِض في بطني. سئمت رائحة القمامة والخفافيش والرجل الميت والصوت المتحطِّم المرعِب أسفل الجرائد القديمة، ورائحة فضلات الخفاش، والطريقة التي أرجحَ بها هاب ديل المضرب، وكيف أن فريقنا لن يكون أكثر من قذارة في مرحاض مثل العام الماضي، أركض ودموعي تتدفق، أمسح ببؤس البصاق عن وجهي، وجدت أنه بغض النظر عن مدى سحبي لأنفاسي وسط بكائي، ما زلت عاجزًا عن إدخال أي هواء إلى رئتي.

ماندي التي كانت تلاحقني قالت: «توقف، توقف عن ذلك».

رمت أكياس غدائنا جانبًا لتحرِّر يديها: «توقف عن الركض، يا يسوع المسيح!».

أمسكت بي، أسرتني محيطة خصري بذراعيها. ركضتُ، صرختُ، لا أريد أن أفعل، لا أريد أن يهدئني أحد. دفعت بكوعي بشدة ليضرب تجويف عينها. صرخت، وفي لحظات كنا نتدحرج أرضًا، سقطتُ وماندي فوقي وقد ارتطم

ذقنها بجمجمتي. صرخت وأنا أرى وميضًا مع ألم حاد. اصطكت أسنانها وهي تلهث لتحكم قبضتها عليَّ، قفزتُ وكدت أتحرر لكنها أمسكت بكلتا يديها بالشريط المطاطي لسروالي صارخة: «اللعنة توقف!».

يحترق وجهي بالحرارة: «لا، لا لن أعود إلى هناك، دعيني أذهب».

تقدمت إلى الأمام مرة أخرى وتحركت مثل العدَّاء في فريق البيسبول، في لحظة خرجت من تحتها وتأرجحت بأقصى سرعة في طريقي، مستمعًا إلى صرخاتها: «هومر، هومر عد إلى هنا الآن!».

كنت قد عدت تقريبًا إلى شارع لينكولن حين شعرت بدفقة الهواء البارد بين ساقيَّ، نظرت إلى الأسفل واكتشفت للمرة الأولى كيف استطعت الفرار منها، ظلت ممسكة بسروالي، بينما اندفعت أنا خارج السروال، كنت أركض عاريًا من الوسط وحتى الأسفل. منحني مشهد العري حماسة غريبة. في منتصف الطريق للسيارة أمسكت بي مرة أخرى، راقب حشد من الناس محاولاتها وهي تدفعني إلى الأرض ممسكة بشعري.

تصارعنا وهي تصرخ: «اجلس، اهدأ يا غريب الأطوار. أيها الأحمق الصغير المجنون!».

- أيتها العاهرة الرأسمالية، الطفيلية السمينة.

لم أقل هذه الكلمات بالضبط، لكن ما قلته كان على المنوال نفسه.

***

لا يسعني الجزم، ولكن ربما كان ما حدث في متنزه ويلهاوس هو القشة الأخيرة، لأنه بعد أسبوعين، عندما كان الفريق في يوم عطلة، توجهت مع العائلة إلى فيرمونت للقيام بجولة في إحدى المدارس الداخلية التي حملت اسم «أكاديمية بايدن»، أرادت أمي إلقاء نظرة عليها، أخبرتني أنها مدرسة إعدادية عادية، لكن نظرة واحدة إلى الكتيب المملوء بــالكلام الغريب الذي بدا كالأكواد أخبرتني أنها مدرسة لذوي الاحتياجات الخاصة. الجمل عرضت مصطلحات مثل البيئة المستقرة، التطبيع الاجتماعي، جمل عرَّفتني فورًا على نوع المدرسة التي كنا ذاهبين لتفحصها.

يلتقينا شاب يرتدي قميصًا أزرق اللون وسروال جينز وينتعل حذاء المشي لمسافات طويلة على الدرجات أمام المبنى الرئيسي. قدَّم نفسه على

أنه آرتشر جريس من لجنة التقديم ومهمته أن يطلعنا على المكان. تقع أكاديمية بايدن في الجبال البيضاء. يتميز النسيم الذي يتدفق عبر أشجار الصنوبر هنا بالبرودة الشديدة، لذا على الرغم من أنه شهر أغسطس، فإن فترة ما بعد الظهيرة حملت البرودة والإثارة التي تميزت بها الأجواء في فصل إقامة بطولة العام.

أخذنا السيد جريس في نزهة حول الحرم الجامعي. نظرنا إلى مبنيين من الطوب مستترين أسفل اللبلاب الأخضر اليانع. ننظر إلى المبنى من الداخل، إلى الفصول الخالية. نسير في قاعة بألواح خشبية داكنة وتتدلى حولنا مجموعة من الستائر القرمزية الثقيلة. في أحد جوانب الغرفة يوجد تمثال نصفي لبنيامين فرانكلين محفور في الرخام اللبني الشاحب.

في الجانب الآخر، تمثال نصفي لمارتن لوثر كينغ من حجر الجزع الداكن. يتجول بن عبر الغرفة مع تعبير من استيقظ توًّا لكنه ما زال تحت تأثير النوم.

سأل والدي: «هل هذا شعوري فقط أن الجو خانق هنا؟ وكأنه لا أكسجين في المكان!».

أجاب السيد جريس: «المكان يحصل على تهوية جيدة قبل بدء فصل الخريف، العدد هنا في هذه الفترة بالكاد يُذكر، قليل من طلاب الفصل الصيفي».

***

تجولنا معًا في الخارج، في بستان من الأشجار الضخمة ذات اللحاء الرمادي الزلق. في أحد أطراف البستان يوجد مدرج على شكل نصف دائرة بمدرج، من أجل احتفالات التخرج أو العروض، أو الاستعراضات الطلابية.

من جديد سأل والدي: «ما هذه الرائحة؟ لِم رائحة هذا المكان غريبة؟».

المثير للاهتمام هو أن أمي والسيد جريس استمرا في التظاهر بأن أيًّا منهما لم يسمع. وجَّهت والدتي الكثير من الأسئلة للسيد جريس حول المناهج الدراسية، وبدا الأمر كما لو أن والدي ليس هنا.

سألت أمي ونحن في الطريق للخروج من الحديقة: «ما هذه الأشجار الجميلة هنا؟»

أجاب السيد جريس: «الجنكو، شجرة المعبد».

ثم تابع: «هل كان أيٌّ منكم يعلم أن أشجار الجنكة فريدة من نوعها في العالم كله؟ هؤلاء هم الناجون الوحيدون من سلالة الأشجار القديمة من عصور ما قبل التاريخ، مُحيَت عن وجه الأرض تمامًا».

توقف والدي عند جذع إحداها، خادشًا اللحاء بالطول بإبهامه ثم ما لبث أن شم إبهامه ليتجعد وجهه مشمئزًّا: «هذا هو مصدر الرائحة الكريهة! الانقراض ليس دائمًا أمرًا سيئًا كما تعلم».

***

ألقينا نظرة على حمام السباحة، تحدث السيد جريس عن العلاج الطبيعي، أرانا مضمار الجري، تحدث عن الأولمبياد الخاص بالناشئين وهو يصطحبنا في جولة بالملعب.

مرة أخرى سأل والدي: «إذًا قد كوَّنتم فريقًا، واشتركتم ببعض الألعاب، صحيح؟».

أجاب جريس: «نعم. فريق، لعبنا عددًا قليلًا من المباريات. لكن هذا أكثر من مجرد لعب، ما نقوم به هنا...».

أشار السيد جريس حوله متابعًا: «في بايدن، نتحدى الأطفال لاستخلاص كل معلومة يمكن تعلمها من كل نشاط يمارسونه، حتى ألعابهم، مثل فصولهم الدراسية. نرى هذا كمكان لتطوير بعض المهارات الحياتية الأكثر أهمية لدى الأطفال، مثل التفاوض وقت الصراعات، وبناء العلاقات الشخصية، والتخلص من التوتر من خلال النشاط البدني. إنه مثل... أنت تعلم القول القديم، لا يتعلق الأمر بكونك رابحًا أو خاسرًا، بل بما تتعلمه من اللعبة، ومقدار ما تتعلمه عن نفسك، عن النمو العاطفي».

استدار السيد جريس وبدأ في الابتعاد قبل أن يعقِّب والدي: «عمَّ كان يتحدث توًّا؟! بدا لي وكأنه يتكلم بلغة مختلفة».

بدأت والدتي في الابتعاد أيضًا دون إجابة حين تابع أبي: «لَم أفهم ما قاله، لكن أعتقد أنه أخبرني توًّا أن لديهم واحدة من تلك الفِرق المثيرة للشفقة حيث لا أحد يهاجم أبدًا».

***

قادنا السيد غريس أخيرًا إلى المكتبة وهنا التقينا أحد أطفال الفترة الصيفية. كان هذا حين دخلنا إلى غرفة دائرية كبيرة، مع خزائن كتب من خشب الورد تعانق الجدران. نقرات كمبيوتر بعيدة. صبي في مثل سني يرقد على الأرض، امرأة ترتدي ثوبًا منقوشًا تمسكه من ذراعه اليمنى. أعتقد أنها تحاول إعادته ليقف على قدميه، ولكن كل ما تمكنت من فعله هو جره في دوائر وهي تقول: «جيرمي، إن لم تنهض فلن تتمكن من استخدام الكمبيوتر. هل تسمعني؟».

لا يستجيب جيرمي وتستمر في جره في كل مكان. عندما استدارت لمواجهتنا، نظر إليَّ لفترة وجيزة بعينين خاويتين، كان لعابه قد تسرب ليغطي ذقنه كله.

صاح بصوت غبي: «أريد، أريييييد».

- ركَّبت المكتبة للتو أربعة أجهزة كمبيوتر جديدة وأوصلتها بالإنترنت.

قالت والدتي: «انظر إلى هذا الرخام».

يضع والدي يده على كتفي ويضغط برفق.

***

في يوم الأحد الأول من شهر سبتمبر، ذهبت إلى الحديقة بصحبة والدي، بالطبع كان الوقت لا يزال باكرًا حين وصلنا، لا أحد هناك سوى بعض المبتدئين الذين بدؤوا في اللعب منذ الفجر فقط لإثارة إعجاب والدي. جلس أبي في المدرجات خلف الشاشة التي أطلت على شاشة نتائج المباراة وتحدث مع صحفي تابع لصفحة بجريدة تنقل الأحداث الرياضية. في الوقت ذاته مارسنا معًا لعبة اخترعها والدي تُسمى لعبة البحث عن المتعلقات السرية.

كانت القواعد بسيطة، عليَّ التجول في الحديقة والبحث عن كل الأشياء المذكورة في قائمة، كل عنصر أجده يكسبني بعض النقاط. بالطبع نسي أن يكتب ألا أبحث في القمامة، لكنه كان يعلم أنني لن أفعلها على أي حال: قلم حبر جاف، وقفاز سيدة، وما إلى ذلك. كانت المهمة أصعب بعد انتهاء العمال من تنظيف الحديقة. إن وجدتُ أحد عناصر القائمة، أعيده إليه. سلسلة من عرق السوس الأسود، وزر فولاذي، وهكذا.

حين عدت في إحدى تلك المرات، كان المراسل قد رحل ووالدي كان جالسًا هناك وحده، يداه خلف رأسه وكيس بلاستيكي من الفول السوداني مفتوح على حجره، وقدماه على المقعد أمامه ليقول: «لِم لا تجلس للحظات؟».

قلت وأنا أجلس على المقعد جواره: «انظر، وجدت دفتر أعواد الثقاب. أربعون نقطة».

أشار والدي إلى كيس الفول السوداني: «خذ حفنة من هذا».

ثم قال: «انظر كم أن المكان لطيف وهو فارغ، في غياب الجميع حين يصبح هادئًا. هل تعلم أكثر ما يعجبني بهذا؟ بهذا الوضع الآن؟».

- ماذا؟

- يمكنك الجلوس والتفكير، وتناول الفول السوداني في الوقت نفسه.

قال وفتح حبة فول سوداني ممرِّرًا إياها لي.

الجو بارد، السماء ذات لون قطبي، أزرق شاحب مائل إلى البياض. فوق الأرض بعيدًا طفا طائر نورس، بدا عالقًا وسط الهواء دون أي تقدم إلى أي مكان. الناشئون في الخارج يتحدثون، أحدهم يضحك. ضحكة قوية، شابة، صحية.

أسأل: «أين هو الأفضل في رأيك؟ هنا أم البيت؟».

قال: «هنا أفضل من البيت، أفضل لتناول الفول السوداني أيضًا، لا يمكنك إلقاء قشر الفول السوداني على الأرض في المنزل».

ألقي بعضًا من القشر على الأرض، وهو يكمل: «ليس إلا إذا كنت راغبًا في تلقي التعنيف من والدتك».

جلسنا في هدوء، استمر تيار الهواء البارد في التدفق ليضرب وجهينا. لن تكون هناك مباراة اليوم، ليس مع كل تلك الرياح المستمرة التي تهب علينا.

نهضت معلِنًا: «حسنًا، أربعون نقطة، هاك دفتر أعواد الثقاب. من الأفضل أن أعود للبحث. وجدت تقريبًا كل ما أبحث عنه».

قال: «أنت محظوظ».

- هذه اللعبة جيدة. أراهن أن بإمكاننا ممارستها في المنزل. يمكنك أن ترسلني للبحث عن الأشياء ويمكنني البحث عنها والعثور عليها. كيف لا نفعل ذلك أبدًا؟ لماذا لا نلعب أبدًا لعبة الأشياء السرية في المنزل؟

أجاب: «فقط لأن المكان أفضل هنا».

في تلك اللحظة، هرعت للبحث عما تبقى في القائمة، رباط الحذاء، وسلسلة مفاتيح بها قدم أرنب جالب للحظ فقدها والدي.

لكن المحادثة التي دارت بيننا عادت إليَّ لاحقًا لتعلق نوعًا ما في رأسي، حتى صرت أفكر فيها طوال الوقت. أحيانًا أتساءل عما إذا كانت واحدة من تلك اللحظات التي لا يفترَض أن تنساها، عندما تعتقد أن والدك يقول شيئًا ما، لكنه في الواقع يقول شيئًا آخر، عندما يكون هناك معنى مدفون في بعض التعليقات التي بدت عادية حقًّا.

فضَّلت افتراض أنها ذكرى جميلة لوالدي جالسًا ويداه مطويتان خلف رأسه والسماء الزرقاء الشتوية فوق كلينا. ذكرى جميلة مع طائر النورس الكبير الطافي فوق الأرض دون الحاجة إلى الذهاب إلى أي مكان، فقط معلَّق باسط جناحيه، لم يكن أقرب إلى هدفه مما كان عليه قبل دقائق.

كانت من نوعية الذكريات الجميلة المحبَّب وجودها في رأسك، الذكريات التي على الجميع أن يحظى بمثلها.

***

الهاتف الأسود

1

كان الرجل البدين على الجانب الآخر من الطريق على وشك إسقاط مشترياته، مع كيس ورقي في كل ذراع، كان يكافح ليحشر المفتاح في الباب الخلفي لشاحنته. جلس فيني على الدرجات الأمامية من متجر إلكترونيات بول، زجاجة من صودا العنب في يد واحدة، يراقب الموقف كاملًا. كان الرجل السمين على وشك فقدان أكياسه في اللحظة التي يفتح فيها الباب، وقد بدأ الكيس على ذراعه اليسرى يهوي بالفعل.

لم تكن سمنته طبيعية، كان سمينًا بشكل غريب، مع رأس محلوق حتى إنه كان يلمع، وطيَّتين ممتلئتين من الجلد حيث التقت رقبتُه قاعدةَ جمجمته. يرتدي قميصًا فاقعًا برسوم صاخبة، مع أكمام قصيرة على الرغم من أن الجو كان باردًا جدًّا وغير مناسب لارتداء الثياب قصيرة الأكمام.

هبت دفقة سريعة من الرياح مرغِمة فيني على خفض رأسه والإشاحة بوجهه بعيدًا. لم يرتدِ ملابس مناسبة للطقس هو الآخر. كان من المنطقي أكثر أن ينتظر والده في الداخل، لكن الطريقة التي استمر فيها تريتمونت بول العجوز في التحديق إلى فيني لم تعجبه، يحدق إليه بعينين تلمعان كما لو كان يتوقع أن يكسر أو يسرق شيئًا ما، بينما دخل فيني لإحضار صودا العنب التي أدمنها لا أكثر، كان عليه تناول واحدة.

انفتح القفل وفُتح الباب الخلفي للشاحنة. ما حدث بعدها كان عرضًا غريبًا مثاليًّا، حتى إن فيني لم يسعه إلا أن يفكِّر في أن مثل هذا المشهد لا يحدث في الحياة الطبيعية دون تدريب. في وقت لاحق فقط، بعد ما وقع لفيني، خطر له أن المشهد كان كذلك بالضبط، مصطنَعًا.

حوى الجزء الخلفي من الشاحنة مجموعة من البالونات، وفي اللحظة التي تحرك فيها الباب مفتوحًا، شقت طريقها للخروج في فوضى عارمة، مندفعة تجاه الرجل السمين، الذي جاء رد فعله كما لو لم يكن لديه أي فكرة عن وجودها هناك. قفز إلى الخلف، سقطت حقيبة عن ذراعه اليسرى واصطدمت بالأرض وقُطعت. تدحرج البرتقال منها في أفواج لكل مكان. تراجع الرجل السمين وقد انزلقت نظارته عن وجهه، ثم تمالك نفسه وقفز على أصابع قدميه. حاول الإمساك بالبالونات لكن بعد فوات الأوان، كانت تبحر في الهواء بعيدًا عن متناول اليد.

شتم الرجل ولوَّح لها غاضبًا، ثم استدار بعيدًا عائدًا إلى أرض الواقع، ضيَّق عينيه ثم جثا على ركبتيه، وضع الحقيبة الأخرى في مؤخرة الشاحنة ثم بدأ باستكشاف الرصيف بيديه باحثًا عن نظارته، هبطت يده على بيضة لتنشق في راحة يده، تجهَّم رافعًا يديه للهواء فتناثرت خيوط لامعة من البياض عليه. بحلول ذلك الوقت كان فيني يهرول بالفعل عابرًا الطريق، تاركًا الصودا خلفه.

أعلن فيني: «هل تحتاج إلى مساعدة سيدي؟».

حدق الرجل السمين إلى وجهه غاضبًا وقد بدا عليه أنه لا يراه بوضوح: «هل رأيت كل هذا الهراء؟!».

نظر فيني إلى الطريق. كانت البالونات على ارتفاع نحو تسعة أمتار عن الأرض الآن، تابعة الخط المزدوج بطول منتصف الطريق، كانت كلها باللون الأسود، مثل جلد فقمة.

قال: «نعم نعم أنا...».

ثم تلاشى صوته وعبس وهو يراقب البالونات تتمايل في السماء الملبَّدة بالغيوم، أزعجه منظرها بطريقة ما. لا أحد يرغب في بالونات سوداء. فيمَ كانت تُستخدم على أي حال؟ طقوس جنائزية؟ حدق، مأخوذًا لفترة وجيزة، مفكرًا في العنب. حرك لسانه في فمه، ولاحظ لأول مرة أن صودا العنب التي أحبَّ تركَت مذاقًا معدنيًّا سيئًا على لسانه، وكأنه يمضغ سلكًا نحاسيًّا مكشوفًا.

كسر الرجل رباط أفكاره: «هل رأيت نظارتي؟».

نزل فيني على ركبة واحدة وانحنى لينظر إلى أسفل الشاحنة، كانت نظارة الرجل السمين تحت المَصَد.

قال وهو يمد ذراعه متجاوزًا ساق الرجل السمينة لالتقاطها: «وجدتها!».

سأل: «لِم البالونات؟».

أجاب الرجل السمين: «أنا مهرج بدوام جزئي».

كان يمد يده إلى الشاحنة، ويخرِج شيئًا من الحقيبة الورقية التي وضعها هناك: «يدعونني آل، لحظة، هل ترغب في رؤية شيء مضحك؟».

ألقى فيني نظرة خاطفة، كان لديه الوقت لرؤية آل يحمل علبة فولاذية، باللونين الأصفر والأسود، وعليها صورة دبابير، يهزها بشدة. بدأ فيني يبتسم وقد كوَّن تصورًا بأن آل على وشك رشه برشاش الخيوط السخيف.

ضربه المهرج ذو الدوام الجزئي في وجهه بنفخة من الرغوة البيضاء. بدأ فيني في إدارة رأسه بعيدًا كي لا تلمس عينيه، لكنه كان بطيئًا جدًّا. صرخ وقد دخل بعضها في فمه، ذاق شيئًا ذا طعم قاسٍ وكيميائي. شعر بعينيه كالجمر، تحترقان في تجويفهما، احترق حلقه، طوال حياته لم يشعر بأي ألم مماثل. حرارة لاذعة بشعة. انتفضت معدته وعاد مذاق صودا العنب ليندفع عبر حلقه. أمسك به الرجل من مؤخرة رأسه وبدأ يسحبه إلى الأمام إلى الشاحنة. كانت عينا فيني مفتوحتين لكن كل ما رآه كانت ومضات برتقالية، وبعض النقاط بلون الزيت البني تمتزج، تشتعل، تقطر، تتلاشى وتصطدم بعضها ببعض.

قبض الرجل السمين على حفنة من شعره بيد والأخرى كانت بين ساقيه، يرفعه إلى أعلى. شعر بذراعه تمر قرب خد الرجل. أدار فيني رأسه وعض الرجل ملء فمه من جزء مشبع بالدهون، ضاغطًا بقوة حتى شعر بمذاق الدم يملأ فمه.

صرخ الرجل السمين وتركه يذهب للحظة، وضع فيني قدميه على الأرض مرة أخرى، تراجع للوراء ثم تعثر في برتقالة، انطوى كاحله أسفل منه، ترنح وكاد يسقط، لكن الرجل السمين أعاد قبضته عليه من جديد دافعًا به إلى الأمام ليصطدم بقوة بباب الشاحنة الخلفي، ضربت الصدمة رأسه وخرت قدماه أسفل منه فاقدتين كل قوة.

أمسك الرجل به، ذراعه تحت صدره، وقاده إلى مؤخرة الشاحنة ليدفع به إلى الأمام. فقط لم يكن ما دخله فيني مؤخرة شاحنة، كانت شيئًا أشبه بكوة محرقة فحم.

وسقط فيني بسرعة مروعة في الظلام.

***

2

فُتِح الباب بركلة، وشعر بساقيه وركبتيه تنزلق على أرض مغطاة بالمشمع. لم يستطع رؤية الكثير حوله، مسحوبًا في الظلام أسفل ضوء رمادي بعيد ترقص في طياته الباهتة أفواج من العثة. رُكل باب آخر وشعر بجسده يُسحب إلى الأسفل عبر مجموعة من السلالم. ضربت رجلاه الدرجات بقوة مع كل خطوة على الطريق.

سمع آل يقول: «ذراعي، ذراعي اللعينة. كان عليَّ كسر رقبتك لما فعلته بذراعي».

فكر فيني في المقاومة، لكن الأفكار كانت تأتي من مكان بعيد، مجرد أفكار بعيدة مشوَّشة. سمع صوت مزلاج وشعر بنفسه يُسحب عبر الباب الأخير، هذه المرة على أرض أسمنتية، ثم إلى مرتبة ألقيَ عليها. دار العالم ببطء وشعر بالغثيان، فتمدد فيني على ظهره وانتظر ذوبان الشعور الممرِض بالدوار.

جواره جلس آل يلهث من أجل التقاط أنفاسه: «يا يسوع، أنا مغطى بالدم. كأنني قتلت شخصًا ما».

ثم ضحك بصوت أجش وقال: «انظر إلى هذه الذراع اللعينة، أعني ليس وكأن بإمكانك رؤية أي شيء».

ثم ساد الصمت المروِّع ليبتلع الغرفة بأكملها، لم يتكلم أيٌّ منهما، ارتجف فيني، ظل يرتجف بقوة منذ أن استعاد وعيه.

في النهاية تحدث آل: «أعلم أنك خائف مني، لن أؤذيك. ما قلته عن كسر رقبتك، لأنني كنت غاضبًا فقط بعد ما فعلته بذراعي، لكنني لن أُحمِّلك ذنب

فعلتك. هذا يجعلنا متساويين. لا داعي للخوف لأن لا شيء سيئ سيحدث لك هنا. أنا أعني ما أقوله، جوني».

عند ذكر اسمه، سكن فيني تمامًا، وتوقف فجأة عن الارتجاف. لم يكن الأمر أن الرجل السمين يعرف اسمه فقط. كانت هذه الطريقة التي قالها بها، والإثارة تنفجر من أنفاسه، صوته المحمَّل بالحماس. جوني... شعر وكأن دغدغة تعبر فروة رأسه وأدرك أن آل كان يلعب بشعره.

أعلن آل فجأة: «هل ترغب في مشروب غازي؟ اسمع، سأحضر لك مشروبًا غازيًّا، ثم... انتظر، هل سمِعت الهاتف؟!».

تذبذب صوت آل فجأة قليلًا: «هل سمعت رنين هاتف من مكان ما؟».

من مسافة غير واضحة، سمع فيني صوت الهاتف.

آل -الذي كان يتنفس بلا انتظام الآن- فجأة قال: «أوه اللعنة».

ثم تابع: «هذا مجرد هاتف المطبخ، بالطبع هو الهاتف في المطبخ. جيد. سأذهب لأرى مَن المتصل، وأحضر لك الصودا ثم سأعود مباشرة وأشرح كل شيء بعد ذلك».

سمعه فيني وهو يخرج من الفراش بجهد مضنٍ، تبع صوت حذائه يبتعد، باب ينغلق، ثم ترباس يُقفل. ولم يسمع فيني إذا ما كان الهاتف في الطابق العلوي قد أصدر صوتًا مرة أخرى.

***

3

لم يعرف ما الذي قرر آل إخباره به عندما يعود، لكنه لم يكن بحاجة إلى الشرح. عرف فيني بالفعل كل شيء عما يحدث.

اختفى الطفل الأول منذ عامين، مباشرة بعد ذوبان الثلوج في فصل الشتاء الأخير. كان التل خلف سانت لوقا منحدرًا ومتكتلًا بالطين، لذا استخدمه الأطفال كمنحدر تزلج، مصطدمين بعضهم ببعض حين يصلون إلى القاع. ركض لورين البالغ من العمر تسع سنوات إلى الأشجار على الجانب الآخر من طريق ميشن، ليتبول، لكنه لم يعد قط.

الطفل التالي فُقِدَ بعد شهرين، في الأول من يونيو. الصحف أطلقت على الخاطف اسم «نشال غالسبيرج»، وهو اسم شعر فيني أنه يفتقد القوة أو الغموض كاسم «جاك السفاح» مثلًا. أمسكَ الخاطف بالطفل الثالث في الأول من أكتوبر، عندما كان الجو معطّرًا برائحة أوراق الخريف الميتة المسحوقة تحت الأقدام.

في تلك الليلة جلس جون وشقيقته الكبرى سوزانا أعلى الدرج واستمعا إلى والديهما يتجادلان في المطبخ. أرادت والدتهما بيع المنزل، والابتعاد، وقال والدهما إنه يكره عندما تصاب بالهستيريا. سقط شيء ما أو أُلقي به. قالت والدتهما إنها لا تستطيع تحمله بعد الآن، وإن العيش معه سيدفعها إلى الجنون. أخبرها والدهما ألا تفعل إذن، وشغَّل التلفاز.

بعد ثمانية أسابيع، في نهاية شهر نوفمبر، اختطف «نشال غالسبيرج» بروس يامادا. لم يكن فيني صديقًا لبروس يامادا، لم يفتح حديثًا معه قبلًا، لكنه كان يعرفه، تحدثا قبلًا في الصيف قبل اختفاء بروس. بوسعك القول إن بروس كان أفضل رامي بيسبول شهده فريق غالسبيرج كاردينالز على الإطلاق. الرامي الأفضل بلا منازع، بدت الكرة مختلفة في قفازه عن أي كرة في قفاز أيٍّ من الأطفال الآخرين، وحين يلقي بها بروس يامادا، كان صوتها يشبه صوت فتح زجاجة الشمبانيا.

فيني نفسه كان راميًا جيدًا، لم يضطر إلى الركض حول القواعد إلا عدة مرات، كان ذلك لأن جاي ماكجينجي يضرب الكرات بشكل يتيح لأي شخص فرصة الإمساك بها. بعد المباراة، خسر غالسبيرج بنتيجة خمسة مقابل واحد، شكَّل الفريقان صفين متوازيين وبدأ الصفان في السير جوار بعضهما بعضًا، عكس بعضهما، للتحية بضرب قفازاتهم ببعضها، حين مر بروس وفيني جوار بعضهما بعضًا، وتلامست قفازاتهما، كانت تلك المرة الوحيدة التي تحدث فيها بروس وفيني.

حين قال بروس مشجِّعًا: «كنتَ قذرًا».

كان فيني مرتبكًا بالمفاجأة السعيدة لتحدث بروس إليه، وفتح فمه للرد، لكن كل ما جاء هو: «لعبة جيدة».

كما قال للجميع. كانت جملة آلية مكررة، قيلت عشرين مرة متتالية، وخرجت من فمه قبل أن يتمكن من التفكير في أي شيء آخر ليرد به. في

وقت لاحق على الرغم من ذلك، تمنى لو كان قد قال شيئًا رائعًا، شيئًا مثل ما قاله بروس، شيئًا يترك علامة.

لم يقابل بروس مرة أخرى بقية الصيف، وعندما حدث أخيرًا، رآه يخرج من عرض فيلم، أومأ أحدهما للآخر لكن لم يتكلما. بعد بضعة أسابيع، حرج بروس من الملعب، أخبر أصدقاءه أنه سيذهب في طريقه إلى المنزل، ولم يصل إلى هناك قط. عثروا على حذائه الرياضي عالقًا على شبكة السلك على جانب الطريق في شارع السيرك. أذهل فيني أن يصل إليه خبر خطف صبي يعرفه، بل وتخيل أن المواجهة كانت جنونية بينه وبين الخاطف حتى وصلت إلى حد انتزاع حذائه مباشرة ليعلق بالسور.

لم يعد بروس قط، كان ميتًا بالفعل على الأرجح في مكان ما، الأوساخ تغطي وجهه، الحشرات صنعت أعشاشها في شعره، وعيناه مفتوحتان دون أن يحدق إلى أي شيء على الإطلاق.

ولكن بعد ذلك مر عام، ولم يختفِ أي طفل آخر، وأصبح فيني في الثالثة عشرة من عمره، وهو عمر آمن، لن يستفز سارق الأطفال هذا أبدًا، لم يختطف أي شخص أكبر من اثني عشر عامًا. اعتقد الناس أن نشال غالسبيرج قد رحل، أو قُبض عليه لارتكابه جريمة أخرى، أو مات. ربما يكون بروس يامادا قد قتله! فكر فيها فيني مرة واحدة بعد سماع شخصين بالغين يتناقشان فيما قد يكون حدث للخاطف بصوت عالٍ. فكر، ربما التقط بروس ياماداصخرة في أثناء محاولة الإمساك به، ورآها فرصة لاستعراض مهاراته في الرماية أمام نشال غالسبيرج. كانت فكرة جنونية!

فقط بروس لم يقتل الخاطف، قتله الخاطف، كما قتل ثلاثة آخرين قبله، مثلما كان قريبًا من تلك البالونات السوداء الآن، لا أحد سيسحبه إلى الأرض من جديد، لا فرصة لتوجيه نفسه، كان يبحر بعيدًا عن كل ما يعرفه، إلى مستقبل امتد أمامه مفتوحًا، واسعًا وغريبًا مثل سماء الشتاء.

***

4

خاطرَ بفتح عينيه. لسعَ الهواء مقلتيه، وكان الأمر أشبه بالنظر من خلال زجاجة كوكاكولا، كل شيء مشوَّه وملوَّن بظل أخضر غريب، على الرغم من أن ذلك كان أفضل من عدم القدرة على الرؤية على الإطلاق. كان على مرتبة في أحد طرفي غرفة ذات جدران بيضاء من الجبس. بدت الجدران وكأنها منثنية من الأعلى والأسفل، وكأن العالم بين قوسين باللون الأبيض. أفترض أن هذا كان مجرد وهم خلقته عيناه المسمومتان.

لم يستطع فيني رؤية الطرف البعيد من الغرفة، ولم يستطع رؤية الباب الذي أحضره من خلاله. ربما كان تحت الماء، يحدق إلى الأعماق الطينية، غواص داخل مقصورة في سفينة سياحية غارقة. على يساره كان مرحاض بلا مقعد. على يمينه، في منتصف الطريق إلى آخر الغرفة كان هناك صندوق أسود أو خزانة مثبَّتة على الحائط. في البداية لم يستطع التعرف على ماهيتها، ليس بسبب رؤيته غير الواضحة، ولكن لأنها كانت في غير مكانها، شيء لا ينتمي إلى زنزانة السجن التي هو بها.

هاتف، هاتف أسود كبير قديم الطراز، بسماعة استقبال يتدلى السلك الطويل منها على حامل فضي إلى جانبه.

لم يتركه آل في غرفة بهاتف يعمل. إذا كان يعمل، لكان أحد الأولاد الآخرون استخدمه. عرف فيني ذلك، لكنه شعر بإثارة الأمل على أي حال، لدرجة أنه كاد أن يبكي. ربما تعافى من عمى عينيه أسرع من الأولاد الآخرين. ربما ظل الآخرون عميانًا بسبب سم الدبابير حين قتلهم آل، ولم يدرك أيٌّ منهم وجود هاتف.

كللت قسمات وجهه ابتسامة صغيرة، تلتهب من قوة أمله، بدأ في الزحف نحو الهاتف. لكنه سقط فورًا من حافة المرتبة على الأرض وضرب ذقنه الأسمنت حتى إنه شعر بوميض مصباح أسود في مقدمة دماغه خلف عينيه مباشرة. دفع نفسه إلى أعلى، وهز رأسه ببطء من جانب إلى آخر، غير متزن للحظة، ثم بدأ يتعافى. وعاد إلى الزحف من جديد. قطع شوطًا كبيرًا دون أن يبدو أنه يقترب من الهاتف. كان الأمر كما لو أن الهاتف مثبَّت على حزام ناقل، يحمله بثبات إلى الوراء كلما زحف إلى الأمام على يديه وركبتيه. في

بعض الأحيان عندما حدق إلى الهاتف، بدا كأنه يتنفس، الجانبان ينتفخان إلى الخارج ثم ينحنيان إلى الداخل. ذات مرة اضطر فيني إلى التوقف لإراحة جبهته الساخنة على الخرسانة الباردة. كانت الطريقة الوحيدة لجعل الغرفة تتوقف عن الحركة.

عندما نظر بعد ذلك، وجد الهاتف فوقه مباشرة. سحب نفسه على قدميه، أمسك بالهاتف بمجرد وصوله إليه واستخدمه لرفع نفسه. لم تكن قطعة أثرية، لكنها قديمة بالتأكيد، مع زوجين من الأجراس الفضية المستديرة في الأعلى وبينهما قرص بدلًا من الأزرار. وجد فيني جهاز الاستقبال ووضعه على أذنه، واستمع إلى نغمة الاتصال، لا شيء، دفع الزر الفضي إلى أسفل، وتركه يرتفع مرة أخرى. ظل الهاتف الأسود صامتًا. طلب عامل التشغيل. جاءت سماعة الاستقبال بنقرات على أذنه، لكن لم يكن هناك صوت من الطرف الآخر، لا حرارة.

جاء صوت آل فجأة: «لا يعمل، لم يعمل منذ أن كنتُ طفلًا».

تمايل فيني على كعبيه، ثم استقر. لسبب ما لم يكن راغبًا في إدارة رأسه والتواصل بالعين مع آسره، لكنه سمح لنفسه فقط بإلقاء نظرة جانبية عليه. كان الباب قريبًا بما يكفي لرؤيته الآن، وقد وقف آل أمامه.

قال آل: «أغلِق الخط».

لكن فيني وقف مكانه، والسماعة في يد واحدة.

بعد لحظة واصل آل: «أعلم أنك خائف وتريد العودة إلى المنزل. سأصطحبك إلى المنزل قريبًا. عليَّ فقط أن أكون بالطابق العلوي لفترة، حدث شيء ما، شيء ما سيئ...».

- ماذا؟

- لا يهم ماذا.

ضربت فيني موجة أخرى من الأمل المروع النابض. ربما كان السيد بول! ربما رآه السيد بول وهو يُسحب إلى الشاحنة واستدعى الشرطة.

قال بسرعة: «هل رأى أحدهم شيئًا؟ هل الشرطة قادمة؟ إذا سمحت لي بالرحيل، فلن أخبرهم، لن أفعل».

قال الرجل السمين: «لا».

وضحك بقسوة وحزن: «ليست الشرطة».

- شخص ما، رغم ذلك؟ شخص ما قادم؟

انتصب الخاطف، وامتلأت عيناه المتقاربتان في وجهه العريض بنظرة تعجب. لم يرد، لكنه لم يكن بحاجة إلى الرد. الجواب الذي أراده فيني كان هناك في نظرته، لغة جسده. إما أن يكون أحدهم في الطريق وإما هنا بالفعل، في الطابق العلوي في مكان ما.

قال فيني: «سأصرخ، إذا كان هناك شخص ما في الطابق العلوي، فسيسمعونني».

- لا، لن يفعل. ليس إن ظل الباب مغلقًا.

- يفعل هو.

تغيرت تعبيرات وجه آل إلى تعبير أكثر قتامة، والدم يندفع إلى خديه. شاهد فيني يديه تضغطان بقبضتيهما، ثم تفتحان ببطء مرة أخرى.

تابع آل بنبرة من الهدوء القسري: «عندما ينغلق الباب لا يمكنك سماع أي شيء هنا، صممتُ عوازل الصوت بنفسي، لذا اصرخ إذا أردت، فلن تزعج أحدًا».

- أنت من قتلت هؤلاء الأطفال الآخرين.

- لا. ليس أنا. كان هذا شخصًا آخر. لن أجبرك على فعل أي شيء رغم إرادتك.

شيء في طريقة قوله وبناء هذه العبارة، «لن أجبرك على فعل أي شيء رغم إرادتك» تسبب في ارتفاع حرارة فيني، احمر وجهه، وانتشرت رعشة مرعوبة في جسده تركته باردًا وقد غمرته القشعريرة.

صاح: «إذا حاولت لمسي، فسأخدش وجهك. سأخدشه بقوة حتى إن أي شخص يراه سيتساءل عن السبب».

نظر إليه آل بهدوء للحظات، ثم استوعب ما يعنيه فيني.

قال: «يمكنك إغلاق الهاتف الآن».

أعاد فيني جهاز الاستقبال إلى الحامل.

قال آل: «كنت هنا حين رن مرة واحدة فقط. أكثر شيء مخيف يمكن أن تتعرض له. اعتقدت أن الكهرباء الساكنة هي ما فعلها، حين انفجر الصوت

منه مباشرة عندما كنت أقف جواره. التقطت السماعة دون تفكير، كما تعلم، لمعرفة إن كان هناك أي شخص على الجانب الآخر».

لم يرغب فيني في إجراء محادثة مع شخص يقصد قتله في أول فرصة مناسبة، وتفاجأ عندما فتح فمه وسمع نفسه يطرح السؤال: «كان هناك أحد؟».

- لا. ألم أقل إنه لا يعمل؟

فُتح الباب وأُغلق. في لحظات كان محكم الغلق وقد انزلق الرجل البدين عبره كفرس النهر مبتعدًا، ذهب قبل أن يفتح فيني فمه للصراخ.

***

مكتبة
t.me/soramnqraa

5

صرخ على أي حال، صرخ وألقى بنفسه على الباب، بجسده بالكامل، كان يعرف أنه لا يمكن فتحه، ولكنه فكر أنه إذا كان هناك شخص ما في الأعلى، فسيسمع ضرباته على الباب. صرخ حتى صارت حنجرته قاسية. عدة مرات كانت كافية لإرضائه، لمعرفة أن أحدًا لن يسمع. توقف فيني عن الصراخ ليجول في المكان الذي بدا كمقصورته الخاصة تحت الماء، في محاولة لمعرفة مصدر الضوء. كان هناك نافذتان صغيرتان من الزجاج على ارتفاع عالٍ في الجدار، بفتحات طولية، بعيدًا عن متناول اليد، ينبعث منهما بعض الضوء الباهت واللون الأخضر للحشائش، أُغلقَتا بإحكام بشبكة صدئة، بدت الخطوط الخضراء للحشائش عبرها.

درس فيني إحدى النوافذ لفترة طويلة، ثم ركض إلى الحائط، ولم يمنح نفسه وقتًا للتفكير في مدى ألمه وتعبه، غرس قدمًا على الجص وقفز. أمسك بالشبكة للحظة، لكن عوارض الشبكة الفولاذية كانت متقاربة جدًّا بحيث استحال شبك أصابعه بها، عاد أرضًا على كعبيه، ثم سقط على مؤخرته، وهو يرتجف بعنف.

على الرغم من فشله في إزالة الشبكة كان هناك بالأعلى لفترة طويلة بما يكفي لإلقاء نظرة خاطفة من خلال الزجاج الملطَّخ بالقذارة. كانت نافذة

مزدوجة، بمستوى الأرض، مخفية بالكامل تقريبًا خلف شجيرة شعثاء. إذا تمكن من كسرها، فقد يسمعه أحدهم وهو يصرخ.

فكر في أن جميعهم هنا، الأولاد قبله، فكروا في ذلك بالتأكيد، ونظر إلى أي مدى وصلوا في محاولتهم.

دار حول الغرفة مرة أخرى، ووجد نفسه واقفًا أمام الهاتف من جديد. راقبه بعناية. تتبع بنظره سلكًا أسود رفيعًا مثبَّتًا على الجص فوقه، متسلقًا الجدار لمسافة قدم تقريبًا، قبل أن ينتهي بكتلة من الخيوط النحاسية المهترئة. اكتشف فيني أنه كان يمسك بالسماعة مرة أخرى، وقد التقطها دون أن يعرف أنه كان يفعل، حتى إنه كان يضعها على أذنه.

فِعل غير واعٍ تحرِّكه الحاجة الفظيعة واليائسة، انكمش داخل نفسه قليلًا. لماذا قد يضع أيٍ شخص هاتفًا في قبو منزله؟ ولكن بالنظر حوله، كان هناك مرحاض أيضًا. ربما، ربما! واتته تلك الفكرة البشعة عن أن أحدهم عاش في هذه الغرفة في وقت ما.

عاد إلى المرتبة، يحدق إلى الظلام الدامس عبر السقف. لاحظ للمرة الأولى أنه لم يبكِ، ولم يشعر بأنه على وشك البكاء في أي وقت قريب. كان يستريح متعمِّدًا، بانيًا طاقته من أجل الجولة التالية من الاستكشاف والتفكير. سيدور في الغرفة مرة أخرى، باحثًا عن شيء، أي شيء يمكنه استخدامه، حتى يعود آل. لا يمكن أن يؤذيه إذا كان بحوزة فيني أي شيء، أي شيء على الإطلاق، يمكن استخدامه كسلاح، قطعة من الزجاج المكسور، زنبرك صدئ. هل كانت هناك نوابض في المرتبة؟ عندما تصبح لديه الطاقة للتحرك مرة أخرى سيحاول معرفة ذلك.

الآن، بحلول هذا الوقت، من المؤكد أن والديه قد اكتشفا حدوث شيء له، على الأرجح أنهما مذعوران، لكنه حين حاول تصور عملية البحث عنه، لم يتخيل والدته الباكية تجيب عن أسئلة المحقق في مطبخها، ولم يرَ والده، أمام متجر بول للإلكترونيات في مشهد يبتعد فيه رجل الشرطة عن المكان حاملًا زجاجة فارغة من صودا العنب في كيس الأدلة.

بدلًا من ذلك، تخيل سوزانا، وهي تدوس بدَّالات دراجتها، تجوب الشوارع السكنية واحدًا تلو الآخر وقد رفعت ياقة سترتها الجينز لتتفادى الرياح

الجليدية. كانت سوزانا أكبر بثلاث سنوات من فيني، لكن كليهما وُلدا في اليوم ذاته، 21 يونيو، وهو حدث اعتبرته ذا أهمية باطنية.

كان لدى سوزانا الكثير من الأفكار الباطنية في العموم، وامتلكت مجموعة من بطاقات التاروت، وقرأت الكثير من الكتب حول العلاقة بين ستونهنج والفضائيين. عندما كانا أصغر سنًّا، امتلكت سوزانا سماعة طبيب، اعتادت ضغطها على رأسه، في محاولة للاستماع إلى أفكاره. سحب خمس أوراق من مجموعة لعب بشكل عشوائي وخمنتها جميعًا، واحدة تلو الأخرى، واضعة نهاية السماعة الطبية في وسط جبهته.

خمس أوراق البستوني، وست من الأسباتي، وعشر، جاك ماسي، آس.

لكنها لم تكن قادرة على تكرار الحيلة.

رأى فيني -بعين عقله- أخته الكبرى تبحث عنه في الشوارع التي كانت -في خياله- خاوية من المشاة أو حركة المرور. الريح تعصف عبر الأشجار، تقذف الأغصان العارية ذهابًا وإيابًا، حتى بدت كمن تلوِّح دون جدوى إلى السماء المنخفضة. في بعض الأحيان، أغمضت سوزانا عينيها جزئيًّا، كما لو كانت تركِّز بشكل أفضل على صوت بعيد يناديها. كانت تنصت له، محاوِلة الاستماع لصرخته البعيدة، على أمل أن تسترشد بها تخاطريًّا.

جالت يسارًا ثم يمينًا، تتحرك تلقائيًّا، قادتها دراجتها إلى شارع لم تره من قبل، طريق مسدود. على جانبيها بدت مزارع مهجورة، وبيوت مع مروج أمامية غير مشذبة، وألعاب الأطفال تُركت في الممرات. تسارعت ضربات قلبها لمرأى هذا الشارع.

شعرت بقوة أن خاطف فيني يعيش في مكان ما على هذا الطريق. صارت تمشي ببطء أكثر، وتحول رأسها من جانب إلى آخر، تفحص كل منزل بشكل محموم وهي تمر. بدا الطريق بأكمله في حالة من الصمت غير المحتمَل، كما لو أن كل شخص على الطريق قد أُجلي منذ أسابيع، مصطحبين حيواناتهم الأليفة معهم، مغلِقين جميع الأبواب، مطفئين الأنوار.

ليس هذا، لا، ليس ذاك، وهكذا حتى نهاية الشارع المسدود، وحتى آخر منزل.

وضعت قدمًا على الأرض ووقفت في مكانها ودراجتها تحتها. لم تشعر باليأس بعد، لكنها وقفت هناك، تمضغ شفتها ناظرة حولها، بدأت تتشكل

داخلها خاطرة أنها لن تجد شقيقها، ولن يجده أحد. كان شارعًا فظيعًا، وكانت الرياح باردة. تخيلت البرودة بداخلها، تخلِّف قشعريرة خلف عظمة الصدر.

في اللحظة التالية، سمعت صوتًا، رنينًا حديديًّا، صدى غريبًا. نظرت حولها، وهي تحاول اكتشاف مصدره، وقع نظرها على آخر عامود هاتف في الشارع، حيث انعقدت مجموعة من البالونات هناك رغمًا عنها في الأسلاك، تزمجر بقوة والرياح تصارع لتحررها، والبالونات تتمايل محاوِلة الهرب بجنون. كان مشهدها مروِّعًا، كنقطة ميتة وسط السماء حتى إنها تراجعت رغمًا عنها لمرآها. استمرت الرياح في الصراع واستمرت البالونات في محاولة التحرر من الأسلاك مصدِرة صوت الرنين.

***

عندما رن الهاتف، فتح فيني عينيه. اختفت القصة الصغيرة الخيالية التي كان يرويها لنفسه عن سوزانا. فقط قصة وليست رؤية، قصة شبح، وكان هو الشبح، أو سيكون قريبًا. رفع رأسه عن الفراش مفجوعًا ليجد الغرفة شبه مظلمة. سقطت نظراته على الهاتف الأسود. بدا له أن الهواء كان لا يزال يهتز بشكل ضعيف.

دفع نفسه إلى الأعلى. كان يعلم أن الهاتف لا يمكن أن يرن حقًّا لأن سماعه كان مجرد خدعة من عقله المخدَّر، لكن جزءًا داخله توقع أن يرن مرة أخرى. كان من الغباء الاستلقاء هناك، والانغماس في أحلام اليقظة حتى ينتهي النهار. كان بحاجة إلى سلاح، مسمار منحنٍ، حجر لرميه. في وقت قصير سيحل الظلام، ولن يتمكن من البحث في الغرفة إذا لم يتمكن من الرؤية، لذا وقف.

شعر وكأنه منفصل عن جسده، رأسه خاوٍ وبارد. كان الجو باردًا في القبو.

اتجه إلى الهاتف واضعًا السماعة على أذنه وقال بنبرة متسائلة: «مرحبًا».

سمع عويل الرياح خارج النافذة، واستمر في الإنصات عبر الهاتف الميت في يده، كان على وشك إنهاء المكالمة حين ظن أنه سمع شيئًا ما على الجانب الآخر.

من جديد قال: «مرحبًا!».

***

6

عندما فرد الظلام جناحيه مغطيًا إياه، تكوم فيني حول نفسه على الفراش، وركبتاه قريبتان من صدره، لم ينَم، بالكاد رمش. انتظر أن يُفتح الباب ويدخل الرجل السمين ويغلقه خلفه، ليصير الاثنان وحدهما في الظلام معًا، لكن آل لم يأتِ. كان عقل فيني خاويًا، عاجزًا عن التفكير، تركيزه كله تمركز على النبض الجاف لقلبه واندفاع الرياح البعيد وراء النوافذ العالية. لم يكن خائفًا، ما شعر به كان شيئًا أكبر من الخوف، رعبًا مُخدِّرًا شلَّه تمامًا، حتى صار مجرد التفكير في الحركة مستحيلًا.

لم ينَم ولم يكن مستيقظًا. لم تمر الدقائق، لم تتحول إلى ساعات. لم يكن هناك جدوى من التفكير في الوقت بالطريقة القديمة. كانت هناك لحظة واحدة ثم لحظة أخرى، في سلسلة من اللحظات التي مرت في موكب هادئ وقاتل. لم ينهض من شلل أحلامه إلا عندما بدأت إحدى النوافذ بالإشراق، مستطيل من اللون الرمادي المائي طفا عاليًا في الظلام. كان يعلم، دون أن يعرف في البداية، إذ كيف يمكنه أن يعرف أنه لم يكن من المفترَض أن يعيش ليرى النافذة مضاءة بأولى لحظات بزوغ الفجر. لم تكن الفكرة مصدر إلهام للأمل بالضبط، لكنها ألهمته للتحرك، وبجهد كبير جلس.

صارت عيناه أفضل. عندما حدق إلى النافذة المتوهِّجة، رأى أضواء منشورية متلألئة على حافة رؤيته، لكنه رأى النافذة بوضوح رغم ذلك، وقرصَ الجوع معدته.

أجبر فيني نفسه على الوقوف وبدأ في القيام بدوريات استكشافية في الغرفة مرة أخرى، بحثًا عن شيء يعطيه اليد العليا. في الزاوية الخلفية للغرفة، وجد مكانًا حيث انهارت قطعة أسمنتية من الأرض وتفتتت إلى قطع حبيبية بحجم الفشار، مع طبقة من التربة الرملية تحتها. بدأ يضع حفنة من القطع المختارة بعناية في جيبه عندما سمع دوي المزلاج يدور.

وقف الرجل السمين في المدخل. حملقا إلى بعضهما بعضًا عبر مسافة مترين. ارتدى آل بوكسر مقلمًا وقميصًا داخليًّا أبيض ملطخًا من الأمام ببقع العرق. كانت ساقاه السمينتان صادمتين في شحوبهما.

قال فيني: «أريد الإفطار، أنا جائع».

سأله آل: «كيف حال عينيك؟».

لم يرُد فيني.

- ماذا تفعل هناك؟

ظل فيني جالسًا في الزاوية محدقًا إلى آل، لم يجب هذه المرة أيضًا، فقال آل: «لا أستطيع إحضار أي شيء لتأكله. ستضطر إلى الانتظار».

سأل فيني من جديد بقوة: «لماذا؟ هل هناك شخص في الطابق العلوي قد يراك وأنت تطعمني؟».

مرة أخرى أظلم وجه آل وانقبضت يداه بقوة جواره، لكن عندما أجاب، لم تكن نبرته غاضبة، بل كئيبة ومهزومة: «لا يهم».

اعتبر فيني أن هذا الرد كان بالإيجاب، وسأل: «إذا كنت لن تطعمني، فلماذا أتيت إلى هنا؟».

هز آل رأسه، محدقًا إلى فيني بنوع من الاستياء، كما لو كان هذا سؤالًا غير عادل آخر لا يتوقع أن يجيب عنه.

ولكن بعد ذلك هز كتفيه وقال: «فقط لأنظر إليك. أردت فقط أن أنظر إليك».

تراجعت شفة فيني العليا كاشفة عن أسنانه في تعبير عن الاشمئزاز، وشحب آل بشكل واضح قبل أن يعلن فجأة: «سأذهب».

عندما فتح الباب، قفز فيني على قدميه وبدأ بالصراخ للمساعدة. تعثر آل على دعامة الباب في عجلة من أمره للتراجع وكاد يسقط، ثم أُغلق الباب.

وقف فيني في وسط الغرفة، رئتاه تصرخان طلبًا للهواء. لم يكن يتخيل قط أنه بإمكانه تجاوز آل والخروج من الباب. كان الباب بعيدًا جدًّا.

لم يكن يريد سوى اختبار وقت رد فعله. آل كان أبطأ مما اعتقد، الدهون جعلته أبطأ، وكان هناك شخص آخر في المنزل، أحدهم بالطابق العلوي. رغمًا عنه، شعر فيني بالإثارة، بأن أطرافه تنبض بعصبية وكأنها مشحونة بالكهرباء. الشعور كان أقرب ما يكون إلى الأمل.

لبقية اليوم وطوال تلك الليلة، كان فيني وحده.

***

7

عندما عادت التشنجات مرة أخرى، في وقت متأخر من يومه الثالث، كان عليه أن يجلس على المرتبة العارية بانتظار مرور التشنجات. شعر كما لو أن شخصًا ما دفع سيخًا ملتهبًا بجانبه واستمر في إدارته ببطء. سحق فيني أسنانه الخلفية لكبح الألم حتى تذوَّق الدم.

في وقت لاحق، شرب فيني من الخزان الموجود على ظهر المرحاض، ثم بقي هناك، على ركبتيه، لفحص البراغي والأنابيب. لم يكن يعرف لماذا لم يفكر في المرحاض من قبل. عمل حتى أصبحت يداه ملتهبتين ومكشوطتين، محاوِلًا فك صمولة حديدية سميكة، قطرها ثلاث بوصات، لكنها كانت مغطاة بالصدأ، ولم يستطع زحزحتها.

انتصب منتبهًا، كان الضوء يتدفق عبر النافذة على الجانب الغربي من الغرفة عبر شعاع من أشعة الشمس الصفراء الساطعة الملأى بالغبار المتلألئ. شعر بصعوبة تجميع الأفكار معًا، صعوبة في التفكير بشكل عام. حتى بعد أن ظل مستيقظًا لمدة عشر دقائق، شعر كما لو كان قد استيقظ لتوه، خاوي الذهن ومشوَّشًا.

لفترة طويلة لم يتمكن من النهوض، جلس وذراعاه ملفوفتان حول صدره، بينما هرب آخر ضوء، وظهرت الظلال من حوله. في بعض الأحيان ضربته نوبة قشعريرة، وبدأت أسنانه في طحن بعضها من قوة الرعشة ببدنه. بقدر ما كان الجو باردًا، سيكون أسوأ بعد حلول الظلام. فكر في أن قضاء ليلة أخرى بهذا المكان أسيرًا للبرد ذاته يكاد يكون مستحيلًا، لن يحتمله جسده.

ربما كانت هذه خطة آل، تجويعه وتجميده حتى يصير عاجزًا عن المقاومة تمامًا. أو ربما لم تكن هناك خطة، ربما كان الرجل السمين قد مات في الأعلى بسبب نوبة قلبية، وهذا هو بالضبط كيف سيموت فيني، ببطء وبمرور دقيقة باردة تلو الأخرى.

حدق فيني إلى الهاتف، الذي كان يتنفس مرة أخرى الآن. راقب انبساط الجوانب ثم انقباضها، ثم عودتها إلى الانبساط من جديد.

صاح فيه: «توقف عن فعل هذا!».

وتوقف الهاتف -مستجيبًا- عن الحركة.

تمشى في الغرفة، كان عليه أن يظل دافئًا. ارتفع القمر، وأضاء الهاتف الأسود لفترة من الوقت بضوء حمل لونًا رماديًّا كالعظام، وكأنه آتٍ من كشاف. وجه فيني أحرقه من البرد، وبدأت أنفاسه تدخن كما لو كان شيطانًا أكثر من فتى سجين.

فقد الشعور بقدميه، كانتا باردتين جدًّا. داس عليهما متجوِّلًا في الأرجاء محاوِلًا إعادة الحياة إليهما، ثنى يديه. كانت أصابعه باردة أيضًا، وقاسية ومؤلمة عند تحريكها. سمع غناء بلا لحن ثم أدرك أنه هو مصدره. صارت الدقائق تعبر كنبضات متتالية، تعثر في شيء ما في الأرض وسقط على يديه وركبتيه، ثم عاد وبحث، محاوِلًا اكتشاف سبب تعثره، إن كان تعثر بشيء يمكن استخدامه كسلاح. لكنه لم يجد أي شيء حتى اضطر في النهاية إلى إقناع نفسه أنه تعثر في ساقه. وضع رأسه على الأسمنت وأغمض عينيه.

استيقظ على صوت رنين الهاتف مرة أخرى. جلس ونظر إليه عبر الغرفة. شبح نور بارد رقص في جوانب النافذة باتجاه الشرق. حاول استيعاب ما إذا كان سمع الجرس بالفعل، أو أنه كان يحلم فقط. عندما انطلق الرنين مرة أخرى بصوت أعلى نهض فيني، ثم انتظر أن تتوقف الأرض عن الدوران تحت قدميه، كان الأمر أشبه بالوقوف على سرير بمرتبة مائية. رن الهاتف للمرة الثالثة، وانتفض المصفِّق مع الأجراس. كان للواقع المدوي للصوت أثر منبه، أعاده إلى جسده.

اتجه إلى الهاتف وحمل السماعة ووضعها على أذنه وقال: «مرحبًا؟».

سمع هسهسة ثلجية ثابتة، ثم قال الصبي على الطرف الآخر: «جون».

كان صوت الاتصال ضعيفًا جدًّا، وكأن المكالمة واردة من الجانب الآخر من العالم.

كرر الصوت: «اسمع يا جون، سيحدث اليوم».

سأل فيني: «مَن هذا؟».

وأجاب الصبي: «لا أتذكر اسمي، إنه أول شيء تفقدُ ذكراه».

- تفقد ذكراه متى؟

- أنت تعرف متى.

اعتقد فيني لوهلة أنه تعرَّف على الصوت، على الرغم من أنهما تحدثا مع بعضهما بعضًا مرة واحدة فقط.

سأل: «بروس؟ بروس ياmادا؟».

- مَن يعرف! لا يهم.

رفع فيني عينيه إلى السلك الأسود المتجه إلى الحائط، وحدق إلى المكان الذي انتهى فيه بكومة من الأسلاك النحاسية المقطوعة. لم يكن متصلًا بأي شيء، وعرف أن السؤال -بالفعل- لا يهم.

سأل فيني: «ما الذي سيحدث اليوم؟».

- كنت أتصل لأخبرك بأنه ترك لك طريقةً لمقاتلته.

- أي طريقة؟!

- أنت تمسك بها.

أدار فيني رأسه ونظر إلى السماعة في يده. من سماعة الأذن، التي لم تعد موضوعة على أذنه، سمع هسهسة ساكنة بعيدة وصوت الفتى الميت الخافت يقول شيئًا آخر.

أعاد وضع جهاز الاستقبال على أذنه ليسأل: «ماذا؟!».

قال بروس: «رمل، اجعلها أثقل. ليست ثقيلة بما يكفي. هل فهمت؟».

- هل رن جرس الهاتف لأي من الأطفال الآخرين؟

قال بروس ضاحكًا بنبرة ناعمة: «لا تسأل لمن يرن الهاتف».

ثم قال: «لم يسمع أحد منا. رَنَّ، لكن لم يسمعه أحد منا. أنت فقط. يجب على الشخص أن يبقى هنا لفترة، قبل أن تتعلم كيف تسمعه. أنت الوحيد الذي بقي كل هذا الوقت. لقد قتل الأطفال الآخرين قبل أن يتعافوا، لكنه لا يستطيع قتلك، ولا يمكنه حتى النزول إلى الطابق السفلي. يجلس شقيقه طوال الليل في غرفة المعيشة لإجراء مكالمات هاتفية، شقيقه مدمن الكوكايين الذي لا ينام أبدًا. يكره ألبرت ذلك، لكنه لا يستطيع إجباره على المغادرة».

- بروس؟ هل أنت هناك حقًّا أم أنني أفقد عقلي؟

أجاب بروس: «ألبرت يسمع الهاتف أيضًا».

وتابع كما لو أن فيني لم يقل شيئًا: «في بعض الأحيان حين يأتي إلى الطابق السفلي، نتصل به، اتصالات خداعية».

قال فيني: «أشعر بالضعف طوال الوقت ولا أعرف ما إذا كان بإمكاني محاربته مع ما أشعر به».

- سوف تفعلها، ستكون قذرًا. أنا سعيد لأنه أنت. هل تعلم؟ لقد وجدت البالونات حقًا يا جون. سوزانا رأت البالونات.

- سوزانا رأتها؟!

- اسألها عندما تعود إلى المنزل.

كانت هناك نقرة. انتظرَ فيني صوت طنين، لكن لم يكن هناك أي طنين.

***

8

بدأ ضوء بلون القمح يتدفق إلى الغرفة عندما سمع فيني صوت التَرباس المألوف. كان ظهره إلى الباب، وكان راكعًا في زاوية الغرفة، في المكان الذي تحطم فيه الأسمنت لتظهر الأرض الرملية تحته. ظل لدى فيني الطعم المر النحاسي القديم بفمه، نكهة مثل الطعم السيئ لصودا العنب. أدار رأسه لكنه لم ينهض، حاجبًا بجسده ما في يديه.

ذُهل لرؤية شخص ما بدلًا من ألبرت، صرخ، وقفز على قدميه بلا ثبات.

كان الرجل في المدخل صغيرًا، وعلى الرغم من أن وجهه كان مستديرًا وممتلئًا، فإن بقية جسده كان صغيرًا جدًّا على ملابسه، سترة عسكرية مجعَّدة، وسترة فضفاضة محبوكة. شعره الأشعث تراجع عن منحنى جبينه ليعطي رأسه شكلًا بيضاويًا. كشفت إحدى زوايا فمه عن ابتسامة ساخرة غير مصدقة.

قال شقيق ألبرت: «اللعنة».

بقي يحدق إلى فيني: «كنت أعرف أنه كان لديه شيء لا يريدني أن أراه في الطابق السفلي، لكنني... أعني... بحق كل اللعنات!».

تقدم فيني تجاهه مترنِّحًا، متفوِّهًا بمزيجٍ من كلام يائس وغير متماسِك. مثل الأشخاص الذين علقوا ليلة في المصعد، وأُطلِق سراحهم أخيرًا: «الرجاء... مساعدة... أمي... في الاتصال... بالمساعدة، اتصل بأختي!».

قال الأخ: «لا تقلق، لقد رحل. أنا فرانك. مهلًا، اهدأ. الآن أعرف لماذا كان خائفًا بشأن استدعائه. كان قلقًا من أن أجدك في أثناء وجوده بالخارج».

خلفه، في الضوء القادم من الأعلى. تقدم ألبرت حاملًا بلطة، مريحًا إياها على كتف واحدة كمضرب بيسبول بينما استمر شقيقه في الكلام غير واعٍ بما يحدث، لم يسمع الخطوات، لم يدرك وجود ألبرت حين قال: «مهلًا، هل ترغب في معرفة كيف وجدتك؟».

وحين صرخ فيني: «لا لا لا لا لا!».

تجهمت تعابير وجه الشقيق مجيبًا: «بالتأكيد، أيًّا يكن. سأخبرك في وقت لاحق. كل شيء سيكون على ما يرام الآن».

بقوة أنزل ألبرت البلطة على مؤخرة جمجمة أخيه الأصغر. ارتطمت مُصدِرة صوتًا صلبًا ومبتلًّا، قوة الاصطدام نثرت الدماء على وجه آل، بينما ترنح فرانك إلى الأمام، البلطة عالقة برأسه، يدا ألبرت ما زالتا حول المقبض. حين سقط فرانك أخيرًا سحب آل معه.

ضرب ألبرت أرضية القبو بركبتيه، مطلِقًا نفسًا حادًّا من خلال أسنانه المضغوطة. انزلق مقبض البلطة من يديه وسقط شقيقه على وجهه بضربة ثقيلة خاوية. تجهم ألبرت، ثم أطلق صرخة مخنوقة، محدقًا إلى أخيه بالبلطة في رأسه.

وقف فيني على بعد متر، يتنفس بسرعة، ممسكًا بسماعة الهاتف بيد واحدة، باليد الأخرى التف السلك الأسود، الذي كان يربط جهاز الاستقبال بالهاتف. كان مضطرًّا إلى مضغه بأسنانه حتى يفصله عن الجسد، السلك نفسه كان مستقيمًا، لم يكن يتلوى كحال الهواتف القديمة، كان أحدث.

لفَّه حول يده اليمنى ثلاث مرات ووقف أمام ألبرت الذي قال بصوت متقطع مختنق: «أترى هذا؟ هل ترى ما جعلتني أفعل؟».

ثم رأى ما كان فيني يحمله، وتحولت نظراته إلى الارتياب.

- ماذا بحق الله فعلت بالهاتف؟

تقدم فيني نحوه ووجَّه جهاز الاستقبال بضربة قوية إلى أنف آل. كان قد حل قطعة الاستقبال الصغيرة بالأسفل وملأ السماعة الجوفاء بالرمال، ثم ثبَّت قطعة الفم السفلى مرة أخرى لتظل الرمال في مكانها. أصاب أنف ألبرت سامعًا طقطقة هشة مثل كسر البلاستيك، فقط. الصوت الذي سمعه لم يكن كسر بلاستيك. أصدر الرجل السمين صوتًا، صراخًا خانقًا، وانفجر الدم من أنفه، رفع يده، ضربه فيني بجهاز الاستقبال وسحق أصابعه.

أسقط ألبرت يده المحطَّمة جواره ونظر إلى الأعلى، وصوت حيواني يرتفع في حلقه.

ضربه فيني مرة أخرى لإسكاته، وضرب منحنى جمجمته العاري من جديد بالسماعة وكأنها هراوة، صدر صوت كالطرق، طار رذاذ من حبات الرمال متلألئًا في ضوء الشمس.

صارخًا، دفع الرجل السمين نفسه عن الأرض، مذهولًا تحرك إلى الأمام، لكن فيني قفز إلى الخلف أسرع بكثير من ألبرت ليضربه عبر الفم، بقوة كافية ليدير رأسه نصف دائرة، ثم ضربه على ركبته لإسقاطه.

سقط آل، لوَّح بذراعيه، أمسك فيني من عند الخصر وسحبه إلى الأرض، ثم هبط بجسده على ساقَي فيني. كافح فيني ليخرِج نفسه من تحته. رفع الرجل السمين رأسه، والدم يسيل من فمه، وأنين غاضب يتصاعد من مكان ما في أعماق صدره. ظل فيني يحمل جهاز الاستقبال في يده، وثلاث حلقات من السلك الأسود في اليد الأخرى. جلس قاصدًا أن يضرب ألبرت بجهاز الاستقبال من جديد، لكن عوضًا عن الضربة فعلت يداه حركة أخرى بدلًا من ذلك. وضع السلك حول حلق الرجل السمين وشده بإحكام. عقد معصميه خلف رقبة آل وهو يسحب. مد آل يده إلى وجهه لخدشه. شعر فيني بجلد خده الأيمن ينسلخ، لكنه سحب السلك بقوة أكبر حتى خرج لسان آل من فمه.

عبر الغرفة، رن جرس الهاتف الأسود. اختنق الرجل السمين. توقف عن خدش وجه فيني ووضع أصابعه تحت السلك حول حلقه. كان بإمكانه استخدام يده اليسرى فقط، لأن أصابع يده اليمنى كانت محطَّمة، منحنية في اتجاهات غير طبيعية.

رن الهاتف مرة أخرى.

تحركت نظرة الرجل البدين نحوه، ثم عادت إلى وجه فيني. كان بؤبؤا ألبرت شديدَي الاتساع، لذا تقلصت الحلقة الذهبية لقزحية عينيه إلى لا شيء تقريبًا. صار البؤبؤان الآن البالونات السوداء تحجب توائم شموس.

رن جرس الهاتف ورن. ضغط فيني على السلك. كان تساؤل مرعوب قد حل على قسمات ألبرت التي أصبحت أقرب إلى اللون القرمزي.

ناظرًا إلى فيني، بادله الأخير النظر وهو يقول: «هذا الاتصال من أجلك».

***

في الملعب

يوم الخميس ظهرًا، حضرت كينسينجتون إلى العمل بثقب. لاحظ وايت أنها واصلت إحناء رأسها والضغط داخل فمها بكتلة من المناديل، وفي وقت قصير، كانت الكتلة الصغيرة تخرج ملطَّخة باللون الأحمر الفاتح. بقي وايت قرب الكمبيوتر على يسارها، مراقِبًا من زاوية عينه وسط إعادة فهرسته لمجموعة من شرائط الفيديو بعد إرجاعها. أعادها إلى القائمة بعد تسجيلها بالماسح الضوئي.

في المرة التالية التي أخرجت فيها المناديل من فمها، تمكن من النظر مباشرة إلى الدبوس الفولاذي الصغير المقاوِم للصدأ على لسانها الملطَّخ بالدماء. كان هذا تطورًا مثيرًا للاهتمام في قصة سارة كينسينجتون.

باتت تتحول إلى شخصية ساخطة أكثر فأكثر، بخطوات قليلة ثابتة في كل مرة. عندما بدأ العمل في محل «بيست فيديو» للمرة الأولى، كانت بسيطة ومكتنزة مع شعر بني قصير، وعينين متقاربتين صغيرتين. تتجول في المكان بتعبيرات وجه وتصرفات فظة يتميز بها أولئك الذين اعتادوا كراهية الآخرين لهم. كان لدى وايت تجربة مشابهة من الرهاب الاجتماعي، لذا ظن أنهما ربما سينسجمان معًا، لكنهما لم يفعلا، تتحاشى النظر إليه كلما استطاعت، تتظاهر بعدم سماعه حين يتحدث. بعد وقت حين بدأ يشعر أن التعرف عليها يستهلك مجهودًا أكبر من اللازم، تركها تكرهه وتنبذه.

في أحد الأيام، جاء رجل كبير إلى المتجر، بدا كمسخ الكرنفالات، في قرابة الأربعين من العمر، ياقة قميصه مرفوعة كأذنَي كلب، وطوق أسود يتدلى من عنقه. أراد نسخة من «سيد ونانسي»، طلب من كينسينجتون مساعدته في العثور عليها وتجاذبا أطراف الحديث لفترة. ضحكت كينسينجتون بإشراق على كل شيء قاله، وحين جاء دورها في الحديث، خرجت من فمها الكلمات في اندفاع حماسي صاخب. شعر بالغرابة لتحوُّل شخصيتها تمامًا من الداخل إلى الخارج هكذا أمام شخص ما.

ثم حين عاد وايت للعمل في اليوم التالي، كان الاثنان في الجانب البعيد عن العين من المتجر، أصابعهما متشابكة، كينسينجتون مُثبَّتة إلى الحائط، تدير لسانها بجنون في فم الغريب. الآن بعد بضعة أشهر صار شَعر كينسينجتون بلون صارخ قريب من الأحمر النحاسي، تنتعل الأحذية الضخمة المميزة لقائدي الدراجات النارية، وعيناها مزينتان بظلال ذات درجات داكنة. لكن الثقب على لسانها كان جديدًا تمامًا.

سأل وايت: «لِم ينزف هكذا؟».

وأجابت: «لأنني حصلت عليه للتو».

قالت كلماتها بفظاظة ودون النظر إليه، لم يجعلها الارتباط دافئة ومعبِّرة، كانت لا تزال عابسة وفظة حين يحدِّثها وايت، تتجنبه كما لو كان الهواء حوله سامًّا. استمرت في كرهه لأسباب لم يستطع استنتاجها أو تحديدها قط.

قال وايت: «اعتقدت أنه قد علق في سَحَّابِه أو شيئًا من هذا القبيل».

ثم أضاف: «أعتقد أنها واحدة من الطرق لإبقائه مهتمًّا بك. لن يتسكع حولك بسبب مظهرك الجميل إلى الأبد».

كان رد فعل كينسينجتون غريبًا للغاية حتى إنه صدمه، نظرت إليه بعينين مرعوبتين وبائستين، ذقنها يرتجف، وقالت بصوت كاد ألا يتعرف عليه: «اتركني وشأني».

لم يحب وايت الشعور بالشفقة تجاهها فجأة. تمنى لو لم يقل أي شيء على الإطلاق، حتى لو كان هو من استُفِز. التفتت مبتعدة عنه، وبدأ في السير نحوها معتقدًا أنه سيبقيها هنا، حتى يتمكن من اكتشاف طريقة مناسبة للاعتذار لها دون أن يقول كلمة آسف. لكنها استدارت إلى الخلف فجأة ناظرة

إليه بعينين دامعتين، تمتمت بشيء، لم يلتقط منه سوى كلمة «متخلف» ثم شيء عن الجهل بالقراءة، لكن ما سمعه كان أكثر من كافٍ.

شعر ببرد مفاجئ وألم غاضب في صدره حين قال: «افتحي فمك مرة أخرى وسأنتزع هذا الدبوس منه مباشرة، أيتها العاهرة».

لمعت عينا كينسينجتون بالغضب. الآن عادت إلى الفتاة التي اعتادها، كانت تتحرك باتجاه الجزء الخلفي من المتجر. انتابه شعور ممرِض مختلِط بالمفاجأة حين أدرك أنها كانت متوجهة مباشرة إلى مكتب السيدة باديا لتشي به. قرر أخذ استراحة، أمسك بسترته العسكرية واندفع عبر الأبواب الزجاجية، أشعل سيجارة ووقف مستندًا إلى جدار الجص في الخارج، كتفاه منحنيتان، يدخن وهو يرتجف بينما يحدق عبر الشارع باتجاه متجر «ميلر للمستلزمات الإلكترونية».

شاهد وايت السيدة بريزار وهي تركن سيارتها الضخمة في ساحة انتظار ميلر، كان بصحبتها ابناها في السيارة. عاشت السيدة بريزار في نهاية شارعه في منزلٍ بلون الحليب المخفوق بالفراولة. عمل بقص العشب في مرجها قبلًا، ليس في الفترة الأخيرة، ولكن قبل بضع سنوات، عندما كان يشذب مروج الناس.

نزلت السيدة بريزار وتحركت بخفة نحو الأبواب الإلكترونية. تركت السيارة تعمل. كان المكياج على وجهها شديد السماكة، لكن مظهرها ظل حسنًا، بل وجذابًا. شيء ما في الكيفية التي بدا عليها فمها، لديها شفة سفلية ممتلئة ومثيرة أحبها وايت دائمًا. كان تعبيرها، عندما دخلت إلى المتجر، خاويًا وآليًّا.

تركت ولدًا في المقعد الأمامي وآخر في الخلف مثبَّتًا في مقعد الأطفال. الصبي في الأمام هو باكستر، ولم يعلم وايت لماذا يتذكر أنه كان نحيفًا وطويلًا، ولديه بِنية دقيقة ورثها من والده، من مكانه لم يستطع رؤية الطفل الآخر في مقعد الأطفال في الخلف، مجرد خصلات من شعر داكن وزوجين من اليدين الممتلئتين.

بمجرد أن دخلت السيدة بريزار إلى المتجر، التف الصبي الأكبر -باكستر- لينظر إلى الخلف، كان ممسكًا بحلوى تويزلر، ملوِّحًا بها أمام أخيه الرضيع. وحين حاول الطفل الوصول إليها، أشاح باكستر بيده بعيدًا عن متناول

الصغير، ثم عاد ليقرِّبها مرة أخرى، حين رفض شقيقه اللعب ضربه باكستر بها.

استمرت اللعبة على هذا المنوال لفترة، حتى توقف باكستر لفك غلاف تويزلر وفتح أحد طرفيه بفمه للحصول على الحلوى بكَسَل. اعتمر قبعة توين سيتي بيتزا، فريق وايت القديم. حاول وايت معرفة ما إذا كان باكستر قد صار كبيرًا بما يكفي للعب في دوري الناشئين. لم يبدُ كبيرًا، لكن ربما يسمحون لهم بالاشتراك في سن أصغر الآن.

كان لدى وايت ذكريات طيبة عن دوري الناشئين. في العام الماضي مع وايت في فريق توين سيتي، كاد أن يسجِّل رقمًا قياسيًّا في الدوري للقواعد المسروقة. كانت واحدة من اللحظات القليلة في حياته عندما كان يعرف على وجه اليقين أنه أفضل في شيء ما من أي شخص آخر في مثل عمره. بحلول نهاية الموسم، كان لديه تسع سرقات إجمالًا، ولم يُمسَك به إلا مرة واحدة.

دفعه رامٍ أشول بوجه حزين للتقدم أولًا، قبل حتى أن تتاح لوايت فرصة لوضع قدميه تحته، وفي الحال كان يتسابق ذهابًا وإيابًا حول الملعب، بينما تحرك رجل القاعدة الأول والثاني، مغلقين الطريق من كلا الجانبين، متبادلين الكرة برفق ذهابًا وإيابًا بينهما. حاول وايت، في النهاية، أن يضرب للمرة الثانية، على أمل أن ينزلق تحت العلامة، ولكن بمجرد اتخاذه للقرار، أدرك أنه القرار الخاطئ، وشعر باليأس، راكضًا نحو ما لا مفر منه. عرف اللاعب الثاني في القاعدة، شاب يُدعى تريت ريندل، نجم الفريق الآخر والذي ظل مزروعًا في الطريق، في انتظاره وقدماه مفتوحتان، ولأول مرة تذكر وايت، بدا أنه بغض النظر عن السرعة التي ركض بها لم يكن يقترب من المكان الذي يتجه إليه. لم يتذكر في الواقع سوى أنه ركض، والطريقة التي وقف بها ريندل في طريقه، منتظرًا وعيناه شقَّان ضيقان.

كان ذلك في نهاية الموسم تقريبًا، وبقي وايت بلا ضربات في آخر مباراتين له، وتخلَّف عن النتيجة بقاعدتين مسروقتين. لم تُتَح له الفرصة قط لمعرفة ما كان ليفعل في المدرسة الثانوية. لم يلعب في مباراة واحدة أخرى، وظل دائمًا تحت المراقبة الأكاديمية أو التأديبية. في منتصف عامه الأول، شُخِّصت حالته بإعاقة في القراءة، واجه وايت مشكلة في ربط المعاني معًا عندما كان طول الجملة يزيد على أربع أو خمس كلمات، وكان لسنوات يجد

صعوبة في تفسير أي شيء أطول من عنوان الفيلم، انضم إلى برنامج علاجي مع مجموعة من المعاقين ذهنيًا.

عُرف البرنامج باسم «الأدوات الإضافية»، ولكنه حمل في المدرسة مجموعة من الألقاب الأخرى كاللعاب الإضافي السائل، الأغبياء الإضافيين. صادف وايت بعض الكتابات على جدران حمام الرجال أكثر من مرة حوَّلت الاسم إلى نسخة أكثر قذارة.

أمضى سنته الأخيرة مهمَّشًا، تحاشى النظر إلى الناس عندما سار بجانبهم في القاعة، ولم يعد للعب البيسبول. من ناحية أخرى، ضرب تريت راندل كل الضربات الممكنة، وصل إلى النهائيات في الجامعة، قاد الفريق في بطولتين إقليميَّتين، كان الآن شرطي إنقاذ مدنيًّا، يقود سيارة كراون فيكتوريا، متزوجًا من إلين مارتن، وهي شقراء بيضاء جليدية، وبلا شك الأجمل بين كل المشجِّعات التي حكت الإشاعات عن مضاجعة تريت لهن.

***

خرجت السيدة بريزار بعد أن قضت في الداخل نحو الدقيقة، وخرجت دون شراء أي شيء. أمسكت بسترتها بإحكام على يدها في مواجهة الرياح. مرت عيناها عليه مباشرة، لم تتعرف عليه ولا بدا عليها حتى أنها لاحظت وجوده. جلست على المقعد الأمامي، أغلقت الباب، تراجعت بسرعة حتى إن الإطارات صرخت قليلًا على الأسفلت.

لم تكن قد نظرت إليه كثيرًا عندما كان يقص العشب أيضًا. تذكر ذات مرة، بعد الانتهاء من تقليم فناء منزلها، سمح لنفسه بدخول المنزل عبر الباب الزجاجي المنزلق، إلى غرفة المعيشة. استمر في قطع حشيش مرجها طوال الصباح، كانت ثرية، زوجها مدير تنفيذي في شركة تسوُّق عبر نطاق هائل، ومرجها هو الأكبر في الشارع كله. كان وايت مصابًا بحروق الشمس والحكة، والعشب عالقًا في وجهه وذراعيه. وهي، هي كانت على الهاتف تتحدث. وقف وايت داخل الباب منتظرًا منها أن تتعرف عليه وتعترف بوجوده.

أخذت وقتها، جالسة إلى مكتب صغير، تدير خصلة من شعرها الأصفر بإصبع واحدة، تتأرجح في كرسيها، تضحك بين الحين والآخر. وقد رتبت بطاقات الائتمان أمامها، تحرِّكها بلا وعي بخنصرها، حتى حين سعل لجذب

انتباهها، لم تلتفت لتنظر إليه كثيرًا. انتظر لمدة عشر دقائق كاملة حتى أنهت المكالمة واستدارت لتواجهه.

فورًا أخبرته أنها كانت تراقبه في أثناء عمله، لم تدفع له مقابل التحدث إلى كل من مر على الرصيف، كما أنها سمعته يمرِّر الجهاز على صخرة، وإذا كُسرت شفرة جزازة العشب، فستتأكد من أنه هو من سيدفع ثمن آلة جديدة. عمله وفَّر له ثمانية وعشرين دولارًا. أعطته ثلاثين وقالت إنه محظوظ لأنه حصل على بقشيش على الإطلاق. عندما خرج، كانت قد عادت للضحك على الهاتف مرة أخرى، محرِّكة بطاقات الائتمان، صانعة بها نمطًا يبدأ بالحرف p.

أوشكت سجائر وايت على الانتهاء، لم يعد بحوزته الكثير لكنه قرر تدخين واحدة أخرى على أي حال، واحدة أخرى ثم سيعود إلى الداخل، كان هذا عندما فُتح الباب خلفه لتخرج السيدة باديا وهي ترتدي فقط صديريًّا أسود وقميصًا أبيض عليه بطاقة الاسم، بات باديا، مديرة. متجهمة ومعانِقة نفسها اتقاءً للبرد.

بدأت السيدة باديا: «أخبرتني سارة بما قلته».

أومأ وايت، وانتظر. أحب السيدة باديا أحيانًا. كان يسهل خداعها.

قالت: «لماذا لا تذهب إلى المنزل، وايت؟».

حرك مؤخرته على السطح الجص الأسود وأجاب: «تمام. سأعود وأقضي ساعاتي التي أضعتها اليوم، غدًا، لأنها لا تكون هنا غدًا».

أشار برأسه نحو المتجر في حين قالت السيدة باديا: «لا، لا تعد غدًا، عد يوم الثلاثاء القادم لاستلام آخر شيك لك».

استغرق الأمر منه لحظة لفهم ما تقول، ثم حين فهم أخيرًا، بدأت حرارة غير صحية تتصاعد إلى وجهه، كانت السيدة باديا تتحدث مرة أخرى: «لا يمكنك تهديد زملاء العمل وايت، لقد سئمت حتى الموت من سماع الناس يشتكون منك، سئمت من الشكاوى من حادثة تلو الأخرى».

وجَّهت وجهها ونظرت إلى المتجر: «إنها تمر بوقت عصيب الآن، وأنت هناك تخبرها أنك ستنتزع لسانها».

- لم أقل لسانها، أتريدين معرفة ماذا قالت لي؟

- لا، لكن أخبرني.

لكن وايت لم يرُد، لم يستطع إخبارها بما قالته كينسينجتون، لأنه لم يكن يعلم جميع ما قالته بالضبط، عجز عن تفسير كل كلماتها، لكن حتى لو كان يعرف لم يكن ليشي به للسيدة باديا.

أيًّا كان ما قالته، فقد كان شيئًا حول عدم قدرته على القراءة. حاول وايت دائمًا تجنب الحديث عن المشكلة التي واجهها مع قواعد اللغة والهجاء وكل شيء، كان الموضوع الأكثر إحراجًا بالنسبة إليه، أكثر مما يمكنه تحمله.

حدقت إليه السيدة باديا منتظرة إجابته، وعندما لم يفعل قالت: «منحتك العديد من الفرص بقدر ما استطعت، ولكن في مرحلة معينة، ليس من العدل للأشخاص الذين تعمل معهم، أن تطلب منهم تحمل أفعالك».

حدقت لفترة أطول، وهي تضغط شفتها السفلى بقوة، ثم ألقت نظرة غير مبالية على قدميه، وعندما استدارت بعيدًا قالت: «اربط حذاءك يا وايت».

عادت إلى الداخل ووقف هو هناك، يثني يديه في الهواء البارد. سار ببطء على طول الجزء الأمامي من متجر الفيديو، بالقرب من الزاوية، إلى جانب المتجر الذي لا يمكن رؤيته من الشارع. انحنى وبصق. أخرج سيجارة أخرى من العلبة، أشعلها وسحب أنفاسًا، وانتظر حتى تتوقف ساقاه عن الاهتزاز. اعتقد أن السيدة باديا تحبه. بقي متأخرًا في بعض الأحيان لمساعدتها في إنجاز مهام لم يكن مضطرًّا إلى فعلها لأنه كان من السهل التحدث إليها. تحدثا عن الأفلام، أو عن عملاء غريبين، واستمعت إلى قصصه وآرائه كما لو كانت مهتمة حقًّا. تلك كانت تجربة غير عادية بالنسبة إليه، أن يكون على علاقة جيدة برئيسه في العمل.

ولكن الآن تبين أنها تحمل الهراء نفسه داخلها، وقت أن يعرض شخص ما شكوى ضده، تواجهه هو كفأس يهوي على حياته دون إنذار سابق، لا محاكمة، لا جهد لسماع القصة كاملة من الأطراف كافة أو الحصول على المعلومة كلها. قالت: «أنا مريضة حد الموت لسماع شكوى الناس ضدك»، لكن أي ناس وأي شكوى؟ قالت: «سئمت من وقوع حادثة تلو الأخرى»، لكن ألم يكن عليها الحكم على كل حادثة بصورة مفردة؟ لتعرف سببها وتقارنها بالأحداث الأخرى كافة كي تفهم الصورة كاملة قبل الحكم ضده؟ ألقى عقب

سيجارته بعيدًا، فارتطم بالأسفلت وقفز الشرر الأحمر. نظر إليها ثم بدأ بالتحرك.

التف حول المبنى، كانت النوافذ مغطاة بالكثير من ملصقات الأفلام. كينسينجتون كانت هناك أيضًا، قاب قوسين أو أدنى منه، تطل من نافذة بين ملصقين، واحد لفيلم «الآخرون»، والثاني لـ «ظلام دامس». بدت عيناها محتقنتين بالدماء، تائهتين قليلًا، خمن أنها اعتقدت أنه ذهب إلى الأبد منذ فترة، بدا هذا واضحًا على تعبيرات وجهها. وقبل أن يتمكن من كبح جماح نفسه، اندفع نحو الزجاج وضربه بإصبعه الوسطى، مباشرة أمام وجهها. قفزت إلى الخلف وفمها مفتوح بصدمة.

دار بعيدًا وتبختر عبر ساحة انتظار السيارات. جاءت سيارة مسرعة فجأة من الطريق، واضطر السائق إلى الضغط على الفرامل حتى لا يصطدم به. أطلق السائق بوقه غاضبًا ورفع وايت شفته العليا بسخرية، ورفع إصبعه الوسطى في وجهه أيضًا. ثم كان خلال لحظات على الجانب الآخر من موقف السيارات، متلاشيًا داخل الغابة مترامية الأطراف.

شق طريقه عبر ممر ضيق. كانت هذه هي الطريقة التي عاد بها دائمًا إلى المنزل عندما لم تكن لديه توصيلة. من بين الأشجار أطلت مراتب متعفنة، مغطاة بالمياه، وأكياس نفايات ممتلئة بالقمامة، أدوات مطبخ عليها علامات الصدأ. كانت هناك نهاية أنبوب يقطر لم يستطع رؤيته، أوله نابع من مغسلة سيارات «كوين بي»، وآخره هنا، ينقِّط بين الشجيرات، تفوح منه رائحة شمع السيارات الرخيص وشامبو السجاد المعطَّر برائحة الكرز القوية. تحرك ببطء أكثر الآن، ورأسه منحنٍ بين كتفيه. انتشر الظلام بتؤدة، الظلام الواشي ببدايات المساء، صار من الصعب رؤية الفروع الأكثر صغرًا في المسار، ولم يرغب في السير عبر أحدها.

انتهى الممر بطريق ترابي ملتف على طول جانب واحد من بركة ضحلة مشهورة بكم الملوِّثات فيها. الممر سيأخذه إلى طريق K 17، وعلى مسافة صغيرة منه، الطريق المؤدي إلى متنزه رونالد ريغان، حيث عاش وايت بمفرده في مزرعة من طابق واحد دون قبو مع والدته، بعد أن هرب والده إلى التلال قبل سنوات. على الرغم من أن الممر كان مليئًا بالأعشاب ومهجورًا، فإن الناس اعتادوا المجيء إلى هناك في بعض الأحيان، للأسباب التي عادة ما تقود الناس إلى مثل هذه الأماكن.

في طريقه إلى عبور آخر شجيرة باتجاه الطريق، توقف وقد لمح سيارةً أعلى مرتفع بسيط.

بحلول ذلك الوقت، خلقت الظلال تحت الأشجار ظلامًا دامسًا، أبعد بضع درجات فقط من سواد الليل الكامل، على الرغم من أنه عندما نظر مباشرة إلى الأعلى كان لا يزال بإمكانه رؤية بعض الألوان في السماء، لون بنفسجي باهت يتحول إلى أصفر مشمشي. لم يتعرف على السيارة حتى اقترب منها. كانت عربة السيدة بريزار، والباب الجانبي للسائق مفتوح.

تردد وايت على بعد خطوات قليلة منها، الهواء عالق برئتيه بغرابة والرياح تصر قرب أذنيه بريبة. في البداية اعتقد أن السيارة كانت فارغة؛ لم يصدر عنها أي صوت، باستثناء بعض أصوات التكتكة الناعمة أسفل غطاء المحرك، حيث كان المحرك يبرد، ثم رأى الطفل ذا الشعر الأسود البالغ من العمر أربع سنوات في المؤخرة، لا يزال مثبَّتًا بمقعد الطفل. استقر ذقن الصبي على صدره وعيناه مغمضتان، بدا نائمًا.

بحث وايت بعينيه عن السيدة بريزار، وباكستر، مَسَح الأشجار حتى حافة البركة. لم يستطع أن يتخيل لماذا يترك أي شخص الصبي نائمًا هكذا. ولكن بعد ذلك، عندما نظر إلى السيارة مرة أخرى، رأى السيدة بريزار. كانت في مقعد السائق، لكنها منحنية، بحيث لم يظهر من فوق عجلة القيادة سوى مقدمة رأسها الأشقر اللامع.

مضت لحظة قبل أن يتمكن من التحرك، وجد صعوبة في أخذ أي خطوة إلى الأمام من جديد. شعر باضطراب عارم خلقه المشهد أمامه، دون أن يقدر على تحديد السبب. أخافه شكل الطفل الصغير النائم في المقعد الخلفي، والذي بدا وجهه السمين في نور الغسق، مكلَّلًا بزرقة باهتة.

اقترب بحرص مرة أخرى إلى جانب السيارة، لكن ما رآه شلَّه، سحب كل الهواء إلى خارج رئتيه. كانت السيدة بريزار تتأرجح بخفة جيئة وذهابًا، حركة بالكاد محسوسة، وباكستر في حضنها. كانت عيناه مفتوحتين ومحدقتين وقد اختفت القبعة عن رأسه، مفقودة بمكان ما. بدت شفتاه الحمراوان الزاهيتان كأحمر الشفاه، ورأسه المائل إلى الخلف جعله يظهر بمظهر المراقِب، لوايت.

رأى وايت الشق الذي قطع حلقه بالكامل أولًا، خط أسود لامع يشبه خطاف السمك. كان هناك جرح آخر في خده، بدا وكأنه عَلَق أسود يزحف على وجه شديد البياض.

كانت عينا السيدة بريزار مفتوحتين على مصراعيهما أيضًا، حمراوين وممتلئتين بالدموع، ومع ذلك لم تصدر أي صوت وهي تبكي. رأى أربع مسحات طويلة من الدم على جانب وجهها، علامات تركتها أصابع طفل. أخذت نفسًا طويلًا مرتجفًا تلو الآخر.

ظلت تهمس مع كل زفير «يا إلهي! باكستر، يا إلهي!».

أخذ وايت خطوة إلى الوراء، مبتعدًا دون وعي، وحطت قدمه على الغطاء البلاستيكي لكوب صودا ملقى أرضًا، سمعها تنشق تحت كعبه. انتفضت كتفا السيدة بعنف كرد فعل والتفتت محدقة إليه بجموح.

بصوت بالكاد تعرف عليه قال: «سيدة بريزار».

كان يتوقع أن تبكي وتصرخ، ولكن عندما تحدثت كان ذلك بصوت خافت: «ساعدنا من فضلك».

لأول مرة لاحظ أن حقيبتها ملقاة على الأرض، بالقرب من باب السيارة، انسكبت بعض المحتويات في الوحل.

قال: «سأذهب للعثور على شخص للمساعدة».

كان قد التفت بالفعل، انحنى خصره مستعدًّا للذهاب، يستطيع الوصول إلى طريق 17k في دقيقة، يمكنه إيقاف أي سيارة عابرة.

لكن السيدة قالت بنبرة استعجال مفاجئة خائفة: «لا! لا لا تذهب، أنا خائفة، لا أعرف أين يمكنني الذهاب. قد يكون هنا في مكان قريب، ربما ذهب فقط لينظف نفسه».

وألقت نظرة مذعورة باتجاه البحيرة.

سأل وايت: «مَن؟».

لم تجبه، لكنها قالت: «لديَّ هاتف نقال، لا أعرف أين هو. أعتقد أنه أسقطه أرضًا جوار السيارة، يا إلهي الرحيم! هلَّا بحثت عنه؟! أرجوك، يا الله لا تجعله يعود!».

شعر وايت بجفاف فمه وتلوَّت أحشاؤه، لكنه تحرك إلى الأمام تلقائيًا باحثًا بعينيه في المنطقة المحيطة بالحقيبة التي سقطت. جثم جزئيًا، حتى يتمكن من رؤية الأرض بشكل أفضل، ولأنه سيكون غير مرئي لأي شخص يقترب من السيارة من الجانب الآخر، الجانب المواجه للبركة. سقطت بعض الأوراق ووشاح من حقيبتها. أصدر الوشاح الحريري ذو اللونين الأصفر والأحمر لمعانًا خافتًا في بركة الماء على الأرض.

أمسك بالحقيبة وفتحها وهو يسأل: «في حقيبتك؟».

- لا أعرف، محتمَل.

بحث فيها، وجد المزيد من الأوراق، أحمر الشفاه، فرشاة دمج، لا هاتف. أسقط الحقيبة ونظر إلى السيارة، كانت رؤية التفاصيل صعبة في ظلال المساء الأولى.

سأل وايت ونبضه يدق في حلقه: «ذهب تجاه الماء؟».

- لا أعرف، جاء من اتجاه إشارة المرور، حين كنت أنتظر تحولها إلى اللون الأخضر على الناصية، قرب الدوران، قال إنه لن يؤذينا إن فعلت ما يقول. يا الله يا باكستر! أنا آسفة، أنا آسفة للغاية لأنه آذاك، آسفة لأنه جعلك تبكي.

حين ذكرت اسم باكستر ألقى وايت نظرة مرتعبة عليه بنفسه، كان عاجزًا عن منع نفسه من النظر إلى الصبي، عاجزًا عن كبح الدافع المرعب لتفقُّده حين ذُكِر اسمه. فوجئ بمدى قرب وجه باكستر من وجهه في هذه الوضعية، كان رأس الصبي على فخذ أمه على أقل من متر واحد منه، أدرك وايت أنه كان يرى وجه باكستر مقلوبًا رأسًا على عقب، والطعنة الداكنة في خده، وشفتاه التي تشبه شفتَي المهرج الحمراوين. أدرك وايت فجأة أنها كانت بهذا اللون بسبب حلوى تويزلر، وليس الدم. الفكرة جاءت في ومضة مفاجئة. العينان العريضتان الميتتان حدقتا إليه بهدوء. حدق باكستر بصمت إلى شيء ما فوق كتف وايت ثم ارتعشت العينان قليلًا وثبتتا عليه.

صرخ وايت. ترنح واقفًا على قدميه.

- هو ليس... ليس...

لهث محاولًا امتصاص الهواء إلى داخل رئتيه، كان الحصول على ما يكفي من الأكسجين للحديث صعبًا وهو يصرخ: «الفتى ليس...».

ابتلع لعابه محاولًا مرة أخرى، لكنه توقف. لم يكن في الزاوية المناسبة من قبل لرؤية يد السيدة بريزار اليمنى، والتي استقرت على ساق باكستر مغلقة قبضتها حول مقبض سكين.

ظن وايت أنه تعرَّف على السكين، كان لديهم علبتان من البلاستيك الشفاف لها في متجر الإلكترونيات، على المنضدة على يسار الباب بعد صف رفوف السترات المموهة. تذكر وايت واحدة على وجه الخصوص، بشفرة طولها 10 بوصات، وحافة واحدة مسننة، والفولاذ مصقول ليسطع كالمرآة. رآها وايت قبلًا، ربما أيضًا طلب إخراجها من علبة العرض لينظر إليها، كان أي شخص بالداخل سيلاحظها قبل أي معروضة أخرى. تذكر كيف تركت السيدة المتجر صباحًا، كيف حملت معطفها بقوة على إحدى ذراعيها، كيف غادرت بلا حقيبة شراء.

رأته يحدق إليها، أشاحت بنظرها بعيدًا عنه، ثم نظرت إلى السكين وعلى وجهها تعبيرات متحيرة، كما لو كانت لا تعرف كيف وصل هذا الشيء إلى يدها، كما لو أنها لا فكرة لديها عن ماهية هذا الشيء أصلًا.

ثم عادت ونظرت إلى وايت، بنظرة كادت تكون متوسلة: «أسقَطَها، كانت يداه ملطختين بالدماء، وعلقت في باكستر، عندما حاول إخراجها انزلقت من يده، سقطت على الأرض والتقطتها، لهذا لم يقتلني، لأنني كنت أمتلك السكين. لهذا هرب».

كانت يدها المنغلقة حول مقبض السكين ملطخة بشدة بالدماء، اغمَقَّ الدم وتجلط داخل كل أخدود من مفاصل إصبعها والجلد المحيط بإبهامها، واصلت قطرات الدم سقوطها عن سترتها المضادة للماء لتقطر على المقعد الجلدي.

قال وايت: «سأركض لطلب المساعدة».

لكنه لم يكن متأكدًا من أنها سمعته. تحدث بهدوء شديد لدرجة أنه بالكاد سمع نفسه. كان يرفع يديه أمامه، وراحتا يديه إلى الخارج، في إيماءة دفاعية. لم يكن يعرف كم من الوقت كان يرفعها بهذه الطريقة. وضعت قدمًا واحدة على الأرض خارج السيارة، وبدأت في الخروج. أفزعته حركتها المفاجئة وعاد إلى الوراء. كان هناك خطأ ما في قدمه اليمنى، ظل يحاول التراجع، لكنها ثُبِّتت على الأرض بطريقة ما، ولم تتحرك. نظر إلى أسفل في الوقت المناسب

ليرى أنه كان يقف على رباط حذائه المحلول. تأرجح إلى الخلف فاقدًا توازنه ثم سقط إلى الخلف.

جاءت السقطة قوية بما يكفي ليزفر بقوة، تمدد على ظهره عبر سجادة رطبة من الأوراق المتساقطة. حدق إلى السماء، التي أصبحت الآن مصبوغة بلون بنفسجي عميق، وتناثرت أولى نجوم المساء اللامعة هنا وهناك. دمعت عيناه ثم رمش وجلس.

كانت خارج السيارة، على بعد ياردة منه. حملت حذاءه الرياضي في يد والسكين في اليد الأخرى. انخلع حذاؤه مباشرة من قدمه حين وقع. كان في قدمه اليمنى جورب رياضي رمادي فقط، وكان باردًا، في رطوبة الليل الحادة.

قالت السيدة: «لقد أسقطها، الرجل الذي هاجمنا. لن أفعل. أطفالي. لن أوذيهم. أنا التقطتها فقط».

نهض عن الأرض وقفز خطوة بعيدًا عنها، واضعًا وزنًا ضئيلًا على القدم اليمنى، لمنعها من الغرق في هريسة الأوراق الباردة. أراد أن يركض قبل أن تصل إليه. نظر إلى الحذاء الرياضي الممدود نحوه في يدها، ثم إلى السكين، بيدها الأخرى، يدها اليمنى الموضوعة جوارها.

مرة أخرى تابعت نظرته إلى السكين، ثم هزت رأسها نفيًا من جانب إلى آخر: «لن أفعل».

أسقطَت السكين، مدت يدها نحوه بالحذاء: «هاك هو».

اقترب منها خطوة، وأخذ الحذاء، لم تتخلَّ عنه في البداية، ثم فعلت ذلك فقط لجذب ذراعه. غرقت أظافرها في الجانب السفلي الناعم من معصمه، وحفرت بشكل مؤلم في الجلد. أصابته الكيفية التي أمسكته بها فجأة بالذعر، أرعبه مدى إحكام قبضتها عليه.

قالت من جديد: «لم أفعل».

حاول أن يحرِّر ذراعه. كانت يدها الأخرى تشد مقدمة سترته المفتوحة.

لطَّخته بالدماء وقالت: «ماذا سيقول الناس؟!».

في نوبة ذعره، لم يكن متأكدًا من أنه سمعها بشكل صحيح ولم يهتم. أراد فقط أن تتركه. كانت أظافرها تنهش جسده بشكل مؤلم، لكن الأسوأ

من ذلك أنها كانت تنهمر عليه بالدماء، على يده كلها، معصمه وسترته. كان الدم لزجًا ودافئًا بشكل مزعج. ورغب -أكثر من أي شيء- في ألا يصل الدم إلى بشرته العارية. أمسك بيدها اليسرى من معصمها، وحاول إجبارها على تركه، عاصرًا يدها حتى شعر بعظام معصمها تنفصل عن مفاصلها. كانت تنتحب وتقاومه. أغلقت يدها اليمنى على كتفه، وأصابعها تغوص في تجويف عظامه، وضرب ذراعها جانبًا، دفعها، ليس بقوة، فقط لتبتعد إلى الخلف. انفتحت عيناها وأطلقت صرخة مخنوقة ومروِّعة. طارت يدها اليمنى وفجأة كانت تخدش وجهه، شعر بأظافرها وهي تصيبه، وشعر بلسعة الدم الساخنة في جروحه الجديدة.

أمسك بيدها بينما شوَّهت خده، وثنى أصابعها إلى الخلف حتى كادت تلامس ظهر يدها، ثم لكمها بقوة في صدرها حتى سمع الهواء يتدفق منه، وبينما انحنت إلى الأمام ضربها بقوة على وجهها، ضربة شقت مفاصل إصبعه.

ترنحت كالسَكْرَى إلى الأمام وأمسكت بسترته، حين وقعت شدته معها إلى الأسفل، كانت لا تزال تمسكه وأظافرها تمزِّقه.

تعاظمت رغبته في الهروب منها أكثر من أي لحظة مضت، لذا أمسك بعضًا من شعرها وجذب رأسها إلى الوراء بشكل مستقيم، ولفَّه إلى الخلف حتى لا يمكن لرأسها العودة إلى الأمام. لهثت وتركت معصمه وحاولت أن تصفع وجهه فلكمها في حلقها.

اختنقت. ترك شعرها وسقط رأسها إلى الأمام. أمسكت رقبتها بكلتا يديها وجلست هناك على ركبتيها وكتفاها منحنيتان وشعرها يخفي وجهها، تتنفس بخشونة، ثم استدار رأسها. نظرت إلى السكين على الأرض خلفها. أرخت يدها عن رقبتها وبدأت في الوصول إلى السكين، لكنها كانت بطيئة، فدفع نفسه أمامها وانتزعها من الأرض. استدار وحركها في الهواء ليحذِّرها، ليجبرها على الابتعاد.

وقف على بعد أقدام قليلة منها، كان مجهَدًا، يراقبها ويحاول التنفس. حدقت إليه مرة أخرى. كان شعرها على وجهها، لكنها نظرت إليه من خلال الخصل القذرة الملطَّخة بالدم. كل ما كان يراه هو بياض عينيها، تتنفس

ببطء أكثر الآن. بقيا ينظران إلى بعضهما بعضًا بهذه الطريقة ربما لخمس ثوانٍ.

قبل أن تصرخ بصوت أجش: «ساعدوني!».

حدق إليها، صرخت: «النجدة!».

وقفت على قدميها بثبات وهي تنادي للمرة الثالثة: «النجدة!».

آلمه الجانب الأيسر من وجهه حيث خدشته. كان الألم سيئًا بشكل خاص في زاوية عينه.

قال: «سأخبر الناس بما فعلتِه».

حدقت إليه لفترة أطول ثم استدارت وبدأت في الجري وهي تصرخ: «ساعدوني، ليساعدني أحدكم».

عرف أنه إذا ركض خلفها سيصل إليها، لكنه لم يعرف كيف سيجعلها تتوقف إذا لحق بها، لذا تركها تذهب. مشى بضع خطوات باتجاه السيارة، ووضع إحدى ذراعيه على الباب المفتوح، مريحًا بثقله عليه. شعر بالدوار. كانت بالفعل بعيدة عنه الآن في الممر، ظِل مظلم ضمن الظلال الأخرى الباهتة في الغابة.

لفترة قصيرة وقف وايت هناك يلهث، ثم حطَّ بنظراته، ورأى باكستر يحدق إليه، وعيناه كبيرتان ومستديرتان في وجهه النحيف الناعم. رأى وايت، بموجة جديدة من الصدمة، لسان الصبي يتحرك في فمه الأحمر المفتوح، كما لو كانت لديه النية في التحدث.

سقطت معدة وايت، شعر بالضعف في ساقيه، نظر إلى الصبي مرة أخرى، إلى الجرح المائل عبر رقبته، ذلك الشكل الذي يشبه خطاف السمكة الذي بدأ خلف الأذن اليمنى وانحنى إلى أسفل تفاحة آدم. بالنظر إليه مباشرة، استطاع وايت أن يرى الدم يتدفق من هذا الجرح في نبضات بطيئة وسميكة. كان المقعد الموجود تحت رأس باكستر مشرَّبًا به.

دار حول الباب المفتوح ووقف فوق باكستر. نظر ليرى ما إذا كانت مفاتيح السيارة لا تزال في فتحة التشغيل، واعتقد أنه ربما يمكنه فقط قيادة السيارة حتى 17 كيلو، ثم سيجدهم شخص ما، سيعرف أنهم هناك. ثم فكر في النزيف، الشيء الأهم في مثل هذا الموقف هو وقف النزيف، هذا ما تعلَّمه

في دروس الإسعافات الأولية. كان عليه العثور على منشفة وضغطها على الجرح حتى تصل المساعدة، لكن لم تكن لديه منشفة، فقط الوشاح على الأرض جوار السيارة. جثا على ركبتيه جوار الباب المفتوح والحقيبة المقلوبة وأمسك بالوشاح، كان أحد الطرفين غارقًا في الوحل ويقطر، تردد للحظة ثم لف القطع به وضغط عليه، شاعرًا بالدم يضخ عبر رقبة الصبي تحت يده.

كان الوشاح قطعة رقيقة من الحرير شبه الشفافة، مبلَّلة بالفعل من البِركة التي كان نصفه ملقى فيها، وفي لحظة كانت مشبَّعة، والدم يتسرب من يديه إلى داخل أكمامه بطول ذراعيه. تركه، وترك قطعة الحرير تقطر، مسح يديه قسريًّا على قميصه الأمامي. كان باكستر يراقبه بعينين مذهولتين، زرقاوين مثل والدته.

بدأ وايت في البكاء. لم يكن يعلم أنه سيفعل ذلك حتى كان يبكي.

عجز عن تذكر آخر مرة بكى فيها علانية. انتزع بعض الأوراق التي انسكبت من محفظة السيدة بريزار، وحاول ضغطها على الجرح، لكنها كانت عديمة الفائدة أكثر من الوشاح. كانت أوراقًا بيضاء لامعة، ليست ماصة على الإطلاق، عدة صفحات مُدبَّسة معًا، في الغسق رأى وايت أنها كانت كشف حساب بطاقة ائتمان، خُتِمَت بعبارة «نفاد وقت السداد» في الجزء العلوي من الصفحة الأولى، بالحبر الأحمر.

فكر في التخلص مما تبقى في حقيبتها، والبحث عن شيء آخر لاستخدامه كضاغط، ثم نزع سترته، وخلع السترة البيضاء التي كان يرتديها للعمل، رفع السترة وضغطها في الجرح. أمسك بكلتا يديه ودفع الجزء الأكبر من وزنه. كانت السترة بيضاء تقريبًا في الظلام، ولكن بعد ذلك، عندما ضغط عليها، رأى بقعة داكنة تنتشر من خلالها إلى أعلى، النسيج مبلَّل عن آخره. حاول أن يفكر فيما يجب فعله الآن، لكن لم يأتِ شيء إلى ذهنه. ومضت ذكرى كينسينجتون في عقله، وهي تضع المناديل على لسانها، تذكَّر الطريقة التي انتقعت بها المناديل الورقية بالأحمر في كل مرة. كانت فكرة غريبة، ربط كينسينجتون والدبوس في لسانها، بالقَطع الطويل في حلق باكستر. فكَّر أن الصغيرين في السيارة قد ثُقبا هما أيضًا، جسداهما البريئان ممزقان بلا سبب، سوى أن هذا الفعل ناسب شخصًا قريبًا منهما.

ارتفعت يد باكستر من جانبه، كاد وايت يصرخ حين رآها على حافة نظره، شكل أبيض مروِّع ينساب عبر الظلام. اهتزت أصابع باكستر في اتجاه حلقه. وواتت فكرة ذهن وايت. أخذ يد باكستر اليسرى وضغط عليها على الجرح، مد يده إلى داخل السيارة، ووجد يد باكستر الأخرى، ووضعها فوق الأولى. عندما تركه، بقيت يداه فوق السترة المبلَّلة بالدماء، لا تضغطان بقوة، لكنهما بقيتا في مكانهما.

قال وايت: «سأذهب لدقيقة فقط».

ظل يرتجف بعنف.

- سأركض فقط وأجلب أحدهم. سأصل إلى الطريق وسآتي بأحدهم لنأخذك إلى المستشفى. ستكون بخير. فقط أمسك ذلك على رقبتك. ستكون بخير، أعدك.

حدق إليه باكستر بهدوء. بدت عيناه باهتتين، زجاجيتين في مواجهة وايت. وقف على قدميه وبدأ يركض، بضعة أمتار فقط ثم وقف، خلع الحذاء الرياضي الذي ظل بقدمه، ثم بدأ يركض مرة أخرى.

ركض بسرعة إلى مسافة طويلة، وهو يلهث في الهواء البارد الرطب. الصوت الوحيد حوله هو صوت ضربات قدميه الثقيلة على الأرض الصلبة. بدا له أنه كان أسرع يومًا ما حين كان أصغر سنًّا، كان الجري يستلزم مجهودًا أقل، لم يكن قد ابتعد قبل أن يشعر بالعضة الحادة للألم في جانبه. على الرغم من أنه تنفس بقوة، فإنه بدا غير قادر على إدخال كم كافٍ من الهواء إلى رئتيه. ربما كانت السجائر هي السبب.

خفض رأسه، عض شفتيه، محاولًا ألا يفكر في المسافة التي كان ليقطعها لو لم ينَل منه الألم. نظر إلى الوراء واكتشف أنه لم يبتعد كثيرًا، ما زالت السيارة في الأفق. صار يبكي من جديد الآن، ودعواته تخرج منه في رشقات هامسة مع كل مرة يزفر فيها في ظلام فبراير.

- أرجوك يا الله!

ركض وركض لكنه لم يشعر أنه يقترب أكثر من الطريق السريع. كان الأمر أشبه بعودته إلى الملعب مرة أخرى، الشعور نفسه باليأس، بالاندفاع نحو ما لا مفر منه.

بكى وصاح: «أرجوك يا الله، أرجوك، اجعلني أسرع، اجعلني سريعًا كما كنت».

عند المنعطف التالي، ظهر الطريق 17k. ورأى سيارة متوقفة تحت مصباح الشارع في نهاية الممر. كانت سيارة فيكتوريا مع أضواء في الأعلى، سيارة إنقاذ مدني تعرَّف عليها فورًا. شعر وايت بالارتياح، ضحك لمجرد التفكير في أن رؤية راندل ستشعره بهذا الكم من الراحة، أو إن كان هذا راندل تريت أصلًا.

رأى الصورة الظلية للرجل جوار السيارة، واقفًا عند المقدمة، وبلا مزيد من التفكير، لوَّح وايت بذراعيه صارخًا، طالبًا المساعدة.

***

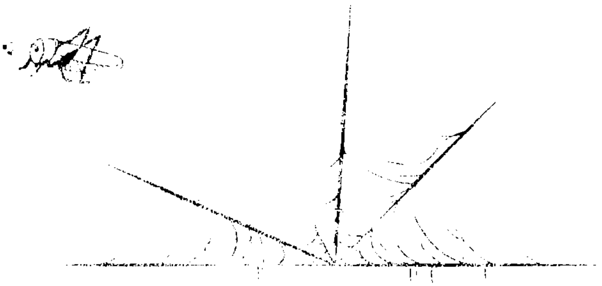

العباءة

كنا صغارًا. لعبتُ دور «السهم الأحمر» وأنا أركض إلى الدردار الميت في زاوية فناء منزلنا للابتعاد عن أخي الذي لم يلعب دور أحد، فقط هو نفسه. أصدقاؤه كانوا على وشك الحضور ورغب في ألا أكون هنا، أن أختفي، لكنني فعلت العكس تمامًا، لم أختفِ.

ارتديت قناعًا وعندما وصل أصدقاؤه إلى البيت أخبرتهم أنني سأكشف عن هويته السرية. صاح بي أنني ميت، أنه سيجعل مني كومة لحم للغداء، ركض خلفي ووقف في الأسفل يرشقني بالحجارة، لكنه كان يرمي مثل الفتيات وسرعان ما صرت خارج نطاق ضرباته.

كان أكبر من أن يتقمص دور الأبطال الخارقين. حدث ذلك فجأة دون سابق إنذار. بعد أن أمضى أيامًا كاملة قبل عيد الهالوين مرتديًا زي «الخط اللامع»، الذي كان سريعًا جدًّا حتى إن الأرض ذابت تحت قدميه في أثناء الركض. انتهى الهالوين، ولم يعد يرغب في أن يصبح بطلًا خارقًا بعد الآن، والأكثر من هذا أنه أراد أن ينسى الجميع أنه كان كذلك يومًا واحدًا، وأراد أن ينسى هو نفسه، لكنني لم أسمح له، لأنني كنت أعلى الشجرة مرتديًا قناعه، وكان أصدقاؤه قادمين.

مات الدردار منذ سنوات. كلما عصف الجو، انتزعت الرياح الأغصان وألقت بها عبر العشب. تشقق اللحاء المتقشر وانكسر تحت كعب حذائي الرياضي. لم يبخل عليَّ أخي في اتباعي حفاظًا على كرامته وكان الهروب منه مُسكرًا.

في البداية تسلقتُ دون تفكير، اندفعتُ مأخوذًا بنشوة تسلق الأشجار، وارتفعتُ مدعومًا بخفة طفل في السابعة، ثم سمعتُ صراخ أخي من الأسفل بأنه سيتجاهلني، وقد دلَّ صراخه على أنه كذب. ثم تذكرت ما دفعني إلى تسلق شجرة الدردار في المقام الأول، واضعًا نصب عيني الفرق الأفقي هناك بالأعلى، الذي شكَّل مكانًا يمكنني الجلوس عليه، وإراحة قدمي، وإثارة حنق أخي ودفعه إلى نوبة من الجنون دون الخوف من أن ينال مني عقابه. رفعتُ العباءة خلفي فوق كتفي وتسلقتُ نحو هدفي.

كانت العباءة قد بدأت حياتها كبطانيتي الزرقاء المحظوظة التي رافقتني منذ كنت في الثانية من العمر. على مر السنين تلاشى اللون الأزرق العميق الداكن إلى اللون الرمادي وكأنه لون حمامة متعَبة. قطعتها والدتي إلى حجم الحرملة وخيطت شكل صاعقة من اللباد الأحمر وسطها، كان مخيطًا عليها أيضًا إحدى شارات البحرية، التي حملت الرقم 9. واحدة من ممتلكات والدي، الشارة التي عادت إلى البيت من حرب فيتنام في علبة متعلقاته الشخصية، أبي الذي تخلف عن العودة مع ممتلكاته. علَّقت والدتي العلم الأسود المميز لوجود شخص أمريكي مفقود في هذا المنزل، وأن عائلته بانتظار عودته. لكن حتى في وقتها، كنت أعلم أن والدي ليس مفقودًا، وأنه لا أحد يحتجزه.

ارتديت العباءة بمجرد عودتي إلى المنزل من المدرسة، أمضغ أطرافها الساتان وأنا أشاهد التليفزيون، أمسح فمي بها بعد العشاء، وفي معظم الليالي كنت أنام ملفوفًا بها. يؤلمني خلع العباءة، أشعر بالعري والضعف دونها. كانت طويلة بما يكفي لإثارة المشكلات إن داست قدمي عليها إن لم أكن حذرًا، لكني كنت حذرًا. وصلت إلى الغصن العالي، وألقيت بقدميَّ وقاطعتهما على جانبيه. لو لم يكن أخي هناك ليشهد ما حدث بعد ذلك، لما صدقت ذلك بنفسي. لاحقًا، سأخبر نفسي أن ما حدث كان مجرد خيال مذعور، الوهم الذي سيطر عليَّ في لحظة من الرعب والصدمة. وقف نيكي على بعد أربعة مترات أدنى مني، متطلعًا إلى وجهي وهو يصف كل ما سيفعله بي عندما أنزل.

رفعت قناعه، مجرد غطاء عين أسود بثقوب، وصحت: «تعال وأمسك بي، أيها الخط. وجدت خطوطًا في ملابسي الداخلية تفوح منها رائحة أفضل منك».

ألقى أخي بالأحجار بشكل سيئ وهو يصرخ: «تمام، أنت الآن ميت».

قلت: «خط، خط، خط».

كنت أصرخ بالاسم ساخرًا، وكأنه وحده سباب. بدأت أزحف على طول الفرع وأنا أردد «خط». وضعت يدي اليمنى على العباءة التي انزلقت عن كتفي. في المرة التالية التي حاولت فيها المضي قدمًا، شدَّتني العباءة وفقدت توازني. سمعت تمزق القماش. أطحت بالغصن بقوة، وكشطت ذقني، وألقيت بذراعي من حوله. غاص الفرع تحتي، ثم وقف، وغاص مرة أخرى، وسمعت صدعًا، طقطقة حادة في هواء نوفمبر الهش.

شحب أخي، ثم صرخ: «إريك، انتظر، إريك! تمسك!».

لماذا طلب مني التمسك؟ كان الفرع ينكسر، كنت بحاجة إلى النزول عنه. هل صُدم من معرفة ذلك؟ أم أن جزءًا منه غير واعٍ أراد رؤيتي أسقط؟ تجمدت، وأنا أكافح عقليًّا للتفكير فيما يجب القيام به، وفي اللحظة التي ترددت فيها، تهاوى الفرع. قفز أخي إلى الخلف، ضرب الطرف المكسور، الذي بلغ طوله المتر، الأرض عند قدميه وتحطم، وتطاير اللحاء والأغصان. تحركت السماء فوقي. تشقلب بطني شقلبات داخلية مقززة.

استغرق الأمر لحظة لتسجيل أنني لم أكن أسقط، أنني كنت أحدق إلى الأرض كما لو كنت لا أزال جالسًا على غصن شجرة مرتفع. ألقيت نظرة عصبية على نيكي. كان يحدق إلى وجهي. كانت ركبتاي مضمومتين إلى صدري، وذراعاي منبسطتين على كلا الجانبين، من أجل التوازن.

طفوت في الهواء ولم يوقفني شيء. تذبذبت إلى اليمين. تدحرجت إلى اليسار. كنت كبيضة لم تسقط تمامًا عن الطاولة.

جاء صوت أخي المتسائل ضعيفًا: «إريك؟».

أجبته بصوتي العادي: «نيكي؟».

هب نسيم من خلال أغصان الدردار العارية. تحركت الحرملة على كتفي.

قال أخي: «إريك، تعال إلى الأسفل هنا».

جمعت أعصابي وأجبرت نفسي على إلقاء نظرة عبر ركبتي على الأرض أسفلها مباشرة. وقف أخي فاردًا ذراعيه إلى السماء، كما لو كان سيمسك بي حين أسقط إلى أسفل، رغم أنه كان بعيدًا جدًّا تحتي، يقف بعيدًا جدًّا عن الشجرة على أمل أنه سيتمكن من الإمساك بي حتى.

لمع شيء على حافة رؤيتي ورفعت بصري. كانت العباءة مثبَّتة حول رقبتي بواسطة دبوس أمان ذهبي، مثبَّت من خلال زاويتين متعارضتين من البطانية، لكن الدبوس كان قد مزق إحدى الزوايا الآن، وعلق من الجانب الآخر دون فائدة. تذكرت الصوت الذي سمعته وأنا أنهار على الفرع، لم يكن هناك شيء الآن يثبِّت العباءة إلى جسدي

هبت الرياح مرة أخرى. أنَّت الشجرة. تسابق النسيم في شعري وانتزع الرداء من ظهري. رأيته يتراقص بعيدًا، كما لو كان يتحرك بواسطة أسلاك غير مرئية. تلاشى دعمي معه. في اللحظة التالية، اندفعت إلى الأمام، واندفعت الأرض نحوي في تسارع شنيع، لم يكن هناك وقت للصراخ.

اصطدمتُ بالأرض الصلبة، وهبطتُ فوق الفرع المحطَّم. ثقب سيخ طويل من الخشب صدري، أسفل عظمة الترقوة. عندما التأمتْ فيما بعد، تركتْ ندبة لامعة على شكل هلال، وهي أكثر الندبات التي حصلت عليها من الحادث إثارة للاهتمام. كُسر عظم فخذي وسُحقتْ ركبتي اليسرى وكُسرتْ جمجمتي في مكانين. نزفتُ من أنفي وفمي وعيني.

لا أتذكر سيارة الإسعاف، على الرغم من أنني سمعت أنني لم أفقد وعيي حقًّا. أتذكر وجه أخي الأبيض والخائف وهو ينحني فوق وجهي، بينما كنا لا نزال على الأرض. كان ردائي بين قبضتيه، يلفه دون وعي صانعًا عُقدًا. إذا كانت لديَّ أي شكوك حول ما إذا كانت مسألة الطفو قد حدثت بالفعل، فقد زالت الشكوك كلها بعد يومين.

كنت لا أزال في المستشفى، عندما ربط أخي العباءة حول رقبته وقفز من أعلى الدرج الأمامي في المنزل. سقط على طول الطريق، ثماني عشرة درجة في المجمل، وضرب السلمة الأخيرة بوجهه. تمكن المستشفى من وضعه في الغرفة نفسها معي، لكننا لم نتحدث.

أمضى معظم اليوم وظهره نحوي، يحدق إلى الحائط. لا أعلم لماذا لم ينظر إليَّ، ربما كان غاضبًا لأن العباءة لم تعمل معه، أو غاضبًا من نفسه لأنه اعتقد أنها ستعمل معه، أو لمجرد أنه سئم من التفكير في كيف أن الأطفال الآخرين سيسخرون منه حين تصل إلى علمهم قصة تحطم وجهه وهو يحاول تقليد سوبرمان، لكن على الأقل استطعت أن أفهم لماذا لم نتحدث.

أغلقوا فكه بالأسلاك. استغرق الأمر ستة دبابيس وعملية جراحية تصحيحية مرتين لإعادة بناء وجهه إلى ما يشبه مظهره السابق، كانت العباءة قد اختفت بحلول الوقت الذي خرج فيه كلانا من المستشفى. هذا ما أخبرتنا به والدتي في السيارة. أخبرتنا أنها وضعتها في سلة المهملات وأرسلتها إلى المكب لتُحرق. لن يكون هناك المزيد من الطيران في منزلنا بعد الآن.

***

كنت طفلًا مختلفًا بعد الحادث. ركبتي اعتادت فقدان قوتها عندما أمشي كثيرًا، عندما تمطر، أو عندما يكون الجو باردًا. أصابتني الأضواء الساطعة بالصداع النصفي. واجهت صعوبة في التركيز لفترات طويلة من الوقت، ووجدت صعوبة في متابعة محاضرة من البداية إلى النهاية، وأحيانًا أنجرف إلى أحلام اليقظة في منتصف الاختبارات. لم أستطع الركض، لذلك كنت ضعيفًا في الرياضيات. لم أستطع التفكير، لذلك كنت أسوأ في العمل المدرسي.

كان من البؤس محاولة مواكبة الأطفال الآخرين، لذلك بقيت في الداخل بعد المدرسة لأقرأ الكتب المصوَّرة. لن يسعني تحديد بطلي المفضَّل لأجلك، لأنني لا أتذكر أيًّا من قصصي المفضَّلة. قرأت القصص المصوَّرة بشكل آلي، دون أي متعة خاصة، أو أي فكرة معينة، أقرؤها فقط لأنني عندما أراها لا يسعني سوى قراءتها. كنت مستعبَدًا من قِبل الأوراق الرخيصة والألوان الباهتة والهويات السرية. كانت المجلات الهزلية مصدر إدمان كالمخدرات، مع صور لرجال يطلقون النار في السماء، ويمزِّقون الغيوم في أثناء مرورهم من خلالها.

شعرت أن قراءتهم مثل الحياة. كان كل شيء آخر خارجهم بعيدًا، خارج مستوى تركيزي، صوت خافت وألوان باهتة أكثر مما يجب.

لم أطِر مرة أخرى لأكثر من عشر سنوات.

***

لم أكن جامعًا للمجلات، ولولا أخي، لكنت تركت رسومي الهزلية في أكوام. لكن نيك قرأها بشكل إلزامي كما فعلت، كان تحت تأثير تعويذتها. لسنوات

احتفظ بها في أكياس بلاستيكية زلقة، مرتَّبة أبجديًّا في صناديق بيضاء طويلة.

ثم في أحد الأيام، عندما كنت في الخامسة عشرة من عمري، وكان نيك قد صار طالبَ ثانوي في مدرسة «باسيس هاي»، عاد إلى المنزل مع فتاة، وهو حدث لم يقع قبلًا. تركها في غرفة المعيشة معي، وقال إنه يريد أن ينزِل حقيبته من الطابق العلوي، ثم ركض إلى غرفتنا وألقى رسومنا الهزلية بعيدًا، كلها، خاصته وخاصتي، ما يقرب من ثمانمائة عدد. ألقى بها داخل حقيبتين كبيرتين ووضعهما في الخلف.

أنا أفهم لماذا فعل ذلك. كانت المواعدة صعبة على نيك، وجهه المعاد بناؤه جعله مترددًا، والذي لم يكن يبدو بهذا السوء حقًّا. ربما كان فكه وذقنه مربَّعين بعض الشيء، وقد امتد الجلد فوقهما بإحكام شديد، لذلك كان يشبه في بعض الأحيان صورة كاريكاتورية لأحد أبطال الكتاب الهزلي. لكنه لم يكن بقبح الرجل الفيل مثلًا! على الرغم من أن محاولاته للابتسام لم تكن مريحة، الطريقة التي بدت بها تحريك شفتيه -وإظهار أسنانه البيضاء القوية كأسنان سوبر مان- مؤلمة.

اعتاد النظر إلى نفسه في المرآة، باحثًا عن علامات التشوه، عن العيب الذي جعل الآخرين يتجنبون صداقته. لذا لم يسهل عليه الوجود حول الفتيات. حصلتُ على علاقات أكثر، رغم أنني كنت أصغر بثلاث سنوات. مع كل تلك العيوب التي حطت من فرصته، حُب الكتب الهزلية كان إضافة يمكن تجنبها، لذا كان عليها الاختفاء طوال فترة وجود الفتاة بالبيت.

حملَت اسم إنجي، وكانت في عمري، طالبة منتقلة، جديدة جدًّا في المدرسة لتعرف أن أخي كان عديم القيمة. فاح من بين ثنيات جسدها عطر الباتشولي، واعتمرت قبعة منسوجة يدويًّا باللون الأحمر والذهبي والأخضر لعلَم جامايكا. تشاركنا في صف للغة الإنجليزية وتعرفتْ عليَّ فورًا.

تقرَّر انعقاد اختبار باليوم التالي في الصف يتضمن رواية «سيد الذباب»، والتي أخبرتني أنها لم تنتهِ من قراءتها حين سألتها عن رأيها فيها، أخبرتها باستعدادي لمساعدتها في الدراسة إن أرادت.

بحلول الوقت الذي عاد فيه نيك بعد التخلص من مجموعة مجلاتنا المصوَّرة، كنا مستلقيَين على بطنينا، جنبًا إلى جنب أمام عرض عطلة الربيع

على قناة MTV. أخرجتُ الرواية وتصفحتْ بعض المقاطع التي علَّمتها، وهو شيء لم أفعله في المعتاد. كما قلت، كنت طالبًا مهمِلًا غير متحمِّس، لكن رواية «سيد الذباب» أثارت حماسي وخيالي لما يقرب من أسبوع أو ما شابه، جعلتْني راغبًا في العيش حافي القدمين وعاريًا على جزيرة، مع قبيلتي من الأولاد الحاكمين، منغمسين في أداء الطقوس الوحشية. قرأت وأعدت قراءة الأجزاء المتعلقة برسم جاك لوجهه، مغرَمًا برغبة في غمر وجهي بالطين الملوَّن، لأكون بدائيًا وغير قابل للتطويع وحرًّا.

جلس نيك على الجانب الآخر منها، عابسًا لأنه لا يريد مشاركتها معي. لم يستطع نيك التحدث عن الكتاب معنا لأنه لم يقرأه من قبل. كان نيك دائمًا في فصول اللغة الإنجليزية المتقدمة، حيث تضمنت القراءة أعمال ميلتون تشوسر، بينما كنت أنا في المستوى المناسب لتدريب عمال النظافة المستقبليين وفنيي إصلاح أعطال مكيف الهواء.

كنا مجموعة من الأطفال الأغبياء بلا أمل في مستقبل مشرق في نظر المجتمع، وبسبب غبائنا، كوفئنا بكل الكتب الممتعة حقًّا.

***

بين الحين والآخر توقفت إنجي متفقِّدة ما يُعرض على شاشة التلفاز وهي تطرح سؤالًا استفزازيًّا من قبيل: «هيي يا رفاق، ألا تظنون أن الفتاة جذابة للغاية؟» أو «ألا تعتقدون أن الصراع بالطين محرج؟ أم أن هذا هو بيت القصيد؟»، لا أحد منا عرف إلى من وجَّهت حديثها بالضبط، لكني سارعت في كل مرة للإجابة لملء الصمت، بينما تصرف نيكي كما لو كان فكه مغلقًا بالدبابيس من جديد، وابتسم ابتسامته الغاضبة عندما جعلتها إجاباتي تضحك. ذات مرة، عندما كانت تضحك بشدة، وضعت يدها على ذراعي، عبس بسبب ذلك أيضًا.

أمضينا -أنا وإنجي- قرابة عامين كأصدقاء، قبل أن أقبِّلها للمرة الأولى في خزانة أدوات نظافة بإحدى الحفلات، في حالة من النشوة والسُّكر بينما يضحك الآخرون ويصرخون بأسمائنا عبر الباب. مارسنا الحب لأول مرة بعدها بثلاثة أشهر، في غرفتي، والنوافذ مفتوحة يمر عبرها النسيم البارد الذي فاح بعطر أشجار الصنوبر. بعد تلك المرة الأولى، سألتني عما أريد أن أفعله عندما أكبر. أخبرتها أنني أريد تعلم الطيران الشراعي. كان عمري

ثمانية عشر عامًا، وكانت في الثامنة عشرة هي الأخرى، وبدت الإجابة مُرضية لكلينا وقتها.

لاحقًا، بعد إنهاء دراستها في مدرسة التمريض بفترة قصيرة، واستقرارنا في شقة معًا في وسط المدينة، سألتني مرة أخرى عما أريد أن أفعله. كنت قد أمضيت الصيف في العمل رسامًا منزليًا، لكن ذلك انتهى. لم أجد وظيفة أخرى لتحل محلها بعد، وقالت إنجي إنه يجب عليَّ أن أستقطع بعض الوقت الكافي للتفكير فيما سأفعل على المدى الطويل.

أرادت أن أعود إلى الكلية. أخبرتها أنني سأفكر في الأمر، وبينما كنت أفكر، فاتتني فترة التسجيل للفصل الدراسي التالي. اقترحت عليَّ أن أصير مسعفًا، وقضت عدة أيام في جمع الاستمارات الورقية لي لملئها، حتى أتمكن من الانضمام إلى البرنامج.

الطلبات، والاستبيانات، واستمارات المساعدة المالية، كلها تراكمت في كومة بالقرب من الثلاجة، تجمَع بقع القهوة، حتى ألقى بها أحدنا في القمامة. لم يكن الكسل هو ما أعاقني، أنا فقط لم أستطع حمل نفسي على القيام بذلك. كان أخي يدرس ليصبح طبيبًا في بوسطن. شعرتُ أنني كنت -بطريقة ما- أحاول تقليده، فكرة أصابتني بقشعريرة كارهة.

قالت إنجي إن عليَّ التفكير فعلًا فيما أرغب في فعله، لا بد أن هناك شيئًا ما أريد القيام به، كان عليَّ أن أملك هدفًا! أخبرتها أنني أريد أن أعيش معها في بارو، ألاسكا، على حافة الدائرة القطبية الشمالية، وأن أربي أطفالًا، وأملك حديقة مع صوبة أزرع فيها طماطم، وفاصوليا، وأعشابًا كثيرة للاستخدام المنزلي تنضج في الأرض. سنكسب قوتنا من تأجير الزلاجات التي تجرها الكلاب للسيَّاح. سنتجنب عالم المتاجر الكبرى والإنترنت واسع النطاق والسباكة الداخلية. سنترك التلفاز خلفنا. في الشتاء، ستتهادى الأضواء الشمالية على صفحة السماء فوقنا طوال اليوم. في الصيف، سيعيش أطفالنا حياة شبه برية، يتزلجون على تلال لا تحكمها الأسامي، ويطعمون الفقمات على الجليد خلف بيتنا.

***

كنا قد شرعنا للتو في ولوج مرحلة النضج، المرحلة الأولى من كوننا جزءًا في حياة بعضنا بعضًا. في تلك الأيام حين حكيت لها عن أطفالنا الذين

يطعمون الفقمة، اعتادت إنجي النظر إليّ بطريقة تجعلني أشعر بالضعف والأمل في الوقت ذاته. متفائل بما قد أكونه في يوم ما. كان لدى إنجي عينان كبيرتان كتلك الفقمات التي تحدثت عنها، بنية داكنة بحلقات كالذهب اللامع تطوِّقها. حدقتْ إلى وجهي دون أن ترمش، تستمع لي وأنا أحكي باهتمام بالغ وشفتاها منفرجتان كأنها طفل يسمع قصته المفضلة قبل النوم.

ولكن بعد حادث القبض عليَّ في أثناء الشرب والقيادة، عرفتُ أن أي ذكر لألاسكا سيدفعها إلى التجهم. كلَّفني القبض عليَّ وظيفتي، أعترف بذلك لأنني كنت أعمل مؤقتًا رجل توصيل بيتزا في ذلك الوقت، وكانت إنجي تحاول يائسة مواكبة الفواتير. كانت قلقة، وتتحمل قلقها وحدها، متجنبة الاختلاط بي قدر الإمكان وهي مهمة لم تكن سهلة داخل شقة من ثلاث غرف.

حاولتُ ذكر ألاسكا من جديد بين الحين والآخر على أي حال، محاوِلًا جذب انتباهها إليَّ من جديد، لكن ذلك لم يمنحها سوى منفذ لغضبها. قالت إنني إذا لم أستطع الحفاظ على نظافة شقة من ثلاث غرف وأنا وحدي طوال اليوم، فكيف سيكون شكل بيتنا؟ رأت أطفالنا يلعبون وسط أكوام من روث الكلاب، والشرفة الأمامية تتفكك، وعربات الثلوج الصدئة، وكلابًا جائعة مهمَلة متناثرة على الأرض. قالت إن سماعي أتحدث عن ألاسكا جعلها ترغب في الصراخ، كان أمرًا مثيرًا للشفقة، وبعيدًا عن واقع حياتنا. قالت إنها كانت خائفة، واثقة أنني أعاني مشكلة، ربما إدمان الكحول، أو الاكتئاب السريري. أرادت مني أن أرى شخصًا ما، ولم يكن لدينا المال لذلك.

***

خروجها من حياتي دون سابق إنذار لم يكن بسبب أيٍّ من تلك المشكلات. لم يتعلق الأمر بقضية المحكمة، أو الشرب، أو افتقاري إلى التوجيه. كان السبب الحقيقي لانفصالنا أكثر فظاعة من ذلك، فظيعًا جدًّا لدرجة أننا لا نستطيع التحدث عنه أبدًا. لو طرحَت الموضوع، لسخرتُ منها، لذا لم يكن بوسعها طرحه، لأن سياستي في التعامل معها كانت التظاهر بأن ذلك لم يحدث.

كنت أطهو الطعام للعشاء في إحدى الليالي، لحم الخنزير المقدد والبيض عندما وصلت إنجي إلى المنزل من العمل. لطالما أحببتُ أن يكون العشاء جاهزًا لها عند عودتها، كجزء من خطتي لأظهِر لها أنني كنت محبَطًا ولكني

لن أتخلى عنها. قلت شيئًا عن خنازيرنا الخاصة التي سنربيها في يوكون، نأكل ونصنع لحم الخنزير المقدد الخاص بنا، نصنع منه وليمة في عشاء عيد الميلاد.

قالت إنني لم أعد مضحكًا، كانت نبرتها تحوي أكثر مما قالت. دندنت بأغنية من رواية ملك الذباب «اقتل الخنزير، واستنزف دمه» في محاولة لدفعها لتضحك على ما لم يكن مضحكًا في المقام الأول، وقالت: «توقف»، قالتها بصرامة.

- فقط توقف.

في هذه اللحظة بالذات كان لديَّ سكين في يدي، ما كنت أستخدمه لفتح علبة لحم الخنزير المقدد، وكانت تتكئ بردفها على منضدة المطبخ على بعد بضعة أمتار. كوَّنت صورة مفاجئة ونابضة بالحياة في رأسي، تخيلت أن تدور ويقطع السكين حلقها.

رأيت في ذهني يدها تطير إلى رقبتها، وعينَي الفقمة الطفوليتين خاصتها تلك تتسعان في دهشة، ورأيت الدم باللون الأحمر الساطع المشابه لعصير التوت البري يتدفق إلى أسفل، ليلوِّث سترة عنقها على شكل حرف V. عندما خطر ببالي هذا الفكر، نظرتُ إلى حلقها حتى عينيها. وكانت تحدق إليَّ مرة أخرى بخوف هذه المرة. وضعتْ كوب عصير البرتقال خاصتها برفق شديد في الحوض، وقالت إنها لم تكن جائعة وربما كانت بحاجة إلى الاستلقاء. بعد أربعة أيام ذهبتُ للحصول على الخبز والحليب وكانت هي قد اختفت عندما عدت. اتصلتْ من بيت والديها لتقول إننا بحاجة إلى الانفصال بعض الوقت.

كانت مجرد فكرة. من منا لا تواتيه مثل هذه الأفكار بين الحين والآخر؟

***

عندما تأخرتُ عن دفع الإيجار بشهرين وأخبرني المالك أنه سيسعى للحصول على أمر بطردي، تركتُ المنزل بنفسي. كانت والدتي تعيد تصميم المنزل وأخبرتُها أنني أريد المساعدة. كنت بحاجة ماسة إلى شيء أفعله. لم أعمل منذ أربعة أشهر وكان لديَّ موعد للمحكمة في ديسمبر.

كانت والدتي قد هدمت بالفعل جدران غرفة نومي القديمة، وخلعت النوافذ. صارت الثقوب الموجودة في الجدار مغطاة بغطاء بلاستيكي، والأرضية ملوَّثة

بقِطع من الجص، لذا صنعتُ لنفسي حجرة في الطابق السفلي، على سرير أطفال مقابل الغسالة والمجفف. أضع جهاز التلفاز على صندوق حليبٍ عند قاعدة السرير. لم أستطع تركه ورائي في الشقة، كنت بحاجة إليه ليوفِّر لي صُحبة.

والدتي لم تفعل، لم توفِّر لي أي صُحبة. في اليوم الأول لعودتي إلى المنزل، تحدثتْ معي فقط لتخبرني أنني لا أستطيع استخدام سيارتها، إذا كنتُ أرغب في السكر وتدمير عربة ما، فلأشتري سيارتي الخاصة. كان تواصلها معي غير لفظي أغلب الوقت. مثلًا أخبرتني أن الوقت قد حان للاستيقاظ عن طريق المشي على الألواح أعلى سقف القبو فوق رأسي وإصدار أكبر قدر ممكن من الضوضاء. أخبرتْني أنني أثير اشمئزازها عن طريق التحديق إلى وجهي من خلف العتلة بيدها وهي تقتلع كل لوح خشب بغرفتي القديمة، وكأنها راغبة في إزالة أي أثر ممكن لطفولتي من منزلها.

كان القبو غير مكتمِل، بأرضية أسمنتية مجوَّفة ومتاهة من الأنابيب المنخفضة تتدلى من السقف. على الأقل احتوى على حمام خاص به، وغرفة مرتَّبة بشكل غير متناسق، مع أرضية من مشمع منقوش بنمط متكرر من الأزهار، ووعاء من نباتات معطَّرة برائحة الغابات مسترخٍ بإهمال فوق خزان المرحاض. عندما كنت هناك، كان بإمكاني أن أغلق عينَيَّ وأن أستنشق تلك الرائحة وأتخيل الريح تتحرك في قمم أشجار الصنوبر العظيمة في شمال ألاسكا.

استيقظتُ ذات ليلة، في زنزانتي في الطابق السفلي، على برد قارس، كانت أنفاسي تتصاعد في سحب من الفضة والأزرق على ضوء التلفاز الذي تركتُه يعمل. كنت قد انتهيت من شرب الجعة قبل النوم والآن تعاظمت حاجتي إلى التبول حد الألم.

في العادة أنام تحت لحاف كبير حاكته جدتي يدويًا، لكنني سكبت الصينية عليه وألقيته في الغسالة، ثم لم أتمكن من تجفيفه مطلقًا. لاستبداله، داهمت خزانة الشراشف، قبل النوم مباشرة، جمعت كومة من شراشف طفولتي القديمة، غطاء سرير أزرق منتفخ مزيَّن بشخصيات من حرب النجوم، بطانية حمراء مع أساطيل من ثلاث طائرات حربية تحلق فوقها. لم يكن أيٌّ منها -بمفرده- كبيرًا بما يكفي لتغطيتي، لكنني نشرت البطانيات المختلفة على جسدي في أنماط متداخلة، واحدة لقدمي، وأخرى لرجلي، وثالثة لصدري.

ساعدتني على الشعور بالراحة بما يكفي لأتمكن من النوم، لكنني الآن استلقيت في حالة من الفوضى، متكوم حول نفسي باحث عن الدفء، ركبتاي مشدودتان تقريبًا إلى صدري، وذراعاي ملفوفتان حولهما، وقدماي العاريتان عالقتان في البرد. عجزت عن الشعور بأصابع قدمي، كما لو أنها بُترت بالفعل بسبب قضمة الصقيع.

شعرت برأسي موحِلًا. كنت فقط نصف مستيقظ، وبحاجة رهيبة إلى التبول، وعليَّ أن أشعر بالدفء. نهضت وذهبت إلى الحمام خلال الظلام، وألقيت أصغر بطانية على كتفي لإبعاد البرودة. كانت لديَّ فكرة مضطربة جراء الاستيقاظ المفاجئ من النوم بأنني ما زلت ملتفًّا حول نفسي لأشعر بالدفء، مع ركبتيَّ بالقرب من صدري، على الرغم من أنني كنت أتحرك إلى الأمام. فقط عندما كنت فوق المرحاض، أتحسس سحَّاب سروالي، نظرت إلى أسفل ورأيت ركبتيَّ متشابكتين، وأن قدميَّ لم تلمسا الأرض. كنت أطفو على مسافة قدم كاملة فوق مقعد المرحاض.

سبحت الغرفة حولي وشعرت بالدوار للحظات، ليس بالصدمة بقدر ما هو نوع من التعجب الحالم، الصدمة لم تأتِ على الإطلاق. أفترض أن جزءًا مني كان ينتظر طوال ذلك الوقت أن يطير مرة أخرى، حتى إنه كان على وشك توقع ذلك في أي لحظة.

لا يعني ذلك أن ما كنت أفعله يمكن حقًّا وصفه بأنه طيران. كان أشبه بالطفو المتحكَّم به. كنت بيضة مرة أخرى، رشيقة. لوَّحت ذراعي بقلق إلى جانبي. كانت أطراف أصابع إحدى يديَّ تلمس الحائط وتثبِّتني قليلًا.

شعرت بالقماش يعانق كتفي، وثبَّتَت نظرتي بعناية إلى الأمام، كما لو أن حركة مفاجئة للعين يمكن أن ترسلني إلى الأرض. عند حافة بصري رأيت حافة الساتان الزرقاء للبطانية وجزءًا من رقعة حمراء وصفراء. اجتاحتني موجة أخرى من الدوخة وتذبذبتُ في الهواء. انزلقت البطانية، تمامًا كما فعلتْ في ذلك اليوم قبل أربعة عشر عامًا تقريبًا، وانزلقتْ عن كتفي. سقطتُ في اللحظة نفسها، وضربتُ ركبتي على جانب المرحاض، ودفعتُ يدي في الوعاء، وأغرقتُها بعمق في الماء المتجمِّد.

جلست والعباءة منتشرة على ركبتي أفحصها، عندما أضاء شعاع الفجر الفضي الأول النوافذ عاليًا على طول جدران الطابق السفلي.

كانت الحرملة أصغر مما كنت أتذكر، بطول غطاء وسادة كبير، وصاعقة البرق الأحمر لا تزال مخيطة في الخلف، على الرغم من أن بضع غرز قد انحلَّت الآن، وصار أحد أركان الصاعقة حرًّا. كانت رقعة البحرية الخامسة بوالدي لا تزال مخيطة عليها أيضًا، وهذا ما رأيته من زاوية عيني، قطعة من البرق عبر خلفية تشبه النار.

***

بالطبع والدتي لم ترسلها إلى المكب لتُحرق، لم تتخلص قط من أي شيء، وفقًا لنظريتها عن إمكانية استخلاص فائدة لاحقًا من أي شيء لا فائدة منه حاليًّا، بدلًا من إنفاق المال بهوس وبلا داعٍ. كان جمع الأشياء هوسًا عند والدتي، ادخار المال يأتي في المقام الأول. لم تكن لديها أي خبرة عن تجديد المنزل، لكن لم يخطر ببالها قط دفع المال لشخص مقابل القيام بالعمل نيابة عنها. ستظل غرفة نومي ممزَّقة إلى قطع منفصلة وسأنام في الطابق السفلي إلى الأبد، حتى ترتدي أمي حفاضات وأكون مسؤولًا عن تغييرها.

ما آمنتُ به عن أهمية الاعتماد على الذات كان بالنسبة إليَّ كومة من الهراء بلا داعٍ، حاولت سحبي من جديد إلى عالمها فور أن عدت إلى البيت بعد غياب، لكن -واعيًا- رفضتُ المساعدة وانسحبتُ من الإدمان المدمِّر للذات ذاك.

كانت الحافة الساتان للرداء طويلة بما يكفي لربطها حول رقبتي. جلستُ على حافة سريري لفترة طويلة، جالسًا ورجلي إلى أعلى، مثل حمامة على حافة، والبطانية تنساب إلى أسفل ظهري. الأرض على بعد متر، لكني حدقت من الجانب كما لو كنت أنظر إلى حفرة على بعد عشرة أمتار. أخيرًا، اندفعتُ، وعلقتُ في الهواء.

تمايلت بشكل غير ثابت، إلى الأمام وإلى الخلف، لكنها لم تسقِطني. حوصرت أنفاسي خلف حجابي الحاجز ومرت عدة لحظات قبل أن أجبر نفسي على الزفير، في شخير عظيم يشبه صوت الخيل، تجاهلتُ حذاء أمي ذا الكعب الخشبي الذي يدق فوق رأسي في التاسعة صباحًا. حاولتْ مرة أخرى في الساعة العاشرة، هذه المرة فتحَت الباب لتصرخ، هل استيقظتَ بعد؟ صرختُ مرة أخرى أنني كنت مستيقظًا. كان هذا صحيحًا، كنت على ارتفاع متر عن الأرض.

بحلول العاشرة، كنت قد أمضيت الساعات الماضية طائرًا، ولكن مرة أخرى، وصفه بأنه طيران كامل سيعطي الفكرة الخاطئة عما يحدث فعلًا. لا تتخيل سوبرمان، تخيل عوضًا عن هذا ساحرًا جالسًا على سجادة سحرية، وركبتاه مشدودتان إلى صدره. حوِّل السجادة السحرية إلى عباءة وستكون قريبًا من المشهد الأصلي.

كانت لديَّ سرعة واحدة ثابتة. تحركتُ مثل عوامة في موجة. كل ما كان عليَّ فعله للانزلاق إلى الأمام هو الميل إلى الأمام، وكنت أمضي، كما لو أني مدفوع بتيار من الغاز القوي غير المرئي، زفير الآلهة.

لفترة من الوقت، واجهتُ صعوبة في الالتفاف، لكن في النهاية، تعلمتُ تغيير الاتجاه بالطريقة نفسها التي يوجِّه بها المرء الزورق. حين أتنقل في جميع أنحاء الغرفة، أرمي ذراعي في الهواء وأسحب الأخرى إلى الداخل، وبسهولة سأنحرف إلى اليمين أو اليسار، اعتمادًا على المجداف المجازي الذي صنعه خيالي. بمجرد أن أتقنت الحركة، أصبح فعل الانعطاف مبهجًا وسهلًا، كشعور الانعطاف بالسيارة عبر المنحنيات في أثناء الإسراع، شعور خلق إحساسًا بالدغدغة في حفرة معدتي.

تمكنتُ من الارتفاع من خلال الميل إلى الخلف، كما لو كنتُ في كرسي. في المرة الأولى التي جربتُ فيها ذلك، انتفضتُ إلى أعلى بسرعة كبيرة، وضربتُ رأسي بأنبوب نحاسي، بقوة كافية لصنع كوكبة من النقاط السوداء على شكل عجلة أمام عينيَّ، لكني ضحكت فقط وفركت الورم اللاذع في وسط جبهتي.

عندما استلقيت أخيرًا، في الظهيرة تقريبًا، كنت مرهَقًا، افترشت السرير، وعضلات بطني ترتعش بلا حول ولا قوة بسبب الجهد الذي تطلبتْه لإبقاء ركبتي مقفَلة طوال ذلك الوقت. نسيت تناول الطعام، وشعرت بالدوار من انخفاض نسبة السكر في الدم. وبقيت -حتى وأنا مستلقٍ تحت ملاءاتي في الطابق السفلي الدافئ- أشعر كما لو كنت أحلق. أغمضت عينيَّ وأبحرت بعيدًا في دوامات النوم اللامحدودة.

***

في وقت متأخر من بعد الظهر، خلعت العباءة وصعدت إلى الطابق العلوي لإعداد شطائر لحم الخنزير المقدد. رن الهاتف وأجبت تلقائيًّا. كان أخي.

قال: «أمي أخبرتني أنك لا تساعد في الطابق العلوي».

وأجبت: «أهلًا. أنا بخير. كيف حالك أنت؟».

- قالت أيضًا إنك تجلس في الطابق السفلي طوال اليوم تشاهد التلفاز.

قلت بصورة دفاعية أكثر مما يجب: «هذا ليس كل ما أفعله، إذا كنت قلقًا جدًّا عليها، فلماذا لا تعود إلى المنزل وتلعب دور العامل الماهر في إحدى عطلات نهاية الأسبوع هذه؟».

- عندما تكون طبيبًا في العام الثالث من دراستك، لا يمكنك الإقلاع متى شئت. لا بد لي من جدولة إجازاتي مقدمًا. في أحد أيام الأسبوع الماضي كنت في غرفة الطوارئ لمدة عشر ساعات. كان يجب أن أغادر، لكن هذه المرأة العجوز جاءت مصابة بنزيف مهبلي حاد.

عند هذا ضحكت، رد فعل قوبل بلحظة طويلة من الصمت الرافض.

ثم تابع نيك: «بقيت في العمل لساعة أخرى لأتأكد من أنها بخير. هذا ما أريده لك. أن أجعلك تفعل شيئًا من شأنه أن يخرجك من عالمك الصغير».

- لديَّ أشياء أفعلها.

- ما هي الأشياء؟ على سبيل المثال، ماذا فعلت بنفسك اليوم؟

- اليوم، اليوم لم يكن يومًا عاديًّا، لم أنم طوال الليل. طفوتُ توًّا هنا وهناك.

لم أستطع منع نفسي وضحكت بقوة من جديد بينما بقي هو صامتًا لفترة وجيزة قبل أن يقول: «إريك، هل تظن أنك ستتمكن من استيعاب أنك تسقط سقوطًا حرًّا حين تسقط فعلًا؟».

***

انزلقتُ عن حافة السطح مثل السبَّاح الذي انزلق من حافة البركة إلى الماء. كانت دواخلي منقبضة وفروة رأسي تؤلمني، ساخنة ومثلجة في الوقت ذاته، جسدي كله ينبض، في انتظار السقوط الحر. هذه هي الطريقة التي ينتهي بها الأمر، كما اعتقدت، وخطر ببالي أن الصباح بأكمله، وكل الطيران حول الطابق السفلي، كان وهمًا، خيالًا انفصاميًّا، والآن سأسقط وأتحطم، وتؤكد الجاذبية حقيقتها. بدلًا من ذلك، غطست ثم ارتفعت. رفرف ردائي الطفولي على كتفي.

في أثناء انتظار خلود والدتي إلى النوم، لونتُ وجهي.

تراجعتُ إلى حمام الطابق السفلي، واستخدمتُ إحدى أصابع أحمر الشفاه خاصتها لرسم قناع أحمر زيتي، زوجان من الحلقات المترابطة، حول عينيَّ. لم أرغب في أن يرصدني أحدهم في أثناء الطيران، وإذا حدث ذلك، فقد اعتقدتُ أن الدوائر الحمراء ستشتت انتباه أي شهود محتمَلين عن ملامحي الأخرى. إلى جانب ذلك، كان من الجيد أن أرسم على وجهي، كان شعورًا مثيرًا بشكل غريب، إحساس أحمر الشفاه يتدحرج بقوة وسلاسة على بشرتي. عندما انتهيتُ وقفتُ معجبًا بنفسي أمام مرآة الحمام لفترة من الوقت. أحببتُ القناع الأحمر. كان شيئًا بسيطًا، لكنه جعل ملامحي غريبة وغير مألوفة. شعرتُ بالفضول حيال هذا الشخص الجديد الذي يحدق إليَّ مرة أخرى من زجاج المرآة، حول ما يريد، حول ما يمكن أن يفعله.

بعد أن أغلقت والدتي الباب على نفسها في غرفة نومها لتبقى هناك طوال الليل، تسللتُ إلى الطابق العلوي، وخرجتُ من الفتحة الموجودة في جدار غرفة نومي حيث كانت نافذة السطح. تمددت الفجوات مع عدد من القوالب المفقودة أسفل قدمي، البعض الآخر كان معلقًا في موضعه بالكاد، يتأرجح. شيء آخر يمكن أن تحاول والدتي إصلاحه من أجل توفير القليل من القروش. ستكون محظوظة إذا لم تنزلق عن السطح وتكسر رقبتها. يمكن أن يحدث أي شيء هناك حيث يلمس العالم السماء. لا أحد يعرف ذلك أفضل مني.

لدغ البرد وجهي وخدَّر يدي. كنت جالسًا، أثني أصابعي لفترة طويلة، أحاول استجماع أعصابي للتغلب على مائة ألف سنة من التطور، وأصرخ في عقلي أني سأموت إذا تجاوزت الحافة. ثم كنت فوق الحافة، وعلقت في الهواء الصافي المتجمد، على ارتفاع تسعة أمتار فوق العشب.

تريد أن تسمع الآن أنني شعرت باندفاع من الإثارة، صيحات صاخبة من لذة الرحلة. لم يكن هذا ما حدث. ما شعرتُ به كان شيئًا أكثر هدوءًا. تسارع نبضي. التقطتُ أنفاسي للحظة، ثم شعرتُ بهدوء، مثل هدوء الهواء السابح حولي. انجذبتُ إلى داخل نفسي تمامًا، وركزتُ على البقاء متوازنًا فوق الفقاعة غير المرئية الموجودة تحتي، الجملة التي ربما تعطي انطباعًا أنني شعرت بشيء تحتي، مثل وسادة دعم غير مرئية، لكن لا، لم أشعر بشيء، لذا بقيت أعود لتخيل الشعور بها لدعمي.

بدافع الغريزة، كالعادة، رفعت ركبتيَّ إلى صدري، وأبقيت ذراعيَّ على الجانب. كان القمر أكبر بقليل من الربع، ولكنه ساطع بدرجة كافية لحفر ظلال داكنة شديدة الحواف على الأرض، ولجعل الساحات المتجمدة أسفله تلمع كما لو كان العشب عبارة عن شفرات من الكروم.

انزلقتُ إلى الأمام. دُرت بعض الدورانات حول الجزء الخالي من الحديقة المغطى بأوراق القيقب الأحمر. ذهب الدردار الميت منذ فترة طويلة، وقد انقسم إلى نصفين في عاصفة رعدية قبل ثماني سنوات تقريبًا. النصف العلوي هبط على المنزل، فرع طويل حطم إحدى نوافذ غرفة نومي، كما لو كان يحاول الوصول إليَّ، لا يزال يحاول قتلي.

كان الجو باردًا، واشتد البرد وأنا أرتفع. لم أهتم؛ كنت أرغب في تجاوز كل شيء.

***

بُنيَت البلدة على منحدرات مطلة على وادٍ، بدا أسود متلألئًا بالأضواء. سمعت طنينًا في أذني اليسرى وانقبض قلبي. نظرت عبر السواد والظلال جواري ورأيت بطة برية، برأس أسود تكلِّلها خيوط زمردية مذهلة، كان يضرب الهواء بجناحيه ويراقبني بفضول، لم يبقَ جواري لفترة طويلة بل اندفع جهة الجنوب ورحل.

لفترة من الوقت لم أكن أعرف إلى أين أنا ذاهب. مررت بلحظة عصبية، عندما لم أكن متأكدًا من إمكانية عودتي إلى الأسفل دون أن أسقط عما يزيد على مائتي متر. لكن عندما فقدت القدرة على ثني أصابعي أو الشعور بوجهي من البرد، ملت إلى الأمام قليلًا وبدأت أهبط إلى الأرض، لامست العشب برفق، بالطريقة التي واصلت التدرب عليها ساعة تلو ساعة في القبو.

في اللحظات التي هبطتُ فيها أعلى أحد الشوارع، كوَّن عقلي صورة واضحة عن الاتجاه الذي رغبت فيه فعلًا، عدت لأطفو عبر ثلاث نواصٍ سكنية، وارتفعت مرة لأمر جوار إشارة مرور محمولة على سلك معلق، ثم تحركت يسارًا وحلَّقت فوق منزل إنجي، وكأنني حبيس حلم. نوبتها في المستشفى على وشك الانتهاء قريبًا. فقط كانت متأخرة ساعة تقريبًا.

كنتُ على سطح المرأب عندما وصلت سيارة السيفيك البرونزية القديمة التي شاركناها إلى الممر أخيرًا، المصد مفقود وغطاء محرك السيارة محطَّم من المكان الذي اصطدمتُ به في القمامة، في نهاية محاولتي للتهرب من الشرطة.

ارتدت إنجي تنورة بلون الجير مع طباعة لزهور استوائية، وهي التنورة التي اعتادت ارتداءها فقط في اجتماعات الموظفين في نهاية الشهر. لم تكن نهاية الشهر. جلستُ على سطح المرأب المصنوع من الصفيح وشاهدتها تتقدم إلى الباب الأمامي في حذائها ذي الكعبين وهي تفتح الباب لتدخل.

عادة ما تستحم عندما تصل إلى المنزل. لم يكن لديَّ أي شيء آخر لأفعله.

انزلقتُ من أعلى سقف المرأب، تمايلتُ وارتفعتُ مثل بالون أسود باتجاه الطابق الثالث من البيت الفيكتوري الكبير الذي كان ملكًا لوالديها. كانت غرفة نومها مظلمة. انحنيتُ نحو الزجاج، أحدق إليه، أنظر نحو بابها وأنتظر حتى يفتَح. كانت هناك بالفعل، وفي اللحظة التالية أضاءت مصباحًا، على يسار الباب مباشرة، أعلى خزانة ملابس منخفضة. حدقتُ من النافذة إلى وجهي، وحدقتُ إليها مباشرة، ولم أتحرك، لم أستطع التحرك، صُدمت لدرجة أني لم أتمكن من إصدار صوت.

كانت تنظر إليَّ بضجر، بلا فائدة أو مفاجأة. لم ترَني.

تساءلت عما إذا كانت قد تمكنت من رؤيتي في يوم من الأيام، وأنا أطوف خارج النافذة بينما خلعت تنورتها ورفعت قميصها فوق رأسها لتخرج من الملابس الرسمية إلى ثيابها الداخلية العادية. كانت غرفتها ملحقة بحمام، وتركَت الباب مفتوحًا بين الاثنين. شاهدتها وهي تستحم عبر الزجاج الشفاف المحيط بالدوش. بقيتْ تحت المرش لفترة طويلة، ورفعت ذراعيها لتلقي بشعرها المصبوغ باللون العسلي إلى الوراء، والماء الساخن يقطر على صدرها.

راقبتها وهي تستحم قبلًا، لكن لم يكن الأمر ممتعًا إلى هذا الحد منذ وقت طويل.

بعد فترة، غطى البخار الزجاج بالحمام وفقدت القدرة على الرؤية بوضوح. شاهدت شكلها الشاحب الوردي يتحرك هنا وهناك، ثم سمعت

صوتها. كانت على الهاتف، سألت أحدهم عن سبب دراسته بليلة السبت. قالت إنها كانت تشعر بالملل، أرادت أن تلعب لعبة. تحدثت بنبرة ملأى بالإثارة.

ظهرت دائرة من الزجاج الشفاف في وسط النافذة وبدأت في التمدد مع تبخر التكاثف في غرفتها، مما أعطاني مجال رؤية صغيرًا إلى الداخل. ارتدت حمالة صدر بيضاء ملتصقة بجسدها وسروالًا داخليًّا قطنيًّا أسود. جلست إلى مكتب صغير، وشعرها ملفوف بمنشفة. وقد أنهت المكالمة، وجلست تلعب إحدى ألعاب الورق على جهاز الكمبيوتر الخاص بها، تكتب من حين إلى آخر مرسِلة رسالة نصية، وبصحبتها كأس من النبيذ الأبيض. شاهدتها وهي تشربه.

في الأفلام، يشاهد المتلصصون عارضات الأزياء يرتدون الملابس الداخلية الفرنسية، في مشاهد مبتذلة غريبة، شفاه على كأس النبيذ، ثياب داخلية بسيطة على أرداف بيضاء.

حين انتهت من استخدام الهاتف بدت سعيدة بنفسها لكن متوترة قليلًا. ذهبت إلى السرير وشغلت التلفاز الصغير مقلِّبة بين القنوات. توقفت أمام قناة بعينها لمشاهدة مضاجعة حيوانَي فقمة. صعد أحدهما على الآخر وبدأ في الحركة بقوة والشحم في جسده يترجرج. نظرت بشوق إلى شاشة الكمبيوتر.

قلت: «إنجي».

بدا أنها استغرقت بعض الوقت لتسجيل أنها سمعت أي شيء. ثم جلست وانحنت إلى الأمام، تستمع إلى الأصوات في المنزل. قلت اسمها مرة أخرى. رفرفت رموشها بعصبية. أدارت رأسها إلى النافذة على مضض تقريبًا، لكن مرة أخرى، لم ترَني، لم ترَ أبعد من انعكاسها، حتى نقرتُ على الزجاج.

قفزت كتفاها في رد فعل عصبي. فتحت فمها لتصرخ لكنها لم تصدر أي صوت. بعد لحظة نزلت من السرير واقتربت من النافذة على ساقيها المتيبستين. حدقتْ. لوَّحتُ مرحبًا. نظرت تحتي إلى السلم، ثم رفعت نظرتها إلى وجهي. تمايلتْ، ووضعت يديها على خزانة ملابسها لتثبِّت نفسها.

قلت: «افتحي النافذة».

كافحت أصابعها مع الأقفال لفترة طويلة. سحبت النافذة.

قالت: «يا إلهي! يا إلهي! يا إلهي! كيف تفعل ذلك؟».

- لا أعلم. هل يمكنني الدخول؟

رفعت نفسي على حافة النافذة، استدرت وبدأت في الدخول بحيث كانت إحدى ذراعيَّ في غرفتها، لكن ساقي كانت معلَّقة.

قالت من جديد: «لا، أنا لا أصدق ذلك، لا يمكن أن يكون هذا حقيقيًا!».

- بلى، هو حقيقي.

- كيف؟

- لا أعلم. صدقًا.

التقطتُ جزءًا من حافة العباءة متابعًا: «لكنني فعلت ذلك مرة واحدة من قبل، منذ وقت طويل. هل تعرفين إصابة ركبتي والندبة على صدري؟ قلت لك إنني حصلت عليها جراء السقوط من شجرة، هل تتذكرين؟».

انتشرت على وجهها نظرة مفاجأة اختلطت بالفهم اللحظي، بينما قالت: «انكسر الفرع وسقطت، لكنك لم تفعل فورًا، ليس في البداية، بقيت معلقًا في الهواء، مرتديًا هذه العباءة ذاتها، كان الأمر كالسحر».

عرفت بالفعل. كانت تعرف القصة ولم أعرف كيف، لأنني لم أخبرها قط أن بوسعي الطيران، كانت تعرف تخاطريًّا!

لكن لا، قالت وهي تراقب حيرتي: «نيكي أخبرني، قال إنه عندما سقط فرع الشجرة، اعتقد أنه رآك تطير. قال إنه حاول الطيران بنفسه وهذا سبب ما حدث لوجهه. كنا نتحدث وكان يحاول أن يشرح كيف انتهى به الأمر بأسنان مزيفة. قال إنه كان مجنونًا في ذلك الوقت. قال إن كليكما كان...».

سألت: «متى أخبرك عن أسنانه؟».

لم يتخطَّ أخي قط الشعور بعدم الأمان بشأن وجهه، وبخاصة فمه، ولم يكن يحب أن يعرف الناس عن الأسنان.

لكنها هزت رأسها مجيبه: «أنا لا أتذكر».

فتحتُ حافة النافذة ورفعتُ قدمي على خزانة ملابسها: «هل ترغبين في تجربة شعور الطيران؟».

كانت عيناها متسعتين من عدم التصديق، وفمها مفتوحًا بابتسامة مذهولة.

ثم مال رأسها إلى جانب وضيَّقت عينيها وسألت: «كيف تفعل هذا حقًّا؟».

- شيء متعلق بالعباءة، لا أعرف فعلًا. كالسحر على ما أظن. حين أرتديها يكون بوسعي الطيران، هذا كل شيء.

لمستْ زاوية إحدى عينيَّ، وتذكرتُ القناع الذي رسمتُه بأحمر الشفاه.

- ماذا عن هذه الأشياء على وجهك؟ ما هذا؟

- يجعلني أشعر بالجاذبية.

- اللعنة، أنت غريب. مجرد التفكير أنني عشت معك لمدة عامين!

كانت تضحك رغم ذلك. وسألتُها: «هل ترغبين في الطيران؟».

انزلقتُ بقية الطريق إلى الغرفة باتجاهها وعلقت ساقي على جانب الخزانة.

- اجلسي في حضني. سأحملك في أرجاء الغرفة.

جالت بنظراتها من ساقي إلى وجهي، ابتسامتها ماكرة ومرتابة الآن. تدفُّق النسيم عبر النافذة خلفي يحرِّك العباءة. عانقت نفسها وارتجفت، ثم نظرت إلى نفسها ولاحظت أنها كانت ترتدي ملابسها الداخلية. هزت رأسها، لوت المنشفة عن شعرها الذي لا يزال رطبًا.

قالت: «انتظر دقيقة».

ذهبت إلى خزانة ملابسها وفتحت الباب لتغوص في الداخل باحثة عن ثياب. بينما كانت تنظر وكنت أنتظر، جاءت صرخة يُرثى لها من التلفاز، وتحولت بنظري نحو الشاشة. كان أحد الفقمات يعض عنق الآخر بعنف، بينما ضحيته تنتحب. قال أحد الرواة إن الذكور المهيمنين سيستخدمون كل الأسلحة الطبيعية المتاحة لهم لطرد أي منافس قد يتحداهم للوصول إلى إناث القطيع. بدا الدم وكأنه بقعة من عصير التوت البري على الجليد.

سعلت إنجي لجذب انتباهي، من جديد. وحين التفتُّ لأنظر إليها رأيت زاوية فمها مشدودة وبعينيها نظرة غاضبة نوعًا ما. لم يستغرق الأمر مني غالبًا أكثر من لحظات لأنفصل عن نفسي وأضيع داخل أيًّا كان ما يعرضه التلفاز، حتى ولو لم أكن مهتمًّا بالبرنامج المعروض. شيء ما فيه كان يجذبني، وكأن الشاشة هي السالب وأنا الموجب، معًا نصنع دائرة كهربية كاملة. وللحظات لا شيء خارج هذه الدائرة يهم على الإطلاق، تمامًا مثل

الحال مع القصص المصوَّرة التي اعتدت قراءتها. أعترف أنها نقطة ضعفي، لكن رؤية نظرتها لي التي حملت استياءً وحُكمًا عليَّ ضايقتني.

دسَّت خصلة من الشعر المبلل خلف أذن واحدة وأظهرت لي ابتسامة عفوية سريعة، وحاولَت التظاهر بأنها لم تكن تتظاهر فقط. انحنيتُ إلى الخلف، وسحبتْ نفسها محرَجة على فخذي.

ثم سألت: «لِم بدأت أشعر أنها خدعة منحرفة فقط لتجعلني ألتصق بجسدك؟».

انحنيتُ إلى الأمام مستعدًّا للانطلاق بينما أضافت: «سنسقط على مؤخرتينا».

انزلقتُ من جانب الخزانة وفي الهواء. كنت أتأرجح إلى الأمام والخلف وإلى الأمام مرة أخرى، ولفت ذراعيها حول رقبتي وصرخت، صرخة سعيدة، ضاحكة، ومخيفة.

أنا لست قويًّا بشكل خاص، لكن حملها لم يكن مريعًا، كان الأمر كما لو كانت جالسة في حضني وكنا معًا على كرسي هزاز غير مرئي. كل ما تغير هو مركز جاذبيتي، والآن شعرت بالنشوة وكأنني زورق يحمل الكثير من الناس.

طفتُ بها حول سريرها، ثم فوقه.

صرختْ وضحكتْ ثم صرختْ مرة أخرى وقالت: «هذا جنون، هذا أكثر الأشياء جنونية التي فعلتها في حياتي!».

ثم قالت: «يا إلهي! لن يصدقني أحد».

ثم تابعت: «هل تعلم أنك ستكون أشهر شخص في تاريخ البشرية؟».

ثم حدقت إلى وجهي، وعيناها الواسعتان تلمعان بالطريقة التي اعتادتها عندما أتحدث عن ألاسكا.

تظاهرتُ كما لو أنني عائد إلى موقعي الذي انطلقتُ منه عند الخزانة، لكن حين درت ووصلت إلى هناك حنيت رأسي وانطلقت مباشرة نحو النافذة.

صاحت إنجي: «لا، يا يسوع! ماذا تفعل؟ الجو بارد!».

كانت تضغط عليَّ بقوة حول رقبتي بحيث كان من الصعب التنفس.

صعدت نحو القمر الفضي وقلت: «اشعري بالبرد إذن، ولو لمدة دقيقة. ألا يستحق التحليق كل هذا العناء؟ ألن تضحي وتشعري بالبرد لتطيري هكذا؟ كما تفعلين في الأحلام؟».

قالت: «بلى».

- أليس هذا هو الشيء الأكثر روعة؟

- بلى.

ارتجفتْ بشدة، مما أدى إلى اهتزاز مثير للاهتمام في نهديها تحت القميص الخفيف. ظللت أرتفع نحو أسطول من السُّحب، بدا كالزئبق. أحببت الطريقة التي تشبثتْ بها بي، وأعجبني شعورها عندما ارتجفت.

قالت: «أريد أن أعود».

- ليس بعد.

كان قميصي مفتوحًا قليلًا، فانكمشتْ فيه، وأنفها الجليدي يلامس جسدي.

وقالت: «أردت التحدث معك، أردت الاتصال بك الليلة. كنت أفكر فيك».

- بمن اتصلتِ عوضًا عن ذلك؟

قالت: «لا أحد».

ثم أدركتْ أنني كنت خارج النافذة أستمع، فأجابت: «هانا. أنت تعرف، من العمل».

- هل تدرس من أجل شيء ما؟ سمعتك تسألين لماذا كانت تدرس يوم السبت.

- دعنا نعود.

- بالتأكيد.

دفنت وجهها على صدري مرة أخرى. كان أنفها يخدش ندبتي، الشق فضي مثل الشق الفضي للقمر. واصلت ارتفاعي نحو القمر الذي لم يعد يبدو بعيدًا جدًّا وهي تلمس الندبة القديمة.

همست: «إنه أمر لا يصدَّق. فكر كم كنت محظوظًا. بضع بوصات وكان الفرع ليمر مباشرة عبر قلبك».

قلت: «من قال إنه لم يفعل؟».

انحنيتُ إلى الأمام وتركتُها فجأة. تمسكتْ برقبتي، وركلتْ، واضطررتُ إلى إفلات أصابعها، واحدة تلو الأخرى، قبل أن تسقط. كلما لعبت أنا وأخي الأبطال الخارقين، جعلني دائمًا الرجل السيئ. شخص ما يجب أن يلعب دور الشرير.

أخبرني أخي أن عليَّ السفر إلى بوسطن يومًا ما لمقابلته، لنتناول مشروبًا معًا. أعتقد أنه رغب في مشاركتي بعض الوقت، تقديم النصائح كما هو حال أي أخ أكبر. يشاركني الحزن الذي أسرني وأسره. من يعلم؟ ربما في إحدى الليالي سأطير إلى هناك فعلًا لرؤيته، لأريه العباءة، لمعرفة ما إذا كان سيحاول الطيران من جديد، ما إذا كان يرغب في القفز من الطابق الخامس.

قد لا يرغب في ذلك. ليس بعد ما حدث في المرة الماضية. قد يحتاج إلى بعض التشجيع؛ دفعة صغيرة من الأخ الصغير.

ومن يعلم؟ ربما إذا خرج من النافذة مرتديًا عباءتي، فسوف يرتفع بدلًا من أن يسقط، ويطفو بعيدًا في البرد، حتى يحتضن السماء.

لكني لا أعتقد ذلك. لم ينجح الأمر معه عندما كنا أطفالًا. لماذا الآن؟ لماذا الآن خلافًا لأي وقت مضى؟ إنها عباءتي أنا.

***

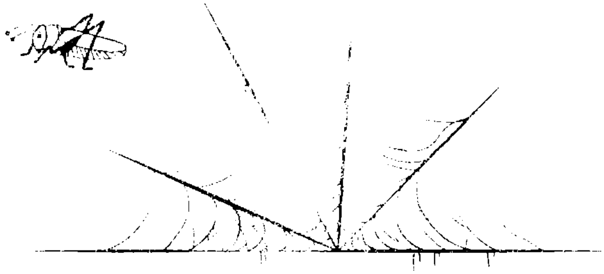

النفس الأخير

قبل الظهيرة بقليل دخلت عائلة لإلقاء نظرة على المكان، رجل وامرأة وابنهما. كانوا أول زوار لليوم، والزوار الوحيدين لفترة، كما خمن ألينجر، لم يكن الازدحام من شيم متحفه وكان له مطلق الحرية لاصطحابهم في جولة.

التقاهم في غرفة الاستقبال. استمرت المرأة في الوقوف بقدم واحدة على الدرجات الأمامية، مترددة في اتخاذ قرار التقدم أكثر للداخل. حدقت من خلف رأس ابنها إلى زوجها بنظرة شك مضطربة. عبس الزوج لها. كانت يداه على طية صدر معطفه المصنوع من الفرو، وقد بدا مترددًا في خلعه. ألينجر رأى المشهد ذاته مائة مرة من قبل. بمجرد أن يعبر الناس الباب ليخطوا داخل المنزل، تستقبلهم الردهة الجنائزية ذات الطابع الكئيب، نظرة واحدة وتراودهم أفكار عن الذهاب إلى مكان أفضل، يتساءلون إن كانوا في المكان الصحيح، مفكِّرين في التراجع. فقط الطفل الصغير بدا مرتاحًا وقد بدأ بالفعل بخلع سترته ليعلقها على أحد الخطافات الموجودة في مستوى الأطفال على الحائط.

قبل أن تسنح لهم فرصة الهرب، سعل ألينجر للفت انتباههم. لن يغادر أحد بعد أن رُصِدوا في المعركة بين القلق والعادات الاجتماعية، انتصرت العادات الاجتماعية دائمًا تقريبًا. طوى يديه معًا وابتسم لهما، بطريقة أَمِلَ أن تخلق الطمأنينة. لكن التأثير كان عكس ذلك على الأحرى. كان ألينجر أشبه بالجثث، شديد الطول، نحو المترين، وقد غاصت مقدمة رأسه داخل جمجمته صانعة ظلالًا على جانب وجهه وجبهته، في الثمانين من العمر، احتفظ بكل

أسنانه التي بدت صغيرة ورمادية اللون تعطي انطباعًا مزعجًا بأنها حُشيَت. تقلص الأب قليلًا. مدت المرأة دون وعي يدها إلى ابنها.

- صباح الخير. أنا دكتور ألينجر. تفضلوا بالدخول.

قال الأب: «أوه مرحبًا، آسف على الإزعاج».

- لا تكلف نفسك العناء. أبوابنا مفتوحة.

قال الأب بمزيج من الحماس وعدم الاقتناع: «جيد! إذن ماذا نفعل؟».

وتراجع صوته وسكت، إما أنه نسي ما سيقوله، وإما لم يكن متأكدًا من كيفية صياغته، وإما أنه كان يفتقر إلى الشجاعة.

تولت زوجته دفة الحديث: «قيل لنا إن لديك معرضًا هنا. هل هذا نوع من المتاحف العلمية؟».

أظهر لهم ألينجر الابتسامة مرة أخرى، وبدأ الجفن الأيمن للأب يرتعش بلا حول ولا قوة.

قال ألينجر: «أوه! توقعتم متحفًا للعلوم؟ هذا هو متحف الصمت».

تمتم الأب، بينما عبست الأم: «ما زلت مقتنعة أنني سمعت خطأً».

قاطع الصبي الحديث: «تعالي يا أمي».

وحل يده من قبضتها: «تعالَ يا أبي. أريد أن أنظر حول المكان، أريد أن أرى».

قال ألينجر وهو يتراجع من ردهة الاستقبال مشيرًا بيد واحدة هزيلة بأصابع طويلة إلى باقي الردهة: «من فضلكم تفضلوا، يسعدني اصطحابكم في جولة».

***

مع الستائر المسدَلة بدت الغرفة بألواحها المصنوعة من خشب الماهوجني قاتمة مثل مسرح في اللحظة التي تسبق إعادة رفع الستار ليستمر العرض. رغم الظلام، أضيئت حوامل المعروضات من الأعلى بكشافات في السقف تسدل دفقات واضحة من النور على الطاولات والركائز. على الرفوف استقرت أكواب زجاجية فارغة مصقولة لدرجة اللمعان، ضوء المصابيح الساطع عليها جعل الغرفة كلها حولها أكثر قتامة.

أُلحِق بكل دورق ما بدا كسماعة طبية مثبّتة، الحجاب على السماعة ذاتها ملتصق بالزجاج وقد تدلت باقي السماعة كأنها في انتظار أن يلتقطها شخص ليضع الطرفين على أذنه ويبدأ في الاستماع. قاد الصبي الطريق، تبعه والداه، ثم ألينجر. توقفوا قبيل المعروضة الأولى، جرة على قاعدة رخامية، تقع خلف مدخل القاعة مباشرة، في طريقهم.

قال الصبي: «لا شيء فيها».

أطل في كل مكان، يتفحص الغرفة بأكملها، الأكواب الأخرى المختومة.

- لا يوجد شيء في أي منهم. إنهم فارغون!

قال الأب عابسًا: «ها».

ثم قال ألينجر: «ليست فارغة تمامًا، كل جرة محكَمة الغلق هنا. يحتوي كل منها على نَفَس شخص محتضر. لديَّ أكبر مجموعة من الأنفاس الأخيرة في العالم، أكثر من مائة. تحتوي بعض هذه الزجاجات على الزفير النهائي لبعض الأشخاص المشهورين جدًّا».

الآن بدأت المرأة تضحك، ضحكات حقيقية وليست من أجل المجاملات الاجتماعية. وضعت يدها على فمها وارتجفت، لكنها لم تستطع منع ضحكاتها تمامًا. ابتسم ألينجر. كان يعرض مجموعته لسنوات. اعتاد كل نوع من ردود الفعل. ومع ذلك، عاد الصبي إلى الدورق أمامه مباشرة، وعيناه تتسعان. التقط سماعات الأذن الخاصة بالجهاز التي بدت عن قرب مختلفة عن السماعة الطبية.

سأل: «ما هذا؟».

قال ألينجر: «منظار الموت، وهو حساس للغاية. ضعه على أذنك إذا أردت، وستتمكن من سماع آخر نفس لوليام ر».

سأل الصبي: «هل هو شخص مشهور؟».

أومأ ألينجر برأسه: «لفترة من الوقت كان من المشاهير، بالطريقة التي يصبح بها المجرمون أحيانًا مشاهير، مصدرًا للغضب العام والافتتان. قبل اثنين وأربعين عامًا جلس على الكرسي الكهربائي. أصدرتُ بنفسي شهادة وفاته. له مكانة شرف في متحفي. كان أول نفس أخير التقطتُه على الإطلاق».

حتى الآن، تمالكت المرأة نفسها، على الرغم من أنها حملت منديلًا مطرَّز الحواشي على شفتيها، بدت وكأنها تعاني كي لا تنفجر من الضحك مرة أخرى.

سأل الصبي: «ماذا فعل؟».

أجاب ألينجر بهدوء: «خنق الأطفال، وضع أجسادهم في المبرد. حفظهم ليخرجهم من حين إلى آخر كي يلقي نظرة عليهم فقط. سيجمع الناس أي شيء، أقول هذا دائمًا».

جثم إلى مستوى الصبي، ونظر معه إلى الجرة المغلَقة: «هيا، استمع إذا أردت».

رفع الصبي سماعات الأذن ووضعهما، ظل بصره ثابتًا ولم يرمش في مواجهة الإناء المملوء بالضوء.

استمع باهتمام لفترة، ثم عقد جبينه وعبس: «لا أستطيع سماع أي شيء».

وبدأ يمد يده لإزالة سماعات الأذن.

حين أوقف ألينجر يده: «انتظر. هناك أنواع مختلفة من الصمت، كالصمت في الصدف، الصمت بعد طلق ناري. لا تزال أنفاسه الأخيرة هناك. تحتاج أذناك إلى وقت للتأقلم. في غضون دقيقة، ستتمكن من تحقيق ذلك وستتمكن من الاستماع إلى صمته النهائي الخاص».

حنى الصبي رأسه وأغمض عينيه. راقبه الكبار معًا، ثم انفتحت عيناه ونظر إلى الأعلى، وكان وجهه الممتلئ يلمع قليلًا بلهفة.

سأله ألينجر: «هل سمعته؟».

خلع الصبي السماعات، وأومأ: «مثل الفواق، فقط من الداخل إلى الخارج! أتعرف؟ مثل...».

توقف عن الكلام وامتص الهواء في شهقة صغيرة قصيرة بلا صوت.

ربت ألينجر على شعره ووقف، بينما جففت الأم عينيها بمنديلها وسألت: «أنت طبيب؟».

- متقاعد.

- ألا تعتقد أن هذا غير علمي إلى حد ما؟ حتى لو تمكنت حقًّا من التقاط آخر جزء ضئيل من أول أكسيد الكربون، في زفير شخص ما.

عدَّلَ عليها: «ثاني أكسيد».

لكنها واصلت وكأنها لم تسمعه: «لن يصدر أي صوت. لا يمكنك أسر صوت أنفاس شخص ما».

أومأ لها: «لا، لكنه ليس صوتًا، هو ما يُعبَّأ، فقط صمت معين. لدينا جميعًا فترات صمت مختلفة. هل يصمت زوجك عندما يكون سعيدًا ويختلف صمته عن صمت آخر عندما يكون غاضبًا منك يا سيدتي؟ يمكن لأذنيك أن تميزا حتى بين أنواع معينة من العدم».

كرهت أن تنادى بالسيدة بهذه الطريقة. ضيَّقت عينيها، وفتحت فمها لتتفوه برد بغيض، لكن زوجها تحدث أولًا، معطيًا ألينجر مساحة وسببًا للابتعاد عنها. كان زوجها قد انجرف إلى جرة موضوعة على منضدة مقابل الحائط، بجانب كرسي مبطن داكن اللون.

تساءل: «كيف تجمع هذه الأنفاس؟».

- باستخدام شفاط. مضخة صغيرة تجذب زفير الشخص إلى حاوية مفرغة من الهواء. أحتفظ بها في حقيبتي الطبية في جميع الأوقات، فقط للاحتياط. الجهاز من تصميمي الخاص، على الرغم من وجود معدات مماثلة منذ بداية القرن التاسع عشر.

قال الأب فجأة: «هذا يقول بو!».

لمس بأصابعه بطاقة عاجية موضوعة على المنضدة قبل البرطمان.

قال ألينجر وهو يسعل بخجل: «نعم، اعتاد الناس جمع الأنفاس الأخيرة منذ بداية اختراع الآلات لجمعها، هذا ما جعل هويتي ممكنة. أعترف أنني دفعت اثني عشر ألف دولار مقابل هذا بالذات، عرضه عليَّ حفيد الطبيب الذي حضر وفاته».

بدأت المرأة تضحك مرة أخرى.

واصل ألينجر بصبر: «قد يبدو هذا مبلغًا كبيرًا من المال، لكن صدقوني، كانت صفقة رابحة. أحد المتاحف في باريس دفع مؤخرًا ثلاثة أضعاف هذا المبلغ مقابل الأنفاس الأخيرة للمغني الأوبرالي إنريكو كاروسو».

وضع الأب سماعات الموت المعلَّقة على الجرة التي تحمل علامة بو بينما قال ألينجر: «بعض الصمت يبدو وكأن له صدى شعوريًّا، الشعور بمحاولة

صياغة كلمة أو فكرة، رغبة لا يمكن التعبير عنها بالكلمات. قيل إن أنفاس بو لها هذا التأثير. استمِع وجرِّب إذا ما كنت ستشعر بهذا أنت الآخر».

انحنى الأب ووضع سماعات الأذن.

قالت المرأة: «هذا سخيف».

استمع الأب باهتمام. اقترب منه ابنه، وضغط نفسه بقوة على ساقه طالبًا: «هل يمكنني الاستماع يا أبي؟ هل يمكنني الحصول على فرصة للاستماع؟».

أشار له والده صارفًا إياه ليصمت. كانوا جميعًا صامتين، باستثناء المرأة التي كانت تهمس لنفسها بنبرة ذهول مضطرب.

أخيرًا حرَّك الأب شفتيه: «ويسكي».

قال ألينجر: «اقلب البطاقة التي عليها اسمه».

قلب الأب البطاقة العاجية التي حمل أحد جانبيها اسم بو، على الجانب الآخر كُتب «ويسكي». أزال سماعات الأذن، ووجهه متهيب، وعيناه تنظران باحترام إلى الجرة، وهو يهمس: «بالطبع. إدمان الكحول. الرجل المسكين».

قال الأب متابعًا: «حفظت قصيدة الغراب كاملة حين كنت في الصف السادس، تلوتها أمام الصف بكامله دون أن أخطئ ولا مرة».

قاطعت المرأة ساخرة: «أوه بالله عليك! هذه خدعة. ربما يكون هناك مكبر صوت مخفي تحت الجرة، وعندما تستمع يمكنك سماع التسجيل، شخص ما يهمس ويبكي».

قال الأب: «لم أسمع همسًا، كانت مجرد فكرة مثل صوت شخص ما في رأسي، مثل خيبة الأمل».

قالت: «إذن الصوت منخفض للغاية، لذا يتحول إلى شيء أشبه بالشعور، مثل ما يفعلونه في الأفلام، الذبذبات أو التوكيدات الذهنية أو أيًّا يكن».

وضع الصبي سماعات الأذن حتى يسمع الشيء نفسه الذي يسمعه والده.

في حين سأل الأب: «هل جميعهم من المشاهير؟».

كانت ملامحه شاحبة، على الرغم من وجود تورد صغير على خديه، كما لو كان مصابًا بالحمى.

قال ألينجر: «لا، على الإطلاق، عبّأتْ تنهدات طلاب الدراسات العليا، والبيروقراطيين، والنقاد الأدبيين، والعديد من النبلاء المتنوعين. واحدة من أروع أصوات الصمت في مجموعتي هي آخر نفَس لبواب».

قالت المرأة وهي تقرأ بطاقة أمام جرة طويلة مغبرة: «كاري مايفيلد، هل هذه إحدى نبلائك؟ دعني أخمن، ربة منزل؟».

قال ألينجر: «لا، لا توجد ربات بيوت في مجموعتي حتى الآن. كانت كاري مايفيلد ملكة جمال فلوريدا الشابة، جميلة إلى أقصى الحدود، كانت في طريقها إلى مدينة نيويورك مع والديها وخطيبها، لتظهر على غلاف مجلة نسائية. حين تحطمت طائرتها في إيفرجليدز. مات الكثير من الناس، كانت كارثة جوية مشهورة. كاري، رغم ذلك، نجت، لبعض الوقت. تناثر وقود الطائرات المحترق عليها في أثناء الهروب من الحطام، واحترق أكثر من ثمانين بالمائة من جسدها. فقدت صوتها وهي تصرخ طلبًا للمساعدة. بقيت في العناية المركزة أكثر من أسبوع بقليل. كنت أدرس حينها، وأحضرت طلاب الطب لرؤيتها من باب الفضول في ذلك الوقت، كان من النادر رؤية شخص ما زال على قيد الحياة وقد حُرق بهذه الطريقة. بشكل شامل. تلتحم أجزاء من جسدها بأجزاء أخرى وهكذا. لحسن الحظ، كان معي جهاز التسجيل الخاص بي، ماتت في أثناء فحصنا لها».

قالت المرأة: «هذا أفظع شيء سمعته في حياتي، ماذا عن والديها؟ خطيبها؟».

- ماتوا في الحادث. احترقوا أمام عينيها حتى الموت. لستُ متأكدًا من أنه عُثر على جثثهم على الإطلاق. التماسيح في هذا المكان... سيئة.

- أنا لا أصدقك، ولا كلمة. لا أصدق أي شيء عن هذا المكان. وأنا لست محرَجة في قول رأيي بأني أعتقد أن هذه طريقة سخيفة جدًا لخداع الناس للحصول على أموالهم.

قال زوجها محاولًا تهدئتها: «الآن يا عزيزتي».

قال ألينجر: «سأذكِّركِ بأنني لم أطلب منك أي مقابل، هذا معرض مجاني».

- أوه! أبي، انظر!

قاطعهم الصبي، من أحد أنحاء الغرفة، وهو يقرأ اسمًا على بطاقة: «إنه الرجل الذي كتب جيمس والخوخ العملاق!».

التفت إليه ألينجر، مستعدًّا لتقديم الشرح الإرشادي من جديد، ثم رأى المرأة تتحرك من زاوية عينه، فاستدار إليها.

قال: «لو كنت مكانكِ لاستمعت إلى أحدهم أولًا».

كانت ترفع سماعات الأذن إلى رأسها.

- بعض الناس لا يهتمون كثيرًا بما لا يمكنهم سماعه في جرة كاري مايفيلد.

تجاهلتْه، ووضعت سماعات الأذن، واستمعت، وفمها محكم الإغلاق. شبَّك ألينجر يديه معًا وانحنى نحوها، وهو يراقب تعابير وجهها.

ثم، دون سابق إنذار، تراجعت خطوة إلى الوراء. كانت لا تزال تضع سماعات الأذن، والحركة المفاجئة جرفت الجرة مسافة قصيرة عبر الطاولة، مما أعطى ألينجر لحظة سيئة وهو يمد يده بسرعة لمنعها من الانزلاق على الأرض. نزعت سماعات الأذن عن رأسها فجأة.

قال الأب غير واعٍ بما يحدث: «رولد دال!».

واضعًا يده على كتف ابنه مبديًا إعجابه بالجرَّة التي اكتشفها الصبي: «لا تمزح. لم تكن تمزح! قطعت شوطًا كبيرًا لتحصل على أنفاس الأدباء، ها!».

قالت المرأة فجأة: «أنا لا أحب هذا المكان».

زاغت عيناها. حدقت إلى الجرة التي تحتوي على أنفاس كاري مايفيلد الأخيرة، ولكن دون رؤيتها. ابتلعت بصخب ويدها على حلقها.

تحرك زوجها عبر الغرفة إليها قلقًا وهو يهمس: «عزيزتي؟».

اقترب منها: «تريدين الذهاب؟ لكننا وصلنا إلى هنا توًّا!».

قالت: «لا أهتم، أريد أن أغادر».

اشتكى الصبي: «أوه، أمي».

قال ألينجر: «آمل أن توقِّعوا في دفتر الزوار الخاص بي».

ثم تبعهم إلى ردهة الاستقبال.

كان الأب حريصًا وهو يلامس مرفق زوجته، ينظر إليها بعينين نديتين قلقتين: «ألا يمكنكِ الانتظار في السيارة بمفردكِ؟ أردنا أنا وتوم النظر حول المكان لفترة أطول».

قالت بصوت عالٍ بعيدًا: «أريد أن نرحل الآن، كلنا».

ساعدها الأب في ارتداء معطفها. دفع الصبي قبضتيه في جيبيه وركل بعنف الحقيبة الطبية القديمة البالية القابعة بجانب حامل المظلة، ثم أدرك ما كان يركل. جثم، ودون أدنى خجل، فتحها لينظر إلى جهاز شفط الأنفاس.

سحبت المرأة قفازاتها بعناية شديدة وشدتها بقوة على أصابعها. بدت بعيدة، تائهة في أفكارها الخاصة، لذلك كانت مفاجأة عندما انتبهت مرة واحدة، لتستدير مثبِّتة نظرها على ألينجر قائلة: «أنت مروِّع، مثل نوع من سارقي القبور».

طوى ألينجر يديه أمامه، ونظر إليها بتعاطف. كان يعرض مجموعته لسنوات. لقد اعتاد كل نوع من ردود الفعل.

قال زوجها: «آه يا عزيزتي. انظري إلى الأمر من منظور مختلف».

قالت وهي تخفض رأسها وتعود إلى نفسها: «أنا ذاهبة إلى السيارة الآن، الحقا بي».

قال الأب: «انتظري! انتظرينا».

لم يكن قد ارتدى معطفه، كما لم يفعل الصبي، الذي كان على ركبتيه، والحقيبة مفتوحة، وأطراف أصابعه تتحرك ببطء فوق الشفاط، وهو جهاز يشبه الترمس المصنوع من الكروم، مع أنابيب مطاطية وقناع بلاستيكي للوجه متصل بأحد أطرافه.

لم تسمع صوت زوجها، لكنها استدارت وخرجت وتركت الباب مفتوحًا خلفها. نزلت من درجات الجرانيت شديدة الانحدار إلى الرصيف، وعيناها متجهتان نحو الأرض طوال الطريق. كانت تتأرجح كمن يمشي في أثناء النوم حين عبرت الشارع. لم تنظر إلى أعلى، لكنها بدأت مباشرة في العبور تجاه سيارتهم على الجانب الآخر من الطريق.

كان ألينجر قد استدار للحصول على دفتر الضيوف، واعتقد أنه ربما سيظل الزائر راغبًا في التوقيع على الأقل عندما سمع صرخة المكابح، والصرير المعدني والاصطدام، كما لو أن سيارة اندفعت إلى شجرة، حتى قبل أن ينظر، علم أنها ليست شجرة.

صرخ الأب ثم صرخ مرة أخرى. عاد ألينجر إلى الوراء في الوقت المناسب لرؤيته يركض على الدرجات، ثم رأى السيارة الكاديلاك السوداء التي توقفت بزاوية غريبة في الشارع، والبخار يتصاعد حول حواف غطاء المحرك المجعد. كان الباب الجانبي للسائق مفتوحًا، ووقف السائق على الطريق، وقبعة على رأسه، حتى حين شعر بالطنين في أذنيه، سمع ألينجر السائق يصيح: «لم تكن تنظر حتى. مشت مباشرة إلى داخل حركة المرور. بحق يسوع المسيح! ما كان يفترض بي أن أفعل؟».

لم يستمع له الأب. كان في الشارع، على ركبتيه، ممسكًا بها. وقف الصبي جوار المعاطف، وسترته على جسده نصفيًّا، يحدق إلى الخارج.

انتفخ الوريد في جبين الطفل بينما صرخ الأب: «طبيب! أرجوكم طبيب!».

نظر إلى الوراء، إلى ألينجر. توجه ألينجر لالتقاط معطفه الخاص عن الخطاف. كانوا في شهر مارس والأجواء ما تزال عاصفة، ولم يكن راغبًا في الإصابة بالبرد. لم يبلغ الثمانين من العمر بسبب الإهمال أو التسرع في القيام بالأشياء. ربت على رأس الصبي وهو يمر، ومع ذلك، قبل أن يصل إلى منتصف الدرج ناداه الطفل: «دكتور...».

تلعثم الصبي، ونظر ألينجر إلى الوراء.

أمسك الصبي حقيبته أمامه وهي لا تزال مفتوحة، ثم قال: «حقيبتك، قد تحتاج إلى شيء فيها».

ابتسم ألينجر باعتزاز، وصعد الدرجات، وأخذها من أصابع الصبي الباردة.

قال: «شكرًا، قد أحتاج إلى ما فيها بالفعل».

***

الشجر الشبحي

قيل إنه حتى الأشجار قد تظهر كأشباح. التقارير الأولى عن مثل هذه الظاهرة شائعة في كتابات علم الباراسيكولوجي، أحد الأمثلة كانت شجرة الصنوبر البيضاء الشهيرة في ويست بلفري بولاية مين، التي قُطعت في عام 1842.

كانت عبارة عن شجرة شاهقة ذات لحاء أبيض أملس لم يرَ مثله أحد من قبل، وبإبر من خشب الصنوبر بلون الفولاذ المصقول. بُني بيت شاي في مكانها، على التل ذاته حيث انتصبت يومًا.

كانت هناك بقعة باردة في ركن من أركان غرفة الطعام الصفراء، منطقة شديدة البرودة حجمها مساوٍ لقطر جذع الصنوبر الأبيض المقطوع. مباشرة فوق غرفة الطعام كانت غرفة نوم صغيرة، تحاشى أي ضيف قضاء ليلته فيها، كل من حاولوا البقاء داخلها خرجوا بالشكوى ذاتها. اندفاع رياح وهمية شديد جعل الجميع عاجزًا عن النوم، مع هدير وكأن الرياح تعبر بين غصون عالية. صوت ضربات غصون خفيفة، وانفجار عاصفة فجأة من أوراق الشجر حول الغرفة. في مارس، كانت الجدران تنزف.

ظهر شبح الأشجار كاملًا في كانانفيل بولاية بنسلفانيا لمدة عشرين دقيقة في أحد الأيام بعام 1959. وهناك صور فوتوغرافية تثبِت الواقعة. وقع الحدث في منطقة جديدة، حي من الطرق المتعرجة والبيوت الصغيرة الحديثة. استيقظ السكان صباح يوم الأحد ليجدوا أنفسهم نائمين في أكشاك

من خشب البتولا التي بدت وكأنها تنمو من أرضية غرف نومهم. في الباحات الخلفية، نما شجر الشوكران تحت سطح حمامات السباحة وهو يتأرجح وينجرف. امتدت الظاهرة إلى مركز تجاري قريب. صار الطابق الأرضي من المتاجر مليئًا بأشجار العليق، والتنورات التي حملت ملصق «نصف الثمن» تدلت من أغصان القيقب، بينما استقر قطيع من العصافير على منضدة الجواهر، ينقر اللؤلؤ وسلاسل الذهب.

بطريقة ما، تخيُّل شبح شجرة أسهل من تخيُّل شبح رجل. فكر فقط في الكيفية التي تنتصب بها الأشجار بمكان واحد لمائة عام، ماصة أشعة الشمس وساحبة الرطوبة من الأرض، تستقي حياتها بلا كلل من التربة، مثل شخص يسحب دلوًا من بئر بلا قاع. تظل جذور الشجرة المقطوعة في الأرض، تشرب لأشهر بعد الموت، لذا فقد اعتادت الحياة، ولهذا لا يمكنها التخلي عنها. شيء اعتاد الحياة الثابتة البطيئة ولم يعرف سواها، لا يمكنك توقع أن يميِّز لحظة انتقاله عبر الخط الفاصل إلى الموت.

بعد أن غادرت، ليس على الفور، ولكن بعد مرور الصيف، قُطعت شجرة النغت التي اعتدنا القراءة أسفل فروعها، التي جلسنا معًا على بطانية النزهة الخاصة بوالدتي، ننام في ظلها، ننصت لأزيز النحل عبر السماء الواسعة.

كانت الشجرة قديمة، فاسدة، حوت حشرات. على الرغم من ظهور براعم جديدة على أغصانها في الربيع. قلت لنفسي إنني لا أريد أن تسقط فجأة دون إنذار على المنزل، رغم أنها لم تمِل نحو المنزل، لكن الآن، أحيانًا عندما أكون هناك، في الساحة المفتوحة الفارغة، وثيابي ترفرف مع الرياح العاصفة حولي، أنظر إلى النقطة الخاوية حيث اعتادت النغت الوجود وأتساءل: ترى ماذا يرفرف أيضًا هنا خارج مجال رؤيتي؟

***

قطور الأرملة

ترك كيليان البطانية فوق جسد جيج، لم يعد راغبًا فيها، تاركًا جيج يرقد على مرتفع صغير فوق جدول أصغر في مكان ما في شرق أوهايو. لم يتوقف عن الحركة لقرابة الشهر بعدها. أمضى معظم صيف عام 1935 في الحصول على توصيلة في عربة التحميل بالقطار المتجه شمالًا وشرقًا، كما لو كان لا يزال في طريقه لرؤية ابن عم جيج الأقرب في نيو هامبشاير رغم أنه لم يكن ليفعل.

لم تعد مقابلة ابن العم هدفًا لكيليان، والآن لم يعد يعرف إلى أين هو ذاهب.

كان في نيو هافن لفترة لكنه لم يمكث هناك. في صباح أحد الأيام، في وقت مبكر من الليل، ذهب إلى مكان كان قد سمع عنه، حيث انبسطت قضبان السكة الحديدية في قوس مفتوح، وكان على القطارات أن تبطئ سرعتها تقريبًا حتى لا تكاد تتحرك. هناك انتظر، جواره كان صبي يرتدي سترة بذلة قذرة غير مناسبة لجسده، عند قاعدة المرتفع، عندما جاء القطار، قفز كيليان من موقعه وركض بجانب القطار، ثم رفع نفسه إلى عربة البضائع، خلفه مباشرة رفع الصبي الآخر نفسه.

ركبا معًا لفترة من الوقت، في الظلام، اهتزت السيارات من جانب إلى آخر والعجلات تدق على المسارات. غرق كيليان في النوم، ليستيقظ شاعرًا بالصبي يسحب إبزيم حزامه، طالبًا منه بضعة قروش. كيليان لم يكن بحوزته بضعة قروش، وحتى لو فعل، لما صرفها بهذه الطريقة.

أمسك الصبي من ذراعيه، ونزع يديه بعيدًا ببعض الجهد، ناشبًا أظافره في الجانب السفلي الناعم من معصم الصبي، ملحِقًا الأذى به عن قصد. أخبره كيليان أن يغادر، ودفعه بعيدًا. أخبر الصبي أنه يبدو كطفل لطيف وسأله لماذا يتصرف بمثل هذه الفظاظة. قال كيليان للصبي أن يوقظه عندما يتوقف القطار في ويستفيلد. جلس الصبي على الجانب الآخر من السيارة، وركبة واحدة مرفوعة على صدره، وذراعاه ملفوفتان حول ركبته، ولم يتكلم. في بعض الأحيان، يحط خط رفيع من ضوء الصباح الرمادي عبر إحدى الشرائح الحديدية في جدار عربة النقل، لينزلق ببطء على وجه الصبي، كاشفًا عن عينيه المحمومتين بالكراهية. نام كيليان مرة أخرى والصبي لا يزال يحدق إليه.

عندما استيقظ، كان الصبي قد ذهب. أشرق النهار كاملًا بحلول ذلك الوقت، لكنه لا يزال باكرًا بما فيه الكفاية وباردًا بدرجة كبيرة، لذلك عندما وقف كيليان في باب العربة نصف المفتوح، خرجت أنفاسه في سُحب من البخار المتجمد. أمسك حافة الباب بيد واحدة، وسرعان ما احترقت الأصابع الموجودة في الخارج بفعل تيار الهواء الحاد الجليدي. هبت الرياح الباردة من خلال البقع المتعرقة على إبط قميصه أيضًا.

لم تكن لديه وسيلة لمعرفة ما إذا كانت ويستفيلد لا تزال أمامه أم لا، شعر أنه نام لفترة طويلة وربما استيقظ متأخرًا، ربما كانت تلك المحطة التي قفز فيها الصبي، بعد ويستفيلد، لن يمروا بأي محطات أخرى حتى ينهي القطار رحلته في نورثهامبتون، ولم يرغب كيليان في الذهاب إلى هناك. وقف عند الباب والريح الباردة تهب عليه. كان يتخيل أحيانًا أنه مات مع جيج، وأنه يتجول منذ ذلك الحين كشبح. لم يكن ذلك صحيحًا. ظلت الأشياء حوله مؤلمة لتذكِّره بأن ذلك لم يكن صحيحًا، كتيبُّس رقبته، وألمه من طريقة نومه، ذكَّراه بما يكفي، أو الهواء البارد الذي يخترق الفتحات الموجودة في قميصه.

في ساحة قطارات في ليما، ضَبَط شرطي السكة الحديدية كيليان وجيج غافيين معًا تحت بطانيتهما المشتركة، مختبئين في سقيفة. ركلهما ليستيقظا وطلب منهما القيام فورًا. عندما لم يفعلا ما أمر بالسرعة الكافية، ضرب الشرطي جيج في مؤخرة رأسه، ودفعه على ركبتيه.

في اليومين التاليين، عندما كان جيج يستيقظ في الصباح، أخبر كيليان أنه كان يرى الموجودات مضاعَفة. اعتقد جيج أن هذا كان مضحكًا. كان

يجلس في مكانه لفترة من الوقت، ويدير رأسه من جانب إلى آخر، ويضحك على مشهد العالم المتضاعف. كان عليه أن يرمش كثيرًا ويفرك عينيه قبل أن تتضح الرؤية. ثم بعد ثلاثة أيام مما حدث في ليما، بدأ جيج في السقوط. كانا يمشيان معًا، ثم لاحظ كيليان فجأة أنه كان يسير بمفرده، حين ينظر إلى الوراء، يرى جيج جالسًا على الأرض، ووجهه شمعيًا وخائفًا.

توقفا في مكان خاوٍ، ليرتاحا ليوم واحد، لكن ما كان عليهما أن يتوقفا، كان على كيليان ألا يسمح لهما بالتوقف، كان عليه أن يقودهما إلى حيث كان هناك طبيب. عرف كيليان ذلك الآن. في صباح اليوم التالي، كان جيج ميتًا بالجدول وعيناه مفتوحتان، متفاجئتان.

سمع كيليان لاحقًا الحكايات حول نيران المخيمات، سمع رجالًا آخرين يتحدثون عن شرطي سكة حديد يُدعى ليما سليم. من أوصافهم، خمن أن هذا هو الرجل الذي ضرب جيج. اعتاد ليما سليم إطلاق النار على المتسلِّلين. قيل إنه أجبر بعض الرجال تحت تهديد السلاح على القفز من قطار يتحرك خمسين ميلًا في الساعة. اشتهر ليما سليم بتلك الأفعال الشاذة التي قام بها. اشتهر بين المتشردين على أي حال.

حكت القصص عن شرطي سكك حديدية آخر في محطة نورثهامبتون، رجل يُدعى أرنولد تشوك كان سيئًا مثل ليما سليم، ولهذا لم يرغب كيليان في الذهاب إلى هناك. بعد وقت طويل من الوقوف في المدخل نصف المفتوح، شعر بالقطار يبطئ. لم يعرف كيليان السبب، ولم تكن هناك بلدة أمامه يمكنه رؤيتها. ربما اقتربوا من مفترق طرق للتبديل بين الخطوط. تساءل عما إذا كان القطار سيتوقف تمامًا، لكنه لم يتوقف، وبعد ثوانٍ قليلة من فقدان السرعة، في سلسلة من الهزات العنيفة السريعة، بدأ يتسارع مرة أخرى. قفز كيليان. لم يكن القطار بالبطء الذي توقعه، وسقط بقوة على قدمه اليسرى، انزلق الحصى بعيدًا تحت كعبه، والتوت قدمه تحته، ثم طعنه ألم حاد في كاحله. لم يصرخ حين هبط مباشرة بوجهه في إحدى الشجيرات المبتلة.

كانوا في بدايات أكتوبر أو نوفمبر، لم يعرف كيليان الوقت بالضبط، لكن في الغابات جوار مسارات القطارات غطى الأرضَ سجادٌ من أوراق الشجر الميتة بلون الصدأ والزبد. عبَرها كيليان وهو يعرج. لم تكن الأشجار خاوية من الأوراق تمامًا، هنا وهناك لمح توهجًا من اللون القرمزي، خطوطًا من البرتقالي. اندثر لون أبيض بارد على الأرض بين جذوع البتولا والتنوب.

جلس كيليان على جذع مبتل لفترة من الوقت، ممسكًا بكاحله برفق بين يديه، بينما ارتفعت الشمس، مبدِّدة ضباب الصباح. كان حذاؤه ممزَّقًا ومثبَّتًا ببعضه بعضًا بواسطة شرائط من الخيش المغطاة بالتراب، وأصابع قدمه شديدة البرودة لدرجة أنها صارت مخدَّرة تقريبًا.

امتلك جيج حذاءً أفضل لكن كيليان تركه بحوذته، تمامًا كما ترك البطانية. حاول أن يصلي على جسد جيج لكنه لم يتذكر أي جملة من الكتاب المقدس، باستثناء الجملة عن مريم التي تحفظ الأشياء، لكن تلك كانت متعلقة بميلاد يسوع، وليست للوداع أو للترحم على رجل ميت.

***

اليوم سيكون دافئًا، عرف كيليان ذلك عندما تمكن من الوقوف أخيرًا، شعر بالبرد المتدفق حوله تحت ظلال شجرة الصنوبر، واصل المسير متتبعًا المسارات الطبيعية بين الأشجار حتى صار كاحله ينبض بشدة ولم يعد بوسعه المضي قدمًا، كان عليه الجلوس على الجسر والاستراحة مرة أخرى. تورمت قدمه بشدة الآن، وحين ضغط عليها، شعر بألم مرير كالكهرباء تخترق العظم. اعتاد الاعتماد على جيج لمعرفة الوقت المناسب للقفز، كان يثق بقدرته على معرفة كل شيء عمومًا.

من بعيد بين الأشجار لمح كوخًا أبيض. نظر إليه كيليان ثم نظر إلى كاحله، ثم رفع رأسه وجال ببصره بين الأشجار. على جذع شجرة صنوبر قريبة، قطع شخص ما بعض اللحاء ونقش علامة X في الخشب، وفرك الفحم في علامة X حتى يبرز باللون الأسود. تحدث بعض المشرَّدين عن علامات سرية يتركها البعض ويستدل بها الآخر. لكن لا هو ولا جيج عثرا على أيٍّ منها قبلًا، هذا لو كانت هناك فعلًا في المقام الأول. ومع ذلك، علامة X مثل هذه تعني أحيانًا أنه يمكنك الحصول على شيء لتأكله في مكان ما قريب. وكيليان الواقف وسط الأشجار كان مدركًا تمامًا للفراغ العاصر في معدته.

مشى بثبات عبر الأشجار إلى الأرض خلف الكوخ ثم تردد عند حافة الغابة. كان الطلاء مقشَّرًا والنوافذ محجوبة بسبب الأوساخ. بالقرب من الجزء الخلفي من المنزل كان جزء من الحديقة محفورًا وممهَّدًا للزراعة، مستطيلًا وبأبعاد تشبه أبعاد القبر، لا شيء نما فيه.

وقف كيليان هناك ينظر إلى المنزل عندما لاحظ الفتيات. لم يرهن في البداية لأنهن انحنين بهدوء وسكينة. قد جاء إلى الكوخ من الخلف، لكن الغابة امتدت إلى أعلى وحول جانب المنزل، وكانت الفتيات هناك، راكعات وسط بعض السراخس وظهورهن إليه. لم يستطع رؤية ما يفعلنه، لكنهن كُن بلا حراك تقريبًا. فتاتان، راكعتان في ثياب فاتحة منقوشة، يتوج رأس كل منهما شعر أشقر أقرب إلى الأبيض، طويل ونظيف ومرتب، وبين خصلات شعر كل منهما لمعت الأمشاط النحاسية الصغيرة.

وقف وراقبهما جاثيتين على ركبتيهما، ساكنتين جدًّا. أدارت إحداهما رأسها ونظرت إليه. كان وجهها على شكل قلب وعيناها حملتا ظلالًا زرقاء جليدية.

نظرت إليه دون أي تعبير. في اللحظة التالية، أدارت الفتاة الأخرى رأسها لتنظر إليه أيضًا. هذه الأخيرة ابتسمت قليلًا. ربما كانت الفتاة المبتسمة في السابعة، بينما خمن أن عمر الأخرى بلا تعبير نحو عشرة أعوام. رفع يده بالتحية. راقبته الفتاة التي لم تبتسم لبرهة، ثم أدارت رأسها بعيدًا. لم يستطع رؤية ما كانت راكعة أمامه، لكن مهما كان فقد حاز اهتمامها تمامًا. لم تلوِّح الفتاة الصغيرة أيضًا، ولكن بدت وكأنها أومأت برأسها قبل أن تعود هي أيضًا لتنظر إلى ما كان موجودًا على الأرض أمامها. صمتهما وسكونهما أزعجه.

تحرك عبر الأرض إلى الباب الخلفي، حيث انبعج الباب الخارجي برتقالي اللون وتكاثف عليه الصدأ، إطاره تحرر في بعض الأماكن وبدا مهملًا. قبل أن يطرق، فُتِح الباب الداخلي أولًا، ومن الداخل ظهرت امرأة. توقف كيليان واضعًا قبعته في يديه ورسم على وجهه تعبيرات التسول. بدت المرأة في الثلاثين، الأربعين، أو الخمسين. يصعب تحديد سنها بالضبط، كان وجهها مشدودًا لدرجة أنه بدا جائعًا تقريبًا وشفتاها رقيقتان وعديمتا اللون. تدلى صحن من حزام الخصر من مئزرها.

قال كيليان: «مرحبًا سيدتي، أنا جائع. كنت أتساءل عما إذا كان بإمكاني تناول شيء ما. لقمة من الخبز المحمَّص ربما».

سألته: «لم تتناول أي فطور في أي مكان؟».

- لا، سيدتي.

- يقدمون وجبة الإفطار في كنيسة القلب المبارك. ألا تعرف ذلك؟

- سيدتي، لا أعرف حتى أين توجد.

أومأت برأسها لبرهة، ثم قالت: «سأحمِّص بعض الخبز، يمكنك الحصول على البيض أيضًا إذا كنت تريده. هل تريده؟».

قال: «أعتقد أنكِ إن قدمتِه فبالتأكيد لن ألقي به في الطريق».

هذا ما اعتاد جيج قوله حين يُعرض عليه أكثر مما يطلب، جعل ذلك ربات البيوت يضحكن، لكنها لم تضحك، ربما لأنه لم يكن جيج ولم يعطِ الكلام الوقع نفسه حين كان صادرًا منه.

بدلًا من ذلك أومأت برأسها مرة أخرى وقالت: «حسنًا، نظِّف قدميك».

نظرت إلى حذائه وتوقفت عن الكلام للحظة.

- انظر إلى ذلك الحذاء! حسنًا حين تدخل اخلع هذا الحذاء فقط واتركه على الباب.

- نعم، سيدتي.

نظر مرة أخرى إلى الفتيات قبل أن يصعد الدرج، لكن ظهورهن كانت له ولم يكترث له. دخل وخلع حذاءه ومشى عبر المشمع البارد بقدميه القذرتين. عانى إحساسًا غريبًا بوخز في كاحله كلما وطئ على قدمه اليسرى. بحلول الوقت الذي جلس فيه كان البيض وسط السمن يُقدح بالفعل في المقلاة.

قالت السيدة: «أعرف كيف انتهى بك الأمر عند بابي الخلفي. أعرف لماذا توقفت عند منزلي. أعرف أنه سبب توقف جميع الرجال الآخرين هنا».

كان يعتقد أنها ستقول شيئًا عن الشجرة مع علامة X عليها، لكنها لم تفعل.

تابعت: «ذلك لأن القطار يسير أبطأ قليلًا في نقطة التبديل على بعد ربع ميل خلف المنزل، كلكم تقفزون من العربات حتى لا تضطرون إلى مقابلة أرنولد تشوك في نورثهامبتون. أليس كذلك؟ هل قفزت عند نقطة التبديل؟».

- نعم، سيدتي.

- بسبب أرنولد تشوك؟

- نعم، سيدتي. سمعت أنه شخص من الأفضل تجنُّبه.

- أرنولد تشوك ليس خطرًا على أي أحد، حصل على هذه السمعة بسبب لقب عائلته فقط. الرجل كبير في السن وسمين، وإذا هرب أحدكم منه

من المحتمل أن يفقد وعيه في أثناء ملاحقته. لا يعني هذا أنه سيلاحق أحدًا أو سيركض أصلًا. ربما يركض إلى مكان ما إذا سمع أنهم يبيعون البرجر بهدية إضافية مقابل عشرة سنتات مثلًا.

توقفت عن الكلام لحظة ثم واصلت: «اسمع الآن، ذاك القطار يسير بسرعة ثلاثين ميلًا في الساعة عندما يقترب من نقطة التحويل. بالكاد يبطئ على الإطلاق. القفز من هناك أخطر بكثير من الذهاب إلى ساحة نورثهامبتون».

قال: «نعم، سيدتي».

وفرك ساقه اليسرى. بينما واصلت: «حاولت فتاة حامل النزول هناك العام الماضي، قفزت مباشرة إلى شجرة وكسرت رقبتها. هل تسمعني؟».

- نعم، سيدتي.

- فتاة حامل، تسافر بصحبة زوجها. يجب عليك تمرير هذه المعلومة. دع الآخرين يعرفون أنه من الأفضل لهم البقاء في القطار حتى تصبح الفرصة جيدة للتوقف والقفز. ها هو البيض. هل ترغب في بعض المربى على هذا الخبز المحمص؟

- إذا لم تكن هناك مشكلة، سيدتي. شكرًا سيدتي. لا أستطيع أن أخبرك كم هي طيبة هذه الرائحة.

استندت على منضدة المطبخ ممسكة بملعقتها وشاهدته يأكل. لم يتكلم، بل أكل بسرعة، وطوال ذلك الوقت كانت تحدق إليه ولم تقل شيئًا.

قالت عندما انتهى: «سأضع زوجين آخرين في المقلاة من أجلك».

- شكرًا لكِ، لا داعي لتعبكِ سيدتي، هذا كثير.

- لا تريدهما؟

تردد، غير متأكد من كيفية الإجابة؛ كان سؤالًا صعبًا.

قالت: «أنت راغب فيهما».

وكسرت بيضتين في مقلاتها.

سأل: «هل الجوع بادٍ عليَّ؟».

- الجوع ليس الكلمة التي قد أصفك بها. لديك هذه النظرة، مثل الكلب الضال. على استعداد لقلب علب القمامة بحثًا عن شيء يأكله.

عندما وضعت الطبق أمامه قال: «إذا كان بوسعي تقديم أي شيء مقابل كل هذا سيدتي، سأكون سعيدًا لتقديمه».

وأجابت: «شكرًا لك. لكن لا يوجد شيء يمكنك فعله هنا».

- أتمنى لو كنتِ فكرتِ في شيء ما. أنا أقدِّر أنكِ فتحتِ لي مطبخكِ بهذه الطريقة. أنا لست بلا ضمير. ليس لديَّ مشكلة في العمل.

- من أين أنت؟

- ميسوري.

- خمنتُ أنك جنوبي. لديك لكنة غريبة بعض الشيء. إلى أين أنت ذاهب؟

قال: «لا أعرف».

لم تسأله عن أي شيء آخر، وقفت أمام المنضدة بملعقتها وشاهدته مرة أخرى وهو يأكل. ثم خرجت وتركته وحده في المطبخ.

عندما انتهى، جلس إلى الطاولة غير واثق مما يجب فعله، أو ما إذا كان يجب أن يذهب. بينما كان يحاول اتخاذ القرار، عادت وهي تحمل في يدها زوجين من الأحذية السوداء المسطحة، وزوجين من الجوارب السوداء في اليد الأخرى.

قالت: «ارتدِها واكتشف ما إذا كانت مناسبة».

- لا، سيدتي. لا أستطيع.

- بل تستطيع وستفعلها، ضع الحذاء، تبدو قدماك بالمقاس المناسب لها.

ارتدى الجوارب وشد الحذاء عليها. تألم مع قدمه اليسرى، شعر بطعنة ألم حادة في الكاحل.

شهق بقوة فسألت مستفسرة: «هل هناك شيء خاطئ في تلك القدم؟».

- أنا... لويتها.

- في أثناء النزول من ذلك القطار؟ عند التحويلة؟

- نعم، سيدتي.

هزت رأسها في وجهه: «سيموت آخرون. كل ذلك خوفًا من رجل عجوز سمين بستِّ أسنان في فمه».

كان الحذاء فضفاضًا بعض الشيء، ربما أكبر بمقاس كامل من قدمه. كان الجلد أسود ونظيفًا مع سحَّاب عند الأطراف، بدا وكأنه ارتُدي بالكاد.

سألته السيدة: «هل ناسبك؟».

- نعم. لكن لا يمكنني أخذه رغم ذلك. هذا الحذاء جديد.

- بل ستأخذه، لم يعد يقدِّم أي فائدة لي ولا عاد زوجي بحاجة إليه. مات في يوليو.

- أنا آسف.

قالت دون تغيير في تعبيرات وجهها: «وأنا كذلك».

ثم تابعت: «هل ترغب في بعض القهوة؟ لم أقدم لك القهوة».

لم يرد فسكبت له فنجانًا، ولنفسها كوبًا، وجلست إلى الطاولة.

قالت: «مات في حادثة شاحنة، حين انقلبت شاحنة النقل، لم يكن الوحيد الذي مات. قتل معه خمسة رجال آخرين. ربما قرأت عنها، جاء الخبر في صحف عديدة».

لم يرد. لم يسمع بها.

تابعت: «كان زوجي يقودها. يقول البعض إنه كان خطأه، وإنه كان مهمِلًا في القيادة. حققوا في الحادث. أعتقد أنه ربما كان خطأه».

سكتت برهة ثم قالت: «الشيء الجيد الوحيد في وفاته هو أنه ليس مضطرًّا إلى الحياة حاملًا هذا الذنب على أكتافه، العيش بذنب القتل، كان هذا ليأكله من الداخل».

تمنى كيليان لو كان جيج. جيج كان سيعرف ما يقوله. كان بوسعه أن يمد يده عبر الطاولة ليلمس يدها مواسيًا. بينما كيليان، كيليان جلس هنا فقط في حذاء الرجل الميت مفكرًا في قول شيء ما بلا فائدة.

في النهاية قال: «أفظع الأشياء تحدث لأفضل الناس، أروع الناس، في معظم الأحيان بلا أي سبب على الإطلاق. مجرد حظ غبي. إذا كنتِ لا تعرفين على وجه اليقين أن هذا كان خطأه، فلماذا تؤلمين نفسك بالتفكير في أنه كان؟ فقدان شخص صعب دون الحاجة إلى كل هذه الأفكار».

قالت وهي تومئ له: «أنا... سوف أحاول ألا أفكر في الأمر».

ثم تابعت: «أفتقده، لكنني أشكر الله كل ليلة على الاثني عشر عامًا التي قضيناها معًا. أشكر الله على بناته. أرى عينيه في أعينهن».

قال: «نعم».

- إنهن لا يعرفن ما عليهن فعله، لم يَكُن قط في مثل هذه الحالة من الضياع.

من جديد قال: «نعم».

جلسا إلى الطاولة صامتين قليلًا، ثم قالت المرأة: «تبدو بمثل حجمه ككل، يمكنني إعطاؤك أحد قمصانه وبنطلونًا بالإضافة إلى الجزمة».

- لا، سيدتي. لا يمكنني قبول كل هذه الأشياء منك وأنا أعرف أنني لن أتمكن من دفع ثمنها.

- أوه! توقف عن هذا، لن نتحدث عن الدفع. ابحث عن كل جزء صغير من الخير يمكن أن يأتي من ذلك الحادث. أود إعطاءك الثياب، من شأن هذا أن يجعلني أشعر بالتحسن.

ابتسم مأخوذًا بشعرها رمادي اللون، الملفوف في كعكة خلف رأسها، لكن حيث جلست الآن في ضوء الشمس الخافت الآتي من إحدى النوافذ، رأى للمرة الأولى أن شعرها كان أشقر مائلًا إلى الأبيض مثل بناتها.

قامت وخرجت مرة أخرى. بينما كانت بعيدة، أتم تنظيف الأطباق. عادت المرأة في وقت قصير مع بنطلون كاكي وحمالات وقميص ثقيل منقوش وقميص داخلي. وجهته إلى غرفة نوم خلفية خارج المطبخ وتركته ليرتدي ملابسه.

كان القميص كبيرًا وفضفاضًا وعليه رائحة ذكورية باهتة، غير مستحَبة، أيضًا رائحة دخان الغليون. تذكر كيليان أنه قد رأى غليونًا فوق الموقد.

خرج بملابسه المتسخة والممزَّقة تحت ذراعه، وهو يشعر بالنظافة والانتعاش وبأنه شخص طبيعي، بالإضافة إلى الامتلاء اللطيف في معدته. جلست إلى الطاولة ممسِكة بإحدى فردتي حذائه القديم. كانت تبتسم بصوت خافت، وتقشر غطاء الخيش المغطى بالطين حولها.

قال كيليان: «كسبَ هذا الحذاء الحق في أخذ استراحة، أكاد أشعر بالخجل من الطريقة التي أعدتُ استخدامه بها».

رفعتْ رأسها وحدقت إليه بهدوء. نظرتْ إلى سرواله الذي ثنى أطرافه حول كاحليه أكثر من مرة ليصير أقصر.

قالت: «لم أكن متأكدة مما إذا كان بحجمك أم لا، اعتقدت أنه كان أكبر، لكنني لم أكن أعرف. اعتقدت أن ذاكرتي تهيئ لي أنه أكبر».

قال: «بالفعل، كان كبيرًا كما تتذكرين».

وأجابت: «كلما ابتعدتُ عنه أكثر، مر الوقت، يصير أكبر في ذاكرتي».

لم يكن بإمكانه فعل شيء لتسديد ما يدين به مقابل الملابس والطعام. أخبرته أن نورثهامبتون كانت على بعد ثلاثة أميال وأنه يجب أن يذهب الآن، لأنه من المحتمل أن يكون جائعًا مرة أخرى بحلول الوقت الذي يصل فيه إلى هناك، تحدثتْ عن الغداء في كنيسة القلب المبارك للسيدة العذراء مريم، يمكنه الحصول على وعاء من الفاصوليا وشريحة من الخبز هناك.

أخبرته أيضًا بوجود قرية صغيرة على الجانب الشرقي من نهر كونيتيكت، ولكنها نصحته بعدم البقاء طويلًا إذا ذهبَ إليها، لأنها غالبًا ما دوهِمَت وكثيرًا ما قُبِض على الرجال بسبب النوم في العراء. عند الباب، قالت إنه من الأفضل أن يُقبَض عليك في ساحة القطار بدلًا من محاولة القفز مبكرًا إلى الأرض من فوق عربة تسير بسرعة كبيرة.

قالت إنها لا تريده أن يقفز من أي قطارات أخرى، باستثناء القطارات التي توقفت بالفعل، أو تسير ببطء؛ قد يحصل على ما هو أسوأ من كاحل ملتوٍ في المرة القادمة. أومأ برأسه وسأل مرة أخرى إذا كان هناك أي شيء يمكنه أن يفعله لها. قالت إنها أخبرته للتو بشيء يمكنه أن يفعله لها.

أراد أن يمسك بيدها. جيج كان ليمسك بيدها. وعدها بالدعاء لها ولزوجها الذي فقدته. تمنى أن يخبرها عن جيج. وجد كيليان نفسه -مع ذلك- عاجزًا عن لمس يدها، أو تحريك ذراعيه بأي شكل من الأشكال، ولم يثق في صوته للتحدث. غالبًا ما صدمه نبل بعض الناس الذين قدموا له معروفًا وهم بالكاد يملكون ما يقدمونه، في بعض الأحيان شعر بأن لطفهم قوي حد سحق أحشائه من فرط التقدير والحساسية.

في طريقه عبر الفناء إلى الطريق في ملابسه الجديدة، نظر إلى الأشجار ورأى الفتاتين بين السراخس. كانتا واقفتين الآن، وكلٌّ منهما تحمل باقة من

الزهور القديمة، محدِّقتين إلى الأرض. توقف وراقبهما متسائلًا عما تفعلان، ما الذي كان على الأرض خلف السرخس الذي لم يستطع رؤيته؟

وبينما كان واقفًا هناك، أدارت كلتاهما رأسها، أولًا الفتاة الأكبر سنًّا، ثم أختها الصغرى، تمامًا كما حدث قبل ذلك، ونظرتا إليه.

ابتسم كيليان بتردد ومشى يعرج عبر الطريق في اتجاههما. خاض في السرخس المبلل بالندى ليقف خلفهما. على بعد بسيط من حيث وقفت الفتاتان كانت قطعة أرض خاوية يغطيها كيس أسود تفترشه فتاة ثالثة، الأصغر سنًّا حتى الآن، ترتدي فستانًا أبيض مع درزات من الدانتيل على الياقة والأكمام. كانت يداها البيضاوان العظميتان بلون الخزف مطويتين على عظمة صدرها، تحتضنان باقة ورود صغيرة. كانت عيناها مغلقتين. ارتجفت عضلات وجهها وهي تكافح حتى لا تبتسم. لم تكن أكثر من خمس سنوات، مع إكليل من زهور الأقحوان المجفَّفة حول شعرها الأشقر، وكومة من الزهور الذابلة الميتة عند قدميها، فُتِحَ الكتاب المقدس بجانبها.

قالت الفتاة الكبرى: «ماتت أختنا كيت».

قالت الابنة الوسطى: «هذا هو المكان الذي نمارس فيه مراسم الجنازة».

استمرت كيت في الاستلقاء فوق كيس الجثث الأسود. ظلت عيناها مغلقتين، لكن كان عليها أن تعض شفتيها حتى لا تبتسم.

سألت الابنة الوسطى: «هل تريد أن تلعب؟ هل تريد أن تلعب اللعبة؟ يمكنك الاستلقاء. تستطيع لعب دور الشخص الميت ويمكن أن نغطيك بالزهور ونقرأ من الكتاب المقدس ونتلو ترنيمة».

قالت الفتاة الكبرى: «سأبكي، أستطيع أن أبكي وقتما أريد».

وقف كيليان هناك ناقلًا نظره من الفتاة إلى الأرض، ثم إلى الفتاتين من جديد قبل أن يقول أخيرًا: «لا أعتقد أنني أفضِّل هذا النوع من الألعاب، لا أريد أن ألعب دور شخص ميت».

رفعت البنت الكبرى نظرها إليه، محدِّقةً إلى وجهه: «لمَ لا؟».

- أنت ترتدي الزي المناسب للمناسبة بالفعل.

***

بوبي كونروي يعود من الموت

لم يتعرف عليها بوبي في البداية. كانت مصابة مثله. أول ثلاثين وصلوا، جميعهم كانوا مصابين بجروح، صنعهم توم سافيني بنفسه.

كان وجهها أزرق فضيًّا، وعيناها غارقتين في تجاويف داكنة، وحيث حلَّت أذنها اليمنى صارت الآن حفرة خشنة الحواف، مكانًا خاويًا كشف عن كتلة من العظام الحمراء الرطبة. جلسوا على مسافة متباعدة مستندين على الحائط الحجري حول النافورة المغلقة. وازنت صفحاتها على ركبتها، ثلاث صفحات قد دُبِّست معًا، أخذت تنظر إليها عابسة بتركيز. على عكس بوبي الذي قرأ نصه بينما كان ينتظر في الطابور للذهاب إلى الماكياج.

ذكَّره بنطالها الجينز بهارييت رذرفورد. كانت هناك رقع في كل مكان، رقع تبدو وكأنها مصنوعة من مناديل، مربعات من الأحمر والأزرق الداكن، عليها أنماط فارسية مطبوعة. دائمًا ما كانت هارييت ترتدي هذه النوعية من الجينز، وقد اعتاد بوبي الشعور بالإثارة من الرقع المخاطة على مؤخرة السراويل الجينز النسائية.

تبعت نظرته منحنى ساقيها إلى أسفل حيث انثنى بنطالها الجينز الأزرق عند الكاحل، ثم إلى قدميها العاريتين. كانت قد خلعت حذاءها، واستمرت في لوي أصابع قدم واحدة في أصابع القدم الأخرى. عندما رأى هذا شعر بقلبه يندفع بنوع من الصدمة الحلوة المؤلمة.

قال: «هارييت؟ أوه! هل تلك هي هارييت رذرفورد الصغيرة التي كنت أكتب لها قصائد الحب في المدرسة الثانوية؟».

رمته بنظرة جانبية من فوق كتفها. لم تكن بحاجة إلى الإجابة. كان يعلم أنها هي. حدقت لفترة طويلة، ومر الوقت، ثم اتسعت عيناها قليلًا. كانت خضراء زاهية للغاية، وللحظة رآها تتألق كأنها عرفته، لكنها أدارت رأسها بعيدًا، وعادت لتصفُّح صفحاتها.

قالت: «لم يكتب لي أحد قط قصائد الحب في المدرسة الثانوية. لتذكرتها لو كانت حدثت. كنت سأموت من السعادة».

- في فترة العقاب بعد الدوام، ألا تتذكرين؟ بعد الخدعة التي قمتِ بها في المسرحية الهزلية. حين نحتِّ خيارة وأخبرتِ الجموع أنها في حاجة إلى أن تطبخ لمدة ساعة في الحرارة لتستوي! كانت اللحظة الأفضل على الإطلاق في أي عرض كوميدي.

- لا، لديَّ ذاكرة جيدة ولا أتذكر هذا العرض الكوميدي.

نظرت إلى أسفل إلى الصفحات على ركبتها، ثم عادت تسأل: «هل تتذكر أي تفاصيل عن هذه القصائد التي من المفترض أنني أعرفها؟».

- ماذا تعنين؟

- أعني أنه ربما لو تمكنت من تذكر شيء من إحدى هذه القصائد، فإن سطرًا واحدًا منها سيمزق نياط قلبي لتندفع خلفه ذكرى باقي القصائد كلها!

لم يكن يعرف ما إذا كان يستطيع في البداية. ظل يحدق إليها بهدوء، ولسانه مضغوط على شفته السفلى، محاولًا استدعاء شيء ما وعقله فارغ بعناد.

ثم فتح فمه وبدأ في الكلام متذكرًا وهو يتكلم: «أحب مشاهدتك في أثناء الاستحمام. آمل ألا يكون هذا وقِحًا».

- لكن عندما أراك تغسل جسدك، أشعر بالنشوة!

صرخت هارييت، ووجَّهت جسدها نحوه: «بوبي كونروي، اللعين، تعال إلى هنا وعانقني دون إفساد مكياجي».

انحنى نحوها ووضع ذراعيه حول ظهرها الضيق، أغمض عينيه وعصره، وشعر بسعادة سخيفة، ربما كانت أسعد ما شعر به منذ عودته للعيش مع والديه. لم يقضِ يومًا في مونروفيل لم يفكر فيه في رؤيتها. كان مكتئبًا، يحلم بلقائها في يوم من الأيام، قصص خلقَها في رأسه عن لحظة اللقاء، بدأت بهذه اللحظة بالضبط أو ليست بالضبط لكن ما يشبه هذه اللحظة، لم يكن يتخيل كلاهما كجثث متحللة جزئيًّا، لكنه خيال قريب بدرجة كافية.

عندما استيقظ كل صباح، في غرفة نومه فوق مرأب والديه، شعر بالفتور والملل. كان يرقد على مرتبته المتكتلة يحدق إلى شبابيك السطح العلوية الملأى بالغبار، والتي ظهرت من خلالها السماء بلا شكل، بيضاء وفارغة.

لا شيء فيه أراد النهوض. ما جعل الأمر أسوأ أنه لا يزال يتذكر ما شعر به عند الاستيقاظ في السرير نفسه مع إحساسه كمراهق بإمكانياته اللامحدودة، الاستيقاظ مشحونًا بالحماس لهذا اليوم. كان يحلم بمقابلة هارييت مرة أخرى، ومواصلة صداقتهما القديمة، حتى وإذا كانت أحلام اليقظة في الصباح الباكر تتحول أحيانًا إلى أحلام حميمية صريحة، إذ كان يتذكر وجوده معها في كوخ والدها، وظهرها على الأسمنت الملطَّخ، لا تزال ترتدي جواربها على الأقل، شيء لتحريك دمه قليلًا، وجعله يُثار. كل أحلام اليقظة الأخرى كانت بها أشواك. كان التعامل معها يهدد دائمًا بوخز حاد مفاجئ من الألم.

واصلا العناق حتى تحدث الصوت الصغير جوارهما: «أمي، مَن تعانقين؟».

فتح بوبي كونروي عينيه، وحوَّل بصره إلى اليمين. كان هناك صبي ميت صغير ذو وجه أزرق وشعر أسود رقيق يحدق إليهم، يرتدي سترة بغطاء للرأس، وقلنسوة. ثم، ببطء، انزلقت ذراعاها بعيدًا. نظر بوبي إلى الصبي لفترة طويلة، لم يكن الصبي أكبر من ست سنوات، ثم ألقى عينيه على يد هارييت، وخاتم الزواج على إصبعها.

نظر بوبي إلى الصبي، وأجبر نفسه على الابتسام. كان بوبي قد شارك في أكثر من سبعمائة تجربة أداء خلال السنوات التي قضاها في مدينة نيويورك، وكان لديه قائمة كاملة من الابتسامات المزيفة.

قال بوبي: «مرحبًا، أنا بوبي كونروي. أنا وأمك أصدقاء قدامى منذ زمن طويل، منذ أن جابت حيوانات الماستودون المنقرضة الأرض».

قال الصبي: «بوبي هو اسمي أيضًا. هل تعرف الكثير عن الديناصورات؟ أنا شخصيًا معجب كبير بالديناصورات».

شعر بوبي بألم بدا وكأنه يعبر في منتصفه. ألقى نظرة خاطفة على وجهها رغمًا عنه، لم يستطع منع نفسه ووجد هارييت تراقبه. كانت ابتسامتها قلقة ومضغوطة.

قالت: «اختاره زوجي».

كانت لسبب ما تربت على ساق بوبي.

- بعد مباراة اليانكي. إنه من ألبانيا في الأصل.

قال بوبي للصبي: «أعرف العديد من الأشياء عن حيوانات الماستودون. الأفيال الكبيرة المشعرة بحجم الحافلات المدرسية. جابوا هضبة بنسلفانيا بأكملها يومًا ما، وتركوا رقعًا من براز حيوان الماستودون الجبلي في كل مكان، والذي أصبحت إحداها فيما بعد بيتسبرغ».

ابتسم الصبي، وألقى نظرة سريعة على والدته، ربما لتقييم ما فعلتْه من هذه الإشارة المرتجلة إلى البراز. ابتسمت بتساهل.

رأى بوبي يد الصبي وصاح: «يا للقرف! واو! هذا هو أفضل جرح رأيته طوال اليوم. ما هذا؟ يد مزيفة؟».

كانت ثلاث أصابع مفقودة من يد الصبي اليسرى. أمسكها بوبي وانتزعها، متوقعًا أن تخرج في يده، لكنه كان دافئًا ولطيفًا تحت المكياج الأزرق، وأخرجها الطفل من قبضة بوبي.

قال: «لا، إنها يدي فقط. هكذا هي».

احمر بوبي بشدة لسعت أذنيه، وكان ممتنًا لتركيبته. لمست هارييت معصم بوبي.

قالت: «أصابعه مفقودة في الواقع».

نظر إليها بوبي، وهو يكافح من أجل تقديم اعتذار. كانت ابتسامتها منزعجة بعض الشيء الآن، لكنها لم تكن غاضبة منه بشكل واضح، وكانت اليد على ذراعه علامة جيدة.

أوضح الصبي: «وضعتهم في المنشار الكهربائي بالخطأ، لكنني لا أتذكر لأنني كنت صغيرًا جدًا».

قالت هارييت: «دين حطَّاب».

سأل بوبي وهو يرفع رأسه ويقدم استعراضًا بالنظر حوله، على الرغم من أنه بالطبع لم يكن لديه أي فكرة عما قد يبدو عليه زوج هارييت: «هل دين هنا في مكان ما؟».

كان كلا الطابقين من المنطقة الاستعراضية في وسط المركز التجاري مزدحمين بأشخاص آخرين مثلهم، ملوَّنين ليبدوا وكأنهم ماتوا مؤخرًا. جلسوا معًا على مقاعد، أو وقفوا معًا في مجموعات، يتحادثون، يضحكون على جروح بعضهم بعضًا، أو ينظرون إلى الصفحات المطبوعة التي حصلوا عليها من السيناريو. أغلِق المركز التجاري ببوابات فولاذية سُحبت إلى أسفل أمام مداخل المتاجر، وأخلوا المكان من أي أحد لا ينتمي إلى طاقم الفيلم أو الموتى الأحياء.

قالت هارييت: «لا، أوصلنا وذهب إلى العمل».

- في يوم أحد؟!

- يمتلك عمله الخاص.

حاول إيجاد الجملة المناسبة تمامًا لقولها في هذا الموقف، صمت مؤقتًا، مفكِّرًا، ثم تجلى له أن السخرية من عمل الزوج أمام الصبي ذي الأعوام الخمسة وزوجته لم يكن قرارًا حكيمًا. لا يهم إن كان هو وهارييت أفضل صديقين يومًا ما والمِلكين المتوَّجين للعروض الهزلية المسماة بـ «الضحك حتى الموت» في مرحلة الدراسة الثانوية.

قال بوبي معلِّقًا على العمل الخاص، صارفًا التفكير الزائد: «فعلًا! هذا جيد».

قال الطفل الصغير فجأة: «أحب الجروح الكبيرة في وجهك».

مشيرًا إلى جبين بوبي. كان بوبي يعاني جرحًا مزعجًا في فروة الرأس، وجلده مفتوح على العظم المتكتل.

- ألا تعتقد أن الرجل الذي جعلنا موتى كان رائعًا؟

أخاف توم سافيني بوبي قليلًا في الواقع، وقد استعان بكتاب مفتوح أمامه يعرض صور التشريح في أثناء وضع المكياج للجميع وأولهم بوبي. الأشخاص في تلك الصور، بلحمهم المشوَّه ووجوههم البائسة، كانوا موتى

حقًّا، ولن يستيقظوا لاحقًا لتناول فنجان من القهوة من طاولة تقديم الخدمات. درس سافيني جروحهم بتقدير هادئ، مثل أي رسام يتفقد موضوع فنه.

لكن بوبي رأى ما عناه الطفل، عن كيفية كونه رائعًا، مع سترة جلدية سوداء، وحذاء دراجة نارية، ولحية سوداء، وحواجب سوداء كثيفة تنحني بحدة إلى الأعلى، مثل دكتور سبوك أو بيلا لوغوزيه. بدا مكياجه وكأنه إله يعزف في فرقة ميتال.

***

صفق أحدهم بيديه، ونظر بوبي حوله. بالقرب من أسفل السلم المتحرك وقف المخرج -جورج روميرو-، رجل طويل يزيد طوله على مترين، بلحية بنية كثيفة. لاحظ بوبي أن العديد من الرجال العاملين في الطاقم كانوا ملتحين. كان لدى الكثير منهم شعر بطول الكتف أيضًا، وكلهم انتعلوا أحذية الجيش البحرية وأحذية سائقي الدراجات النارية، بحيث بدوا كمجموعة من الثوار الخارجين عن القانون.

اجتمع بوبي وهارييت والصغير بوب مع الآخرين لسماع ما قاله روميرو. كان صوته مدويًا وواثقًا، وعندما ابتسم كانت ابتسامة عريضة، وخداه غائرين، على الرغم من اللحية. سأل إذا كان أي شخص حاضر هنا يعرف أي شيء على الإطلاق عن صناعة الأفلام. عدد قليل من الناس -بمن فيهم بوبي- رفعوا أيديهم. شكر روميرو الله على أن أحدًا في هذا المكان يعرف، وضحك الجميع. بدأ يرحب بهم جميعًا في عالم صناعة أفلام هوليوود ذات الميزانيات الكبيرة، وضحك الجميع على ذلك أيضًا، لأن جورج روميرو صنع أفلامًا فقط في بنسلفانيا، وكان الجميع يعلم أن «فجر الموتى الأحياء» كان بميزانية أقل من المنخفضة، أعلى بخطوة واحدة من عدم وجود ميزانية على الإطلاق.

قال إنه ممتن لهم جميعًا لحضورهم اليوم، وإنه لمدة عشر ساعات من العمل الشاق، الذي سيختبرهم جسدًا وروحًا، سيُدفَع أجرهم نقدًا، وهو مبلغ ضخم لدرجة أنه لم يجرؤ على نطق الرقم بصوت عالٍ، يمكنه إظهاره فقط. كان يحمل مجموعة من فئة الدولار الواحد، ثم جاءت موجة أخرى من الضحك. قبل أن ينحني توم سافيني من الطابق الثاني من فوق الدرابزين ويصرخ: «لا تضحكوا، هذا أكثر مما يتقاضاه معظمنا مقابل العمل على هذا الهراء».

قال جورج روميرو: «الكثير من الناس في هذا الفيلم يعملون لحب العمل لا أكثر».

صاح البعض في الحشد: «توم ضمن فريق العمل لأنه يحب تغطية الناس بالقيح».

صرخ روميرو: «صديد مزيف! صديد مزيف!».

ردد سافيني من مكان ما في الأعلى، وهو يبتعد بالفعل عن السور، بعيدًا عن الأنظار: «أنت تتمنى لو كان مزيفًا».

المزيد من الضحك. كان بوبي يعرف شيئًا أو شيئين عن الضحكات الهزلية المفتعَلة، وكان لديه شك في أن هذا الجزء من الخطاب دُرِّب عليه، وصدر بهذه الطريقة بالضبط، بعد ترديده لأكثر من مرة.

تحدث روميرو لبعض الوقت عن الحبكة. كان الموتى حديثًا يعودون إلى الحياة، أحبوا أكل الناس. في مواجهة الأزمة انهارت الحكومة. لجأ أربعة أبطال شباب إلى هذا المركز التجاري. تشتت انتباه بوبي، ووجد نفسه ينظر إلى بوبي الآخر، صبي هارييت. كان بوب الصغير ذا وجه طويل ونحيف، مع عينين بلون الشوكولاتة الداكنة، وشعر أسود كثيف ملتوٍ أشعث. في الواقع، كان لدى الصبي شبهٌ غريبٌ مع بوبي نفسه، الذي كان لديه أيضًا عينان بنيتان، ووجه نحيل، وكتلة كثيفة غير مرتَّبة من الشعر الأسود على رأسه.

تساءل بوبي عما إذا كان دين يشبهه. جعلت الفكرة دماءه تغلي بشكل غريب. ماذا لو جاء دين ليرى كيف كان أداء هارييت والصغير بوبي واتضح أن الرجل هو توأمه بالضبط؟ روَّعته الفكرة حتى إنه شعر بالضعف لثوانٍ، لكنه بعد ذلك تذكر أنه لا شيء سوى جثة، بوجه أزرق، وجرح في فروة الرأس. حتى لو كانا متماثلين تمامًا في الواقع فلن يبدوَا متشابهين.

قدم روميرو بعض التعليمات النهائية حول كيفية المشي مثل الزومبي، تلك التي وضحها خلال السماح لعينيه بالتدحرج في تجويفيهما لتختفيا ويحل محلهما البياض داخل وجه مرتخٍ، ثم وعدهم بأنهم سيصيرون مستعدين لبدء تصوير اللقطة الأولى في غضون بضع دقائق.

دارت هارييت إلى الخلف، واستدارت في مواجهته، ويدها مقبوضة على وركها، وجفونها ترفرف بطريقة مسرحية. استدار في الوقت نفسه، وكادا يصطدمان ببعضهما بعضًا. فتحت فمها للتحدث ولكن لم يخرج شيء. كانا

يقفان بالقرب من بعضهما بعضًا، وبدا أن القرب الجسدي غير المتوقَّع قد نال منها. عجز عن استجماع ما رغب في قوله أيضًا، فجأة اختفت كل الأفكار من عقله. ضحكت وهزت رأسها، وهو رد فعل صدمه لأنه بدا مصطنعًا، تعبيرًا عن القلق وليس السعادة.

قالت: «دعونا نجلس».

تذكر في الماضي، في الأوقات التي لم تمضِ فيها الأمور على ما يرام في المسرحيات الهزلية، حين تبدأ في معاناة إحدى نوبات الهلع. اعتادت هارييت تبديل شخصيتها لتنتحل شخصية جون واين على خشبة المسرح، عادةً قد كرهها وقتها لكن في هذه اللحظات وجدها محبَّبة.

سأل بوب الصغير قاطعًا حبل أفكاره: «هل سنفعل شيئًا ما قريبًا؟».

قالت: «قريبًا، لم لا تجرب كيف تكون زومبي؟ هيا اذهب، ترنح لبعض الوقت».

جلس بوبي وهارييت على حافة النافورة مرة أخرى. كانت يداها صغيرتين، نحيفتين ومقبوضتين على فخذيها. حدقت إلى حجرها، عيناها مغمضتان، وتركيزها موجه نحو الداخل، داخل رأسها هي. ظلت تحفر أصابع قدم عارية في أصابع الأخرى مرة أخرى.

هو من تكلم. كان على أحدهم أن يقول شيئًا: «لا أصدق أنك متزوجة ولديك طفل!».

قالها بنبرة الدهشة السعيدة نفسها التي حفظها واحتفظ بها لتهنئة أصدقائه الذين اعتادوا زف خبر تأهلهم لدور كان هو يتمناه.

تابع: «أحب هذا الطفل؛ إنه لطيف جدًّا، ولكن لنكن صادقين، من يمكنه مقاومة طفل صغير يبدو نصف متعفن؟».

بدت وكأنها عادت من حيث كانت، وابتسمت له بخجل شديد.

تابع: «ومن الأفضل لكِ أن تخبريني بكل شيء عن هذا الرجل... دين».

- سيأتي لاحقًا. سيأخذنا لتناول الغداء. يجب عليك أن تأتي.

صاح بوبي: «أوه! قد يكون هذا ممتعًا!».

ثم سجل ملاحظة ذهنية أن يقلِّل من حماسه في المرة القادمة.

هذه المرة هي تحدثت متابِعة: «أحيانًا يكون خجولًا حقًا في المرة الأولى التي يلتقي فيها شخصًا ما، لذلك لا تتوقع الكثير».

لوَّح بوبي بيده في الهواء: «هراء! سيكون رائعًا. سيكون لدينا الكثير لنتحدث عنه. لطالما كنت مفتونًا بمصانع الأخشاب والحطَّابين».

كان هذا مجازفة، غيظها بشأن الزوج الذي لا يعرفه، لكنها ابتسمت وقالت: «يمكنك معرفة كل ما تريده عن الأخشاب، لكنك دومًا كنت تخشى أن تسأل».

وللحظة كانا يبتسمان، بحماقة بعض الشيء، ركبتاهما تتلامسان تقريبًا. لم يعانِ أيٌّ منهما قط في الحديث مع بعضهما بعضًا. اعتادا الوقوف على خشبة المسرح في الماضي، يحاول كلٌّ منهما استخدام كل ما قاله الشخص الآخر لإعداد خط اللكمة التالي. هذا الجزء، على أي حال، لم يتغير.

قالت: «يا إلهي! لا أستطيع أن أصدق أنني قابلتك هنا. تساءلت عما حدث لك، وفكرت فيك كثيرًا».

- فعلتِ؟

أومأت: «اعتقدت أنك ستصبح مشهورًا الآن».

قال بوبي وغمز بعينه: «مرحبًا، هذا يجعلنا اثنين».

على الفور تمنى أن يتمكن من استعادة الغمز. كانت مزيَّفة ولم يكن يريد أن يكون مزيَّفًا معها.

سارع بالإجابة عن سؤال لم تطرحه: «استقررت هنا منذ فترة، عدتُ لمدة ثلاثة أشهر. سأبقى مع والديَّ لفترة من الوقت، وأعيد التأقلم مع مونروفيل».

أومأت برأسها، وهي لا تزال تنظر إليه بثبات، وبجدية جعلته غير مرتاح: «كيف تسير الأمور؟».

كذب بوبي: «أنا أتأقلم».

***

بين الكواليس، حكى بوبي وهارييت والصغير بوب قصصًا عن كيفية وفاتهم.

قال بوبي وهو يشير بإصبعه إلى جرح فروة رأسه: «كنت ممثلًا كوميديًا في مدينة نيويورك، حدث شيء مأسَوي عندما صعدت إلى المسرح».

قالت هارييت: «نعم، أداؤك».

- شيء لم يحدث من قبل.

- ماذا؟ ضحك الناس؟

- كنت عظيمًا كالمعتاد، وتدحرج الناس على الأرض في أثناء العرض.

- يتشنجون من معاناة رؤيتك.

- وبعد ذلك عندما كنت أنحني، حدث شيء مروِّع. أسقط أحد المسؤولين عن صيانة العوارض الخشبية كيس رمل وزنه أربعون رطلًا على رأسي. لكنني على الأقل مت على صوت التصفيق.

قالت هارييت: «كانوا يصفقون للمسرح».

نظر الصبي الصغير بجدية إلى وجه بوبي وأخذ بيده: «أنا آسف لأنك تعرضت للضرب على الرأس».

لمست شفتاه مفاصل يد بوبي بقبلة جافة، وحدق بوبي إلى الصغير شاعرًا بالقشعريرة حيث لمست شفتا الصبي يده.

قالت هارييت: «كان دائمًا أكثر الأطفال تقبيلًا وأكثرهم رغبة في توزيع الأحضان على الإطلاق، لديه كل هذه المحبة داخله، عند أدنى علامة على الضعف، يكون مستعدًّا لغمرك بالحب».

مسدت على شعر بوبي الصغير بينما تتحدث وسألت: «وأنت، ما الذي قتلك يا صغير؟».

رفع يده وهز أصابعه: «قُطعت أصابعي على منشار طاولة أبي ونزفتُ حتى الموت».

استمرت هارييت في الابتسام ولكن بدت عيناها وكأنهما تغيبان قليلًا. اصطادت من جيبها ووجدت سنتًا.

قدَّمته للطفل وهي تقول: «اذهب واشترِ لنفسك بعض العلكة، يا صديقي».

انتزعه منها وركض.

قالت وهي تحدق إلى ابنها بلا تعبير: «أظن أن الناس يعتقدون أننا الأبوان الأكثر إهمالًا».

- لم يكن خطأ أحد أن إصبعه قُطعت، أنا متأكد!

- منشار الطاولة كان مفصولًا ولم يكن حتى قد أكمل عامين. لم يوصِّل أي شيء بالكهرباء من قبل. لم نكن نعرف أنه يعرف كيف. كان دين هناك معه، وحدث ذلك بسرعة كبيرة. هل تعرف كم عدد الأشياء التي يمكن أن تسوء كلها في الوقت نفسه كي يحدث ما حدث؟ يعتقد دين أن صوت المنشار أخافه وحاول إيقاف تشغيله. كان يعتقد أنه سيكون في ورطة.

ثم صمتت لفترة وجيزة، تراقب ابنها يستخدم آلة كرات العلكة قبل أن تكمل: «فكرتُ فيه دائمًا على أنه هو الجزء الوحيد من حياتي الذي أقوم به بشكل صحيح. لا عشوائية ستفسد أي شيء. خططت حتى إنه حين يصل إلى الخامسة عشرة سيعرف الحب مع أجمل فتاة في المدرسة. كيف سيكون قادرًا على العزف على خمس آلات وسيذهل الجميع بكل موهبته. كيف سيكون الطفل المضحك الذي يبدو أنه يعرف الجميع!».

توقفتْ مرة أخرى، ثم أضافتْ: «سيكون الطفل المضحك الآن، الطفل المضحك دائمًا لأن به شيئًا خاطئًا. المضحك لتحويل انتباه الناس إلى شيء آخر عدا إعاقته».

في الصمت الذي أعقب هذا البيان، راودت بوبي العديد من الأفكار المتسارعة. الأول هو أنه كان الفتى المضحك عندما كان في المدرسة. هل اعتقدت هارييت أنه كان يعاني إعاقة ما؟ ثم تذكر أنهما كانا الطفلين المضحكين، معًا، وفكر: ما خطبنا؟

يجب أن يكون شيئًا ما، وإلا لكانا معًا الآن ولكان الصبي أمام آلة العلكة ابنهما. الفكرة التي خطرت بباله بعد ذلك هي أنه إذا كان بوبي الصغير هو بوبي الصغير خاصتهما، لكان احتفظ بأصابعه العشر. شعر بكراهية شديدة تجاه دين الحطَّاب، رجل ضخم جاهل، الذي ربما كل فكرته عن قضاء الوقت مع ابنه هي اصطحابه إلى المعرض لمشاهدة الأخشاب تسحبها شاحنة.

بدأ مساعد المخرج يصفق بيديه ويصيح حتى يصل الموتى الأحياء إلى مواقعهم. عاد بوب الصغير إليهم.

قال: «أمي».

والعلكة في جانب فمه: «لم تحكي كيف مُتِّ».

كان ينظر إلى أذنها الممزقة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

قال بوبي: «أنا أعلم، قابلتْ هذا الصديق القديم في المركز التجاري وتحدثا. أنت تعرف، وأعني أنهما تحدثا حقًا. ساعات من الثرثرة. أخيرًا، قال صديقها القديم «هيا يكفي حديث، لا أريد أن آكل أذنك هنا». وقالت والدتك «عذرًا، لا تقلق بشأن ذلك...»».

قالت هارييت: «قال رجل عظيم ذات مرة، أعطني أذنيك».

ضربت راحة يدها بقوة على جبينها: «لماذا استمعت له؟».

***

باستثناء الشعر الداكن، لم يشبهه دين في شيء على الإطلاق. كان دين قصيرًا. لم يكن بوبي مستعدًا لمدى قصر هذا الرجل. كان أقصر من هارييت، التي لم يكن طولها أكثر من مائة وستين سنتيمترًا. اضطر دين إلى مد جسده إلى الأعلى حين قبلها. كان مضغوطًا، بنيته صلبة، عريضًا عند الكتفين، بصدر واسع، ووسط ضيق وفخذ أضيق. ارتدى نظارات سميكة بإطارات بلاستيكية رمادية اللون، والعينان خلفهما بلون القصدير المتسخ. كانت نظرته خجولة حين قدمت هارييت بوبي له وعرَّفتهما على بعضهما بعضًا. اندفعت نظراته بعيدًا، عادت لتسقط على بوبي، ثم اندفعت بعيدًا من جديد.

كان جلده مجعَّدًا أو شبكة من الخطوط التعبيرية محفورة بدقة في قسماته. كان أكبر من هارييت، ربما بما قارب عشر سنوات.

ما إن قدمتهما هارييت لبعضهما حتى صاح دين فجأة: «أوه! أنت ذلك الرجل بوبي! أنت بوبي المضحك. هل تعلم؟ كدنا ألا نسمي ابننا بوبي بسببك! احتفظتُ بملحوظة ذهنية وحفرتها داخلي أنني إذا صادفتك يومًا ما، سيتعين عليَّ أن أؤكد لك أن تسمية ابننا «بوبي» كانت فكرتي، بسبب بوبي ميرسر. منذ أن كنت كبيرًا بما يكفي لأتخيل أن لدي طفلًا يومًا ما، أردت هذا الاسم».

قاطعه طفل هارييت: «أنا مضحك».

أمسكه دين من تحت إبطيه ورفعه في الهواء: «أنت كذلك بكل تأكيد».

لم يكن بوبي مقتنعًا بفكرة تناول الغداء معهم، لكن هارييت عقدت ذراعيها خلال ذراعه وسارت به عبر الأبواب إلى ساحة انتظار السيارات، كانت كتفها العارية الدافئة متكئة على جسده، لذا لم يكن لديه خيار آخر.

لم يلاحظ بوبي كيف أن الأشخاص الآخرين في المطعم يحدقون إليهم، ونسي أنهم خرجوا في ماكياج الموتى الأحياء حتى اقتربت النادلة. كانت بالكاد قد تجاوزت سن المراهقة، شعرها أصفر مجعد يتحرك في أثناء سيرها.

أعلن بوبي الصغير: «لقد متنا».

قالت الفتاة: «فهمتك».

أومأت برأسها ووجَّهت قلمها نحوهم: «أظن أنكم إما تعملون في فيلم الرعب، وإما أنكم جربتم بالفعل الطبق المميز في المطعم هنا. أي الخيارين هو؟».

ضحك دين ضحكة جافة صاخبة. كان دين أسرع الشخصيات التي التقاها بوبي ميلًا إلى الضحك بسهولة. ضحك دين على كل ما قالته هارييت تقريبًا، ومعظم ما قاله بوبي نفسه. في بعض الأحيان كان يضحك بشدة لدرجة أن الناس عند الطاولات الأخرى حملقوا فيه بذعر. بمجرد أن يسيطر على نفسه، كان يعتذر بجدية لا لبس فيها، ووجهه مشبَّع بظلال رقيقة وردية، وعيناه رطبتان تلمعان بالدموع.

كان ذلك عندما بدأ بوبي يرى إجابة واحدة محتملة على الأقل للسؤال الذي كان يدور في ذهنه منذ أن علم أنها متزوجة بـ «دين صاحب مصنع الأخشاب الخاص». لماذا تزوجت بهذا الرجل بالذات؟ حسنًا، كان يشكِّل جمهورًا مستعدًّا للضحك.

قال دين أخيرًا: «اعتقدتُ أنك تمثل في مدينة نيويورك، ما الذي أعادك؟».

أجابه بوبي: «الفشل».

- أوه! أنا آسف لسماع ذلك. ما الذي تنوي فعله الآن؟ هل تقدِّم بعض الكوميديا المحلية؟
- محتمَل. هنا فقط يسمونه التدريس البديل.
- أوه! أنت تُدرس! كيف تجد التدريس؟
- إنه لشيء رائع. كنت أخطط دائمًا للعمل سواء في السينما أو في التلفاز أو في التدريس للمرحلة الإعدادية. أعتقد أنني أخيرًا سأحقق حلمي في التدريس البديل، بدلًا من مدرس الألعاب للصف الثامن، الحلم أصبح حقيقة!

ضحك دين، وخرجت قطع من اللحم المقلي بالدجاج المسحوق من فمه.

قال: «أنا آسف، نثرت الطعام في كل مكان. لا بد أنك تعتقد أنني خنزير تمامًا».

- لا لا، الأمور بخير. هل أنادي النادلة لتجلب لك شيئًا؟ كأسًا من الماء؟ حوضًا؟

انحنى دين حتى كادت جبهته تلامس طبقه، ضحكته كانت كالصرير، كالمصاب بالربو: «توقف، حقًّا».

توقف بوبي، ولكن ليس لأن دين قالها، لكن لأنه لأول مرة لاحظ أن ركبة هارييت كانت تطرقه تحت الطاولة. تساءل عما إذا كان هذا مقصودًا، ومع أول فرصة مكّنته من الرجوع إلى الوراء والنظر إليها فهم؛ لا، ليس عن قصد. كانت قد ركلت صندلها وهي تحفر أصابع قدم واحدة في الأخرى بشدة لدرجة أن ركبتها اليمنى كانت تتأرجح أحيانًا وتضربه.

قال دين: «رائع، وددت لو كان لي معلم مثلك. شخص يمكنه إضحاك الأطفال».

استمر بوبي في المضغ، عاجزًا عن التعرف على ماهية ما يأكل، الطعام ظل بلا مذاق في جوانب فمه رغم استمراره بالمضغ.

أطلق دين تنهيدة مرتعشة، ومسح زوايا عينيه مرة أخرى: «بالطبع، أنا لست مضحكًا. لا أستطيع حتى تذكر النكات الرخيصة. أنا لست جيدًا لأي شيء آخر باستثناء العمل. وهارييت مضحكة جدًّا. أحيانًا تقدم عروضًا لبوبي ولي، مع هذه الجوارب القذرة على يديها. نضحك بشدة لدرجة أننا لا نستطيع التنفس. تسميها عرض دمى متنزه العربات. برعاية بابيت ذي الشريط الأزرق».

بدأ يضحك ويضرب الطاولة مرة أخرى. حدقت هارييت باهتمام إلى حجرها.

قال دين: «أود أن أراها تفعل ذلك على خشبة مسرح المدينة. ماذا تسمونها؟ أنماط مسرحية متكررة، هذا يصلح ليكون عرضًا مسرحيًّا كلاسيكيًّا متكررًا؟».

قال بوبي: «بالتأكيد يصلح، أنا مدهوش من أن إد مكماهون لم تتصل بالفعل لمعرفة ما إذا كانت هارييت متاحة».

***

عندما أعادهم دين إلى المركز التجاري وغادر إلى جراج الخشب، كان المزاج مختلفًا. بدت هارييت بعيدة داخل نفسها. شعر بوبي بأنه يحاول بجدية جذبها إلى أي نوع من المحادثة دون أي فائدة، وفجأة صار هو نفسه عصبيًّا سريع الانفعال. بدا وكأن كل المرح في دورهم كموتى أحياء تحول إلى يوم كامل من الانتظار. انتظار عامل الإضاءة ليصلح الأضواء. انتظار أن ينتهي توم سافيني من إعادة اللمسات على جرح بدأ يصير بلاستيكيًّا بدلًا من أن يبدو خشنًا كفاية مثل اللحم. نال السأم من بوبي. أزعجه مشهد أشخاص آخرين يقضون وقتًا ممتعًا. وقف العديد من الزومبي في مجموعة، يلعبون لعبة الرمي بطحال أحمر مرتعش ويضحكون. أصدر الطحال صوتًا غريبًا في كل مرة يضرب فيها الأرض. أراد بوبي أن يصيح عليهم لكونهم مرحين للغاية. ألم يسمع أيٌّ منهم بأسلوب التمثيل؟ ،ستانيسلافسكي؟ كان عليهم الجلوس جميعًا بعيدًا عن بعضهم بعضًا، يتأوهون بحزن، يتقمصون الشخصية.

سمع نفسه يئن بصوت عالٍ، صوت غاضب محبَط، وسأله بوبي الصغير عما إن كان يعاني مشكلة. قال إنه كان يتدرب فقط. ذهب بوب الصغير لمشاهدة لعبة الرمي بالطحال.

قالت هارييت، دون أن تنظر إليه: «كان ذلك غداءً جيدًا، أليس كذلك؟».

قال بوبي: «عـــ...ظيم».

وهو يفكر، من الأفضل توخي الحذر. كان متحفزًا، مشحونًا بطاقة لا يعرف كيف يزيحها.

- أشعر وكأنني وطدت علاقتي حقًّا مع دين. يذكِّرني بجدي. كان لديَّ هذا الجد العظيم الذي طوَّر قدرة ترقيص أذنيه، الذي اعتقد أن اسمي هو إيفان. اعتاد إعطائي سنتًا لجمع الخشب له، خمسين سنتًا إذا كنت سأفعل ذلك بقميصي. قلتِ كم عمر دين؟

كانا يسيران معًا. الآن تسمرت هارييت وتوقفت، ورأسها يدور في اتجاهه، لكن شعرها كان أمام عينيها، مما جعل من الصعب قراءة التعبير فيهما.

- إنه أكبر مني بتسع سنوات. وماذا في ذلك؟

- لا شيء! أنا سعيد فقط لأنكِ سعيدة.

قالت هارييت: «أنا سعيدة!».

وصوتها مرتفع للغاية.

سأل بوبي: «هل نزل على ركبة واحدة عندما عرض الزواج؟».

أومأت هارييت برأسها، فمها مجعد، مرتاب.

سأل بوبي من جديد: «هل كان عليكِ مساعدته بعد ذلك لينهض؟».

صوته صار أعلى هو الآخر، وفكر، توقف الآن. كان مثل الرسوم المتحركة. تحول في عقله إلى الثعلب المربوط بمقدمة محرك بخاري، وهو يمد قدمه على القضبان لمحاولة كبح القطار، والدخان يتصاعد من كعبيه، وقد تورمت قدماه، صارتا حمراوين متوهجتين.

قالت هارييت: «أوه! أيها القذر!».

ابتسم وهو يرفع يديه أمامه: «أنا آسف، آسف. أمزح. بوبي المضحك، كما تعلمين لا يسعني منع نفسي!».

ترددت مفكِّرة إن كان عليها الابتعاد، غير متأكدة ما إذا كان ينبغي لها أن تصدقه أم لا.

مسح بوبي فمه بيده: «إذن نحن نعرف ما تفعلينه لجعل دين يضحك. ماذا يفعل هو ليجعلك تضحكين؟ أوه، هذا صحيح، إنه ليس مضحكًا. حسنًا، ما الذي يفعله ليجعل قلبك يتسارع؟ إلى جانب تقبيلك بطقم الأسنان؟».

قالت: «دعني وشأني يا بوبي».

استدارت بعيدًا، لكنه جاء ليقف أمامها، ويمنعها من المشي: «لا».

- توقف.

- لا أستطيع.

وفهم فجأة أنه كان غاضبًا منها: «إذا لم يكن مضحكًا فلا بد أنه شيء ما. أريد أن أعرف ماذا».

قالت: «صبور».

كرر بوبي: «صبور».

وقد أذهله أن هذه كانت إجابتها.

تابعت: «معي».

قال: «معك».

- مع روبرت.

قال بوبي: «صبور».

ثم لم يستطع قول أي شيء آخر للحظة لأنه كان يلهث. شعر فجأة أن مكياجه يحك وجهه. تمنى لو أنه عندما بدأ في الضغط، كانت قد تركته ورحلت، أو طلبت منه أن يغرب عن وجهها، أو ضربته حتى، أو أبدت أي رد فعل أو استجابت بأي كلمة سوى «صبور».

ابتلع لعابه: «هذا ليس جيدًا بما فيه الكفاية».

علم أنه لا يمكنه أن يتوقف الآن، كان القطار متجهًا إلى الوادي، وعينا الثعلب الكرتوني تبتعدان عن رأسه بمتر كامل في رعب.

قال: «رغبت في مقابلة من حصل عليكِ وأنا أشعر بدواخلي تغلي من الغيرة، لكن بدلًا من هذا شعرت بالمرض. أردت منكِ أن تقعي في حب شخص حسن المظهر ومبدع ورائع، روائي، كاتب مسرحي، شخص يتمتع بروح الدعابة. ليس رجلًا حليق الشعر يقطع الخشب، يعتقد أن التدليك المثير يتضمن أنبوبَ باسط عضلات».

تلطخت عيناها بالدموع وبدأت تقطر، مسحتها بظهر يدها قائلة: «كنت أعلم أنك ستكرهه، لكنني لم أعتقد أنك ستكون لئيمًا».

- ليس الأمر أنني أكرهه. ماذا أكره؟ لم يفعل أي شيء لن يفعله أي شخص آخر في مكانه. إذا كنت بطول نصف متر وعجوزًا، لم أكن لأتوانى عن أي فرصة للحصول على امرأة مثلك. بالتأكيد هو «صبور». عليه أن يكون! من الأفضل له أن يركع على ركبتيه اللعينتين كل ليلة، يدلك قدميك بالزيوت المقدَّسة، حتى تمنحيه وقتًا أصلًا.

قالت: «لقد سنحت لك فرصتك».

كانت تكافح حتى لا تدع بكاءها يخرج عن نطاق السيطرة. ارتجفت عضلات وجهها مع هذا الجهد، مما أدى إلى تحويل تعبيرات وجهها كلها إلى تكشيرة غاضبة.

قال: «الأمر لا يتعلق بالفرص التي سنحت لي. يتعلق الأمر بالفرص التي أُتيحت لكِ».

هذه المرة عندما ابتعدت عنه، سمح لها بالرحيل. وضعت يديها على وجهها. كانت كتفاها ترتعشان وكانت تصدر أصواتًا مختنقة في أثناء ذهابها. شاهدها وهي تمشي إلى الحائط حول النافورة حيث التقيا في وقت سابق من اليوم. ثم تذكر الصبي واستدار لينظر، وقلبه يدق بقوة، متسائلًا عما قد يكون بوبي قد رآه أو سمعه. لكن الطفل كان يركض في الردهة الواسعة، يركل الطحال أمامه، الذي كان قد جمع الآن كتلة من الغبار حوله. كان هناك طفلان آخران ميتان يحاولان ركله بعيدًا عنه.

شاهدهم بوبي يلعبون لبعض الوقت. مشى مبتعدًا، وتجاوز الطحال، وضع قدمًا عليه لإيقافه. انثنى بشكل مزعج تحت نعل حذائه. توقف الأولاد على بعد أمتار، ووقفوا هناك متسارعي الأنفاس في انتظاره. أمسك به.

قال: «اذهب».

وألقى بالطحال إلى بوبي الصغير، الذي اصطاده وسحبه بعيدًا ورأسه إلى أسفل بينما كان الأطفال الآخرون يلاحقونه. عندما التفت لإلقاء نظرة خاطفة على هارييت رآها تراقبه، ضغطت كفيها بقوة على ركبتيها. انتظرها لتنظر بعيدًا، لكنها لم تفعل، وفي النهاية أخذ نظرتها الثابتة كدعوة للاقتراب.

عبر إلى النافورة وجلس بجانبها. كان لا يزال يعمل على كيفية بدء اعتذاره عندما تحدثت.

قالت: «أنا، كتبت لك. لكنك توقفت عن الرد».

كانت قدماها العاريتان تتصارعان مع بعضهما بعضًا مرة أخرى.

قال: «أنا أكره مدى استبداد قدمك اليمنى. لماذا لا تعطي القدم اليسرى هدنة صغيرة؟».

لكنها لم تكن تستمع إليه.

قالت: «لكن هذا لم يكن مهمًا».

كان صوتها مبحوحًا ومتحشرجًا، الأساس الزيتي للمكياج على وجهها حماه من التمزق رغم دموعها.

تابعت: «لم أكن غاضبة. كنت أعلم أنه لا يمكن أن تكون بيننا علاقة، لكنها مجرد رؤية بعضنا بعضًا عندما تعود إلى المنزل في عيد الميلاد».

ابتلعت بغزارة: «اعتقدتُ حقًّا أن شخصًا ما سيختارك للتمثيل في المسرحية الهزلية الخاصة به. في كل مرة كنت أفكر في ذلك عند رؤيتك على التلفاز، وسماع الناس يضحكون عندما تلقي بجملك، اعتدت الجلوس مع هذه الابتسامة الكبيرة الغبية على وجهي. كان بإمكاني إمضاء طوال فترة الظهيرة وأنا أفكر فيك. أنا لا أفهم ماذا بحق الجحيم كان يمكن أن يحدث ويجعلك تعود إلى مونروفيل».

لكنه قال بالفعل ماذا بحق الجحيم أعاده إلى والديه وغرفة نومه فوق المرأب. سأله دين في العشاء، وأجابه بوبي بصدق.

في إحدى ليالي الخميس، في الربيع الماضي فقط، ذهب مبكرًا إلى نادٍ في القرية. قضى الدقائق العشرين الخاصة به من العرض الكوميدي، حصل على نفحات متقطعة -وإن لم تكن قوية- من همهمات الضحك المعتادة، وتصفيق حار عندما ذهب. ثم وجد مكانًا في الحانة للجلوس ومشاهدة باقي العروض. كان على وشك الانزلاق عن كرسيه والعودة إلى المنزل عندما قفز روبن ويليامز على خشبة المسرح. كان في البلدة، يجوب النوادي، يختبر عروضه. أعاد بوبي مؤخرته بسرعة إلى مقعده وجلس مستمعًا، ونبضاته تتسارع حتى أغلقت حلقه.

عجز عن شرح أهمية ما رآه يومها لهارييت. رأى بوبي رجلًا يمسك حافة الطاولة بيد، وفخذ رفيقته باليد الأخرى، يمسك بكليهما بقوة لدرجة أن مفاصل أصابعه قد استنزفت كل الألوان. كان منحنيًا والدموع تنهمر على وجهه، وضحكته عالية، وصاخبة، ومتشنجة، وحيوانية أكثر منها بشرية، صوت طنان أو شيء من هذا القبيل. هز رأسه من جانب إلى آخر وهو يلوِّح بيده في الهواء، توقف، من فضلك، لا تفعل هذا بي. كان يضحك حتى كاد يفقد أنفاسه.

رأى روبن ويليامز الرجل اليائس، وابتعد عن الحديث الهزلي عن الأفعال الحميمة، وأشار إليه صارخًا: «أنت! نعم، أنت أيها الضبع البشري المحموم! ستحصل على تصريح دخول مجاني إلى كل عرض أقوم به لبقية حياتي اللعينة!».

بعدها تصاعدت موجات الضحك والصراخ بين الحشد أكثر، طوفان من التصفيق والصرخات وأصوات لا يمكنك فصلها حتى لتفسيرها. رعد مدوٍّ من البهجة التي لا يمكن احتواؤها، صوت هائل تشعر به قبل سماعه، صوت جعل العظام في صدر بوبي تصدر طنينًا.

بوبي نفسه لم يضحك مرة واحدة، وعندما غادر كانت معدته تتلوى. ثقلت قدماه بشكل غريب، وبشدة على الرصيف، ولم يعرف طريقه إلى المنزل لبعض الوقت. عندما كان أخيرًا في شقته، جلس على حافة سريره، خلع حمالاته وحل أزرار قميصه، وللمرة الأولى شعر أن الأمور ميؤوس منها.

رأى شيئًا يومض في يد هارييت. كانت تهزهز بعض العملات.

سألها: «أستتصلين بشخص ما؟».

- نعم، دين. أريد الحصول على توصيلة.

- لا.

- أنا لن أبقى، لا أستطيع البقاء.

راقب قدميها المعذَّبتين، وأصابع قدميها تتصارع معًا، ثم أومأ أخيرًا. وقفا في الوقت ذاته. كانا، مرة أخرى، يقفان على مقربة من بعضهما بشكل غير مريح.

قالت: «أراك في وقت لاحق إذن».

قال: «في وقت لاحق».

أراد أن يمد يده، لكنه لم يفعل، أراد أن يقول شيئًا، لكنه لم يستطع التفكير في أي شيء يُقال.

على مسافة أقل من ثلاثة أقدام صاح جورج روميرو فجأة: «هل هناك شخصان هنا يريدان التطوع لإطلاق النار عليهما؟ إنها لقطة مقرَّبة مضمونة في الفيلم النهائي».

رفع بوبي وهارييت أيديهما في الوقت نفسه.

قال بوبي: «أنا».

وصاحت هارييت: «أنا».

وطئت قدم بوبي وهي تتحرك لحَوز انتباه جورج روميرو: «أنا!».

قال بوبي: «ستكون لقطة رائعة، سيد روميرو».

وقفوا جنبًا إلى جنب، يجرون محادثة قصيرة، في انتظار أن ينتهي سافيني من توصيل أسلاك هارييت بالحافظة المطاطة الممتلئة جزئيًا بالعصير ولون الطعام الأحمر الذي خططوا لينفجر كدمٍ زائف بعد ضرب الرصاص.

كان بوبي بالفعل مشحونًا، بكل معنى للكلمة: «يومًا ما سيدَّعي الجميع في بيتسبرغ أنهم ماتوا في هذا الفيلم».

قال روميرو: «أنت تتملق مثل المحترفين، هل لديك خلفية استعراضية؟».

قال بوبي: «ست سنوات خارج برودواي. بالإضافة إلى أنني أديت في معظم نوادي الكوميديا».

- آه، لكنك الآن عدت إلى بيتسبرغ الكبرى. حركة مهنية جيدة، يا فتى. ابقَ هنا، ستكون نجمًا في وقت من الأوقات.

انتقلت هارييت إلى بوبي، وشعرها يتطاير: «سيطلقون النار عليَّ حتى يتناثر صدري».

قال بوبي: «رائع، على الناس الاستمرار في المضي قدمًا، لأنك لا تعرف أبدًا متى سيحدث شيء رائع».

قادهما جورج روميرو إلى أماكنهما، وراجع معهما ما أراد منهما فعله بالضبط. أتت الأضواء عبر مظلات فضية لامعة، مما صنع توهجًا أبيض متساويًا، حارًّا، وجافًّا على امتداد ثلاثة أمتار من الأرضية. على جانب أحد الأعمدة المربعة استقرت مرتبة مخططة على البلاط.

ستُضرب هارييت أولًا في صدرها. كان من المفترَض أن تتراجع، ثم تستمر في التقدم، رد فعلها تجاه الضربة يكاد لا يُذكر قدر المستطاع.

بوبي سيأخذ الرصاصة التالية في رأسه وستُسقطه. كانت الدماء مخبأة تحت طية مطاطة واحدة في الجرح بفروة رأسه. رُبطت الأسلاك التي من شأنها أن تتسبب في انفجار الدم من خلال شعره.

قال جورج روميرو: «بوسعك الترنح أولًا، والانزلاق إلى الأسفل وإلى الجانب. اسقط على ركبة واحدة إذا أردت، ثم انطلق خارج الكادر. إذا كنت تشعر بالرغبة في مزيد من الألعاب البهلوانية، يمكنك أن تسقط إلى الخلف بشكل مستقيم، وتأكد من أنك ارتطمت بالمرتبة. لا أحد يحتاج إلى أن يتأذى».

كان بوبي وهارييت فقط في اللقطة، يُصوَّران من الخصر إلى أعلى. الكومبرس الآخرون اصطفوا على جدران ممر مركز التسوق، يراقبونهما. نظراتهم، وغمغمتهم المستمرة، تسببت في اندفاع الأدرينالين في بوبي. ركع توم سافيني على الأرض، خارج اللقطة المؤطرة مباشرةً، وبيده صندوق معدني، وأسلاك تتدلى عبر الأرض باتجاه بوبي وهارييت. جلس بوب الصغير بجانبه، ويداه معقودتان تحت ذقنه، تضغطان على الطحال، وعيناه لامعتان بترقب. أخبر سافيني بوب الصغير بكل شيء عما سيحدث، واستعد الطفل لرؤية الدم ينفجر من صدر والدته، لكن بوب الصغير لم يكن قلقًا: «كنت أرى أشياء مقززة طوال اليوم. هذا ليس مخيفًا. أحبه».

تركه سافيني يحتفظ بالطحال كتذكار.

قال روميرو: «استعدوا، التصوير!».

فوجئ بوبي، ماذا؟ بدؤوا التصوير بالفعل؟ أعطاهم تعليماتهم. بحق الله كان روميرو لا يزال يقف أمام الكاميرا! وللحظة أمسك بوبي يد هارييت. ضغطت على أصابعه، وتركها.

أخرج روميرو نفسه من الكادر ثم صاح: «تصوير!».

أدار بوبي عينيه إلى الخلف في رأسه، ودحرجهما إلى الوراء، حتى الآن لم يستطع رؤية إلى أين يتجه. ترك وجهه يتدلى ببطء. اتخذ خطوة متثاقلة إلى الأمام.

قال روميرو: «أطلِقوا النار على الفتاة».

بوبي لم يرَ الدماء الزائفة تنفجر منها لأنه كان يسبقها بخطوة. لكنه سمعها، بصوت عالٍ ورنين سمع صداه، وشمه، نفحة بارود نفاذة مفاجئة. تحشرجت هارييت بهدوء.

قال روميرو: «والآن! الآخر!».

كان الأمر أشبه بعيار ناري ينفجر بجوار رأسه. كان دوي الانفجار مرتفعًا لدرجة أنه أصم على الفور طبلة أذنه. انطلق إلى الخلف، يدور على كعبه. اصطدمت كتفه بشيء خلفه مباشرة، ولم يرَ ماذا. ألقى نظرة غير واضحة على العمود المربع بجوار المرتبة، وفي تلك اللحظة انتابته هزة من الإلهام. صدم جبهته في طريقه إلى الأسفل، وبينما كان يتدحرج بعيدًا، رأى أنه ترك زهرة قرمزية على الجص الأبيض.

ضرب الفراش، بقوة قليلًا صنعت القليل من الارتداد عن الزنبرك في الحشوة. رمش. كانت عيناه تدمعان، مما صنع تشوهًا في بصره، وصارت الأشياء مشوَّشة. كان الهواء فوقه مليئًا بالدخان الأزرق. مركز رأسه يلسع. على وجهه تناثر سائل بارد ولزج. عندما تلاشى الطنين في أذنيه، أدرك في الوقت نفسه شيئين، الأول كان الصوت، صوت خوار منخفض تحته على الأرض، تصفيق بعيد وثابت. ملأه الصوت كالنفَس. تقدم جورج روميرو نحوه، يصفق أيضًا، ويبتسم بهذه الطريقة التي صنعت غمازات في لحيته. الشيء الثاني الذي لاحظه هو أن هارييت ملتوية تجاهه ويدها على صدرها.

سأل: «هل أوقعتكِ أرضًا؟».

قالت: «أخشى ذلك».

قال: «كنت أعرف أنها مسألة وقت فقط قبل أن أضعك في السرير معي».

ابتسمت هارييت، ابتسامة سهلة قانعة كما لم يرها في أي وقت آخر طوال اليوم.

ارتفع صدرها الملطخ بالدماء وانخفض على جانبه، وركض بوب الصغير إلى حافة المرتبة وقفز عليها معهما. وضعت هارييت ذراعها تحته، ورفعته إلى أعلى، ودحرجته في المساحة الضيقة بينها وبين بوبي.

ابتسم بوب الصغير ووضع إبهامه في فمه. كان وجه بوبي قريبًا من رأس الصبي، وفجأة أدرك رائحة شامبو بوب الصغير، رائحة بنكهة البطيخ.

راقبته هارييت بثبات عبر ابنها، ولا تزال الابتسامة نفسها على وجهها. انجرفت نظرته نحو السقف، إلى النوافذ المؤطرة، والسماء الزرقاء الواضحة من ورائها. لا شيء فيه أراد النهوض، أراد تجاوز اللحظات القليلة القادمة. تساءل عما فعلته هارييت بنفسها عندما كان دين في العمل وكان بوبي الصغير في المدرسة. اليوم التالي كان يوم الاثنين. لم يكن يعرف ما إذا كان سيدرس أم سيأخذ إجازة. كان يأمل أن يكون يوم إجازة. امتد الأسبوع أمامه، خاليًا من المسؤوليات أو الهموم، مع إمكانيات لا حدود لها. قصة تتضمن ثلاثتهم معًا، بوبي، والصبي، وهارييت. ثلاثتهم استلقوا على الفراش، وأجسادهم متقاربة، وللحظات لم تكن هناك حركة إلا لأنفاسهم.

عاد جورج روميرو إليهم وهز رأسه: «كان ذلك رائعًا، عندما اصطدمتِ بالعامود، وتركتِ هذا الخط الكبير من الدماء. يجب أن نفعل ذلك مرة أخرى،

بالطريقة نفسها. هذه المرة يمكنكِ ترك بعض بقايا المخ وراءكِ. ما رأيكم يا شباب؟ أيٌّ منكم مستعد لإعادة اللقطة؟».

قال بوبي: «أنا».

قالت هارييت: «أنا، أنا!».

- نعم، من فضلك!

قالها بوبي الصغير وإبهامه يدور في فمه.

قال بوبي: «أعتقد أننا متفقون على إعادة اللقطة، بالإجماع».

***

قناع أبي

في الطريق إلى بحيرة «القط الهائل»، لعبنا لعبة. كانت فكرة والدتي. بحلول الوقت الذي وصلنا فيه إلى الطريق السريع كان الغسق قد حل ولم يعد هناك ضوء متبقٍ في السماء، اللهم إلا دفقة من اللون البارد الخافت في الغرب. أخبرتني أنهم كانوا يبحثون عني.

قالت: «أولئك الناس شديدو النحافة، مثل أوراق اللعب، ملوك وملكات منبسطون حتى إنهم يستطيعون الانزلاق تحت الأبواب. سيأتون من الجهة الأخرى من البحيرة بحثًا عنا، لقطع الطريق علينا. ابتعِد عن الأنظار عندما يأتي أحدهم في الاتجاه الآخر. لا يمكننا حمايتك منهم على الطريق. أسرِع وانزل إلى الأسفل. ها قد أتى أحدهم الآن!».

تمددتُ عبر المقعد الخلفي وشاهدتُ انعكاس المصابيح الأمامية لسيارة تقترب عبر السقف. لم أكن متأكدًا إن كنت أتمدد لأندمج في اللعبة أو كي أحصل على بعض الراحة. كنت في حال غريب من الفوضى. أملت في قضاء ليلة في منزل صديقي لوك راندل، ألعب البينج بونج وأشاهد التلفاز حتى وقت متأخر من الليل مع لوك وأخته الكبيرة الطويلة جين، وصديقتها ذات الشعر الأشعث ميليندا.

لكنني عدت إلى المنزل من المدرسة لأجد حقائب مجهَّزة في المدخل يحملها والدي على السيارة، كانت هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها بقرار قضاء الليلة في كابينة جدي على بحيرة القط الهائل.

لم أستطع أن أغضب من والديَّ لأنهما لم يشاركا معي خطتهما مسبقًا، لأنها على الأغلب لم تكن خطة مسبقة أصلًا. من الوارد جدًّا أنهما قررا الذهاب إلى بحيرة القط الهائل لتناول الغداء وقتيًّا. لم يكن لدى والديَّ أي التزامات، كان لديهما دوافع وقتية، وابن يبلغ من العمر ثلاثة عشر عامًا ولم يريا أي سبب للسماح للأخير بإفساد خطط الأول.

***

سألتُ: «لِم لا يمكنكِ حمايتي من هجوم شعب الورق هذا؟».

قالت والدتي: «لأن هناك بعض الأشياء التي لا يستطيع حب الأم وشجاعة الأب حمايتك منها. إلى جانب ذلك، من يستطيع محاربتهم؟ أنت تعرف شعب الورق. كيف يتجولون جميعًا بفؤوس ذهبية صغيرة وسيوف فضية صغيرة. هل سبق لك أن لاحظت مدى جودة تسليح معظم محترفي البوكر؟».

قال والدي وإحدى يديه تتدلى عن عجلة القيادة: «ليست هناك مصادفة أن لعبة الورق الأولى التي يتعلمها الجميع هي الحرب».

تابع: «كلها سيناريوهات مختلفة للسيناريو الأصلي نفسه، ملوك وهميون يتقاتلون حول الإمدادات المحدودة للنساء والمال حول العالم».

كانت والدتي تنظر إليَّ بجدية من خلف مقعدها، وعيناها تلمعان في الظلام.

قالت: «نحن في ورطة يا جاك، نحن في ورطة رهيبة».

قلت: «حسنًا».

- ظلت المؤامرة تُبنى وتزداد لفترة من الوقت. أخفيناها عنك في البداية، لأننا لم نرغب في إخافتك. لكن عليك أن تعرف. من الصواب أن تعرف. نحن... حسنًا، كما ترى، لم يعد لدينا أي مال بعد الآن. إنهم شعب أوراق اللعب. كانوا يعملون ضدنا، يسمِّمون الاستثمارات، ويقيِّدون الأصول في الروتين. لقد نشروا أفظع الشائعات عن والدك في العمل. لا أريد أن أزعجك بالتفاصيل. يجرون مكالمات هاتفية، مهدِّدة. يتصلون بي في منتصف النهار ويتحدثون عن الأشياء الفظيعة التي سيفعلونها لي. لك. لنا جميعًا.

قال والدي: «لقد وضعوا شيئًا ما في صلصة البطلينوس الليلة الماضية، تسببوا لي في نزلة معوية، ظننت أنني سأموت. وعادت ثيابنا من التنظيف الجاف وبها سائل أبيض غريب. كان هذا بسببهم أيضًا».

ضحكت والدتي.

***

سمعت قبلًا أن الكلاب لديها ستة أنواع من النباح، ولكلٍّ منها معنى محدد: دخيل، فلنلعب، أحتاج إلى التبول... إلخ.

كان لدى والدتي عدد معين من الضحكات، ولكلٍّ منها معنى وهوية لا لبس فيها، وكلها رائعة. كانت هذه الضحكة المتشنجة هي الطريقة التي استجابت بها للنكات القذرة. أيضًا إلى الاتهامات، الضحكة التي تطلقها حين يقبَض عليها وهي تمارس خدعة.

ضحكتُ معها، جالسًا، العقدة في معدتي أقل. كانت عيناها واسعتين وجدِّيتين للغاية، للحظة بدأت أنسى أنها كانت تختلق كل شيء. انحنت والدتي نحو والدي وحركت إصبعها على شفتيه، محاكية إغلاق سحَّاب.

قالت: «دعني أحكي القصة، أنا أمنعك من الحديث بعد الآن».

قلت أنا: «إذا كنا نواجه الكثير من المشكلات المالية، يمكنني الذهاب والعيش مع لوك لبعض الوقت».

فكرتُ: «وجين أيضًا»، لكن لم أقلها علانية.

تابعتُ: «لا أريد أن أكون عبئًا على الأسرة».

نظرت إليَّ مرة أخرى: «ليس المال ما يقلقني، هناك مُثمِّن قادم غدًا. لدينا بعض الأشياء القديمة الرائعة في ذلك المنزل، أشياء تركها لنا جدك. سنرى إن كان يمكننا بيعها».

توفي جدي، أبتون، في العام السابق، بطريقة لم يرغب أحد في مناقشتها، وفاة لم يكن مكانها طبيعيًّا في حياته، خاتمة فيلم رعب ممتزجة بالكوميديا السوداء المتطرفة. كان في نيويورك، حيث سكن شقة في الطابق الخامس من المبنى الحجري في الجانب الشرقي الشمالي من المدينة، أحد الأماكن العديدة التي يمتلكها. طلب المصعد ودخل عبر الباب عندما فتح، لكن لم يكن هناك مصعد، وسقط أربعة طوابق. لم يقتله السقوط، لقد عاش يومًا آخر،

في أسفل بئر المصعد. كان المصعد قديمًا وبطيئًا وكان يطن بصوت عالٍ كلما اضطر إلى التحرك، المصعد كان مزعجًا كما هو الحال مع معظم سكان المبنى، لم يسمعه أحد يصرخ.

***

اقترحتُ: «لِم لا نبيع منزل البحيرة؟ سنعوم في المال».

- أوه، لم نتمكن من فعل ذلك؛ ليس ملكنا. الملكية مشتركة بيننا جميعًا كما احتفظ بها جدك، أنا، أنت، العمة بليك، التوأمان جرينلي، وحتى لو كان يخصنا، فلا يمكننا بيعه فهو جزء من عائلتنا.

لأول مرة منذ مصاحبتهما بالسيارة، أدركتُ سبب ذهابنا إلى منزل البحيرة. رأيت أخيرًا أنه ضُحِّي بخطط نهاية الأسبوع الخاصة بي على مذبح الديكور الداخلي. كانت والدتي تحب التزيين. أحببتُ اختيار الستائر وأغطية المصابيح الزجاجية الملوَّنة والمقابض الحديدية الفريدة للخزائن. كان شخص ما قد كلَّفها بإعادة تزيين البيت على البحيرة على الأرجح، وضعت لنفسها مهمة وكانت تنوي البدء بالتخلص من كل الفوضى.

شعرتُ بأنني أحمق لأنني سمحت لها بإلهائي عن مزاجي السيئ بإحدى ألعابها، فقلت: «أردتُ قضاء الليلة مع لوك».

رمقتني والدتي بنظرة خبيثة، تراقبني من أسفل جفونها شبه المغلقة، وشعرت فجأة بوخز غير مريح في فروة رأسي، نظرتها جعلتني أتساءل إن كانت خمنت الأسباب الحقيقية وراء صداقتي مع لوك راندل، وهو شخص وقح ينخر في أنفه أحيانًا وأقل مني بكثير من الناحية الفكرية.

قالت بنبرة صوت مبهجة ومتلاعبة: «لن تكون بأمان هناك مع شعب أوراق اللعب في الجوار وهم قادرون على مهاجمتك في أي لحظة».

نظرتُ إلى سقف السيارة: «تمام».

أكملنا الطريق في صمت لبعض الوقت، لكنني سألت في النهاية راغبًا في إنهاء اللعبة التي سئمت منها: «لِم يطاردونني؟».

- كل هذا لأننا محظوظون بشكل لا يُصدق. لا أحد من حقه أن ينعم بمثل حظنا، أن ينعم برحلة مجانية، لكن كل هذا سينتهي لو أمسكوا بك. لا يهم، قُد حظك. فقدان طفل ينهي أي وقت جيد.

كنا محظوظين، بالطبع، ربما حتى محظوظين للغاية، وليس لأننا ميسورون، مثل أي شخص في عائلتنا التي تنوعت بين «أصحاب الصناديق الائتمانية» و«أصحاب الوصية». كان لدى والدي المزيد من الوقت ليبقى بالقرب مني، أكثر مما توفر للآباء الآخرين مع أولادهم. ذهب إلى العمل بعد مغادرتي للمدرسة، وعادة ما كان في المنزل بحلول الوقت الذي أعود فيه، وإذا لم يكن لديَّ أي شيء آخر لأفعله، كنا نذهب معًا إلى ملعب الجولف لضرب القليل من الكرات. كانت والدتي جميلة، لا تزال صغيرة، في الخامسة والثلاثين من عمرها، ولديها غريزة طبيعية للفساد جعلتها محبوبة بين أصدقائي. كنت واثقًا من أن العديد من الأطفال الذين صاحبتهم -بما في ذلك لوك راندل- أُعجبوا بها. انجذابهم الشديد إليها كان سببًا لصداقتهم معي، هذا كان واضحًا.

سألتُ: «ولِم بحيرة القط الهائل آمنة جدًّا؟».

- من قال إنها آمنة؟

- لِم نحن في طريقنا إلى هناك إن لم تكن كذلك؟

أشاحت بوجهها عني: «فقط كي نتمكن من الحصول على نار دافئة لطيفة في المدفأة، والنوم حتى وقت متأخر، وتناول إفطار من البيض المخفوق، والتسكع طوال النهار بثياب النوم. حتى لو كنا خائفين على حياتنا، هذا ليس سببًا لنقضي عطلة نهاية الأسبوع بائسين».

وضعت يدها على مؤخرة عنق أبي ولعبت بشعره، ثم تصلبت، وغرقت أظافرها في الجلد أسفل خط شعره مباشرة.

قالت لي: «جاك».

كانت تنظر عبر جانب والدي، عبر النافذة الجانبية للسائق، إلى شيء ما في الظلام: «انزل، جاك، انزل إلى أسفل المقعد».

كنا على الطريق 16، طريق سريع طويل مستقيم، مع وسط عشبي ضيق بين المسارين. توقفت سيارة على منعطف بين الممرات، وبينما كنا نمر بها، أُضيئت مصابيحها الأمامية. أدرت رأسي وحدقت إليهم للحظة قبل أن أغرق بعيدًا عن الأنظار. دخلت سيارة الجاجوار الفضية الأنيقة إلى الطريق وأسرعت خلفنا.

قالت والدتي: «قلت لك ألا تدعهم يرونك، انطلق أسرع، هنري. ابتعد عنهم».

زادت سيارتنا سرعتها، واندفعت عبر الظلام. ضغطت أصابعي على المقعد، جالسًا على ركبتي لإلقاء نظرة خاطفة على النافذة الخلفية. بقيت السيارة الأخرى على المسافة نفسها خلفنا تمامًا بغض النظر عن السرعة التي قطعناها، مارة بمنحنيات الطريق بثبات مهدِّد. أحيانًا علقت أنفاسي في حلقي لبضع لحظات قبل أن أتذكر أن أتنفس. مرت علامات الطريق بثبات وبسرعة كبيرة للغاية بحيث لا يمكن قراءتها. تبعتنا السيارة لمسافة ثلاثة أميال قبل أن تغيِّر مسارها إلى ساحة انتظار مطعم على جانب الطريق.

عندما استدرت في مقعدي، كانت والدتي تشعل سيجارة بحلقة برتقالية نابضة من ولاعة لوحة القيادة، ووالدي يدندن لنفسه بهدوء، مما خفف التوتر قليلًا. مال برأسه من جانب إلى آخر قليلًا مع الحفاظ على دندنته ذات اللحن الذي لم أتعرف عليه.

***

ركضتُ في الظلام، والرياح تضربني ورأسي إلى أسفل، ولم أنظر إلى أين كنت ذاهبًا. كانت والدتي ورائي مباشرة، واندفع كلانا إلى الشرفة. لا ضوء أنار مدخل الجزء الأمامي للكوخ جوار البحيرة، بعد أن أطفأ والدي السيارة والمصابيح الأمامية بالفعل، بالإضافة إلى كون الكوخ في الغابة في نهاية طريق ترابي متهدم حيث لا توجد مصابيح شوارع. ألقيتُ نظرة خاطفة على البحيرة خلف المنزل، حفرة في قلب العالم، ملأى بظلام دامس.

سمحت لنا والدتي بالدخول وشرعت في إشعال الأضواء. بُنيت الكابينة حول غرفة واحدة كبيرة مع سقف مقوَّس، ظهرت العوارض الخشبية العارية، والجدران الخشبية ذات اللحاء الأحمر تقشرت. على يسار الباب كانت هناك خزانة ملابس، والمرآة الموجودة على ظهرها مخبأة خلف زوجين من الأغطية السوداء. تجولتُ، ساحبًا يدي إلى داخل أكمام سترتي طلبًا للدفء، اقتربتُ من خزانة الملابس. من خلال الستائر شبه الشفافة، رأيت انعكاسًا تقريبيًّا غريبًا ومشوَّهًا لي، يقابلني على الجهة الأخرى للحجاب الأسود. شعرت بنوع من عدم الارتياح لرؤية انعكاسي كظل بلا ملامح محجوبًا خلف الحرير، بدا

كشخص لم أكن أعرفه، دفعتُ الستار إلى الخلف، لكني لم أرَ سوى نفسي، متورِّد الخدين بفعل الرياح.

كنت على وشك الابتعاد عندما لاحظت الأقنعة. كانت المرآة مدعومة بعمودين رقيقين، عُلِّقَ عدد قليل من الأقنعة أعلى كلٍّ منهما، أحدها كان يشبه قناع الفارس المقنَّع، ذلك الذي يغطي العينين وقليلًا من الأنف فقط. واحد آخر بشعيرات ومربعات لامعة أُلصِقت عليه ليجعل مرتديه يبدو وكأنه فأر مرصع بالجواهر. كان آخر من المخمل الأسود الغني، بدا وكأنه صُنع ليناسب لباس محظية في طريقها إلى حفلة تنكرية إدواردية.

زُيِّن الكوخ بالكامل بأقنعة. كانت تتدلى من مقابض الأبواب وظهر الكراسي. رأيت قناعًا قرمزيًّا عظيمًا يتلألأ بقوة من الرف فوق الموقد، شيطان سريالي مصنوع من الورق المعجن، مع منقار معقوف وريش حول العينين، الشيء الذي كنتَ لترتديه لو اختِرتَ للتمثيل في إحدى المسرحيات المبنية على قصة إدجار آلان بو «الموت الأحمر».

لكن القناع الأكثر إثارة للقلق تدلى من قفل على إحدى النوافذ. كان مصنوعًا من البلاستيك الشفاف، ويبدو وكأنه وجه رجل مصبوب من قطعة جليد رفيعة بشكل مستحيل. رؤيته وهو يتدلى أمام الزجاج كانت صعبة في الضوء الخافت، ارتجفتُ بعصبية عندما رأيته من زاوية عيني. للحظة ظننت أن هناك رجلًا طيفيًّا بالكاد هناك، يحوم على الشرفة، ويحدق إلى وجهي.

انفتح الباب الأمامي ودخل والدي في يده حقيبة سفر.

في الوقت نفسه تحدثت والدتي من ورائي: «عندما كنا صغارًا -كنا أطفالًا فقط- اعتدت أنا ووالدك التسلل إلى هذا المكان للابتعاد عن الجميع. انتظر. انتظر، أنا أعلم. هيا نلعب لعبة. أمامك وقت حتى نغادر، لتخمن الغرفة التي وُلدتَ فيها».

أحبَّت محاولة إثارة اشمئزازي بين الحين والآخر بتفاصيل لم أطلب معرفتها عن علاقتها الحميمية بأبي. عبستُ وأعطيتها ما كنت آمل أن يبدو كنظرة توبيخ، وضحكت هي مرة أخرى، وصار كلانا راضيًا، بعد أن لعبنا أدوارنا المعتادة بشكل مثالي.

سألتُ: «لماذا توجد ستائر فوق كل المرايا؟».

قالت: «لا أعرف، ربما علَّقهم من بقي هنا آخر مرة كطريقة لتذكُّر جدك. في التقاليد اليهودية، بعد وفاة شخص ما، يغطي المعَزون المرايا، كتحذير من الغرور».

قلت: «لكننا لسنا يهودًا».

- إنه تقليد جميل رغم ذلك؛ يجعلنا جميعًا نقضي وقتًا أقل في التفكير في أنفسنا.

- ما خطب كل الأقنعة؟

- يجب أن يحتوي كل بيت لقضاء العطلات على عدد قليل من الأقنعة. ماذا لو كنتَ تريد إجازة من وجهك؟ ماذا لو سئمتُ بشدة من كوني الشخص ذاته يومًا بعد يوم؟ ما رأيك في ذلك؟ هل يعجبك؟

كنتُ شاردًا، أحرك أصابعي على القناع الزجاجي الفارغ الذي تدلى من النافذة، عندما انتبهتُ إلى ما أفعل سحبتُ يدي إلى الخلف، وقد زحفتْ قشعريرة مقزِّزة على طول لحم ساعدي.

قالت بصوت ملتهب ومتلهف: «عليك ارتداؤها، عليك رؤية شكلك فيها».

قلت: «هذا مروِّع!».

- هل ستكون بخير في غرفتك الخاصة؟ يمكنك النوم في السرير معنا. هذا ما فعلتَه آخر مرة كنت هنا. على الرغم من أنك كنت أصغر من ذلك بكثير في ذلك الوقت.

- لا تقلقي بشأني، لا أريد أن أعترض طريقك، في حال شعرتِ برغبة في إنجاب شخص آخر.

قالت: «كن حذرًا مما تتمناه، التاريخ يكرِّر نفسه».

***

الأثاث الوحيد في غرفتي الصغيرة كان سرير تخييم يصلح لطفل، تغطيه ملاءات تفوح منها رائحة النفتالين، وخزانة ثياب مستندة على جدار واحد، بستائر تغطي المرآة هنا أيضًا. تدلى قناع نصف وجه من قضيب الستار، مخيطًا ومزينًا بالترتر الزمردي، أحببته، حتى أطفأت الضوء. في الظلام، بدت الأوراق مثل الحراشف القرنية لكائن غريب له وجه سحلية، مع تجويفات

تصنع فجوة داكنة حيث تنتمي الأعين. أعدت تشغيل الضوء واستيقظت طويلًا بما يكفي لتحويله إلى الحائط.

مالت الأشجار على المنزل ومن حين إلى آخر ضرب أحد الأغصان جانب الكوخ، ليحدِث صوت طرقات جعلتني أظن في أكثر من مرة أن أحدًا يطرق باب غرفة نومي. استيقظت، غفوت، واستيقظت مرة أخرى. كانت الرياح تتصاعد حتى صارت تصدر عواءً خفيفًا، ومن مكان ما بالخارج جاءت أصوات معدنية ثابتة، كما لو كانت عجلة تدور في العاصفة. ذهبت إلى النافذة لأنظر، وأنا لا أتوقع أن أرى شيئًا. كان القمر ساطعًا، ومع تمايل الأشجار، انطلق الضوء الفضي كاللآلئ الذائبة يفترش الأرض، عبر الظلام والغصون، مثل مجموعات الأسماك الفضية الصغيرة التي تعيش في المياه العميقة وتتوهج في الظلام سابحة معًا.

رأيت دراجة متكئة على شجرة، قطعة أثرية ذات عجلة أمامية عملاقة وعجلة خلفية صغيرة بشكل هزلي تقريبًا. دارت العجلة الأمامية بشكل مستمر، بينج-بينج-بينج. جاء صبي عبر العشب باتجاهها، صبي ممتلئ بشعر أشقر، في ثوب نوم أبيض، وشعرت عند رؤيته باندفاع غريزي من الأدرينالين، نالت مني الرهبة. أمسك بمقود الدراجة، ثم حرك رأسه كما لو كان قد سمع صوتًا، وانكمشتُ خلف زجاج النافذة. استدار وحدق إلى وجهي بعينين فضيتين وأسنان فضية، وغمازات في خديه السمينين.

نهضت مستيقظًا في فراشي الذي ظلت رائحته كالنفتالين، وأنا أسعل خوفًا وحزنًا.

عندما جاء الصباح، وتمكنت أخيرًا من الاستيقاظ والتخلص من المعاناة مع النوم للمرة الأخيرة، وجدت نفسي في غرفة النوم الرئيسية، تحت الألحفة المكدَّسة، والشمس مائلة على وجهي. لا يزال انطباع رأس والدتي ظاهرًا على الوسادة بجانبي. لم أتذكرها تسرع إليَّ هناك في الظلام، وكنت سعيدًا بفقدان الذاكرة المفاجئ. في الثالثة عشرة، كنت لا أزال طفلًا صغيرًا، لكن كان لديَّ كبريائي.

استلقيت مثل السمندل على صخرة مستيقظًا ومصابًا بالدوار ووعيي بين النوم واليقظة، حتى سمعتُ شخصًا يسحب سحابًا على الجانب الآخر من

الغرفة. نظرت حولي ورأيت والدي يفتح الحقيبة فوق المكتب. لفت انتباهه حفيف اللحُف الخافت، وأدار رأسه لينظر إليَّ.

كان عاريًا. صبغت أشعة الشمس الصباحية جسده القصير والمضغوط باللون البرونزي. ارتدى القناع البلاستيكي الشفاف الذي كان معلقًا في نافذة الغرفة الكبيرة في الليلة السابقة. سحق القناع ملامح والدي الموجودة تحته، جعلها تبدو كشكل مسطح صعب التعرف عليه، حدق إليَّ وأنا مستلقٍ هناك، وكأنه لم يكن يعلم أنني هنا على السرير، أو كما لو أنه لا يعرفني على الإطلاق. رأيته عاريًا في كثير من الأحيان من قبل، لكن مع القناع كان شخصًا مختلفًا، وكان عريه مقلقًا. نظر إليَّ ولم يتكلم وكان ذلك مقلقًا أيضًا.

فتحت فمي لأقول مرحبًا وصباح الخير، لكن الأزيز في صدري منعني. خطرت في بالي فكرة أنه كان -حقًّا وليس مجازيًّا- شخصًا لا أعرفه. بدأت مقابلة نظراته تقلقني لذا نظرت بعيدًا، ثم انزلقت من تحت الألحفة وذهبت إلى الغرفة الكبيرة، محاولًا عدم الركض.

سمعت صوت إبريق في المطبخ، ثم صوت الماء من الصنبور، تابعتُ الأصوات التي أصدرتها أمي وهي أمام الحوض تملأ إبريق الشاي. سمعتْ خطواتي ونظرت من فوق كتفها إليَّ. أوقفني منظرها عن السير. كانت ترتدي قناعًا أسود على شكل وجه قط، مرصعًا باللؤلؤ وبشعيرات أنف لامعة. لم تكن عارية، ارتدت قميصًا طويلًا يصل إلى وركها، على الرغم من ذلك كانت ساقها بالكامل مكشوفة، وحين انحنت لتغلق الصنبور لمحتُ وميضًا لسروال أسود تحتي ضيق. شعرت بالاطمئنان من حقيقة أنها هي، لأنها ابتسمت لرؤيتي، ولم تحدق إلى وجهي كما لو أننا لم نتقابل قط كما فعل والدي.

قالت: «فطائر البيض في الفرن».

- لماذا ترتدين أنتِ وأبي أقنعة؟

- إنه عيد الهالوين، أليس كذلك؟

قلت: «لا، الهالوين في الخميس المقبل».

سألت: «وهل هناك قانون يمنع الاحتفال به باكرًا؟».

ثم توقفتْ عند الموقد، وقفاز الفرن في إحدى يديها، وسددت نظرة أخرى نحوي: «في الحقيقة... في الحقيقة...».

- أوه ها هي آتية، شاحنة من الهراء على وشك أن ترفع مؤخرتها لتمطر الخراء!

واصلت وكأني لم أتكلم: «في هذا المكان يكون دائمًا عيد الهالوين. إنه يسمى منزل الأقنعة. هذا هو اسمنا السري. إنها إحدى قواعد الكوخ: في أثناء إقامتك هنا، عليك ارتداء قناع. لقد كان الأمر دائمًا على هذا النحو».

- يمكنني الانتظار حتى عيد الهالوين.

أخرجتْ مقلاة من الفرن وقطعت لي قطعة من فطيرة البيض، وسكبت لي كوبًا من الشاي، ثم جلست أمامي لتشاهدني آكل: «عليك ارتداء قناع. رآك شعب ورق اللعب الليلة الماضية. سيأتون قريبًا. عليك ارتداء قناع حتى لا يتعرفوا عليك».

- لماذا لن يتعرفوا عليَّ؟ تعرفتُ عليكِ.

قالت، وعيناها طويلتا الجفون مشرقتان وضاحكتان: «أنت تعتقد أنك تعرفني. شعب الورق لن يعرفوك وراء القناع. إنه كعب أخيل. يأخذون كل شيء في ظاهره. تفكيرهم سطحي للغاية».

قلت: «ها ها، صحيح. متى يأتي المثمِّن؟».

أجابتني: «في وقت لاحق، لا أعرف حقًّا، لست واثقة إن كان هناك مثمن، ربما كنتُ قد اختلقتُ ذلك».

نظرت إليها وقلت: «استيقظتُ منذ عشرين دقيقة فقط، وبدأتُ أشعر بالملل بالفعل، ألا يمكنكما العثور على جليسة أطفال من أجلي وتأتيان أنتما إلى هنا وحدكما لترتديا الأقنعة الغبية وتصنعا الأطفال؟».

بمجرد أن قلت ذلك، شعرت بأنني بدأت في الاحمرار، لكنني كنت مسرورًا لأنني جعلتها تدرك ما أشعر به، لتعرف أنني أعرف بشأن أقنعتهما وملابسها الداخلية السوداء واللعبة الهزلية التي كانا يخوضانها والتي اعتقدا أنني كنت أصغر من أن أفهمها.

قالت: «أفضِّل أن أكون معك. الآن لن تقع في مشكلة مع تلك الفتاة».

اشتدت الحرارة في خديَّ، كما لو أن الجمر يشتعل عليهما: «أي فتاة؟».

- لستُ متأكدة أي فتاة. إما أنها جين ذات الشعر الأحمر وإما صديقتها. ربما صديقتها. الشخص الذي تذهب دائمًا إلى منزل لوك على أمل رؤيته.

لوك أحب صديقته ميليندا. أنا أحببت جين. ومع ذلك، كان تخمين والدتي قريبًا بما يكفي ليزعجني.

اتسعت ابتسامتها أمام صمتي المنزعج وأكملت: «إنها فتاة لطيفة صغيرة، أليس كذلك؟ صديقة جين؟ كلتاهما جميلة، رغم ذلك الصديقة تبدو نوعك أكثر. ما اسمها؟ ميليندا؟ الطريقة التي تتجول بها مرتدية ملابس المزارعين الفضفاضة. أراهن أنها تقضي فترة بعد الظهر في القراءة في منزل على الشجرة بَنَته مع والدها. أراهن أنها تصنع ديدان الطعم بنفسها وتلعب كرة القدم مع الأولاد».

- لوك معجب بها.

- إذن هي جين.

- من قال إنه يجب أن تكون إحداهما؟

أجابت: «يجب أن يكون هناك سبب يجعلك تتسكع مع لوك. إلى جانب لوك نفسه».

ثم قالت: «جاءت جين لبيعِ اشتراكات المجلات لصالح كنيستها قبل أيام قليلة. تبدو وكأنها شابة متحفِّظة للغاية، ذات تفكير منغلق جدًّا، أتمنى لو كانت تتمتع بروح الدعابة أكثر. حينما تكبر قليلًا، ربما عليك أن تشارك لوك ريدهيل الشرب، ثم تدفعه في المحجر القديم. ستسقط ميليندا بين ذراعيك فورًا. بوسعكما مشاركة الحزن معًا، أحيانًا ما يكون الحزن رومانسيًّا للغاية».

أخذتْ طبقي الفارغ ونهضتْ: «ابحث عن قناع. شارِكنا اللعب».

وضعتْ طبقي في الحوض وخرجتْ. انتهيت من تناول كوب من العصير وتهاديت في الغرفة الكبيرة من بعدها. ألقيت نظرة خاطفة على غرفة النوم الرئيسية، بينما كانت تدفع الباب لإغلاقه خلفها. الرجل الذي شككت أنه والدي كان لا يزال في القناع الجليدي المشوَّه، وكان يرتدي بنطال جينز. للحظة التقت أعيننا، بقيت نظراته غير مألوفة. وضع يده اليمنى على ورك أمي. أغلق الباب واختفيا من أمام عيني.

في غرفة النوم الأخرى، جلستُ على حافة سريري ووضعتُ قدمي في حذائي الرياضي. كانت الريح تئن تحت الأفاريز. شعرت بالكآبة والخوف، وأردت أن أكون في المنزل، ولم يكن لديَّ أي فكرة عما أفعله بنفسي. عندما وقفت، صادف أن ألقيت نظرة على القناع الأخضر المصنوع من أوراق الحرير المخيط، استدار مرة أخرى ليواجه الغرفة، سحبته إلى أسفل، وفركته بين الإبهام والسبابة، محاوِلًا تجربة النعومة الزلقة له.

ووضعته بلا تفكير زائد.

***

كانت والدتي في غرفة المعيشة، وقد خرجت من الحمام توًّا.

قالت: «هذا أنت، تبدو كمزيج من شيطان المراعي وإله الخمر، جيد جدًّا، ربما تود أن تجرب ارتداء منشفة، لتتهادى هنا في لباس روماني».

- سيكون ذلك مسليًا، حتى تبدأ أجزاء جسدي في التساقط من الصقيع.

- الجو عاصف هنا، أليس كذلك؟ نحتاج إلى نار. على أحدنا أن يذهب إلى الغابة ليجمع حفنة من الأخشاب الميتة.

- أوه يا إلهي! أتساءل من سيكون هذا.

- انتظر، سنجعلها لعبة، ستكون مثيرة.

- أنا متأكد. لا شيء ينبض بالحياة في الصباح مثل التجول في البرد بحثًا عن العِصي.

- اسمع. لا تذهب بعيدًا عن الطريق الرئيسي في الغابة. هناك في الغابة، لا شيء حقيقي باستثناء المسار. الأطفال الذين يبتعدون عنها لا يجدون طريقهم أبدًا. وأيضًا -وهذه هي النصيحة الأهم- لا تدع أي شخص يراك إلا إذا كان ملثمًا، أي شخص يرتدي قناعًا فهو يختبئ من أوراق اللعب، مثلنا تمامًا.

- إذا كانت الغابة خطيرة جدًّا على الأطفال، فربما يجب أن أبقى هنا ويمكنك الذهاب أنت أو أبي للعب بالعِصي الصغيرة. بالمناسبة، هل سيخرج من غرفة النوم يومًا ما؟

لكنها كانت تهز رأسها: «الكبار لا يمكنهم الذهاب إلى الغابة على الإطلاق. حتى الدرب ليس آمنًا لشخص في مثل سني. لا أستطيع حتى رؤية الطريق.

بمجرد أن تكبر مثلي يختفي الطريق عن الأنظار. أنا أعرف عنها فقط لأن والدك وأنا اعتدنا المشي عليها عندما جئنا إلى هنا في سن المراهقة. يمكن للصغار فقط أن يجدوا طريقهم عبر كل العجائب والأوهام في أعماق الغابة المظلمة».

***

كان الخارج قاتمًا وباردًا تحت سماء رمادية كريش الحمام. تجولت في الجزء الخلفي من المنزل لأرى ما إذا كان هناك كومة حطب. في طريقي عبر غرفة النوم الرئيسية، طرق والدي الزجاج، ذهبت إلى النافذة لأرى ما يريد، وفوجئت بانعكاسي الخاص، المريب على وجهه. كنت لا أزال أرتدي قناع جني الأوراق الحريري، وقد نسيته للحظة.

سحب النصف العلوي من النافذة إلى أسفل وانحنى إلى الخارج، ووجهه مكسو بقشرته البلاستيكية الشفافة، وعيناه الزرقاوان الشتويتان فارغتان قليلًا.

سأل: «إلى أين أنت ذاهب؟».

- ذاهب إلى الغابة، على ما أعتقد. أمي تريدني أن أجمع العِصي من أجل النار.

علَّق ذراعيه فوق النافذة وحدق عبر الأرض إلى الأشجار وهو يراقب بعض أوراق الشجر تتساقط على العشب.

همس: «أتمنى لو كان بوسعي الذهاب».

- إذن تعال.

نظر إليَّ وابتسم لأول مرة طوال اليوم: «لا، ليس الآن. سأقول لك ماذا، استمر وربما سألتقي بك هناك بعد فترة».

- تمام.

- هذا ممتع. بمجرد أن تغادر هذا المكان، ستنسى كم هو نقي. كيف هي رائحة الهواء.

حدق إلى العشب والبحيرة للحظة أخرى، ثم أدار رأسه ولفت انتباهي: «تنسى أشياء أخرى أيضًا. جاك، اسمع، لا أريدك أن تنسى».

فُتح الباب من خلفه، على الجانب الآخر من الغرفة. صمت والدي فجأة. وقفت والدتي في المدخل. كانت ترتدي بنطالها الجينز وسترتها، وتلعب بمشبك حزامها العريض.

قالت: «أولاد، عمَّ تتحدثون الآن؟».

لم ينظر والدي إليها مرة أخرى، بل استمر في التحديق إلى وجهي، وتحت وجهه الجديد المصنوع من الكريستال الذائب، ظننت أنني رأيت نظرة استياء، كما لو قُبض عليه وهو يفعل شيئًا محرجًا بائسًا، كالغش في لعبة الورق ربما. تذكرتُ، حين إذن، رسْمَها بأصابعها على شفتيه، وهي تغلق سحَّابًا وهميًّا، في الليلة السابقة. جال برأسي خاطر غريب. خطرت لي فكرة مفاجئة أنني كنت أرى جزءًا آخر من لعبة بلا معنى تناوبًا على لعبها، وكلما قل ما أعرفه، كنت سأكون أكثر سعادة.

قلت: «لا شيء، كنت أخبر أبي فقط أنني ذاهب في نزهة على الأقدام. والآن أنا ذاهب لأتنزَّه».

ثم تراجعت عن النافذة بينما كنت أتحدث. سعلت والدتي. ودفع والدي ببطء النصف العلوي من النافذة، وبصره لا يزال مستويًا مع نظراتي. أدار القفل ثم ضغط بكفه على الزجاج في بادرة وداع. عندما أنزل يده، بقيت بصمة مشبَّعة بالبخار، يد شبح انكمشت على نفسها واختفت. سحب والدي الستائر.

نسيت أن عليَّ جمع العِصي بمجرد أن ابتعدت. في ذلك الوقت كنت قد قررت أن والديَّ يريدانني فقط خارج المنزل حتى يكون لديهما مكان لأنفسهما، وهو ما جعلني أشعر بالضيق. على رأس الدرب خلعت قناع الأوراق الحريري وعلقته على غصن.

مشيت ورأسي إلى أسفل ودفعت يدي في جيوب معطفي. ولفترة من الوقت، كان المسار يوازي البحيرة، وكان السطح اللامع الذي بدا كالشظايا الزرقاء المجمدة باديًا من خلف أشجار الشوكران. شغلني التفكير في أنهما لو أرادا لعب دور المراهقين الشبقين، كانا ليجدا طريقة للسفر إلى بحيرة القط الهائل دوني، غرقت في التفكير حتى إنني لم ألاحظ المسار يتحول ليبتعد عن الماء.

لم أنظر إلى أعلى حتى سمعت الصوت قادمًا نحوي على طول الطريق، طنين فولاذي، صرير إطار معدني تحت الضغط. مباشرة أمام الطريق المفترق الذي كلَّلتْه صخرة تشبه تابوتًا نصف مدفون، عاد المسار خلفها ليلتحم مواصلًا امتداده بعيدًا بين أشجار الصنوبر.

انزعجتُ، لا أعرف لماذا. كان شيئًا في الطريقة التي عصفت بها الرياح في ذلك الوقت، الأشجار المنبثقة نحو السماء. كانت تلك الطريقة المحمومة التي انطلقت بها الأوراق حول كاحلي، كما لو كانت في عجلة من أمرها فجأة للخروج من الطريق. دون تفكير، جلستُ خلف الصخرة، استترتُ بالحجر، وأنا أحتضن ركبتي على صدري.

بعد لحظة ظهر الصبي على الدراجة العتيقة، مر الصبي الذي اعتقدتُ أنني كنت أحلم به على يساري، دون أن يلقي نظرة سريعة نحوي. ارتدى ثوب النوم ذاته كما في الليلة السابقة. على ظهره حزام أبيض يحمل زوجين متواضعين من الأجنحة المصقولة بالريش باللون الحليبي ذاته على ظهره، التي على الغالب ارتداها البارحة أيضًا وعجزتُ أنا عن رؤيتها في الظلام.

في أثناء مروره جواري، ألقيت نظرة سريعة على خديه الغائرين وشعره الأشقر، تعبيرات الثقة الهادئة على محياه. كانت نظرته باردة وبعيدة. شاهدته يقود بخبرة دراجة تشارلي شابلن الغريبة بين الأحجار والجذور، حوَّل مساره عند المنحنى، ليختفي بعيدًا عن الأنظار.

لولا أنني رأيته الليلة السابقة أيضًا، لاعتقدت أنه كان صبيًّا في طريقه إلى حفلة تنكرية، على الرغم من أن الجو كان باردًا جدًّا على ركوب الدراجة في ثياب النوم. وانتتني رغبة في العودة إلى الكوخ، بعيدًا عن الريح، وأكثر أمنًا مع والديَّ. صرت خائفًا من الأشجار المتمايلة حولي، لكن عندما تحركتُ، قررتُ أن عليَّ الاستمرار في الاتجاه الذي كنت أسير فيه، ألقيت نظرة خاطفة خلف كتفي للتأكد من أن راكب الدراجة لن يأتي ورائي. لم يكن لديَّ الجرأة للعودة على طول الطريق السابق، عالمًا أن الصبي على الدراجة العتيقة كان في مكان ما هناك بيني وبين الكوخ.

أسرعت، على أمل أن أجد طريقًا، أو أحد المنازل الصيفية الأخرى على طول البحيرة، متحمسًا أن أكون في أي مكان آخر غير الغابة. اتضح أن «أي مكان» كان على بعد عشر دقائق سيرًا من حيث الحجر على شكل النعش.

لوحة خشبية أشبه بلوحات تعريف الاتجاهات وقد نُقش عليها حرفيًا عبارة «أي مكان». ثبتٌ على جذع قديم لشجرة أناناس حيث كان بعض الناس يخيمون من فترة. كيف عرفت؟ لأن عددًا من العِصي المتفحمة بقي في قاع حفرة سوداء اللون.

بالقرب منها بنى شخص ما -ربما أطفال- مخبأ بين زوجين من الصخور. كانت الصخور بالارتفاع نفسه تقريبًا، وتميل نحو بعضها بعضًا، وُضعت لوحات من الخشب الرقيق فوقها. وأمام الفتحة وُضع جذع ليوفِّر مكانًا للجلوس، وفي الوقت ذاته شكَّل عتبة حاجزة مرتجلة يجب تسلقها لدخول المخبأ.

وقفت على أنقاض نار المخيم، محاولًا تحديد اتجاهي. قاد مساران الطريق على الجانب البعيد من المخيم. الاختلاف بينهما كاد ينعدم، كلاهما شقَّان ضيقان وقعا بين مجموعة من الشجيرات، ولم يكن هناك أي دليل إلى أين قد يؤدي أيٌّ منهما.

جاء صوت فتاة عن يساري خافتًا: «إلى أين تحاول الذهاب؟».

قفزتُ، وابتعدتُ نصف خطوة، ونظرتُ حولي. انحنتْ خارج الملجأ، ويداها على جذع الأشجار. لم أرَها في ظلال الجذوع. كانت ذات شعر أسود، أكبر مني بقليل، في السادسة عشرة من عمرها على الأغلب وكان لديَّ شعور بأنها جميلة. لكن التأكد كان صعبًا بسبب قناعها الأسود المطرَّز مع ريشة نعام مثبَّتة على أحد جوانبه. خلفها مباشرة، في الظلام، لمحتُ صبيًا، النصف العلوي من وجهه مخفي وراء قناع بلاستيكي ناعم بلون الحليب.

قلت: «أنا أبحث عن طريقي إلى العودة».

سألت الفتاة: «العودة إلى أين؟».

ألقى الصبي الجاثم خلفها نظرة مدروسة على مؤخرتها في بنطالها الجينز الباهت. كانت، بوعي أو بغير وعي، تهز وركيها قليلًا من جانب إلى آخر.

قلت: «عائلتي لديها مكان صيفي بالقرب من هنا. كنت أتساءل ما إذا كان أحد هذين المسارين سيأخذني إلى هناك».

قالت: «يمكنك العودة من الطريق الذي أتيت منه».

لكنها قالتها بشكل متلاعب، كما لو كانت تعرف بالفعل أنني كنت أخشى العودة مرة أخرى من ذلك الطريق.

قلت: «لا أفضِّل فعل هذا».

سأل الصبي: «ما الذي جاء بك إلى هنا؟».

- والدتي أرسلتني لأجمع الحطب من أجل النار.

شخر: «تبدو وكأنها بداية حكاية خيالية».

ألقت الفتاة نظرة حانقة عليه، وتجاهلها: «أحد الأشرار. لا يمكن لوالديك إطعامك بعد الآن، لذلك يرسلونك لتضيع في الغابة. في النهاية تقدم لك ساحرة أو شخص ما الطعام، لتتناولك فيما بعد على العشاء. مخبوز في فطيرة. كن حذرًا حتى لا تصير عشاء أحدهم».

سألت الفتاة وهي تعرض مساعدته للدخول: «هل تريد لعب الورق معنا؟».

- أريد فقط أن أعود إلى المنزل. لا أريد أن يقلق والداي.

قالت: «اجلس والعب معنا، سنساعد في الحصول على إجابات. يجب على الفائز سؤال كلٍّ من الخاسرين سؤالًا، وبغض النظر عن أي شيء، عليهم قول الحقيقة. لذلك إذا فزت عليَّ، يمكنك أن تسألني عن كيفية العودة إلى المنزل دون رؤية الصبي على الدراجة القديمة، وسأضطر إلى إخبارك».

مما يعني أنها رأتني وبطريقة ما خمنَت الباقي. بدت مسرورة بنفسها، بإخباري بنظرتها أنني شخص يسهل تخمين ما يدور بعقله.

أومأت برأسي وسألتُ: «ماذا تلعبون؟».

- نوع من البوكر يُدعى اليد الباردة، لأنها لعبة الورق الوحيدة التي يمكنك لعبها عندما يكون الجو باردًا.

هز الفتى رأسه: «هذه واحدة من هذه الألعاب التي تضع القواعد في أثناء سيرها».

كان صوته يحمل خشونة بداية سن المراهقة، لكن رغم ذلك بدا مألوفًا بالنسبة إليَّ.

عبرت إلى داخل الملجأ أسفل جذوع الأشجار وتراجعت على ركبتيها، وانزلقت عائدة إلى الفضاء المظلم تحت سقف الخشب الرقيق لإفساح المجال لي. كانت تتحدث طوال الوقت، وتخلط أوراقها البالية: «هذه ليست لعبة

صعبة. أوزِّع خمس أوراق لكل لاعب، وجهها إلى أعلى. عندما أنتهي، فإن مَن لديه أفضل توزيع ورق بوكر يفوز. ربما يبدو هذا بسيطًا جدًّا، ولكن هناك الكثير من القواعد الإضافية الصغيرة المضحكة. إذا ابتسمتَ في أثناء اللعبة، يمكن للاعب الجالس على يسارك تبديل إحدى بطاقاته بواحدة من بطاقاتك. إذا تمكنتَ من بناء منزل باستخدام البطاقات الثلاث الأولى التي تُوزَّع عليك، وتمكَّن اللاعبون الآخرون من تفجيره في نفَس واحد، فعليك أن تنظر من خلال المجموعة وتختار ما تريد لبطاقتك الرابعة. إذا سحبتَ بطاقة «انسحاب أسود»، فإن اللاعبين الآخرين يرمونك بالحجارة حتى تموت. إذا كان لديك أي أسئلة، فاحتفظ بها لنفسك. الفائز فقط هو من يمكنه طرح الأسئلة. أي شخص يطرح سؤالًا في أثناء اللعب يخسر على الفور. تمام؟ لنبدأ».

كانت بطاقتي الأولى جاك كسول. كنت أعرف ذلك لأنه قال ذلك في الجزء السفلي، ولأنه أظهر صورة لجاك ذي شعر ذهبي مستلقٍ على وسائد حريرية، بينما نظفت فتاة من الحريم الملكي أظافر قدميه. لم أدرك أنني سجلت عقليًّا شيئًا قالته ولم أفهمه عن «الانسحاب الأسود» حتى وُزعت البطاقة الثانية، ثلاثة خواتم.

بدأتُ أسأل: «معذرة، ولكن ما هو...».

رفعت حاجبيها مقاطِعة إياي، ونظرت إليَّ بجدية، فقلت: «لا تهتمي».

أصدر الصبي صوتًا طفيفًا في حلقه، فصرخت الفتاة: «ابتَسمَ! الآن يمكنك استبدال واحدة من بطاقاته بإحدى بطاقاتك!».

- لم أفعل!

قالت: «بل فعلتَ وقد رأيتُ ذلك. خذ ملِكته وامنحه جاك الخاص بك».

أعطيته جاك الكسول وأخذت منه ملكة الأوراق. ظهرت في الصورة فتاة عارية نائمة على فراش تشابكت أغطيته أسفل أربعة أعمدة منحوتة. امتلكتْ شعرًا بنيًّا مفرودًا، وملامح قوية وجمالًا، تحمل تشابهًا مع صديقة جين، ميليندا. بعد ذلك حصلتُ على كارت يُدعى ملك العملات البعيدة، وهو رجل ذو لحية حمراء يحمل كيسًا من العملات مثقوبًا تكاد العملات تسقط منه. كنت متأكدًا تمامًا من أن الفتاة ذات القناع الأسود قد أضافته إلى أوراقي من أسفل الطاولة، بالغش. وهي رأت أنني رأيت وحدجتني بنظرة قوية وملأى بالتحدي.

عندما كان لدى كلٍّ منا ثلاث بطاقات، أخذنا استراحة وحاولنا بناء منزل لا يستطيع الآخرون نفخه، لكن لم يصمد أيٌّ منهم. بعد ذلك حصلتُ على ملكة السلاسل وبطاقة مطبوع عليها قلوب كما لعبة الأوراق العادية. كدت أتساءل لو كانت جاءت إليَّ مجموعة الأوراق الغريبة هذه عن طريق الصدفة، لكنني تراجعت، مفكرًا أنه لا أحد على الأقل سحب الانسحاب الأسود، الذي لم أكن أعرف حتى ما هو حتى الآن.

صرخت الفتاة: «جاك يفوز!».

الأمر الذي أزعجني قليلًا، لأنني نفسي لم أعرف أنني فزت.

دفعت بنفسها لتعانقني وهي تكرر: «جاك هو الفائز!».

عندما استوعبتُ أخيرًا، كانت تدفع أوراق الفوز في جيب سترتي: «هاك، عليك الاحتفاظ بيدك الرابحة، لنتذكر المتعة التي حظينا بها. لا يهم. هذه المجموعة القديمة تفتقد مجموعة من البطاقات على أي حال. عرفتُ للتو أنك ستفوز!».

قال الصبي: «بالتأكيد فعلتِ. في البداية، تبتكر لعبة بقواعد هي فقط التي تستطيع فهمها، ثم تغش حتى تسير اللعبة كيفما تحب».

ضحكت، ضحكة متشنجة وقوية، وشعرتُ بالبرد في مؤخرة رقبتي. كنت بحلول هذه اللحظة قد خمنت الحقيقة، كنت أعرف، قبل أن تضحك حتى، مع من لعبت الورق.

قالت: «سر تجنب الخسائر التعيسة هو أن تلعب فقط الألعاب التي تصنع قواعدها بنفسك، الآن. هيا يا جاك. اسأل أي شيء تريده. هذا حقك».

وسألتُ: «كيف يمكنني العودة إلى المنزل دون العودة من الطريق الذي أتيت منه؟».

- هذا سهل. اسلك الطريق الأقرب إلى علامة «أي مكان»، التي ستأخذك إلى أي مكان تريد الذهاب إليه. لهذا السبب تقول أي مكان. فقط تأكد من أن الكوخ هو المكان الذي تريد الذهاب إليه حقًّا، وإلا فقد لا تصل إليه.
- تمام. شكرًا لكِ. كانت مباراة جيدة. لم أفهم تلك القواعد، لكنني استمتعت باللعب.

وبدأت أعبر فوق جذع الشجرة. لم أكن قد ابتعدت قبل أن تناديني. عندما نظرتُ إلى الوراء، كانت هي والصبي جنبًا إلى جنب، يتكئان على جذع الأشجار ويحدقان إلى وجهي.

قالت: «لقد نسيت، عليك أن تسأله سؤالًا أيضًا».

سألت الفتى فورًا: «هل أعرفك؟».

التفت لينظر إلى كلٍّ منا ثم قال: «لا، أنت لا تعرف حقًّا أيًّا منا».

***

بحلول الساعات الأولى للغروب، والضوء الباقي تقطعه قمم الأشجار مشيرًا إلى مدى الوقت الذي انقضى منذ دخولي الغابة، رأيت سيارة الجاجوار متوقفة في الممر خلف سيارة والديَّ. المقصورة الداخلية مصقولة بلون الكرز، وبدت المقاعد وكأنها لا أحد جلس عليها من قبل. وكأنها خرجت للتو من بوابة معرض السيارات. صعدتُ الدرج، لكن قبل أن أتمكن من الوصول إلى الباب للدخول، فُتح، وخرجت والدتي، وهي لا تزال ترتدي قناع الهرة السوداء الموحي بالألعاب الحميمية.

قالت: «قناعك، ماذا فعلت به؟».

قلت: «تخلصت من ذلك الشيء».

لم أخبرها أنني علَّقته على غصن شجرة لأنني شعرت بالحرج من رؤيتي أرتديه. تمنيت لو حصلت عليه الآن، على الرغم من أنني لم أستطع أن أقول لماذا.

ألقت نظرة قلقة على الباب، ثم جثت أمامي: «كنت أعرف. وجئت مستعدة لنجدتك، البس هذا».

قدمت لي قناع والدي من البلاستيك الشفاف. حدقتُ إليه للحظة، متذكرًا الطريقة التي بدا بها وجهه عندما رأيته لأول مرة، وكيف أنه حطم ملامح والدي وحوَّلها إلى شيء بارد وغريب. لكن عندما انزلق على وجهي، كان مناسبًا بدرجة كافية. حمل رائحة خافتة من أبي والقهوة ورائحة بخاخ ما بعد الحلاقة بعطر البحر. وجدت أن قربه مني مطمْئن.

قالت والدتي: «سنخرج من هنا خلال بضع دقائق. ونعود إلى المنزل. بمجرد انتهاء المثمِّن من النظر حول المكان. هيا. تعال. لقد أوشك الأمر على الانتهاء».

تابعتها إلى الداخل، ثم توقفتُ عبر الباب. جلس والدي على الأريكة، دون قميص وحافي القدمين. بدا جسده كما لو أنه قد رُمِّز من قِبل الجراح لإجراء عملية جراحية. أظهرت الخطوط المنقَّطة والسهام موقع الكبد والطحال والأمعاء. كانت عيناه مثبتتين نحو الأرض ووجهه فارغًا.

سألت: «أبي؟».

ارتفع بصره وتحركت عيناه من والدتي إليَّ، وعاد ينظر إليَّ. ظل تعبيره خاويًا لا يمكن سبر أغواره.

قالت والدتي: «ششش، والدك مشغول».

سمعتُ نقرات الكعبين عبر الألواح العارية عن يميني ونظرت عبر الغرفة، حيث خرج المثمِّن من غرفة النوم الرئيسية. افترضت أن المثمِّن سيكون رجلًا، لكنها كانت امرأة في منتصف العمر ترتدي سترة تويدية، مع بعض الشعر الأبيض باديًا وسط خصلات شعرها الأصفر المتموج. تمتعت بملامح إمبراطورية صارمة، عظام وجنتين عاليتين، وحاجبان مقوَّسان كالنبلاء الإنجليز.

سألتْ والدتي: «هل ترى أي شيء يعجبك؟».

قالت المثمِّنة: «لديكِ بعض القطع الرائعة».

انجرفت نظرتها إلى كتفَي أبي العاريتين، فقالت والدتي: «حسنًا، لا تهتمي به».

أعطت ظهر ذراعي قرصة ناعمة وانزلقت حولي لتنهض، وهمست بجانب فمها: «امسك زمام الأمور يا فتى. سأعود حالًا».

أظهرت والدتي للمثمِّنة ابتسامة صغيرة ومهذبة تمامًا، قبل أن تدخل غرفة النوم الرئيسية وبعيدًا عن الأنظار، تاركةً إيانا نحن الثلاثة وشأننا.

قالت المثمِّنة: «شعرت بالأسف عندما سمعت أن أبتون مات، هل تشتاق إليه؟».

كان السؤال غير متوقَّع للغاية وأذهلني على الفور. أو ربما كانت نبرتها -التي لم تكن متعاطفة وبدت في أذني فضولية للغاية- حريصة على إبداء القليل من الحزن.

قلت: «أعتقد، أعني... لم نكن قريبين إلى هذا الحد، أعتقد أنه تمتع بحياة جيدة رغم ذلك».

- بالطبع فعل.

- سأكون سعيدًا إذا سارت الأمور بحياتي بنصف جودة حياته حتى.

- بالطبع ستفعل.

ووضعت إحدى يديها على مؤخرة عنق أبي وبدأت في فركها برقة. كانت لفتة حميمة عرَضية، فاحشة، شعرتُ بألم معوي ممرض عند رؤيتي لما يحدث. تركت نظري ينجرف بعيدًا وبقيت أنظر بعيدًا حتى حطت عيناي على المرآة على ظهر الخزانة. كانت الستائر مقطوعة قليلًا، وفي الانعكاس رأيت امرأة مصنوعة من ورق اللعب تقف خلف أبي، ملكة البستوني، وعيناها المرسومتان بالحبر متغطرستان وبعيدتان، ورداؤها الأسود مرسوم على جسدها. انتزعتُ نظري عن المرآة ونظرتُ مرة أخرى نحو الأريكة مشحوذًا. كان والدي يبتسم بطريقة حالمة، متكئًا على يديه الآن وهي تدلك كتفيه.

نظرت المثمِّنة إليَّ من تحت جفنين نصف مغمضين، وقالت: «هذا ليس وجهك، لا أحد لديه وجه كهذا. وجه مصنوع من الجليد. ما الذي تخفيه؟».

تصلَّب والدي، وتلاشت ابتسامته. جلس إلى الأمام وحرَّر كتفيه من قبضتها.

قال والدي للمرأة التي تقف خلفه: «لقد رأيت كل شيء، هل تعرفين ماذا تريدين بالفعل؟».

قالت وهي تضع يدها برفق على كتفه مرة أخرى: «سأبدأ بكل شيء في هذه الغرفة».

كانت تتلاعب بضفيرة شعره للحظة: «يمكنني الحصول على كل شيء، أليس كذلك؟».

خرجت والدتي من غرفة النوم وهي تحمل حقيبتين، واحدة في كل يد. ألقت نظرة خاطفة على المثمِّنة ويدها على رقبة أبي، وأطلقت ضحكة صغيرة

مرتبكة، الضحكة التي بدت بلا معنى، وكأنها تعني أي شيء، والتقطت الحقائب مرة أخرى، وسارت بها نحو الباب.

قال والدي: «كل شيء في متناول اليد، نحن مستعدون للتفاوض».

قالت المثمِّنة: «ومن ليس كذلك؟».

وضعت والدتي إحدى الحقائب أمامي، وأومأتْ برأسها لآخذها. تبعتُها في الشرفة، ثم نظرتُ إلى الوراء. كانت المثمِّنة متكئة على الأريكة، ورأس أبي مائل إلى الخلف، وفمها كان على رأسه. مرت والدتي من جانبي وأغلقت الباب.

مشينا أسفل الشفق الذي بدأ يجتمع في صفحة السماء إلى السيارة. جلس الصبي الذي يرتدي العباءة البيضاء على العشب، ودراجته على العشب بجانبه. كان يسلخ أرنبًا ميتًا بقرن حيوان قديم، بطنه مفتوح يتصاعد منه البخار. نظر إلينا عندما مررنا وابتسم ابتسامة عريضة، ظهرت أسنانه وردية ملطخة بالدم. وضعت والدتي ذراعها حول كتفي. بعد أن كانت في السيارة، خلعت قناعها وألقته على المقعد الخلفي. تركتُ القناع خاصتي على وجهي. عندما استنشقت بعمق شممت رائحة والدي.

سألتُ: «ماذا تفعلين؟ ألن يأتي؟».

وأجابت: «لا، سيبقى هنا».

وبدأت في تشغيل السيارة قبل أن أسأل: «كيف سيعود إلى المنزل؟».

نظرت إليَّ بنظرة جانبية، وابتسمت بتعاطف. في الخارج، كانت السماء مزيجًا من الأزرق والأسود تقريبًا، تكلِّلها السحب، ظلال عابرة بلون قرمزي محترق، لكن في السيارة كان الظلام قد بدأ بالفعل. استدرت في مقعدي وجلست على ركبتي لمشاهدة الكوخ يختفي بين الأشجار.

قالت والدتي: «دعنا نلعب لعبة، لنتخيل أنك لم تعرف والدك حقًّا. لنتخيل أنه رحل قبل أن تولَد. يمكننا اختلاق قصص صغيرة ممتعة عنه. لديه وشم من أيامه في المارينز، ووشم آخر، مرساة زرقاء، هذه من... اممم».

تذبذب صوتها فجأة وكأنها أدركت أنها غير قادرة على استجلاب الإلهام، ثم ضحكت وقالت: «منذ أن كان يعمل حفار نفط في أعماق البحار».

واصلت الابتسام: «هذا صحيح. وسنتظاهر بأن الطريق هو طريق سحري. طريق فقدان الذاكرة السريع. بحلول الوقت الذي نعود فيه إلى المنزل، سنعتقد أن القصة صحيحة، وأنه غادر بالفعل قبل ولادتك. كل شيء آخر سيبدو وكأنه حلم، تلك الأحلام حقيقية مثل الذكريات. أحيانًا تبدو القصة المختلَقة أفضل من القصة الحقيقية على أي حال. أعني، أحبَّك بشدة، وأراد كل شيء من أجلك، لكن هل يمكنك أن تتذكر شيئًا مثيرًا للاهتمام فعله من قبل؟».

كان عليَّ أن أعترف أنني لا أستطيع.

- هل يمكنك حتى أن تتذكر ما فعله من أجل لقمة العيش؟

كان عليَّ أن أعترف أنني لم أفعل. عمل بالتأمين؟

سألتْ: «أليست تلك لعبة جيدة؟ بمناسبة الحديث عن الألعاب. هل ما زالت لديك يدك الرابحة؟».

تساءلت: «يدي الرابحة؟!».

ثم تذكرت ومددت يدي في جيب سترتي، فقالت: «سترغب في الاحتفاظ بهذه، هذه هي اليد الرابحة. مِلك العملات ومِلكة الأوراق. حصلت على كل شيء يا فتى، أأخبرك بماذا؟ عندما نعود إلى البيت عليك الاتصال بميليندا هذه».

ضحكت مرة أخرى، ثم ربَّتت على بطنها: «الأيام الجيدة قادمة يا فتى، لكلينا».

هززت كتفي.

قالت والدتي: «يمكنك نزع القناع، كما تعلم. إلا إذا كنت تحب ارتداءه. هل تحب ارتداءه؟».

اقتربتُ من حاجب الشمس، وقلبتُه إلى أسفل، وفتحتُ المرآة. أضاءت الأنوار حول المرآة. درستُ وجهي الجديد تحت القناع البلاستيكي الذي بدا كطبقة من الجليد، والوجه تحته، فراغ بشري مشوَّه.

وأجبتها: «بالتأكيد أحبه».

ثم أكملت: «هذا هو أنا».

***

إحالة طوعية

لا أعرف إلى من أكتب هذا، لا يمكنني الجزم بأني أعرف حتى من سيقرؤه. ليس الشرطة، على أي حال. لا أعرف ما حدث لأخي وليس بوسعي إخبارهم بمكانه. لا شيء أكتبه هنا سيساعدهم في العثور عليه. وعلى كلٍّ، هذا الكلام المكتوب لا يتعلق حقًّا باختفائه، على الرغم من أنه يتعلق بشخص مفقود، وسأكون كاذبًا إذا قلت إنني لا أعتقد أن هذين الأمرين لهما علاقة ببعضهما بعضًا.

لم أخبر أي شخص قط بما أعرفه عن إدوارد بريور، الذي ترك المدرسة في أحد أيام أكتوبر عام 1977، ولم يصل إلى المنزل قط لتناول البطاطا المشوية والمخبوزة مع والدته. لفترة طويلة، في أول عام أو عامين بعد اختفائه، لم أرغب في التفكير في صديقي إيدي. كنت لأفعل أي شيء حتى لا أفكر فيه. إذا مررت ببعض الناس يتحدثون عنه في قاعات مدرستي الثانوية، أشياء من قبيل «سمعت أنه سرق مخدرات والدته وبعض المال وهرب إلى كاليفورنيا اللعينة!»، كلما سمعت هذا الحديث ركزت عينيَّ على نقطة ما بعيدة وتظاهرت بالصمم.

وإذا اقترب أحدهم بالفعل وسألني مباشرة عما أشعر به -وهو ما حدث عاجلًا أو آجلًا لكوننا رفيقين معروفين- طمست وجهي بتعبيرات خاوية وحركت كتفي بلا مبالاة قائلًا: «أعتقد أنني أهتم أحيانًا».

في وقت لاحق، لم أعد أفكر في إيدي بدافع من العادة التي كوَّنتها عن عمد. إذا حدث أي شيء بالمصادفة ليذكِّرني به، إذا رأيت فتى يشبهه، أو قرأت شيئًا في الأخبار عن مراهق مفقود، فسأبدأ على الفور في التفكير في شيء آخر، حتى صرت بالكاد أدرك أنني كنت أفعل هذا.

لكن في الأسابيع الثلاثة الماضية، منذ اختفاء أخي الصغير موريس، أجد نفسي أفكر في إد بريور أكثر وأكثر، لا يمكنني على ما يبدو، مهما كانت قوة إرادتي، دفعُ الفكرة للتنحي جانبًا. الرغبة في التحدث إلى شخص ما حول ما أعرفه هي في الحقيقة أكثر مما أستطيع تحمله. لكن هذه ليست قصة للشرطة. صدقوني، لن يفيدهم ذلك، بل قد تؤدي الحكاية إلى قدر لا بأس به من التداعيات. لا أستطيع توجيههم إلى طريق البحث عن إدوارد بريور، أكثر مما يمكنني مساعدتهم في البحث عن موريس، ليس بإمكاني إدلالهم على ما لا أعرفه، وإذا شاركت هذه القصة مع أحد المخبرين، أعتقد أنه قد يُطلب مني الإجابة عن بعض الأسئلة القاسية، وبعض الناس -والدة إيدي على سبيل المثال، التي لا تزال على قيد الحياة وفي زواجها الثالث- سيواجهون الكثير من الضغط العاطفي غير الضروري.

على الأرجح سينتهي بي الأمر بتذكرة ذهاب فقط إلى المكان نفسه الذي أمضى فيه أخي العامين الأخيرين من حياته، مركز ويلبروك للصحة العقلية التقدمية. كان أخي هناك طواعية، لكن ويلبروك يتضمن جناحًا للأشخاص المراد احتجازهم جبرًا. كان موريس جزءًا من برنامج عمل العيادة، مسح الأرضيات لهم مدة أربعة أيام من الأسبوع، وفي صباح يوم الجمعة ذهب إلى الجناح الذي عُرف بـ «الجناح الحاكم»، لغسل فضلاتهم ودمائهم عن الجدران.

***

هل تحدثتُ توًّا عن موريس بصيغة الماضي؟ أعتقد أنني فعلت. لا آمل بعد الآن أن يرن الهاتف، ليأتي صوت بيتي ميلهاوزر من ويلبروك، صوتها متسرع ومتقطع، يخبرونني أنهم عثروا عليه في مأوى للمشرَّدين في مكان ما، وأنهم سيعيدونه. لا أعتقد أن أي شخص سيتصل ليخبرني أنه وجده طافيًا في نهر أيضًا. لا أعتقد أن أي شخص سيتصل بي على الإطلاق، باستثناء ربما لقول «لا جديد»، الجملة التي من شأنها أن تُحفر على قبر موريس. عليَّ أن

أعترف بأنني أكتب هذا، ليس لعرضه على أي شخص، ولكن لأنني لا أستطيع مساعدة نفسي، الصفحة الفارغة هي الجمهور الوحيد الآمن الذي يمكنني تخيله لهذه القصة.

لم يبدأ شقيقي الصغير في الحديث حتى بلغ الرابعة من العمر. اعتقدَ الكثير من الناس أنه متخلف. لا يزال الكثير من الناس في مسقط رأسي القديم -فالو- يعتقدون أنه كان متخلفًا عقليًا أو مصابًا بالتوحد. للاعتراف، عندما كنت طفلًا كنت أنا نفسي شبه مقتنع أنه متخلف عقليًا، على الرغم من أن والديَّ أخبراني أنه ليس كذلك.

عندما كان في الحادية عشرة من عمره، شُخِصَت حالته بمرض انفصام الشخصية. فيما بعد ظهرت تشخيصات أخرى، اكتئاب، واضطراب الوسواس القهري، وانفصام الشخصية الاكتئابي الحاد. لا أعرف ما إذا كانت أيٌّ من هذه الكلمات تجسِّد حقًا الإحساس بمَن كان وما عانى. أعلم أنه حتى عندما وجد كلماته، لم يستخدمها كثيرًا. إنه كان دائمًا صغيرًا جدًّا بالنسبة إلى عمره، صبيًّا ذا عظام دقيقة، يداه طويلتان نحيفتان، ووجهه جميل كجني حكايات خرافية.

لطالما انعدم شعوره بالفضول، مشاعره بقيت مغمورة على عمق شديد داخله حتى صار ظهورها على وجهه نادرًا. لم يرمش قط. في بعض الأحيان ذكَّرني أخي بواحدة من تلك الأصداف الضخمة المدببة في الخارج، بينما تلتف حول نفسها، ليغيب الجزء الوردي المصقول بعيدًا في داخلها إلى مكان ما غامض. بوسعك الإمساك بها، وضعها على أذنك وتخيل أنك تسمع أمواج المحيط تعصف هناك. بينما في الحقيقة أنت لا تسمع أي شيء على الإطلاق والصوت على أذنك هو مجرد خدعة صوتية. هزيم رعد للاشيء، للهواء المتدفق داخل الصدفة. أقرَّ الأطباء بتشخيصهم لأخي سابقًا، لكن بعمر الرابعة عشرة. كان هذا هو تشخيصي الشخصي.

لأنه كان عرضة لالتهابات الأذن المؤلمة، لم يُسمح لموريس بالخروج في الشتاء، الذي بدأ حسب تعريف والدتي عندما انتهت بطولة العالم وانتهت عندما بدأ موسم البيسبول. يمكن لأي شخص لديه أطفال صغار إخبارك بمدى صعوبة إبقائهم مشغولين بسعادة لفترة زمنية حقيقية داخل المنزل، عندما لا يمكنك فقط إرسالهم إلى الخارج. ابني الآن يبلغ من العمر 12 عامًا ويعيش مع زوجتي السابقة في بوكا راتون، لكننا عشنا جميعًا كعائلة حتى

بلغ السابعة من العمر، وأتذكر كيف كان الوضع في الأيام الباردة والممطرة، وكلنا عالقون في الداخل. بالنسبة إلى أخي الصغير، كان كل يوم يومًا باردًا وممطرًا، ولكن على عكس الأطفال الآخرين، لم يصعب إبقاؤه مشغولًا. شغل نفسه بنفسه، ينزل إلى القبو بمجرد عودته إلى المنزل من المدرسة، للعمل على أحد اختراعاته في هدوء لبقية فترة ما بعد الظهر، منشغلًا في أحد مشاريعه الإنشائية الضخمة المترامية الأطراف والمعقدة تقنيًّا التي لا قيمة لها عمليًّا.

***

كان حبه الأول وما أبقاه مسحورًا هو الأبراج والمعابد المترامية التي أنشأها من الأكواب البلاستيكية.

أتذكر ما على الأرجح كانت المرة الأولى التي يصنع فيها شيئًا منها. كان المساء قد حل، وقد اجتمعنا جميعًا -والداي وموريس وأنا- في غرفة التلفاز لحضور أحد طقوس عائلتنا النادرة، وهي المشاهدة الليلية لبرنامج يُدعى «M * A * S * H».

خلال توقف العرض، في الفترة الثانية من الإعلانات، انتقل تركيزنا عن متابعة المذيع آلن ألدا وشركائه إلى متابعة أخي. جلس والدي على الأرض بجانبه. اعتقدت أنه في البداية ربما كان يساعده في البناء.

كان والدي هو نفسه مصابًا بالتوحد، رجلًا خجولًا أخرق لم يخرج من ملابس النوم في عطلات نهاية الأسبوع، ولم يكن لديه تقريبًا أي صلات اجتماعية مع العالم على الإطلاق بخلاف والدتي. لم يظهِر قط أي علامة على خيبة الأمل في موريس، وغالبًا ما كان يبدو أكثر سعادة عندما كان ممددًا بجانب أخي، يرسم عوالم ملأى بأشعة الشمس على ورق البناء معه. هذه المرة، جلس وترك موريس يعمل بمفرده، فضوليًّا مثل بقيتنا لنرى كيف سيخرج الاختراع.مكتبة سُر مَن قرأ

بنى موريس وكدَّس ورتَّب، وأصابعه الطويلة النحيلة تنطلق هنا وهناك، وتضع الأكواب بسرعة تبدو وكأنها خدعة سحرية، أو عمل إنسان آلي على خط التجميع. في بعض الأحيان لم يكن ينظر حتى إلى ما تفعله يداه، بل كان يحدق بدلًا من ذلك إلى علبة الأكواب البلاستيكية، وكأنه يرى كم بقي منها.

ارتفعَ البرج إلى أعلى وأعلى، وتطايرت الأكواب عليه بسرعة كبيرة لدرجة أنني وجدت نفسي أحيانًا أحبس أنفاسي في حالة من عدم التصديق.

فتح صندوقًا ثانيًا من الأكواب البلاستيكية واستهلكه. بحلول الوقت الذي انتهى فيه -وهو ما حدث عندما استخدم كل الأكواب التي استطاع والدي أن يجدها له- كان البرج بطول موريس نفسه، محاطًا بجدار دفاعي وبوابة مفتوحة. بسبب الفراغات بين الكؤوس، بدا أن هناك نوافذ ضيقة لرماة السهام في جوانب البرج، وظهرت قمة كلٍّ من البرج والجدار.

ذُهلنا جميعًا قليلًا جرَّاء مشاهدة موريس يبني الشيء بهذه السرعة والثقة بالنفس، لم يكن هيكلًا رائعًا، لكان أي طفل آخر في الخامسة من عمره قادرًا على بناء الشيء نفسه. لكن اللافت للنظر كان كَمَّ الطموحات المستقبلية التي أوحى بها هذا البناء. تشعر أن موريس كان بإمكانه المضي قدمًا في البناء، مضيفًا أبراج مراقبة أصغر، ومباني خارجية، وقرية ريفية كاملة من الكؤوس البلاستيكية. وعندما اختفت الكؤوس، نظر موريس حوله وضحك، وهو صوت أعتقد أنني لم أسمعه من قبل، ضوضاء عالية، شبه خارقة، غير متمرِّسة وأكثر إثارة للقلق من كونها ممتعة. ضحك، وصفق لنفسه، مرة واحدة فقط، بالطريقة التي قد يصفق بها المهراجا ليطلق خادمًا بعيدًا.

ما ميَّز البرج بوضوح عن أي برج آخر قد يصنعه طفل في الخامسة أيضًا، كان بقاؤه مقامًا. أي طفل عادي كان ليبني هذا الصرح لهدف واحد فقط، لإعطائه ركلة سريعة ومشاهدة الكؤوس تطير في كل مكان، سماع دوي الانهيار. كنت أكبر بثلاث سنوات وهذا ما أردت فعله بالبرج. أن أسير جواره، أضربه بكلتا قدميَّ، منتشيًا بالسعادة المطلقة المتمثلة في هدم شيء كبير ومبني بعناية، مثل جودزيلا.

كل طفل طبيعي لديه هذا الشعور الغريب داخله على ما أفترض. لكن إن كان عليَّ الحديث بصدق أكبر، هذا الشعور لديَّ كان أكبر بقليل من باقي الأطفال. رغبت دائمًا في التخلص من أو تدمير الأشياء حتى حين وصلت إلى مرحلة البلوغ. التخلص من الأشياء شمل زوجتي في النهاية، زوجتي التي كرهت هذه العادة وأعربت عن استيائها بأوراق الطلاق والمحامي الذي بدا مصابًا بالديدان المعوية. يعمل بالمودة ذاتها التي يعمل بها قاطع الأخشاب، يطحن من أمامه في قاعة المحكمة بكل قوة ممكنة وبلا توقف كالآلة حتى تسقط الضحية.

على خلافي، سرعان ما فقد موريس الاهتمام بعمله النهائي، وأراد العصير. قاده والدي بعيدًا إلى المطبخ، مؤكِّدًا له أنه سيحضِر إلى المنزل صندوقًا ضخمًا من الأكواب ليلعب بها غدًا، حتى يتمكن من بناء قلعة أكبر في الطابق السفلي. لم أصدق أن موريس قد ترك برجه واقفًا هناك. كنت متأزمًا ولم أستطع التحمل. دفعت نفسي من فوق الأريكة، وخطوت خطوة ملتوية نحوها، ثم أمسكَت والدتي بذراعي ومنعتني. حطت نظرتها على وجهي، حاملة تحذيرًا قاتمًا: لا تفكر فيها حتى.

لم يتحدث أيٌّ منا، وفي اللحظة التالية سحبت ذراعي من يدها وخرجت من الغرفة بنفسي.

***

كانت والدتي تحبني، لكنها نادرًا ما قالتها لي، وغالبًا ما كانت تبقيني على بعد مناسب من عواطفها. لكنها فهِمَتني بطريقة لم يفهمني بها والدي. ذات مرة في أثناء سباحتي بالبركة في بالدن، ألقيتُ حجرًا في وجه صبي أصغر رشني بالماء، ضرب الحجر أعلى ذراعه بقوة تركت بقعة أرجوانية قبيحة، حرصت والدتي على منعي من السباحة طوال الصيف بعدها، رغم أننا واصلنا زيارة بحيرة بالدن بعد ظهر كل يوم سبت، حتى يتمكن موريس من التجديف كالأخرق في الماء بعد أن أقنع أحدهم والديَّ أن السباحة علاج مناسب له. كانت عازمة على أن يستكمل هو سباحته، بينما أمنع أنا منها تمامًا. طلبَت مني الجلوس على الرمال معها ولم يكن مسموحًا لي الابتعاد عن المنشفة الخاصة بها على رمال الشاطئ.

سمحت لي بالقراءة، لكن لم يُسمح لي باللعب مع الأطفال الآخرين أو حتى التحدث معهم. إذا نظرنا إلى الماضي، إلى ما حدث وقتها، لوجدنا صعوبة في الشعور بالاستياء من حزمها معي في ذلك الوقت، وفي مناسبات أخرى عديدة، رأت والدتي -بوضوح أكثر من غيرها- الكثير من السوء في داخلي، وقد أثار ذلك قلقها. كان لديها بعض الإحساس بإمكانياتي، وبدلًا من أن تملأها طاقاتي المكبوتة بالأمل والإثارة، جعلتها قاسية معي.

ما فعله موريس في غرفة المعيشة، في غضون نصف ساعة، كان مجرد تلميح لما سيفعله بحصوله على ثلاثة أضعاف المساحة للعمل، وبأي عدد من الأكواب البلاستيكية التي يريد. في العام التالي، بنى بشق الأنفس طريقًا

سريعًا مرتفعًا، تعرج في جميع أنحاء الطابق السفلي الفسيح والمضاء جيدًا. ولكن ذلك الطريق حتى وإذا جُمع ليمدد بشكل مستقيم بغرض قياسه، لم يقارب حتى حجم تمثال أبي الهول العملاق، أو كوخ الاسكيمو الدائري الكبير، الكبير بما يكفي لكلينا، للجلوس بالداخل براحة، بمدخل منخفض يمكنني فقط أن أزحف عبره.

من هناك، تفاقمت الرغبة في البناء لتخرج من حيز الأكواب إلى قطع الليجو الشاهقة التي بدت كآفاق المدن الفعلية. بعدها بعام انتقل إلى استخدام الدومينو، حيث بنى كاتدرائيات دقيقة مع عشرات الأبراج العاجية المتوازنة تمامًا، والتي وصلت إلى منتصف الطريق نحو السقف. عندما كان موريس في التاسعة من عمره، اشتهر لفترة وجيزة، على الأقل في فالو، عندما عرضت بوسطن كرونيكل فيلمًا قصيرًا عنه. أقام موريس أكثر من ثمانية عشر ألف قطعة من الدومينو في صالة الألعاب الرياضية في مدرسته لذوي الاحتياجات الخاصة. رتبهم على شكل غريفن عملاق يقاتل عمودًا من الفرسان، صورت القناة الخامسة بداية الحرب، وصوَّروا الانهيار الهائل بأكمله. سقطت قطع الدومينو الخاصة بأخي بطريقة بدت وكأنها سهام تطير، وبدا أن الغريفن ينقض على أحد الفرسان اللاهثين. سقطت ثلاثة أسطر من الدومينو القرمزي -أمام العالم بأسره- مثل الجروح.

عانيت لمدة أسبوع نوبات الغيرة السامة السوداء، غادرت الغرفة عندما دخلها، ولم أستطع تحمل كم الاهتمام الموجَّه نحوه، لكن استيائي كان له انطباع ضئيل على شخصيته. ظل موريس غير مبالٍ بالقدر نفسه تجاه كل ما يحدث. تخليت عن غضبي عندما رأيت أنه منطقي مثل الصراخ في البئر، وفي النهاية نسي بقية العالم أن موريس كان شخصًا مثيرًا للاهتمام للحظة.

بوصولي إلى سنتي الأولى في المدرسة الثانوية وبداية مرحلة التسكع مع إيدي بريور، انتقل موريس إلى بناء حصون من الصناديق الكرتونية التي أحضرها والدي إليه من المستودع، حيث كان يعمل وكيل شحن. منذ البداية تقريبًا، كان الأمر مختلفًا مع مخابئه المصنوعة من الورق المقوى عما كان عليه مع الأشياء التي صنعها من الدومينو أو الأكواب البلاستيكية. في حين أن مشاريعه الإنشائية الأخرى كانت لها بدايات ونهايات واضحة، إلا أنه لم يبدُ قط قادرًا على الانتهاء من أي تصميم معين بدأ فيه باستخدام صناديقه الكرتونية.

يتدفق أحد المخططات إلى آخر، حيث تحول الملجأ إلى قلعة ليصبح سلسلة من سراديب الموتى. رسم الأجزاء الخارجية والديكورات الداخلية والسجاد والنوافذ المقطوعة والأبواب التي تفتح وتغلق. ثم في أحد الأيام، دون أي تحذير أو تفسير، فكك موريس أقسامًا كبيرة مما بناه، وبدأ في إعادة تنظيم الهيكل بأكمله وفقًا لخطوط معمارية مختلفة تمامًا.

أيضًا، على الرغم من أن عمله مع الأكواب البلاستيكية أو قطع الليجو حمل تأثيرًا مهدئًا له، تركته الأشياء التي صنعها بصناديق الورق المقوى مضطربًا وغير راضٍ. لطالما ظل البناء المثالي من الورق المقوى يلوح في ذهنه، هناك في خلفية عقله مُنجَز بالشكل الكامل والصحيح، وحتى يصل إلى هذه النقطة، ظلت القطع غير المكتملة في القبو تملك عليه سلطة موتِّرة، ساحبة للسعادة والرضا.

أتذكر عودتي إلى المنزل في وقت متأخر من بعد ظهر يوم الأحد، أتقدم عبر المطبخ بحذاء الثلج الخاص بي لإخراج شيء من الثلاجة، وألقي نظرة خاطفة من خلال باب الطابق السفلي المفتوح وأسفل الدرج، ثم أتسمر في مكاني، وأنفاسي مأخوذة. جلس موريس مائلًا إلى الجانب على الدرجة السفلية، وكتفاه مرفوعتان حتى أذنيه، ووجهه أبيض بشكل غير طبيعي ملتوٍ في تكشيرة. إحدى كفَّي يديه تمسك جبهته بقوة، كما لو كان قد تعرض للضرب هناك. لكن الشيء الذي أزعجني أكثر، الشيء الذي لاحظته عندما نزلت ببطء على الدرجات باتجاهه، هو أنه بينما كان الجو باردًا جدًّا في الطابق السفلي حد الإزعاج، كان خدًّا موريس مغمورين بالعرق. في الجزء الأمامي من جسده، نقعت مقدمة التيشيرت الأبيض بالعرق في بقعة على شكل حرف V. عندما كنت أعلى منه بثلاث درجات، وكنت على وشك مناداته باسمه، انفتحت عيناه. بعد لحظة، بدأ هذا التعبير عن الألم المزعج يتلاشى، ووجهه يرتاح، ويتراخى.

سألتُ: «ماذا يحدث؟ هل أنت بخير؟».

قال بلا تعبير: «نعم، تهت لدقائق فقط».

- فقدتَ الإحساس بالوقت؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

بدا أنه بحاجة إلى لحظة لاستيعاب ما أقول. ضاقت عيناه. النظرة في عينيه أصبحت مشحوذة. كان يحدق بشكل خافت إلى قلعته، التي كانت في

ذلك الوقت سلسلة من عشرين صندوقًا مرتبة في مربع كبير. طليت قرابة نصف الصناديق باللون الأصفر الفسفوري، مع نوافذ وكوة دائرية مقطوعة في جوانبها. كانت الكوة مغطاة بصفائح من الغلاف الفضي اللامع، وقد مرَّ موريس عليها بمجفف شعر، لذلك كان البلاستيك مشدودًا بإحكام وناعمًا.

كان هذا الجزء من القلعة بقايا من الغواصة الصفراء التي حاول موريس بناءها. منظار مصنوع من أنبوب ملصق من الورق المقوى عالق من أعلى صندوق كبير جدًّا. على الرغم من ذلك، طُليت باقي الصناديق باللون الأحمر الغامق والأسود، مع خط متدفق من الكتابة على الطراز العربي الذهبي على جوانبها. قُطِّعت نوافذ هذه الصناديق بأشكال أعادت على الفور إلى الأذهان مشهد قصور الطغاة في الشرق الأوسط، الحريم، وعلاء الدين.

عبس موريس وهز رأسه ببطء: «دخلت ولم أجد طريقي للخروج. لا شيء يبدو على ما يرام».

ألقيت نظرة خاطفة على الحصن، الذي كان له مدخل في كل زاوية ونوافذ مقطوعة في كل صندوق آخر. مهما كانت إعاقات أخي، لم أستطع أن أتخيله وهو مرتبك للغاية داخل قلعته لدرجة أنه لا يستطيع معرفة مكانه.

سألتُ: «لماذا لم تزحف فورًا إلى النافذة وترى أين كنت؟».

- لم تكن هناك أي نوافذ حيث ضعت. سمعت شخصًا يتحدث وحاولت الخروج متابعًا صوته، لكن الطريق كان بعيدًا ولم أستطع معرفة من أين أتى. لم تكن أنت، أليس كذلك؟ لم يبدُ مثل صوتك يا نولان.

قلت: «بلى. أي صوت؟».

ألقيت نظرة خاطفة بينما قلت هذا، متسائلًا عما إذا كنا وحدنا في الطابق السفلي: «ماذا قال الصوت؟».

- لم أستطع سماعه بشكل كامل. قال اسمي أحيانًا، في بعض الأحيان طلب مني الاستمرار. في مرة أخرى أخبرني بوجود نافذة أمامي، قال إنني سأرى عباد الشمس على الجانب الآخر.

توقف موريس مؤقتًا، ثم أطلق تنهيدة ضعيفة: «ربما رأيت ذلك في نهاية نفق، النافذة وعباد الشمس، لكنني كنت خائفة من الاقتراب أكثر من اللازم، لذا استدرت وعندها بدأ رأسي يؤلمني. وسرعان ما وجدت أحد الممرات للخروج».

اعتقدت أن هناك فرصة جيدة، إذ إن موريس قد عانى انفصالًا طفيفًا عن الواقع في أثناء الزحف داخل قلعته، وهو افتراض ليس مستحيلًا. قبل عام واحد فقط، اعتاد صبغ يديه باللون الأحمر، لأنه قال إن ذلك ساعده على الشعور بالأصوات بصورة أقوى. عندما كان في غرفة بها موسيقى، كان يغلق عينيه، ويمسك يديه القرمزيتين فوق رأسه مثل قرون الاستشعار، ويهز جسده بالكامل في نوع من الرقص الشرقي التشنجي. لكني أيضًا شعرت بالقلق من الاحتمال الأكثر منطقية، لوجود دخيل ما في الطابق السفلي، مختل عقليًّا يقبع ربما في هذه اللحظة بالذات منحنيًا في أحد الأماكن الضيقة في حصن موريس. في كلتا الحالتين، كان علينا الخروج. أمسكت بيد موريس وقلت له أن يصعد معي، حتى يتمكن من إخبار والدتنا بما حدث.

عندما كررتُ لها هذه القصة، بدت بائسة.

وضعتْ يدها على جبين موريس: «أنت مغطى بالعرق! دعنا نذهب إلى الأعلى، موريس. دعني أحضر لك بعض الأسبرين. أريدك أن تستلقي ويمكننا التحدث عن هذا بعد أن تكون حصلت على دقائق من الراحة».

كنت راغبًا في الذهاب للبحث في الطابق السفلي على الفور، لمعرفة ما إذا كان هناك أي شخص هناك، لكن والدتي تنحت به جانبًا، وهي تنظر بصرامة إلى وجهي كلما تحدثت. اختفى الاثنان في الطابق العلوي، وجلستُ عند طاولة المطبخ، وأنا أنظر إلى باب القبو، في حالة من القلق الشديد طوال الساعة التي تلت الحادثة.

كان هذا الباب هو المخرج الوحيد للقبو. لو سمعت صوت الأقدام وهي تتسلق الدرج، لكنت قفزت وملأت الدنيا صراخًا. لكن لم يصعد أحد، وعندما وصل والدي إلى المنزل، نزلنا لنفتش القبو معًا. لم يختبئ أحد خلف المرجل أو خزان الزيت. في الواقع، كان قبونا مرتبًا ومضاء جيدًا، وبه عدد قليل من أماكن الاختباء الجيدة. المكان الوحيد الذي قد يخفي فيه دخيل نفسه هو حصن موريس. تجولت حوله، وركلته وألقيت نظرة خاطفة من خلال النوافذ. قال والدي إنه يجب أن أتسلق لإلقاء نظرة داخله، ثم ضحك من التعبير الذي بدا على وجهي. عندما صعد إلى الطابق العلوي ركضت وراءه. لم أكن راغبًا في الوجود في أي مكان بالقرب من أسفل درج الطابق السفلي عندما أطفأ الأنوار.

***

ذات صباح، في أثناء وضع كتبي في حقيبتي الرياضية قبل أن أغادر إلى المدرسة، سقطت ورقتان مطويتان من «رؤى التاريخ الأمريكي». التقطتهما وحدقت إليهما في البداية دون التعرف على الصفحتين، ولا الأسئلة المكتوبة باستخدام الآلة الكاتبة، مع مساحات بيضاء واسعة لكتابة الإجابات بين السؤال والآخر. عندما أدركت ما كنت أحدق إليه، كدت ألعن أبشع لعنة عرفتها، ولأن والدتي وقفت على بعد أمتار قليلة مني. كان هذا خطأ من شأنه أن يتسبب في قرص أذني حتى أصيح ألمًا، من شأنه أن يؤدي إلى استجواب فضَّلت تجنبه. ما بيدي كان امتحانًا منزليًا، وُزِّع صباح يوم الجمعة الماضي.

كنت محدقًا إلى الفراغ في حصة التاريخ تلك في الأسبوع الماضي، حين جاءت فتاة بدت مشاغبة، ترتدي تنورة جينز وجوارب شبكية حمراء لتجلس جواري. ظلت تحرك ساقيها بملل، تذكرت أنني عندما ملت إلى الأمام، كان بإمكاني أحيانًا رؤية البياض الساطع لباطن ساقيها. إذا ذُكر أي شيء عن اختبار منزلي في تلك الحصة، مؤكد أنني لم أسمعه.

أوصلتني والدتي إلى المدرسة. تسكعت على الأسفلت البارد في طريقي ومعدتي تلتوي.

التاريخ الأمريكي. الفترة الثانية. لم يكن لديَّ وقت. لم أقرأ حتى آخر فصلين شُرحا في الصف. علمت أن عليَّ الجلوس في مكان ما لأحاول إنجاز القليل من ذلك الاختبار، أقرأ قراءة سريعة، وأكتب بعض الإجابات النصفية. لم أستطع الجلوس، ولم أستطع تحمل النظر إلى الاختبار المنزلي مرة أخرى. شعرت بالعجز الشديد، والإحساس المخيف والمثير للاشمئزاز، انعدام وجود مخرج، كان مصيري حتميًا.

على الحدود بين الأرض الممهدة والحقول المتجمدة المبعثرة خلفها، انتصب صف من الأعمدة الخشبية السميكة التي كانت تدعم السياج من قبل، وأزيلت منذ فترة طويلة. جلس صبي يُدعى كاميرون هودجز من فصل التاريخ الأمريكي على أحد هذه الأعمدة، وزوجان من أصدقائه من حوله. كان كاميرون فتى شاحب الشعر والبشرة، يرتدي نظارات كبيرة بإطارات مستديرة، خلفها تلوح عينان زرقاوان فضوليَّتان. كان على قائمة الشرف وعضوًا في مجلس الطلاب، ولكن على الرغم من هذه الإنجازات التي تعتبَر إعاقات اجتماعية كبيرة، فقد تمتع بشعبية مقبولة تقريبًا، محبوب دون أن يحاول أن يكون محبوبًا حقًا. كان هذا جزئيًا لأنه لم يتباهَ أمام أحد بمدى

معرفته وثقافته، ولامتناعه عن رفع يده دائمًا في الهواء كلما عرف الإجابة عن مسألة صعبة. كان لديه شيء آخر، نوع من النضج. نوع من الهدوء والرغبة في أن يحظى الجميع بفرصة متساوية بالوسط الاجتماعي والدراسي، لا أحد فوق الآخر. مما أعطاه انطباعًا أكبر وأكثر خبرة من بقيتنا.

أحببته، حتى إنني أدليت بصوتي لصالحه في الانتخابات الطلابية، لكن لم يكن لدينا الكثير لنتشاركه مع بعضنا بعضًا. لم أستطع رؤية نفسي مع صديق مثله. أعني بذلك لم أستطع أن أتخيل شخصًا مثله مهتمًّا بشخص مثلي. كنت فتى يصعب معرفته، غير مهتم بالتواصل، مرتابًا في نيات الآخرين، عدائيًّا تقريبًا في ردود أفعالي. في تلك الأيام، إذا ضحك أحدهم في أثناء سيره بجانبي، كنت دائمًا ما ألقي نظرة عليه، فقط للتأكد، في حال كان ما يضحكهم هو أنا.

عندما اقتربت منه، رأيت أنه انتهى من امتحانه. كان أصدقاؤه يتحققون من إجاباتهم مقابل إجاباته: «إدخال محلج القطن إلى الجنوب، صحيح، هذا ما قلته أيضًا». كنت أعبر خلف كاميرون مباشرة. لم أفكر. انحنيت بجانبه وقبضت على الورقة في قبضته.

صاح كاميرون: «مهلًا!».

مد يده لاستعادتها.

قلت بصوت أجش: «أريد أن أنسخها».

أدرت جسدي بعيدًا، لذلك لم يستطع استعادة امتحانه. شعرت بالاحمرار، وأخذت أتنفس بصعوبة، مروَّعًا لأنني أفعل ما كنت أفعله، لكنني أفعل ذلك على أي حال.

صحت: «سأعيدها إليك في حصة التاريخ».

انزلق كاميرون من مكانه وجاء نحوي، رافعًا راحتيه، وعيناه مصدومتان ومتوسِّلتان، وقد تضخمتا بشكل غير طبيعي خلف عدسات نظارته.

- نولان. لا.

لقد فاجأني ذلك، لا أعرف لماذا فاجأني أن أسمعه يقول اسمي. لم أكن متأكدًا حتى في ذلك الحين أنه يعرفه.

قال: «إذا كانت إجاباتك مثل إجابتي تمامًا، فسيعرف السيد ساردوتشي أنك نسختها. كلانا سيحصل على راسب».

كان هناك رعشة مسموعة في صوته.

قلت: «لا تبكِ».

خرجت الكلمة أقسى مما كنت أريد، وأعتقد أنني كنت قلقًا حقًّا من أنه قد يبكي، لذا بدا الأمر وكأنه تهكُّم. ضحك الأطفال الآخرون.

قال إيدي بريور، الذي ظهر فجأة بيني وبين كاميرون: «نعم».

وضع يده على جبين كاميرون ودفعه. نزل كاميرون على مؤخرته، بقوة، صائحًا.

سقطت نظارته وانزلقت بعيدًا عبر بركة من الجليد بينما كرر إيدي: «لا تكن لوطيًّا. لن يعرف أحد. سوف تستعيدها».

ثم ألقى إيدي بذراعه على كتفي وكنا نسير معًا. تحدث من جانب فمه، كما لو كنا اثنين من المدانين في فيلم نتحدث في ساحة السجن عن الهروب الكبير.

قال: «ليرنر».

مشيرًا إليَّ باسم عائلتي. دعا الجميع بأسمائهم الأخيرة.

تابع: «دعني أحصل على هذا بعد أن تنتهي منه. نظرًا إلى ظروف غير متوقَّعة خارجة عن إرادتي، وأعني بهذا صديق والدتي القذر ذا الصوت العالي. اضطررت إلى الخروج من المنزل الليلة الماضية، وانتهى بي الأمر بلعب كرة القدم مع ابن عمي حتى ساعة متأخرة. النتيجة النهائية: لم أتجاوز الإجابة عن أول سؤالين من هذا الشيء القذر».

***

على الرغم من أن إيدي بريور حصل في المعتاد على ضعيف أو مقبول في كل الاختبارات باستثناء الوِرش، ووجد طريقة ليعاقَب بالاحتجاز كل أسبوع تقريبًا، فإنه تمتع بشخصية جذابة بطريقته الخاصة كما كان كاميرون هودجز. إيدي كان عصيًّا على الإثارة، سمة جعلت الكل راغبًا في إثارته. علاوة على ذلك، تمتع بروح الدعابة بلا هوادة، لذا لم يتمكن أحد من البقاء غاضبًا منه. إذا أخبره أحد المعلمين بالخروج من الفصل لأنه أتى بهذا

الفعل غير المقبول أو ذاك، كان إيدي سيرفع كتفيه في تعبير «من عاد يفهم كيف يسير هذا العالم»، ويجمع كتبه بعناية، ملقيًا بنظرة خاطفة أخيرًا على الطلاب الآخرين بطريقة تؤدي دائمًا إلى سلسلة من الضحكات المتواصلة.

في صباح اليوم التالي، لعبَ المعلم نفسه الذي طرده من الفصل كرة القدم معه في ساحة انتظار أعضاء هيئة التدريس، بينما تبادل كلاهما النكات والضحكات، متحدثين عن فريق سيلتيكس.

بدا لي أن الصفة التي تُميز الشعبية عن غير الشعبية -وهي الصفة الوحيدة التي يتمتع بها إيدي بريور وكاميرون هودجز - كانت الشعور القوي بالذات. عرف إيدي مَن يكون. تقبّل نفسه. توقفت عيوبه عن مضايقته. كانت كل كلمة قالها تعبيرًا طائشًا ونقيًا عن شخصيته الحقيقية. بينما لم يكن لدي صورة واضحة عن نفسي، وتطلعت دائمًا إلى الآخرين، أراقبهم باهتمام، على أمل وخوف على حد سواء فيما سأراه في تعبيرات وجوههم، مكتسبًا شخصيتي ممن يرونني عندما ينظرون إلي.

لذا في اللحظة التالية، عندما ابتعدنا أنا وإيدي عن كاميرون، عشت نوعًا من التحول النفسي المفاجئ وغير المتوقَّع، تجارة المراهقين في البورصة الشعبية. كنت قد سرقت للتو اختبار كاميرون من بين يديه، في محاولة يائسة لإيجاد طريقة للخروج من الفخ الذي صنعته لنفسي، وشعرت بالرعب أكثر مما كنت على استعداد لفعله لإنقاذ نفسي. من الناحية النظرية، كنت لا أزال يائسًا ومذعورًا، ولكن كان من دواعي سروري أن أجد نفسي أتسكع مع ذراع إد بريور فوق كتفي، كما لو كنا صديقين مدى الحياة يغادران حانة البرميل الأبيض معًا في الساعة الثانية صباحًا.

شعرت بصدمة مبهجة عندما سمعته يشير عرَضًا إلى صديق والدته ناعتًا إياه بالقذر بصوت عالٍ، بدا التعبير أكثر سلاسة وقوة من أي شيء خرج من فم ستيف مارتن. ما فعلته بعد ذلك كنتُ أعتقد أنه مستحيل قبل خمس دقائق فقط. سلَّمته امتحان كاميرون.

قلت: «لديك إجابة سؤالين بالفعل؟ خذها. لا يبدو لي أنك في حاجة إليها لفترة طويلة. سألقي نظرة عليه عندما تنتهي».

ابتسم لي، وظهرت غمازات عميقة على شكل فاصلة في خدَّيه: «كيف وضعت نفسك في هذه المشكلة يا ليرنر؟».

- نسيت أننا أخذنا اختبارًا منزليًا، لم أستطع الانتباه في ذلك الفصل. ألا تعرف جوين فريزر؟
- أعرفها، مدمنة لعينة. ماذا عنها؟

قلت: «حسنًا، إنها مدمنة لعينة، تجلس بجواري وهي تفتح وتغلق ساقيها باستمرار، مبدية ساقيها لي ولنصف الصف، كيف يفترض بي التركيز في التاريخ؟».

صرخ ضاحكًا، بصوت عالٍ جدًا، حدق الناس في كل مكان إلينا.

قال: «أعتقد أنها تعرِّضها للهواء لتجفيف قروح الفطريات. عليك أن تكون حذرًا معها يا صديقي».

ثم ضحك أكثر، ضحك حتى كان يمسح عينيه الممتلئتين بالدموع. ضحكتُ أيضًا، وهو أمر لم أفعله قط بسهولة، شاعرًا بقشعريرة في نهاياتي العصبية. أطلق عليَّ كلمة «صديقي».

***

على ما أتذكر، لم يسلمني اختبار كاميرون المنزلي قط، وانتهى بي الأمر بتسليم ورقة الاختبار الذي أُجري فارغة تمامًا على أي حال في ذلك اليوم، كانت ذاكرتي ضبابية بعض الشيء بخصوص هذه الواقعة. لكن بعد ذلك الصباح، تابعته كثيرًا. أحب التحدث عن شقيقه الأكبر، واين، الذي قضى أربعة أسابيع من عقوبة بالسجن لمدة ثلاثة أشهر في سجن الأحداث، لإلقائه قنابل حارقة على سيارة أحدهم القديمة، الذي أطلق سراحه فيما بعد ليعيش على الطرقات. قال إيدي إن واين اتصل في بعض الأحيان للتفاخر بكل الجروح التي حصل عليها من الشجار في الحانات، وكل الرؤوس التي أدماها. كان غامضًا بشأن ما يفعله أخوه الأكبر ليحصل على قوت يومه. قال إيدي ذات مرة، إنه يساعد في المَزارع في إلينوي. قال مرة أخرى إنه يصلح سيارات الزنوج في ديترويت.

تسكعنا كثيرًا مع فتاة تبلغ من العمر خمسة عشر عامًا تُدعى ميندي أكيرز، التي كانت ترعى طفلًا رضيعًا في شقة في الطابق السفلي عبر الشارع من منزل إيدي. فاحت من المكان رائحة العفن والبول، لكننا كنا نمضي كل فترة بعد الظهر هناك، ندخن معها السجائر، ونمارس ألعابًا، بينما الطفل يزحف

ومؤخرته عارية تحت أقدامنا. في أيام أخرى، سلكت أنا وإيدي الطريق عبر الغابة خلف حديقة كريستوبيل، إلى ممر المشاة الخرساني الذي يمر فوق الطريق 111. جلب إيدي دائمًا معه كيسًا ورقيًّا بني اللون مليئًا بالأشياء التي سرقها من الشقة حيث عملت ميندي جليسة أطفال، حوى حفاضات ملأى بالغائط وعلبًا كرتونية من الوجبات الصينية الفاسدة. ألقى قنابل من القمامة على الشاحنات التي اعتادت المرور في الأسفل.

في إحدى المرات، صوب الحفاضات نحو شاحنة، انفجر الحفاض على جانب الراكب من الزجاج الأمامي، وتناثر الإسهال الأصفر كالشبت على الزجاج.

صرَّت مكابح الشاحنة في الهواء، والدخان يغلي عبر الإطارات. أطلق السائق بوقه الهوائي باتجاهنا، صرخة هائلة من الصوت جعلت قلبي ينفجر. أمسكنا ببعضنا بعضًا وركضنا نضحك.

صرخ إيدي بي: «اركض، اهرب أيها السمين، أعتقد أنه سيطاردنا!».

وركضت من أجل الإثارة المطلقة للركض. لم أصدق حقًّا أن أي شخص سيكلف نفسه عناء الخروج من شاحنته والركض وراءنا، ولكن التظاهر كان مثيرًا.

في وقت لاحق، عندما تباطأنا، وكنا نسير في حديقة كريستوبيل، وكلانا يلهث لالتقاط الأنفاس، قال إيدي: «لا يوجد أي شكل من أشكال الحياة البشرية أكثر قذارة من سائقي الشاحنات. لم أقابل مطلقًا شخصًا لم تكن رائحته مثل دلو من البول على بُعد مسافة طويلة على الطريق».

لم أكن متفاجئًا تمامًا عندما علمت لاحقًا أن صديق والدة إيدي القذر ذا الصوت العالي، كان هو نفسه سائق شاحنات نقل على الطريق.

في بعض الأحيان، أتى إد إلى منزلي، لمشاهدة التلفاز في الغالب. كان لدينا استقبال جيد. كان فضوليًّا بشأن أخي، وأراد أن يعرف ما الخطأ به، وأبدى اهتمامًا برؤية ما كان يعمل عليه في الطابق السفلي. تذكر إيدي رؤية موريس يؤدي حربًا استعراضية بسلسلة الدومينو الخاصة به على شاشة التلفاز، على الرغم من أن ذلك حدث قبل عامين. لم يُقَل هذا مطلقًا، لكنني أعتقد أنه كان مفتونًا بفكرة معرفة شخص غبي. كنتُ لأبدي الحماس نفسه لمقابلة أخي لو كان مبتورًا أو قزمًا. أراد إيدي القليل من حماس برامج صدِّق

أو لا تصدِّق في حياته. في النهاية، يحصل الناس عادةً على ما يريدون، أكثر قليلًا مما يمكنهم تحمله فعلًا، أليس كذلك؟

***

في إحدى زياراته الأولى إلى منزلي، نزلنا لإلقاء نظرة على أحدث تجسيد لقلعة موريس. كان لدى موريس قرابة أربعين صندوقًا مربوطًا معًا لإنشاء شبكة من الأنفاق على شكل أخطبوط عملاق، مع ثمانية ممرات طويلة يقود كل واحد منها إلى صندوق مركزي ضخم كان يحتوي في يوم من الأيام على شاشة عرض. كان من المنطقي تلوين كلٍّ منها لتناسب تصور الأخطبوط العملاق الوحشي، وبالفعل، تلوَّن الجذع السميك والأذرع باللون الأخضر الليموني، مع أقراص حمراء للإشارة إلى دوائر المص في الذراع.

لكن الأذرع الأخرى كانت بقايا من قلعة أقدم بُنيت سابقًا، ثم أخرى بُنيت من بقايا الغواصة الصفراء، وأخرى كانت جزءًا من تصميم صاروخ فضائي، بيضاء، مع زوائد والكثير من الشارات والعلم الأمريكي. الصندوق الضخم في وسط الأخطبوط كان غير مطلي بالكامل، لكنه مغلف بجزء من شبكة أسلاك كما في أعشاش الدجاج، التي تشكلت لتبدو وكأنها زوجان من الأبواق. كل ما تبقى من القلعة بدا كتركيبة طفولية صنعها طفل صغير، باهرة ربما، لكن ما زالت تبدو كلعبة. شيء ربما ساعد أبي على بنائه. ما عدا أبواق السلك. تلك بقيت دون تفسير، شيء بدا رائعًا لكن دل على أن صانعه مجنون.

قال إيدي وهو يقف أسفل الدرج وينظر إليها: «رائع!».

لكنني رأيت من خلال خفوت لمعة عينيه أنه لم يكن معجبًا تمامًا بما يرى، كان يأمل في المزيد.

كرهت أن أراه يُخذل، لأي سبب من الأسباب. إذا كان يريد أن يكون أخي عالمًا، فله ذلك.

نزلت على أربع، قرب أحد المداخل وقلت: «عليك الزحف للحصول على التأثير الكامل. هي دائمًا أكثر برودة في الداخل مما هي عليه في الخارج».

ومن دون النظر لمعرفة ما إذا كان سيتبعني، تسلقت، إلى الداخل.

كنت أبلغ من العمر أربعة عشر عامًا، بحركات خرقاء، وكتفين عريضتين، وأزن قرابة ستين كيلوجرامًا، لكن ما زلت طفلًا، ولست بالغًا، مثل طفل

ومرونة طفل، قادر على شق طريقي حتى في أضيق الحدود. لكنني لم أعتد عادة الزحف عبر حصون موريس. اكتشفت في وقت مبكر، وأنا أندفع بجسدي عبر أحد تصميماته الأولى، أنني كرهت البقاء فيها كثيرًا، عانيت لمسة من الخوف من الأماكن المغلقة. حاليًّا، على الرغم من خوفي، مع إيدي خلفي، دفعت نفسي، كما لو أن الزحف داخل أحد مخابئ موريس المصنوعة من الورق المقوى كانت فكرتي عن الأوقات السعيدة.

تسلقت عبر نفق ثعباني مركبًا تلو الآخر. في أحد الصناديق ثُبت رف من الورق المقوى عليه جرة جيلي، يطير الذباب بداخلها، ويصطدم بهدوء وبقليل من الصوت بالزجاج. ضخَّمَ الصندوق الأصوات وشوَّهها، لذلك بدا أحيانًا أن الأزيز كان داخل رأسي تقريبًا. درستها للحظة، عابسًا، منزعجًا قليلًا من مشهدها، هل سيبقيها موريس للموت هناك؟ ثم واصلت الزحف. مررت عبر ممر عريض كانت الجدران فيه مغطاة بنجوم وأقمار متوهجة في الظلام، وكأن مجرة من أعين القط في رواية أليس في بلاد العجائب بأكملها تحوم حولي. كانت الجدران نفسها مطلية باللون الأسود، وفي البداية لم أتمكن من رؤيتها.

لفترة وجيزة ومثيرة للاشمئزاز، كان لديَّ انطباع بأنه لا توجد أي جدران على الإطلاق، كما لو كنت أزحف عبر مساحة فارغة على منحدر غير مرئي ضيق، لا شيء فوقي أو تحتي، لا أحد يعرف إلى أي مدى يمتد الفراغ، وإذا خرجت من المنحدر فلن يحميني أي شيء من السقوط. بقي طنين الذباب في جرة الهلام في أذني، رغم أني تركته في مكان ما خلفي بعيدًا. شعرت بالدوار، مددت أصابعي، وضغطت أطراف أصابعي على جانب الصندوق. بهذه الفعلة، كسرت انطباع الزحف عبر الفراغ الشاسع، على الرغم من أنني ما زلت أشعر بقليل من الدوار في رأسي. كان الصندوق التالي هو الأصغر والأغمق مِنهم جميعًا، وبينما كنت أضغط نفسي من خلاله، حكت ظهري سلسلة من أجراس القصدير الصغيرة المتدلية من السقف. أذهلني صوت الرنين الناعم اللطيف لدرجة أنني كدت أصرخ.

تمكنت من رؤية فتحة دائرية في الأمام، نظرت إلى الفضاء المضاء بواسطة أضواء الباستيل الباردة. حملت نفسي إلى هناك.

كان الصندوق الموضوع في وسط أخطبوط موريس المصنوع من الورق المقوى فسيحًا بما يكفي لتوفير المأوى لعائلة مكونة من خمسة أفراد وكلبهم.

أضاء مصباح الحمم الذي يعمل بالبطارية أحد الأركان، وكرات البلازما الحمراء تطفو وتغرق عبر سائل كهرماني لزج. غلف موريس الصندوق الداخلي الضخم بالورق المفضض من أغلفة هدايا عيد الميلاد. شرارات وخيوط من الضوء تتسارع هنا وهناك عبر فرع أنوار الكريسماس، مزيج من الأضواء بلون الذهب والتوت والجير، تصطدم ببعضها بعضًا وتختفي. كان الأمر كما لو أنني خلال زحفي الطويل إلى وسط الحصن، كنت أتقلص تدريجيًّا، حتى لم أعد في النهاية أكبر من فأر الحقل، ووصلت إلى غرفة صغيرة معلَّقة داخل كرة ديسكو. أعطاني المشهد قشعريرة ضعيفة مع مزيج من الدهشة. كان رأسي ينبض بفظاعة، وبدأت الأضواء الغريبة المتجولة تزعج عينيَّ.

لم أرَ موريس منذ عودتي إلى المنزل، وبالتالي افترضت أنه كان بالخارج مع والدتنا يؤديان مهمة ما. لكنه كان ينتظر هناك في الصندوق المركزي الكبير، جالسًا على ركبتيه وظهره نحوي.

إلى جانبه كان هناك كتاب هزلي ومقص. قطع الغطاء الخلفي وأدخله في إطار من الورق المقوى الأبيض، والآن كان يلصقه على الحائط بقطع من شريط لاصق. سمعني أدخل، نظر إليَّ مرة أخرى، لكنه لم يقُل مرحبًا، وعاد على الفور لتعليق صوره.

سمعت أصوات زحف في الممر خلفي، وانزلقت إلى أحد الجانبين لإفساح المجال.

بعد لحظة، مد إيدي رأسه من خلال الفتحة الدائرية ونظر إلى الصندوق المبطن بورق الألمنيوم. كان وجهه محمرًّا وكان يبتسم بهذه الطريقة التي برزت معها الغمازات في خديه.

قال إيدي: «يا إلهي الرحيم! انظر إلى هذا المكان! أرغب في مضاجعة فتاة هنا!».

سحب نفسه من النفق، وجلس على ركبتيه.

قال إيدي مواجهًا ظهر موريس: «حصن لعين عظيم!».

ثم تابع: «كنت لأقتل للحصول على حصن مثل هذا عندما كنت في عمرك».

متجاهلًا حقيقة أن موريس كان في الحادية عشرة من عمره، أكبر من أن يلعب في حصون من الورق المقوى بنفسه. لم يرُد موريس. سدَّد إلى إيدي نظرة جانبية وتجاهله. ألقى إيدي نظراته حول المكان، مأخوذًا بكل شيء في

الداخل، وفمه مفتوح في تعبير عن المتعة الواضحة، بينما كانت عاصفة من الأضواء الساطعة، الذهبية والفضية، تتصاعد بصمت من حولنا.

تابع إيدي من جديد: «الزحف هنا كان جامحًا. ما رأيك في النفق الذي كان محاطًا بالفراء الأسود؟ شعرت وكأنني عندما وصلت إلى النهاية كنت سأخرج من مؤخرة غوريلا».

ضحكتُ، لكنني أعطيته نظرة استجواب محيِّرة. لم أتذكر نفقًا محاطًا بالفراء وكان إيدي رغم كل شيء، خلفي تمامًا، متبعًا المسار نفسه الذي اتبعتُه.

قال إيدي: «وأجراس الرياح».

صححت: «تعني الأجراس الصغيرة العادية، أليس كذلك؟».

انتهى موريس من تعليق صورته وزحف دون أن يتحدث إلينا إلى مخرج ثلاثي. قبل أن يمر، نظر إلينا مرة أخيرة.

عندما تحدث، قال لي: «لا تتبعاني من هذا الطريق. عودا إلى الطريق الذي أتيتما منه».

ثم أكمل: «بهذه الطريقة لن تفعل ما يُفترض أن تفعله. أحتاج إلى العمل عليها أكثر. هذا ليس صحيحًا بعد».

مع ذلك، انفلت من خلال الفتحة واختفى. نظرتُ إلى إيدي، لتقديم اعتذار، كنت أعد جملة على غرار «آسف، أخي مثل كعكة الفاكهة الفاسدة». لكن إيدي زحف حولي متفحصًا الصورة التي علَّقها موريس على الحائط. وقد أظهرت عائلة من قرود البحر، واقفة معًا في مجموعة جوار مخلوقات ذات بطون منتفخة، عارية، بهوائيات ذات لون اللحم البشري.

قال إيدي: «انظر، لقد علَّق صورة لعائلته الحقيقية».

ضحكتُ. لم يكن إيدي يعير كثيرًا من الانتباه للأخلاقيات، لكن ما قاله لم يفشل قط في إضحاكي.

***

كنت في طريقي للخروج من المنزل، بيوم جمعة، في الأسبوعين الأولين من فبراير، عندما اتصل إيدي وقال لي ألا آتي إلى منزله، وإن عليَّ مقابلته على جسر المشاة فوق الطريق 111.

لفت انتباهي شيء ما في نبرته، بحة في الصوت، تعبير متوتر. لم يكن أي شيء مما قاله خارجًا عن المألوف، لكن في بعض الأحيان بدا صوته على وشك الانهيار، وكان لديَّ انطباع بأنه يكافح من أجل السيطرة على موجة من التعاسة أكلته من الداخل.

كان جسر المشاة على مسافة عشرين دقيقة من منزلي، أسفل شارع كريستوبيل، عبر الحديقة، ثم صعودًا في درب يقود إلى الغابة. كان الدرب عبارة عن مسار ممهَّد من الحجارة الزرقاء المكسَّرة، التي ترتفع عبر التلال المتصاعدة أسفل أشجار عالية من البتولا والقيقب.

بعد قرابة ثلث ميل أفضى المسار إلى جسر المشاة. كان إيدي متكئًا على الدرابزين، يشاهد السيارات في المسار الشرقي تندفع من الأسفل.

لم ينظر إليَّ عندما اقتربت منه. كانت ثلاثة أحجار متفتتة مصطفة على الجدار الذي يبلغ ارتفاعه بطنه أمامه، وعندما صعدت إلى جانبه، دفعت أحدهم عن طريق الخطأ. شاعرًا بالعصبية، لكن الطوب سقط على الطرف الخلفي لعربة بثماني عشرة عجلة تمر من الأسفل، دون إتلاف أي شيء. كانت الشاحنة تسحب مقطورة محملة بأنابيب فولاذية. اصطدم الطوب بالأنبوب العلوي وانفجر، ثم سقط على جانب الكومة، مما أدى إلى سلسلة من الرنات والطنين، وكأن مطرقة ضربت أنبوبًا معدنيًّا متصلًا بسلسلة من الأنابيب المعدنية الأخرى المتصلة بأورج عزف ضخم.

فتح إيدي فمه مبديًا ابتسامته الواسعة، المألوفة، اللطيفة. وبدت الفجوات بين أسنانه واضحة. نظر إليَّ ليرى ما إذا كنت أقدِّر الموسيقى غير المتوقَّعة التي أنتجها الحجر على الشاحنة. كان ذلك عندما رأيت عينه اليسرى، محاطة بحلقة من اللحم المصاب بالكدمات، ذات لون أرجواني قبيح، مع لمحات خافتة من اللون الأصفر.

عندما تحدثتُ، بالكاد تعرفت على صوتي على أنه صوتي. كانت نبرة صوتي ضعيفة وخافتة: «ماذا حدث؟».

قال: «انظر، متِّع نظرك».

وأخرج كاميرا فورية من جيب سترته. كان لا يزال يبتسم، لكن عندما مرر الصورة إليَّ لم يلتقِ بنظري.

سألت: «ماذا حدث لعينك؟».

كان الأمر كما لو أنني لم أقل شيئًا. أظهرت الصورة إصبعين لفتاة، وأظافرها مطلية باللون الفضي الكريمي.

كانتا تضغطان على مثلث من قماش مخطط باللونين الأحمر والأسود، عالق في شق الجلد بين ساقيها. تمكنتُ من رؤية فخذيها عند أطراف الصورة، غير واضحين، ولحمها شاحب للغاية.

قال: «هزمت أكيرز عشر مباريات متتالية. تراهنا أنها إذا خسرت اللعبة العاشرة، كان عليها أن تلتقط صورة لنفسها وأصابعها بين ساقها. دخلت غرفة النوم لذا لم أرَها تلتقط الصورة بالفعل. لكنها تريد العودة مرة أخرى في وقت ما وتحاول الفوز لاستعادة الصورة. إذا هزمتها عشر مباريات أخرى متتالية، فسأجعلها تضع إصبعها أمامي مباشرة».

استدرت، بحيث كنا نقف جنبًا إلى جنب، متكئين على الدرابزين، في مواجهة حركة المرور في الأسفل. حدقت إلى الصورة بهدوء للحظة أخرى، ولم أفكر كثيرًا في أي شيء، لم أكن متأكدًا من كيفية التصرف، أو ماذا أقول. كانت ميندي أكيرز فتاة عادية ذات شعر أحمر مجعد وحب شباب مدمِّر وإعجاب شديد بإيدي. إذا خسرَت الألعاب العشر التالية، فسيكون ذلك عن قصد.

في الوقت الحالي على الأقل، ما فعلته ميندي أو لم تفعله للترفيه عنه كان أقل إثارة للاهتمام بكثير من الطريقة التي انتهى بها إيدي مع هذه الكدمة الطازجة على عينه اليسرى... شيء، على ما يبدو، لم يكن راغبًا في مناقشته.

أخيرًا قلت: «جامحة لعينة!».

ووضعتُ الصورة على الحاجز الأسمنتي أسفل الدرابزين. دون تفكير، وضعت يدي على أحد قوالب الطوب. هبط على مقطورة جر أسفلنا، نبح المحرك بينما حوَّل السائق الترس إلى سرعة أقل، وانتشر دخان أسود تفوح منه رائحة الديزل عبر الثلج الذي كان يتساقط في شكل رقائق كبيرة. متى بدأ الثلج يتساقط؟ لم أكن متأكدًا.

حاولت مرة أخرى متفاجئًا من عصبيتي: «ماذا أصاب عينك؟».

مسح أنفه بظهر يده. كان لا يزال يبتسم: «كيس القرف اللعين صديق أمي، أمسك بي وأنا أفتش في محفظته. كما لو أنني سأسرق قسائم طعامه أو

ما شابه. سينام مبكرًا، عليه أن يغادر إلى كنتاكي قبل غروب الشمس، لذلك عليَّ فقط أن أبقى خارج المنزل حتى يذهب. انظر! ناقلة النفط قادمة!».

ألقيت نظرة خاطفة إلى أسفل ورأيت نصف نقل كبيرة أخرى آتية نحونا، تسحب خزانًا فولاذيًا طويلًا خلفها.

قال إيدي: «لدينا فرصة واحدة لتفجيرها، كأربع قنابل من فئة C4، إذا صدمنا هذا الوغد سنقطع الطريق بالكامل».

كان الحجر الباقي على الحاجز، أمامنا مباشرة، وانتظرت أن يضع يده عليها ويدفعها إلى ناقلة النفط في أثناء مرورها من الأسفل. بدلًا من ذلك، وضع يده فوق يدي التي كانت لا تزال مستندة على الحاجز الأسمنتي. شعرت بنبضي يعلو منذِرًا، لكنني لم أبذل أي جهد لسحب يدي. عليَّ التأكيد على هذه الحقيقة، ما حدث بعد ذلك تركته يحدث بكامل إرادتي.

قال: «انتظر، بثبات، لا تفوِّتها... الآن!».

بمجرد أن بدأت شاحنة النفط بالعبور تحت جسر المشاة، ترك يدي. ضرب الطوب جانب خزان الزيت بالأسفل برنين مسموع، ثم ارتد عنه لينقلب على الجانب المعاكس، بعيدًا عن الشاحنة وعلى الجانب الآخر حيث كانت فولفو حمراء في تلك اللحظة بالذات تعبر جوار الصهريج الضخم. ضرب الطوب الزجاج الأمامي ووقع، وتمكنا من رؤية النمط العنكبوتي من الكسر يمتد عبر الزجاج قبل أن تختفي السيارة أسفل جسر المشاة. دار كلانا بسرعة وقفزنا إلى السور المعاكس. انقبضت رئتاي، ولم أستطع إجبار الهواء على الخروج من صدري للحظة.

عندما خرجت السيارة الفولفو من تحت جسر المشاة، كانت تنحرف بالفعل إلى اليسار، عبر الطريق. غادرت الطريق السريع بعد لحظة وانزلقت على الثلج بسرعة ثلاثين ميلًا في الساعة، لتسقط بمقدمتها في الوادي الضحل في الجزء السفلي من الجسر، حيث برز عدد قليل من شتلات القيقب. اصطدمت الفولفو بواحدة منها مصدِرة صوتًا هائلًا، وسقط الزجاج الأمامي المحطَّم بالكامل في قطعة واحدة متلألئة وانزلق عبر غطاء المحرك، ثم سقط في الثلج.

كنت لا أزال أعاني من أجل التقاط أنفاسي عندما انفتح الباب الأمامي من جانب الراكب. امرأة شقراء، رشيقة في معطف أحمر، مربوط بحزام عند الخصر، تسلقت للخارج، ممسكة بإحدى عينيها بيد مقفولة.

كانت تصرخ وهي تقترب من الباب الخلفي: «إيمي، يا إلهي إيمي!».

أمسك إيدي بكوعي واستدار دافعًا إياي للطريق صارخًا: «اللعنة، لنذهب من هنا!».

دفعني مرة أخرى بعد أن خرجنا من جسر المشاة وإلى الممر إلى الحديقة، دفعني بقوة لدرجة أنني سقطت على ركبة واحدة على الحجارة الزرقاء الممهدة، أصابت رأسي سهامُ الألم الحادة، ولكن بعد ذلك كان يجرني من كوعي مرة أخرى ويستعجلني. لم أفكر. جريت. ركضت، والدماء تنهمر في صدغي، ووجهي يحترق في الهواء البارد.

لم أبدأ في التفكير حتى وصلنا إلى الحديقة، وتباطأت في المشي. كنا نتحرك، دون أن نناقش ما حدث، في اتجاه منزلي. تألمت رئتاي من مجهود الركض بأحذية الثلج، ومن سحب الهواء المتجمد إلى داخل صدري.

دارت نحو الباب الخلفي وهي تصرخ: «يا إلهي إيمي!». كان شخص ما في المقعد الخلفي إذن. فتاة صغيرة. كانت الشقراء طويلة القامة ممسكة بقفازها فوق عينها. هل أصيبت بقطعة من الزجاج فيها؟ هل أعميناها؟ أيضًا: الشقراء خرجت من مقعد الراكب جوار السائق. لماذا لم يخرج السائق نفسه؟ هل كان واعيًا؟ هل مات؟ ساقاي لا تتوقفان عن الاهتزاز. تذكرت إيدي وهو يدفع يدي، وتذكرت الطوب ينزلق من تحت راحة يدي، ويتدحرج من نهايتها، ثم الطريقة التي ارتطم بها جانب ناقلة النفط وانقلبت على الزجاج الأمامي للفولفو. لا يمكنني عكس ما حدث.

نظرت إلى يدي بعد ذلك، صدمتني الفكرة مثل الوحي. راقبت اليد التي دفعت الطوب، ورأيت صورة فيها، ميندي أكيرز تلمس مثلث القطن بين ساقيها. لم أتذكر التقاطها. عرضتها على إيدي بلا كلام. نظرت إليها، وعيناي ضبابيتان، محيرة.

قال: «احتفظ بها».

كانت أول مرة يتحدث فيها أيٌّ منا منذ أن صرخ اللعنة لنذهب من هنا.

مررنا بأمي في الطريق إلى منزلي. كانت تقف بجوار صندوق البريد، وتجري محادثة قصيرة مع جارنا من البيت المجاور، لمستْ بلا انتباه مؤخرة رأسي وأنا أعبر جوارها، لمسة أصابعها تسببت في ارتجاف جسدي بالكامل. لم أقل أي شيء حتى أصبحنا في الداخل، نخلع أحذيتنا ومعاطفنا الملوَّثة بالطين.

كان والدي في العمل، لم أكن أعرف أين كان موريس ولم أكترث. كان المنزل مظلمًا وصامتًا، وكان حوله سكون مكان فارغ.

قلت عندما فككت أزرار سترتي القطنية: «يجب أن نتصل بشخص ما».

بدا صوتي وكأنه يأتي من مكان آخر، ليس من صدري وحلقي، ولكن من زاوية الغرفة، تحت كومة القبعات الموضوعة هناك.

سأل إيدي: «نتصل بمن؟».

- الشرطة. لمعرفة ما إذا كانوا بخير.

توقف عن خلع سترته الجينز وحدق إلى وجهي. في الضوء الضعيف، بدت عينه السوداء وكأنها تعرضت لحادث مأسَوي مع ماسكارا ذائبة.

واصلت الحديث لسبب ما: «يمكننا القول إننا كنا نقف على جسر المشاة ورأينا الحادث. لسنا بحاجة إلى القول إننا من تسبب في ذلك».

- نحن لم نتسبب في ذلك.

بدأت الكلام: «حسنًا...».

ثم لم أعرف ماذا سأقول بعد ذلك. لقد كان تصريحًا كاذبًا إلى حد بعيد، ولم أستطع التفكير في أي طريقة للرد لا تبدو مثل الاستفزاز.

قال: «لقد تحول الطوب بشكل سيئ عن مساره، كيف يمكن أن يكون هذا خطأنا؟».

قلت: «أريد فقط أن أتأكد من أن الجميع بخير، كان هناك طفل صغير في الخلف».

- لم يكن هناك أحد، اللعنة!

تلعثمت من جديد ثم أجبرت نفسي على الاستمرار: «حسنًا، كان هناك يا إيدي، كانت والدتها تناديها».

توقف عن الحركة للحظة، يدرسني بعناية، نظرة حزينة مشاكسة على وجهه، ثم رفع كتفيه بهزِّهما بصلابة، وعاد إلى ركل حذائه.

قال: «إذا اتصلتَ بالشرطة سأقتل نفسي إذن، يمكنك تحمل عبء هذا أيضًا».

شعرت كما لو أن هناك ضغطًا كبيرًا على صدري، يضغط على رئتيَّ. حاولت التحدث. خرج صوتي في همس صفير.

قلت: «هيا إيدي!».

لكنه قال: «أعني ما أقول. سوف...».

توقف عن الكلام لحظة ثم تابع: «أتعرف كيف قلت إن أخي اتصل بي في ذلك الوقت بشأن كل الأموال التي كسبها من تفكيك السيارات في ديترويت؟».

أومأت.

- كان هذا هراء. أتذكر كيف قلت إنه اتصل ليخبرني عن ممارسة الجنس مع التوائم ذوات الشعر الأحمر في أثناء وجوده في مينيسوتا؟

بعد لحظة أومأت برأسي مرة أخرى، فتابع: «كان هذا هراء أيضًا. كل هذا كان دائمًا هراء. لم يتصل قط».

أخذ إيدي نفسًا طويلًا، وارتجف قليلًا عند الشهيق: «أنا لا أعرف أين هو، أو ما الذي يفعله. اتصل بي مرة واحدة فقط، بينما كان لا يزال في السجن. قبل يومين من إطلاق سراحه. لم يكن يبدو على ما يرام. كان يحاول ألا يبكي. قال لا تفعل أي شيء من شأنه أن يوصلك إلى هنا. جعلني أعده. قال إنهم يحاولون جعلك شاذًا هناك. هناك كل هؤلاء الزنوج من بوسطن الذين يتصرفون كالمنحرفين، ويتحدون بعضهم بعضًا عليك. وبعد ذلك اختفى ولا أحد يعلم ما حدث له. لكنني أعتقد أنه إذا كان بخير في مكان ما لكان قد اتصل بي الآن. أنا وهو كنا قريبين. لن يجعلني فقط أتساءل. وأنا أعرف أخي، ولن يريد أن يكون لوطيًا مع شخص ما».

كان يبكي الآن دون صوت. جفف خديه بكم قميص من النوع الثقيل، ثم ثبَّت عينيه المغمورتين بالدموع في وجهي بعنف: «وأنا لن أذهب إلى حتفي بسبب حادث غبي لم يكن خطئي. لن يحولني أحد إلى لوطي. لقد حدث

لي بالفعل شيء من هذا القبيل مرة واحدة. ذلك القذر ذو الرائحة الكريهة اللعينة، كتلة القذارة التي جلبتْها والدتي من تينيسي».

قطع كلامه وأشاح ببصره بعيدًا وهو يلهث قليلًا، لم أقل شيئًا. مشهد إيدي بريور والدموع تنهمر على وجهه أزال أي جدال قد أقدِّمه عن دواعي الذهاب إلى الشرطة، أسكتني تمامًا.

وبصوت منخفض ومرتعش، تابع: «لا يمكننا التراجع عما حدث. ما حدث قد حدث وانتهى، كان حادثًا غبيًّا. ارتداد سيئ. ليس ذنب أحد. علينا فقط أن نتعايش مع الأمر الآن. علينا فقط أن نجلس بصرامة. لن يكتشف أحد أبدًا أن لدينا أي علاقة به. الطوب يملأ جسر المشاة. وينفصل عنه طوال الوقت. ما لم يرنا أحدهم، فلن يعرف أحد أنه لم يسقط وحده. ولكن إذا كان عليك حقًّا الاتصال بشخص ما، فأخبرني أولًا، لأنني لن أسمح لهم أن يفعلوا بي ما فعلوه بأخي».

مرت عدة لحظات قبل أن أتمكن من جمع شجاعتي لأتحدث.

قلت: «انسَ الأمر، دعنا نشاهد فقط التلفاز ونهدأ».

انتهينا من خلع ملابسنا الشتوية، ودخلنا المطبخ. كدت أصطدم مباشرة بموريس الذي وقف عند الباب المفتوح المؤدي إلى الطابق السفلي، وبيده بكرة من شريط التغليف البني. كان رأسه مائلًا إلى الجانب، في وضع الاستماع، وعيناه واسعتين بفضولهما المعتاد فارغ الرأس.

صدمني إيدي بمرفقه، وأمسك بمقدمة ثياب موريس ذات الياقة المدورة، وضربه في الحائط. اتسعت عينا موريس الواسعتان بالفعل. حدق بارتباك فارغ وغبي إلى وجه إيدي المتورد. أمسكت بمعصم إيدي، وحاولت إبعاد أصابعه، ولم أستطع كسر قبضته.

سأل إيدي: «هل كنت تتنصت علينا أيها المتخلف الصغير؟».

- إيدي دعه وشأنه، لا يهم ما سمعه. انسَ ذلك. لن يتحدث. دعه يذهب.

وبهذه الطريقة أطلقه إيدي. حدق موريس إلى وجهه، يرمش وفمه يتدلى مفتوحًا. ألقى نظرة خاطفة وجيزة جانبية عليَّ في تساؤل «ما كان هذا الشيء؟ ماذا حدث؟»، ثم حرك كتفيه في هزة خفيفة قال بعدها: «كان عليَّ أن أفكِّك الأخطبوط، أحببت فكرة الممرات الكثيرة الممتدة كأذرع، التي تقودك دائمًا إلى المكان ذاته، كأنها ممرات على عجلات، لكن كلها تقود إلى المركز

بغض النظر عن النقطة التي ستبدأ فيها. المشكلة أنك تعرف دائمًا إلى أين أنت ذاهب، وهذا سيئ، أفضِّل ألا تعرف. الآن لديَّ أفكار جديدة، سأبدأ من المركز إلى الخارج، مثل العناكب.

قلت: «رائع جدًّا، اذهب ونفِّذها!».

- يستهلك تصميمي الجديد أكبر عدد من الصناديق على الإطلاق. انتظر سوف ترى.

- سنحسب الدقائق حتى تنتهي، أليس كذلك يا إيدي؟

قال: «بلى».

قال موريس: «سأكون في الطابق السفلي أعمل على الاختراع، في حال احتاج إليَّ أي شخص».

وانزلق عبر الفجوة الضيقة بيني وبين إيدي، وشق طريقه أسفل درجات الطابق السفلي.

واصلنا طريقنا إلى غرفة المعيشة. فتحت التلفاز، لكن لم أتمكن من التركيز على ما كنا نشاهده. شعرت بالانفصال عن نفسي، وشعرت كما لو كنت أقف في نهاية ممر طويل، وفي النهاية البعيدة كان بإمكاني رؤية إيدي وأنا جالسين على الأريكة، فقط لم أكن أنا، كان شكلًا شمعيًّا أجوف تجسد في صورتي.

قال إيدي: «آسف لأنني أخفت أخاك».

أردت أن يذهب إيدي بعيدًا، وأردت أن أكون وحدي، ملتفًّا على سريري في الظلام المريح والهادئ في غرفة نومي. لم أعرف كيف أطلب منه الرحيل.

بدلًا من ذلك، قلت، من بين شفتين مخدَّرتين قليلًا: «إذا أخبر موريس أحدًا فعلًا، وأنا أقسم إنه لن يفعل لأنه حتى لو كان سمعنا فلن يفهم عما كنا نتحدث، لكن لو فعل، لو أخبر شخصًا، لن تفعلها، أليس كذلك؟».

سأل إيدي: «لن أفعل ماذا؟ أقتل نفسي؟».

أصدر صوتًا خشنًا ساخرًا: «اللعنة! لا. سأقتله. لكنه لن يخبر أحدًا، أليس كذلك؟».

قلت ومعدتي تؤلمني: «بلى، لن يفعل».

بعد بضع دقائق قال: «وأنت لن تخبر أحدًا!».

كان النهار في طريقه إلى الانتهاء، والضوء يخبو من حولنا.

قلت: «لا».

دفع نفسه واقفًا على قدميه، وضرب ساقي وهو في طريقه إلى الخروج من الغرفة: «يجب أن أذهب. سأتناول العشاء مع ابن عمي. أراك غدًا».

انتظرت حتى سمعت باب المدخل يغلق خلفه ووقفت، رأسي خفيف والدوار يحكم قبضته عليَّ. اتجهت إلى القاعة الأمامية ثم الطريق إلى الطابق العلوي، حتى كدت فجأة أن أسقط فوق موريس. جلس على بعد ست درجات من الطابق السفلي، يداه على ركبتيه، وجهه قناع خاوٍ هادئ، ما زال في ثيابه الداكنة، ووجهه الشاحب هو الشيء الوحيد البادي في عتمة القاعة الأمامية. اضطربت ضربات قلبي عندما رأيته هناك. وقفت أمامه للحظة، أحدق إليه. بادلني النظرات، تعبيره غريب وغير قابل للقراءة كما كان دائمًا. إذن فقد سمع بقية الحديث، بما في ذلك ما قاله إيدي عن قتله إذا أخبر أحدًا. لكنني في الحقيقة لم أكن أعتقد أنه يفهم.

مررت من حوله وصعدت إلى غرفتي. أغلقت الباب خلفي وزحفت تحت البطانيات، وأنا ما زلت أرتدي ملابسي، تمامًا كما كنت أتخيل. مالت الغرفة وتمايلت من حولي حتى كدت أُصاب بدوار، واضطررت إلى سحب الأغطية فوق رأسي لمنع حركة العالم المشوَّشة التي لا معنى لها.

بحثت في الصحيفة في صباح اليوم التالي عن بعض المعلومات حول حادث ترك فتاة صغيرة في غيبوبة بعد عبورها من أسفل كمين جسر مشاة، لكن لم يكن هناك شيء.

اتصلت بالمستشفى بعد ظهر ذلك اليوم، وقلت إنني كنت أتساءل عن الحادث الذي وقع في 111 في اليوم الآخر، السيارة التي خرجت عن الطريق. كان صوتي غير مستقر وعصبيًا، وبدأ موظف الاستقبال على الطرف الآخر في استجواب: ما الذي أحتاج إلى معرفته؟ من أنا؟ وانتهت المكالمة.

كنت في غرفتي بعد بضعة أيام، باحثًا بجيوب معطفي الشتوي في علبة من العلكة، عندما صادفت مربعًا حاد الحواف من مادة زلقة تشبه البلاستيك. أخرجتها وحدقت إلى صورة ماندي وهي تلامس ساقيها. قلبت الصورة معدتي. سحبت الدرج العلوي وفتحته لألقي بالصورة في الداخل وضربت الدرج خلفها بقوة. مجرد النظر إلى الصورة جعلني أشعر بضيق في التنفس؛

تذكرت الفولفو التي اصطدمت بالشجرة، المرأة خرجت مترنحة، قفاز فوق عينها، يا إلهي، إيمي! أصبحت ذكرياتي عن الحادث غير مؤكَّدة بحلول ذلك الوقت. كنت أتخيل أحيانًا أن هناك دماء على جانب وجه الشقراء.

كنت أتخيل أحيانًا دماء تتساقط على الزجاج المكسور الأمامي في الثلج. وأحيانًا كنت أتخيل أنني سمعت صراخًا لطفل يصيح من الألم، صراخًا حادًّا وعاليًا كصفير غلاية الشاي. كانت هذه قناعة يصعب التخلص منها. كان أحدهم يصرخ، كنت متأكدًا من ذلك، شخص آخر غير المرأة. ربما أنا.

لم أرغب في أن يكون لي أي علاقة بإيدي بعد ذلك، لكن لم أتمكن من تجنبه. جلس بجانبي في الصفوف ومرر لي الملاحظات. اضطررت إلى إعادة الملاحظات إليه حتى لا يعتقد أنني كنت أتجاهله. ظهر في منزلي بعد المدرسة، دون سابق إنذار، وجلسنا أمام التلفاز معًا. أحضر رقعة الشطرنج الخاصة به وأعدَّها بينما كنا نشاهد أبطال هوجان. أرى الآن وربما رأيت وقتها أنه كان يتقرب مني عمدًا، يراقبني. علم أنه لا يمكنه السماح لي بوضع مسافة بيننا، وأننا إذا لم نعد شريكين بعد الآن، فستصير أفعالي غير متوقَّعة، وقد أعترف حتى. وعلم أيضًا أنني لا أملك الشجاعة لإنهاء الصداقة، وأنني لا أستطيع إلا فتح الباب له عندما يقرع الجرس. علم أنني من النوع المستعِد للتأقلم على أي موقف ومواكبته، مهما بدا غير مريح لي، بدلًا من المخاطرة بتغيير الأشياء حولي والمخاطرة بالمواجهة.

***

ثم، بعد ظهر أحد الأيام، بعد قرابة ثلاثة أسابيع من وقوع الحادث على الطريق 111، أمسكت بموريس في غرفتي واقفًا عند خزانة الملابس الخاصة بي. الدرج العلوي كان مفتوحًا. في يده صندوق من شفرات أمواس القطع، امتلكت كومة كاملة من الخردة مثل تلك، خيوط، دبابيس، شريط لاصق، وأحيانًا إذا احتاج موريس إلى شيء ما لحصنه الذي لا ينتهي، فإنه يغزو مؤنتي. من ناحية أخرى كانت صورة ميندي أكيرز في يده. أمسكها قريبة إلى أنفه تقريبًا، وحدق إليها بعينين مستديرتين بهما تعبير عدم استيعاب.

قلت: «لا تفتش في أشيائي».

وأجاب: «أليس من المحزن أنك لا تستطيع رؤية وجهها؟».

التقطتُ الصورة من يده وألقيتها في الخزانة: «فتش في أشيائي مرة أخرى وسأقتلك».

- كلماتك تبدو مثل إيدي.

قالها موريس، وأدار رأسه وحدق إلى وجهي. لم أره كثيرًا في الأيام القليلة الماضية. لقد كان في القبو أكثر من المعتاد. كان وجهه النحيف الرقيق بارز العظم، بدا أرق مما أتذكر، وكنت على دراية فريدة في تلك اللحظة بمدى ضعف وهشاشة بنيته الطفولية. كان في الثانية عشرة من عمره تقريبًا، ولكن من الممكن أن تظنه في الثامنة بسهولة.

سألني: «هل ما زلت أنت وهو صديقين؟».

كنت خائفًا طوال الوقت، وتحدثت دون تفكير: «لا أعلم».

- لماذا لا تطلب منه أن يذهب؟ لماذا لا تجعله يذهب بعيدًا؟

وقف قريبًا جدًّا مني تقريبًا، محدقًا إلى وجهي بعينيه اللتين لا ترمشان.

قلت: «لا أستطيع».

واستدرت بعيدًا، لأنني لم أستطع تحمل مواجهة نظرته المقلقة والمربكة. شعرت بالتوتر إلى الحد الأقصى لما يمكنني تحمله، وأعصابي أصبحت نيئة.

قلت: «أتمنى لو أستطيع. لكن لا أحد يستطيع إبعاده».

اتكأت على الخزانة، وضعت جبهتي على حافة الخزانة للحظة.

في همسة قاسية أطلقتها بصعوبة، قلت: «لا يمكنه السماح لي بالابتعاد».

- بسبب ما حدث؟

رميته بنظرة بعد ذلك. كان يحوم جوار مرفقي، ويداه ملتفتان على صدره، وأطراف أصابعه ترفرف بعصبية. إذن فقد فهم. ربما ليس كل شيء، ولكن البعض. فهم ما يكفي. علم أننا فعلنا شيئًا فظيعًا. كان يعرف أن حمل ما حدث على عاتقي يؤرقني.

قلت: «انسَ ما حدث».

صار صوتي أقوى الآن وأشبه بالتهديد: «انسَ ما سمعته كله، إذا اكتشف أحد موريس! لا يمكنك إخبار أي شخص على الإطلاق. فهمت؟!».

- أرغب في مساعدتك.

- لا يمكنك مساعدتي.

كان هذا حقيقيًّا، لكن قوله بتلك الطريقة صدمني بقوة.

وبنبرة متقطعة حزينة أضفت أخيرًا: «ابتعد عني لو سمحت».

عبس موريس قليلًا، وأحنى رأسه، وبدا متألمًا لفترة وجيزة.

ثم قال: «لقد أوشكت على الانتهاء من الحصن الجديد. أرى التصميم كله الآن. أعرف كيف سينتهي».

ثم ثبَّت عينيه القويتين الواسعتين عليَّ مرة أخرى وهو يتابع: «أنا أبنيها لك يا نولان، لأنني أريدك أن تشعر بتحسن».

أطلقت نفسًا رقيقًا كاد يتحول إلى ضحكات. للحظة كنا نتحدث مثل زوجين من الإخوة المتفهِّمين لبعضهما بعضًا، القلقين بشأن بعضهما، يتجاذبان أطراف حديث، متساويَيْن في المعرفة والشخصية، لبضع ثوانٍ نسيت أوهام موريس وأحلامه. لبضع ثوانٍ نسيت أن العالم الحقيقي بالنسبة إليه كان شيئًا لم يلمحه إلا بين الحين والآخر من خلال الأبخرة المنجرفة لأحلام اليقظة. بالنسبة إلى موريس، كان الرد المعقول الوحيد على التعاسة هو بناء ناطحة سحاب من علب البيض.

قلت: «شكرًا موريس. أنت فتى جيد. عليك فقط البقاء خارج غرفتي».

أومأ برأسه، ظل عابسًا يفكر داخل نفسه حين دار من حولي وغادر حجرتي إلى القاعة بالأسفل. شاهدته يبتعد عني نازلًا على الدرج، ظل خياله يتأرجح ويتأرجح عبر الحائط، ويزداد حجمه مع كل خطوة يخطوها نحو الضوء في الأسفل، الذي حمل حلم مستقبل ستُبنى فيه الخطوة تلو الأخرى للخلاص، بصندوق تلو الآخر.

***

ظل موريس في الطابق السفلي حتى العشاء، واضطرت أمي إلى الصراخ من أجل استدعائه ثلاث مرات قبل أن يصعد إلى الطابق العلوي، وعندما جلس إلى الطاولة كانت يداه تحتويان على مسحوق أبيض يشبه الجبس. عاد إلى الطابق السفلي بعد العشاء مباشرة، ولم يعد إلى الأعلى إلا عندما صاحت والدتي بأن وقت النوم قد حان.

مررت قرب باب القبو المفتوح مرة واحدة، قبل أن أخلد إلى النوم بنفسي، وتوقفت هناك. اندلعت رائحة غريبة من الأسفل لم أتمكن من التعرف عليها في البداية. شيء يشبه الغراء، أو الطلاء الجديد، أو الجص، أو مزيج من الثلاثة. دخل والدي إلى مدخل البيت منظفًا قدميه. تناثرت القليل من ندف الثلج التي جلبها من الخارج وانجرفت على الدرجات.

سألته وأنا أجعد أنفي: «ما هذه الرائحة؟».

جاء إلى أعلى درج القبو جواري واستنشق ليقول: «أوه، موريس قال إنه سينجز بعض الأشياء باستخدام عجين لب الورق والصمغ. لا يمكننا التكهن أبدًا بما سيستخدمه هذا الفتى ليصل إلى مراده، أليس كذلك؟».

***

تطوعت والدتي للعمل في منزل للعجائز كل يوم خميس، حيث اعتادت قراءة الرسائل للأشخاص الذين ضعف نظرهم، تعزف على البيانو في غرفة الاستجمام، وتقرع المفاتيح حتى يسمعها نصف الصم، وفي فترات الظهيرة تلك، اعتبرتني المسؤول الوحيد عن المنزل وأخي الصغير. عندما جاء يوم الخميس التالي، لم تكن خارج المنزل لأكثر من عشر دقائق عندما ضرب إيدي قبضته على الباب الجانبي.

قال إيدي: «مرحبًا أيها الشريك، خمِّن ماذا حدث، ركلت ميندي أكيرز مؤخرتي في اللعب لخمس مباريات متتالية. يجب أن أعيد إليها تلك الصورة. ما زالت لديك، أليس كذلك؟ آمل أنك كنت تعتني بها جيدًا من أجلي».

قلت: «من دواعي سروري أن تستعيد هذا الشيء اللعين البغيض».

ارتحت قليلًا لأنه من الواضح أنه لن يبقى سوى لدقيقة واحدة. كان من النادر أن أتمكن من التخلص منه بهذه السرعة. خلع حذاءه وتبعني إلى المطبخ.

قلت: «دعني أذهب وآتي بها. إنها في غرفتي».

قال إيدي ضاحكًا: «ربما على طاولتك الليلية، أنت مريض».

سأل موريس فجأة وصوته يطفو من قاع سلالم القبو: «هل تتحدث عن صورة إيدي؟ إنها معي، كنت أنظر إليها. إنها معي هنا في الأسفل».

اندهشت من هذه المعلومة ربما أكثر من إيدي نفسه، أوضحت لموريس سابقًا أنني أرغب في أن يترك أشيائي وشأنها ولم يكن عصيان الأوامر المباشرة من طبيعته.

صرخت: «موريس، لقد أخبرتك أن تبتعد عن أشيائي».

وقف إيدي على قمة الدرج، متطلعًا إلى القبو: «ماذا تفعل بها؟ تستمني عليها؟».

لم يرُد موريس واندفع إيدي إلى أسفل الدرج، وأنا خلفه مباشرة. توقف إيدي على بعد ثلاث درجات من القاع واضعًا قبضتيه على وركيه، وحدق عبر المساحة إلى الطابق السفلي، وهو يقول: «أوه! هذا باهر!».

امتلأ القبو، من البداية إلى النهاية، بمتاهة كبيرة من الصناديق الكرتونية. أعاد موريس طلاءها جميعًا. كانت الصناديق الأقرب إلى أسفل الدرج بيضاء قشدية كالحليب، ولكن كلما اتسع الطريق مؤديًا إلى شبكة الأنفاق في بقية الغرفة، بهت لون الصناديق ليصير أقرب إلى ظلال زرقاء شاحبة، ثم إلى البنفسجي، ثم إلى الأزرق الصاخب. كانت الصناديق الموجودة في أقصى حافة الغرفة سوداء بالكامل، مما صنع تأثيرًا وهميًّا بأنك تحدق إلى أفق غروب مصطنَع.

رأيت صناديق بحجم خزانات بها ممرات من كل جانب. رأيت النوافذ مقطوعة في أشكال النجوم والشمس المنمقة. في البداية اعتقدت أن هذه النوافذ تحتوي على صفائح من البلاستيك البرتقالي اللامع بشكل غريب. ولكن بعد ذلك رأيت كيف تنبض وتومض بهدوء، وأدركت أنها في الواقع عبارة عن صفائح بلاستيكية شفافة، مضاءة من الداخل بمصدر غير مستقر للضوء البرتقالي، مصباح الحمم الخاص بموريس، بلا شك. لكن معظم الصناديق لم يكن بها نوافذ على الإطلاق، وبخاصة تلك في الأجزاء البعيدة، كلما ابتعدت عن الدرج واتجهت إلى نهاية الممرات بعيدًا في آخر الطابق السفلي، سيكون بداخل هذه الممرات ظلمة تامة.

في الركن الشمالي الغربي من الطابق السفلي فوق كل الصناديق الأخرى، كان هناك هلال هائل، مصنوع من الورق المعجَّن وطلاء شمعي، أبيض ناصع. كان للقمر شفاه مضغوطة رقيقة وعين واحدة حزينة متدلية راقبتنا بتعبير خيبة أمل وضياع. لم أكن مستعدًّا لرؤية هذا، لذا كانت صدمتي حقًّا

هائلة، لدرجة أن الأمر استغرق مني دقيقة لأدرك أنني كنت أنظر إلى الصندوق العملاق الذي كان يومًا ما في وسط أخطبوط موريس.

في ذلك الوقت، كانت مغلفة بشبكة من أسلاك الدجاج، على شكل نقطتين مثل الأبواق غير المتوازنة. تذكرت أنني كنت أفكر في أن منحوتة موريس الضخمة والمشوَّهة بأسلاك الدجاج كانت دليلًا دامغًا على أن دماغ أخي اللينة بالفعل كانت تتدهور.

الآن رأيت أنه كان دائمًا قمرًا، يمكن لأي شخص رؤيته على حقيقته إذا ركَّز بما يكفي. فقط هذا الشخص لم يكن أنا. أعتقد أن هذه كانت إحدى مشكلاتي في الحياة دائمًا، لو لم أستطع قراءة ما يحدث أمامي فورًا، فلن أتمكن أبدًا من رؤية أبعد مما رأيت في المرة الأولى، لا أستطيع رؤية الصورة الأكبر أو المعنى الأكبر سواء في حياتي الخاصة أو في تصميمات موريس.

كان مدخل سراديب الموتى التي صنعها موريس من الورق المقوى أسفل السلم مباشرة. صندوق طويل، ارتفاعه قرابة أربعة أقدام، يقف على جانبه، مع لوحين مفتوحين مثل زوجين من الأبواب المزدوجة. دبس موريس قطعة سوداء من الشاش بالداخل، مما حجب رؤيتي للنفق المؤدي إلى داخل الصندوق الأول بالمتاهة. سمعت موسيقى تتردد، بعيدة من مكان ما، لحنًا منخفضًا مترددًا ومحفزًا.

غنى باريتون من مكان ما بصوت عميق: «النمل يسير واحدًا تلو الآخر، يا هلا! يا هلا!».

استغرق الأمر مني دقيقة لأدرك أن الموسيقى كانت تأتي من مكان ما داخل نظام الأنفاق.

اندهشت للغاية حتى إنني لم أستطِع البقاء غاضبًا من موريس لسرقة صورة ميندي أكيرز. كنت مدهوشًا للغاية لدرجة أنني لم أستطع التحدث. كان إيدي هو من تحدث أولًا.

قال، للا أحد على وجه الخصوص: «لا أصدق، ذلك القمر».

صوته عبَّر عما شعرت أنا به من دهشة.

تابع: «موريس، أنت عبقري مجنون!».

وقف موريس إلى اليمين، ووجهه لطيف، وبصره سابح عبر الامتداد الشاسع: «علَّقتُ صورتك داخل قلعتي الجديدة. علَّقتُها في المعرض. لم أكن أعلم أنك تريد استعادتها. يمكنك الحصول عليها إذا أردت».

ألقى إيدي نظرة جانبية إلى موريس، واتسعت ابتسامته: «أنت خبأته هناك وتريد مني أن أجده. أنت غريب الأطوار، هل تعرف ذلك موريس؟».

هبط الخطوات الثلاث الأخيرة، وهو يكاد يقفز: «أين المعرض؟ في الخارج هناك، داخل ذلك القمر؟».

قال موريس: «لا، لا تسلك هذا الطريق».

قال إيدي وضحك: «حسنًا، صحيح. ما هي الصور الأخرى التي لديك معلَّقة هناك؟ حفنة من الصور المقطوعة من المجلات؟ هل لديك غرفتك الخاصة الصغيرة لتمارس عادتك؟».

- لا أرغب في قول أي شيء آخر. لا أريد إفساد المفاجأة. عليك فقط أن تدخل وترى.

رمقني إيدي بنظرة مترقبة. لم يكن لديَّ ما أقول، لكنني فوجئت برداء التوتر يغلفني، مع خيط أبيض من عدم الارتياح مخيط فيه. رغبت في -وخشيت في الوقت ذاته- رؤيته يختفي في قلعة موريس المربكة والرائعة. هز إيدي رأسه «هل تصدق هذا الهراء؟» ونزل على أربع. بدأ بالزحف إلى المدخل، ثم نظر إليَّ مرة أخرى. وقد فوجئت برؤية تدفق الشغف الطفولي على وجهه. كانت نظرة أزعجتني لسبب ما. أنا شخصيًا لم أشعر بالحماس على الإطلاق للتجول في الظلام الداخلي الضيق لمتاهة موريس الهائلة.

قال إيدي: «يجب أن تأتي، علينا رؤية ذلك معًا».

أومأت برأسي، وشعرت بقليل من الضعف، لم تكن هناك كلمات بلغة صداقتنا لقول «لا» وبدأت في النزول من السلالم القليلة الأخيرة في الطابق السفلي. دفع إيدي جانبًا من الشاش الأسود، وترددت أصداء الموسيقى من داخل نفق دائري كبير، وهو أنبوب من الورق المقوى يبلغ قطره المتر تقريبًا.

«النمل يسير ثلاثة في ثلاثة، يا هلا! يا هلا!».

هبطتُ الخطوة الأخيرة، وبدأت في التقدم خلف إيدي لأدخل، حين أتى موريس إلى جانبي ممسكًا بذراعي، كانت قبضته قوية بطريقة غير عادية.

لم يلقِ إيدي نظرة إلى الوراء، ولم يرَنا نقف معًا بهذه الطريقة، بل قال: «هيي، أي تلميحات عن الطريق؟».

أجابه موريس: «اذهب مباشرة نحو الموسيقى».

تحرك رأس إيدي إلى أعلى وأسفل بإيماءة بطيئة، كما لو كان هذا واضحًا. حدق إلى النفق الطويل المظلم الدائري أمامه.

بنبرة صوت طبيعية تمامًا، قال لي موريس: «لا تذهب. لا تتبعه».

بدأ إيدي يشق طريقه إلى النفق.

قلت: «إيدي!».

وأنا أشعر بنوبة ذعر مفاجئة لا يمكن تفسيرها.

- إيدي، انتظر لحظة! تعال إلى الخارج.

قال إيدي: «اللعنة، المكان مظلم هنا».

كأنه لم يسمعني. في الواقع، أنا متأكد من أنه لم يسمعني، توقفت قدرته على سماعي بمجرد دخوله إلى متاهة موريس.

صرخت: «إيدي! لا تذهب إلى هناك!».

غمغم إيدي متحدثًا لنفسه: «من الأفضل لك أن تكون هناك بعض النوافذ في الأمام، إذا شعرتُ برهاب الأماكن المغلقة، فسوف أقف وأمزق هذا اللعين».

استنشق بعمق، وأخرج زفيرًا طويلًا قبل أن يقول: «تمام. لنذهب».

سقط الستار الأسود في مكانه واختفى إيدي.

ترك موريس ذراعي. نظرت إليه، لكن نظرته كانت موجَّهة نحو قلعته مترامية الأطراف، نحو أنبوب الكرتون الذي صعد إليه إيدي. كان بإمكاني سماع إيدي يتنقل من خلاله بعيدًا عنا، سمعته يخرج من الطرف الآخر، في صندوق كبير، طوله نحو متر وعرض نصف متر. اصطدم به وطرق أحد الجدران بكتفه فتحرك قليلًا. نفق من الكرتون يؤدي إلى اليمين وآخر إلى اليسار. اختار إيدي ذلك الذي يشير إلى الاتجاه العام للقمر. من أسفل درجات الطابق السفلي، تمكنت من متابعة تقدمه، ورؤية الصناديق تهتز قليلًا في أثناء مروره من خلالها، تمكنت من سماع دوي جسده المكتوم يضرب الجدران بين الحين والآخر. ثم فقدت أثره لدقيقة أو دقيقتين، وعجزت عن تحديد مكانه حتى سمعت صوته.

صاح، وسمعته ينقر على البلاستيك السميك: «أراكم يا رفاق!».

نظرت حولي ورأيت وجهه خلف نافذة على شكل نجمة. كان يبتسم بطريقة أظهرت فجوة بين أسنانه الأمامية. أعطاني إشارة بإصبعه الوسطى. ظهرَ الضوء الحراري لمصباح الحمم الخاص بموريس من حوله، ثم تلاشى. ثم زحف من جديد. لم أرَه مرة أخرى، لكني سمعته. لفترة أطول كنت أسمعه يشق طريقه، متحركًا في الاتجاه الصحيح للقمر، بعيدًا في الجهة البعيدة من قبو منزلنا. فوق نغمة الموسيقى المكتومة: «أسفل، على الأرض، للخروج من المطر».

ما زلت أسمعه يصطدم بجدران المتاهة. رأيت صندوقًا يرتجف. بمجرد أن سمعته يمر من فوق شريط من الفقاعات التي يجب أن تكون مثبَّتة على الأرض في أحد الأنفاق. انفجرت مجموعة من البثور البلاستيكية بأصوات حادة ومسطحة، مثل سلسلة من المفرقعات النارية، وسمعته يقول: «اللعنة!».

بعد ذلك فقدت أثره مرة أخرى. ثم جاء صوته مرة أخرى عن يميني، على طول الطريق عبر الغرفة من حيث سمعته آخر مرة.

كان كل ما قاله هو: «تبًّا».

لأول مرة ظننت أنني سمعت بنبرةِ صوتهِ تيارًا خفيًّا من التوتر، وضيقًا في التنفس. بعد لحظة، تحدث مرة أخرى، شعرت بوميض من الارتباك، تركني مهزوزًا، الآن بدا صوته يأتي من أقصى اليسار بطريقة مستحيلة، وكأنه عبر ثلاثين مترًا في رمشة عين.

قال: «نهاية مسدودة».

واهتز النفق المؤدي إلى اليسار وهو يدفع بجسده خلاله. ثم لم أكن متأكدًا من مكانه. مرت أكثر من دقيقة، ولاحظت أن يديَّ كانتا مشدودتين وقبضتاي متعرقتين، وأنني كنت أحبس أنفاسي.

قال إيدي من مكان ما: «مرحبًا».

واعتقدت أنني سمعت نبرة من عدم الارتياح في صوته: «هل هناك شخص آخر يزحف هنا؟».

كان على مسافة بعيدة عني. اعتقدت أن صوته أتى من أحد الصناديق القريبة من القمر. تبع ذلك صمت طويل. الآن، اختفت الموسيقى بالكامل

وعادت الأغنية مرة أخرى من البداية. لأول مرة وجدت نفسي أستمع إليها، وأستمع إليها حقًا. لم تكن كلمات الأغنية كما كنت أتذكرها من المعسكر الصيفي. في مرحلة ما، بكى صوت المغني المنخفض:

«النمل يسير اثنين في اثنين، يا هلا! يا هلا!
النمل يذهب يسير اثنين في اثنين، يا هلا! يا هلا!
النمل يذهب يسير اثنين في اثنين،
سار عبر هضبة لينغ
وذهب جميعه في مسيرة!».

بينما في النسخة التي أتذكرها، بدا لي أنه كان هناك شيء ما حول توقف صغير لالتقاط حجر من حذائه. كما أنها جعلتني أشعر بالضيق، بالطريقة التي استمرت بها الأغنية في إعادة نفسها.

سألت موريس: «ما خطب هذا الشريط؟ كيف تُشغَّل هذه الأغنية فقط؟».

قال: «لا أعرف. بدأت الموسيقى تعزف هذا الصباح. لم تتوقف منذ ذلك الحين. كانت تصدح طوال اليوم».

أدرت رأسي وحدَّقت، شاعرًا ببرودة ووخز من خوفٍ يخترق صدري: «ماذا تقصد؟ لم تتوقف؟».

قال موريس: «لا أعرف حتى من أين أتت، ليست من صنعي».

- أليس هناك جهاز تسجيل؟

هز موريس رأسه، وللمرة الأولى شعرت بالذعر.

صرخت: «إيدي!».

لم يكن هناك رد.

صرخت من جديد: «إيدي!».

وبدأت أسير في أرجاء الغرفة، وأتخطى الصناديق وأدور حولها، متحركًا نحو القمر وحيث سمعت صوت إيدي آخر مرة: «إيدي، أجبني!».

من مسافة بعيدة مستحيلة، سمعت شيئًا، جزءًا من جملة: «درب من فتات الخبز».

لم يبدُ حتى مثل صوت إيدي، نُطِقَت الكلمات بنبرة مقطوعة، متشددة، بدت وكأنها واحدة من الأصوات المتداخلة التي تسمعها في تلك الأغاني المجنونة التي لا معنى لها، كأغنية فريق البيتلز «ريفوليوشن». لم أستطع تحديد مكانها، من أين أتت، لم أكن متأكدًا مما إذا كانت في الأصل أمامي أم خلفي. استدرت وحاولت أن أعرف من أين أتى الصوت، عندما توقفت الموسيقى فجأة، عند جملة النمل يسير في التاسعة. صرخت من المفاجأة، ونظرت إلى موريس. كان ممسكًا بسكين القَطع المحمَّل بشفرة موس مسروقة من خزانتي، كان على ركبتيه يقطع الشريط الذي ربط الصندوق الأول في المتاهة بالثاني.

قال موريس: «هاك، لقد ذهب. تمت المهمة».

سحب صندوق المدخل بالكامل، حرًّا من بقية المتاهة، ثم سوَّاه ووضعه جانبًا.

سألت: «عمَّ تتحدث؟».

لم يكن ينظر إليَّ. لقد بدأ بشكل منهجي في تفكيك كل شيء، قطعَ الشريط اللاصق، وضغط الصناديق بشكل مسطح، كدسها بجانب الدرج.

أكمل: «أردتُ المساعدة، أنت قلت إنه لن يذهب بعيدًا، لذلك جعلته يرحل».

رفع نظرته للحظة، وحدق إليَّ بتلك العينين اللتين بدتا دائمًا وكأنهما تنظران من خلالي: «كان عليه أن يرحل. لم يكن ليتركك بمفردك على الإطلاق».

تنفستُ: «يا إلهي! كنت أعلم أنك مجنون، لكنني لم أكن أعرف أنك كنت جرذًا قذرًا تمامًا. ماذا تقصد برحل؟ إنه هنا. يجب أن يكون هنا. لا يزال في الصناديق. إيدي!».

صحت باسمه، صوتي هستيري قليلًا: «إيدي!».

لكنه ذهب، وعرفت ذلك. علمت أنه ذهب إلى داخل صناديق موريس وزحف عبرها مباشرة إلى مكان آخر، إلى مكان ما ليس في قبو منزلنا. بدأت أتحرك عبر الحصن، أنظر إلى النوافذ، وأركل الصناديق. بدأت سراديب الموتى تنفصل عن بعضها، مزقتُ الشريط الرابط بينها بيدي، وقلبت الصناديق

لأنظر إلى داخلها. تعثرتُ بهذا الممر وذاك، في إحدى المرات تعثرتُ، محطِّمًا نصف نفق.

داخل أحد الصناديق، كانت الجدران مغطاة بصور مجمَّعة، وصور للمكفوفين، كبار السن بأعين بيضاء كالحليب يحدقون بوجوههم المنحوتة من الخشب، رجل أسود مع غيتار منزلق على ركبتيه ونظارات شمسية سوداء مستديرة مدفوعة على جسر أنفه، أطفال كمبوديون لفوا أعينهم بأوشحة. نظرًا إلى عدم وجود نوافذ مقطوعة في الصندوق، فإن الصورة المجمَّعة ستكون غير مرئية لأي شخص يزحف من خلالها. في صندوق آخر، كانت الأشرطة الوردية من الورق المتطاير تبدو وكأنها خيوط مغبَّرة من المياه المالحة من السقف، ولكن لم يكن هناك أي ذباب عالق بها. بدلًا من ذلك، كان هناك العديد من حشرات البرق، لا تزال على قيد الحياة، تومض باللون الأصفر والأخضر للحظة ثم تتلاشى. لم أكن أعتقد، في ذلك الوقت، أنه كان شهر مارس، وحشرات البرق يستحيل الحصول عليها.

الجزء الداخلي من الصندوق الثالث لُوِّن بلون أزرق سماوي شاحب، مع قطعان من الطيور السوداء الطفولية مرسومة عليه. في زاوية الصندوق كان ما ظننته في البداية دمية قطة، كتلة من الريش الداكن الباهت مع أفواج من غبار تتشبث بها. عندما قلبت الصندوق على جانبه، انزلق طائر ميت. جفت الجثة وجُففت، وسقطت عيناه من رأسه، تاركتين تجاويف سوداء صغيرة تشبه حروق السجائر. كدت أصرخ لمرأى ذلك. انقلب بطني. ذقت العصارة الصفراوية في مؤخرة حلقي.

ثم أمسك بي موريس من مرفقي، يوجِّهني نحو الدرجات.

قال: «لن تجده هكذا، من فضلك اجلس يا نولان».

جلست أسفل الدرج. بحلول ذلك الوقت كنت أحارب كي لا أبكي. ظللت أنتظر أن يقفز إيدي ضاحكًا من مكان ما قائلًا: يا رجل، لقد خدعتك. وفي الوقت نفسه عرف جزء مني أنه لن يفعل ذلك أبدًا. مرت فترة قبل أن أدرك أن موريس قد نزلَ على ركبتيه أمامي، مثل رجل يستعد لخطبة عروسه.

درس وجهي بثبات: «ربما إذا أعدتها معًا ستبدأ الموسيقى مرة أخرى. ويمكنك الذهاب والبحث عنه، لكنني لا أعتقد أنه يمكنك العودة. هناك أبواب

في الداخل، تفتح في اتجاه واحد فقط. هل تفهم يا نولان؟ إنه أكبر في الداخل مما يبدو».

كان يحدق إليَّ بثبات، بعينيه اللامعتين بشكل غريب.

ثم قال بنبرة ثابتة هادئة: «لا أريدك أن تدخل، لكنني سأضعها معًا مرة أخرى إذا طلبت مني ذلك».

حدقتُ إليه، وحدق إليَّ بدوره، منتظرًا، أمال رأسه إلى الزاوية، حركة الإنصات الفضولية التي اعتادها تلك، مثل طائر وقف على غصن وهو ينصت إلى صوت قطرات المطر التي تتساقط عبر الأشجار. تخيلته يجمع بعناية ما فكَّكناه في الدقائق العشر الماضية، ثم تخيلت الموسيقى تنبض بالحياة من مكان ما داخل الصناديق، وتهدر هذه المرة: «أسفل! في الأرض! للخروج! من المطر!».

ظننت إذا بدأت هذه الموسيقى مرة أخرى، دون أي سابق إنذار، أنني سأصرخ؛ لن أكون قادرًا على منع نفسي. في النهاية، حركت رأسي نفيًا.

استدار موريس بعيدًا وعاد لتفكيك اختراعه. جلست أسفل الدرج لأكثر من ساعة، أشاهد موريس وهو يهدم قلعته المصنوعة من الورق المقوى بعناية. لم يخرج إيدي منها قط. لم يصدر أي صوت آخر من الداخل. سمعت الباب الخلفي يفتح ودخلت والدتي، واجتازت ألواح الأرضية فوق رؤوسنا. صرخت لي أن آتي وأن أساعد في ترتيب البقالة. صعدت، وسحبت الأكياس، ووضعت الطعام في الثلاجة. جاء موريس لتناول العشاء، ونزل مرة أخرى.

دائمًا ما يكون تفكيك شيء ما أسرع من تجميع شيء ما. هذا صحيح في كل شيء ما عدا الزواج. عندما ألقيت نظرة خاطفة على الدرج إلى الطابق السفلي، في الثامنة والربع، كان بإمكاني رؤية ثلاثة أكوام من الصناديق المفلطحة والمرتَّبة بعناية، كلٌّ منها بارتفاع متر تقريبًا، ومساحة شاسعة من الأرضية الخرسانية العارية.

كان موريس في أسفل السلم يكنس. توقف، ونظر إليَّ بتعبيرات وجه غريبة لا يمكن تفسيرها، فارتجفت. عاد إلى عمله، وحرك المكنسة بضربات قصيرة مدرَّبة على الأرض، يكنس، يكنس، يكنس.

***

عشت في المنزل أربع سنوات أخرى، لكنني لم أزُر موريس مطلقًا في الطابق السفلي بعد ذلك، وتجنبت المكان تمامًا بقدر ما أستطيع. بحلول الوقت الذي غادرت فيه للالتحاق بالجامعة، كان سرير موريس في الأسفل، ونادرًا ما صعد إلى الأعلى. صار ينام في كوخ منخفض قد صنعه بنفسه من زجاجات الكولا الفارغة والقِطع المقطوعة بعناية من الفلين الأزرق.

كان القمر هو الجزء الوحيد من القلعة الذي لم يفكّكه موريس. بعد أسابيع قليلة من اختفاء إيدي، حمل والدي القمر إلى مدرسة موريس لذوي الاحتياجات الخاصة، حيث فاز بالجائزة الثالثة بخمسين دولارًا وميدالية في عرض فني. لا أستطع إخبارك بما حدث بعد ذلك. مثل إيدي بريور، لم تعد الذكرى قط.

أتذكر ثلاثة أشياء عن الأسابيع القليلة التي أعقبت اختفاء إيدي.

أتذكر أن والدتي فتحت باب غرفة نومي، بعد الثانية عشرة بقليل، في الليلة التي اختفى فيها. كنت ممددًا على جانبي في السرير، وسحبت الملاءة فوقي. لم أكن نائمًا. كانت والدتي ترتدي رداءً ورديًّا من قماش الشنيل، وحزامًا غير محكَم عند الخصر. حدقت إلى وجهها، محاطًا بإطار مقابل ضوء الردهة.

قالت: «نولان، والدة إد بريور اتصلت للتو. كانت تتصل بأصدقاء إيدي. هي لا تعرف أين هو. لم تَرَه منذ أن غادر إلى المدرسة. أخبرتها أنني سوف أسألك إذا كنت تعرف أي شيء عنه. هل جاء إلى هنا اليوم؟».

قلت لها: «رأيته في المدرسة...».

ثم صمتُّ، لم أكن أعرف إلى أين أذهب من هناك، ما الذي يمكنني قوله؟ على الأغلب افترضت والدتي أنها أيقظتني للتو من نوم عميق، وأنني كنت مترنحًا للغاية لدرجة أنني لم أفكر.

قالت: «هل تحدثتما؟».

- لا أعلم. أعتقد أننا قلنا مرحبًا. لا أستطيع أن أتذكر المزيد.

جلستُ في السرير وأنرتُ المصباح: «في الواقع، لم نعد نتجول كثيرًا مؤخرًا».

أومأت برأسها: «حسنًا، ربما هذا أفضل، إيدي طفل جيد لكنه متسلط قليلًا، ألا تعتقد هذا؟ لا يمنحك مساحة كبيرة لتكون على طبيعتك».

عندما تحدثت مرة أخرى، كانت هناك بحة في صوتي: «هل اتصلت والدته بالشرطة؟».

قالت والدتي: «لا تقلق».

فهمتْ لهجتي بالخطأ على أنها قلق بشأن سلامة إيدي، بينما كنت في الحقيقة قلقًا بشأن نفسي.

قالت: «تعتقد فقط أنه بقي مع أحد أصدقائه، أعتقد أنه فعلها من قبل. كان يتشاجر كثيرًا مع صديقه. قالت ذات مرة إنه هرب لقضاء عطلة نهاية أسبوع كاملة بعيدًا».

تثاءبَت وغطت فمها بظهر يدها: «من الطبيعي أن تكون متوترة، رغم ما حدث لصبيها الأكبر. خروجه من سجن الأحداث ثم اختفاؤه عن وجه البسيطة هكذا».

قلت بصوت مختنق: «ربما يكون الأمر متوارَثًا في العائلة».

- ماذا؟!

قلت: «الاختفاء».

قالت: «الاختفاء».

ثم بعد لحظة، أومأت برأسها مرة أخرى: «أفترض أن أي شيء يمكن أن يسري في العائلات، حتى الاختفاء. ليلة سعيدة يا نولان».

- تصبحين على خير أمي.

كانت تذهب عبر الباب لتغلقه، ثم توقفت، استدارت إلى غرفتي وقالت: «أحبك يا صغيري».

التي كانت تقولها دائمًا فقط في آخر لحظة يمكنني توقع قولها فيها، لم أكن مستعدًّا لذلك. وخزَتني مقلتا عينيَّ بشكل مؤلم. حاولت الرد، لكن عندما فتحت فمي، وجدت حلقي مغلقًا بحيث عجز أي هواء عن المرور عبره. ذهبت قبل أن تسنح لي الفرصة للرد.

***

بعد أيام قليلة وصل إليَّ استدعاء للخروج من قاعة الدراسة وإرسالي إلى مكتب نائب المدير. خلف مكتب نائب المدير جلس محقق يُدعى كارناهان.

لا أستطيع تذكر الكثير مما سألني، أو كيف أجبت. أتذكر أن عينَي كارناهان كانتا بلون ثلجي سميك مائل إلى البياض أو الأزرق، ولم ينظر إليَّ مرة واحدة خلال مناقشتنا التي استمرت خمس دقائق. وأذكر أيضًا أنه أخطأ في استهجاء اسم عائلة إيدي مرتين، مشيرًا إليه باسم إدوارد بيرز بدلًا من إدوارد بريور. لقد صحَّحته في المرة الأولى، وتركته يمر في الثانية.

خلال المقابلة بأكملها، كنت في حالة توتر وذهول شديدين. شعرت بالخدر في وجهي، كما لو كنت قد ابتلعت أقراص النوفوكايين، وعندما تحدثت، شعرت بصعوبة في تحريك شفتي. كنت على يقين من أن كارناهان سيجد هذا غريبًا، لكنه لم يفعل قط. أخيرًا طلب مني الابتعاد عن المخدرات، ثم نظر إلى بعض الأوراق أمامه وصمت تمامًا. لمدة دقيقة تقريبًا واصلت الجلوس أمامه، دون أن أعرف ماذا أفعل بنفسي. ثم ألقى نظرة خاطفة عليَّ، متفاجئًا ليجدني ما زلت أتسكع في المكان. أومأ إيماءة صارفة بيد واحدة، وقال إن بإمكاني الذهاب، ويود أن يطلب من الشخص التالي أن يأتي.

عندما وقفت، قلت: «هل لديك أي فكرة عما حدث له؟».

- لن أقلق كثيرًا حيال ذلك. الأخ الأكبر للسيد بيرس خرج من سجن الأحداث الصيف الماضي ولم يرَه أحد منذ ذلك الحين. أنا أفهم أن الاثنين كانا قريبين.

أعاد كارناهان نظره إلى أوراقه، وبدأ في خلطها: «أو ربما قرر صديقك الذهاب إلى الطريق بمفرده. لقد اختفى مرتين من قبل. تعلمون ما يقولون. مع التدريب يأتي الإتقان».

عندما خرجتُ، كانت ميندي أكيرز تجلس على المقعد المواجه للحائط في منطقة الاستقبال. عندما رأتني، قفزت بخفة على قدميها، وابتسمت، وعضت شفتها السفلى. مع تقويم أسنانها وبشرتها السيئة، لم يكن لدى ميندي الكثير من الأصدقاء، ولا شك أنها شعرت بغياب إيدي بشدة. لم أكن أعرف الكثير عنها، لكنني كنت أعلم أنها تريد دائمًا أكثر من أي شيء أن يحبها إيدي، وكانت سعيدة لأن تكون مهرِّجه الخاص، فقط لأن هذا أعطاها فرصة لسماعه يضحك. أحببتها وأشفقت عليها. كان لدينا الكثير من القواسم المشتركة.

قالت: «مرحبًا نولان».

بنظرة ملأى بالأمل والتوسل سألت: «ماذا قال الشرطي؟ هل يعتقدون أنهم يعرفون إلى أين ذهب؟».

ثم شعرتُ بوميض من شيء يشبه الغضب، ليس من أجلها، ولكن من أجل إيدي، ازدراء شديد للطريقة التي كان يضحك بها ويسخر منها من وراء ظهرها.

قلت: «لا، لن أقلق عليه لو كنت مكانك. أنا أضمن لك أنه أينما كان، فهو ليس قلقًا عليكِ».

رأيت عينيها تتأرجحان من الألم، ثم سحبت نظرتي بعيدًا واستمررت في طريقي، دون أن أنظر إلى الوراء، كنت أتمنى أني لم أقل شيئًا، ما الخطأ في شعورها بالافتقاد نحوه؟

***

لم أجرِ محادثة أخرى معها بعد ذلك. لا أعرف ما حدث لميندي أكيرز بعد المدرسة الثانوية. أنت تعرف شخصًا ما لفترة من الوقت ثم في يوم من الأيام تفتح حفرة تحته، ويسقط من عالمك.

هناك شيء آخر أتذكره، من الفترة التي أعقبت اختفاء إيدي مباشرة. كما قلت، حاولت ألا أفكر فيما حدث له، وتجنُّب الحديث عنه. لم يكن القيام بذلك صعبًا كما تعتقد. أنا متأكد من أن أولئك الذين اهتموا بالأمر كانوا يحاولون منحي مساحة خاصة، مدركين أنني فقدت صديقًا مقرَّبًا دون أن ينبسوا ببنت شفة. بحلول نهاية الشهر، بدا الأمر كما لو أنني لم أكن أعرف حقًا أي شيء عما حدث لإدوارد بريور، أو ربما كما لو أنني لم أكن أعرف إيدي على الإطلاق.

بدأت بالفعل في حجب كل ذكرياتي عنه -الجسر العلوي، لعبة الداما مع ميندي، قصصه عن أخيه الأكبر واين- خلف جدار من الطوب العقلي المرصوص بعناية. فكرت في أشياء أخرى. رغبت في الحصول على وظيفة، فكرت في تقديم طلب للعمل في السوبر ماركت. رغبت في إنفاق المال، وأردت الخروج من المنزل أكثر. كان AC / DC في طريقهم إلى المدينة في يونيو وأردت تذاكر. لبنة بعد لبنة بعد لبنة.

بعد ذلك، بعد ظهر أحد أيام الأحد في بداية شهر أبريل، كنا جميعًا، جميع أفراد الأسرة، في طريقنا للخروج لتناول المشويات والبطاطس في

منزل عمتي نيدي. كنت في الطابق العلوي، أرتدي ملابسي لعشاء يوم الأحد، وصرخت والدتي فيَّ للبحث في غرفة موريس عن حذائه الجيد. ذهبت إلى حيث سريره الصغير المصمَّم بعناية، أوراقه النظيفة المرتَّبة على حامل التصميمات، الكتب على الرف مرتَّبة حسب الترتيب الأبجدي. سحبت باب الخزانة، في الجزء الأمامي من الخزانة كان هناك صف مرتب من أحذية موريس، وفي أحد طرفيها كان حذاء الثلج الخاص بإيدي، ذلك الذي خلعه في غرفة الطين، قبل النزول إلى الطابق السفلي والاختفاء إلى الأبد في حصن موريس الهائل. عند رؤيتها، بدت جدران الغرفة وكأنها تنتفخ وتهدأ. شعرت بالإغماء، واعتقدت أنني إذا تركت مقبض الباب فقد أفقد توازني وأطيح به.

ثم كانت والدتي تقف في الردهة: «كنت أناديك. هل وجدته؟».

أدرت رأسي ونظرت إليها للحظة. ثم نظرت مرة أخرى إلى الخزانة. انحنيت وحصلت على حذاء موريس الجيد، ثم أغلقت باب الخزانة.

قلت: «نعم، هنا، آسف، تهت لدقيقة».

هزت رأسها: «الرجال في هذه العائلة متماثلون تمامًا. والدك يحدق إلى الفضاء الخارجي نصف الوقت، وأنت تذهب في غيبوبة فجأة، وأخوك... أقسم بالله في أحد الأيام سيدخل أخوك إلى أحد حصونه الصغيرة ولن يخرج أبدًا».

***

اجتاز موريس اختبار معادلة المدرسة الثانوية قبل وقت قصير من بلوغه العشرين، وبعد سنوات قليلة من اجتياز سلسلة طويلة من الوظائف الوضيعة، حيث عاش لفترة في قبو والديَّ، ثم في شقة في نيو هامبشاير. قلَّب البرجر في مطعم ماكدونالدز، وكدَّس الصناديق في مصنع تعبئة الزجاجات، ومسح الأرضية في مركز تجاري، قبل أن يستقر أخيرًا في وظيفة بمحطة وقود. عندما فوَّتَ ثلاثة أيام متتالية من العمل، اتصل رئيسه بوالدي، وذهبوا لزيارة موريس في شقته.

كان قد تخلص من كل أثاثه، وعلَّق ملاءات بيضاء من السقف في كل غرفة، مكوِّنًا شبكة من الممرات ذات الجدران المتصاعدة برفق. وجدوه في نهاية أحد هذه الممرات المموَّجة، جالسًا، عاريًا على مرتبة عارية. أخبرَهم: إنك إذا اتبعت الطريق الصحيح عبر متاهة الملاءات المعلَّقة، فستصل إلى نافذة تطل

على بستان متضخم، ومنحدرات بعيدة من الحجر الأبيض، ومحيط مظلم. قال إن هناك فراشات، وسياجًا قديمًا، وإنه يريد الذهاب إلى هناك. قال إنه حاول فتح النافذة لكنها كانت مغلقة.

ولكن لم تكن هناك سوى نافذة واحدة في شقته، وكانت تطل على موقف السيارات من الخلف. بعد ثلاثة أيام وقَّعَ بعضَ الأوراق التي أحضرتها له والدتي، ووافق على الالتحاق الطوعي بمركز ويلبروك للصحة العقلية.

ساعدته أنا وأبي على الانتقال للعيش هناك. كان ذلك في أوائل شهر سبتمبر / أيلول، وشعرنا كما لو أننا نُلحق موريس بسكن جامعي في كلية خاصة في مكان ما. كانت غرفة موريس في الطابق الثالث، وأصر والدي على حمل صندوق موريس الثقيل ذي المفصلات النحاسية إلى أعلى الدرج وحده. وبحلول الوقت الذي وضعه أسفل سرير موريس، كان وجهه المستدير الناعم شاحبًا بشكل مزعج، وهو مغطى برغوة العرق. جلس هناك ممسكًا معصمه لفترة. عندما سألتُ عن ذلك، قال إنه التوى من حمل الصندوق.

بعد أسبوع من إيداع أخي، جلس في السرير، فجأة بما يكفي لإيقاظ والدتي. أجبرت نفسها على فتح عينيها، وحدقت إليه. كان ممسكًا قلبه بيده، يصفِّر وكأنه يتظاهر بأنه ثعبان، وعيناه تبرزان من رأسه والأوردة متوترة في صدغه. مات قبل عشر دقائق من وصول سيارة الإسعاف، بسبب تضخم الشريان التاجي. تبعته والدتي في العام التالي؛ سرطان الرحم. رفضَت العلاج العدواني. قلب مريض، رحم مسموم.

***

أعيش في بوسطن، على بعد ساعة تقريبًا من ويلبروك. اعتدت زيارة أخي الصغير في يوم السبت الثالث من كل شهر. أحبَّ موريس النظام والروتين والعادات. كان من دواعي سروري أن يعرف متى سأحضر. انطلقنا في نزهات معًا. صنع لي محفظة من شريط لاصق، وقبعة مُلصقة بالكامل بأغطية زجاجات نادرة. لا أعرف ماذا حدث للمحفظة. القبعة موضوعة على خزانة الملفات الخاصة بي، في مكتبي، هنا في الجامعة. ألتقطها وألصق وجهي بها أحيانًا. تنبعث منها رائحة موريس، وهي، على وجه الدقة، الرائحة الجافة المتربة للقبو في منزل والديَّ.

تولى موريس وظيفة في قسم الحراسة في ويلبروك، وآخر مرة رأيته كان يعمل. كنت في المنطقة، وذهبت خلال أحد أيام الأسبوع، خرجنا عن روتيننا لمرة واحدة. أُرسِلت للبحث عنه في منطقة التحميل، خلف الكافيتريا. كان في الزقاق خارج ساحة انتظار الموظفين، خلف القمامة. كان موظفو المطبخ يرمون الصناديق الكرتونية الفارغة هناك، والآن كان هناك عدد هائل منها منظَّم على جدار واحد. طُلب من موريس تسطيحها وتجميعها في مجموعات لشاحنة إعادة التدوير.

في أوائل الخريف بدأ القليل من اللون البني المشابه للصدأ في الظهور على تيجان شجرة السنديان العملاقة خلف المبنى. وقفتُ عند زاوية مكب القمامة، أشاهده للحظة. لم يكن يعلم أنني كنت هناك. كان يحمل صندوقًا أبيض كبيرًا، مفتوحًا من كلا الطرفين، بكلتا يديه، يديره بهذه الطريقة وتلك، ويحدق إليه بهدوء. وقف شعره البني الباهت على ظهره مرفوعًا ومتعرجًا. دندن لنفسه بصوت منخفض بعيدًا عن الالتزام باللحن قليلًا. عندما سمعت ما كان يغني، تراجعت وقد بات العالم يترنح من حولي. أمسكت بحافة حاوية القمامة لأثبِّت نفسي.

غنى: «النمل يسير... واحدًا تلو الآخر...».

أدار الصندوق في يده ودار حوله: «يا هلا. يا هلا».

قلت: «توقف عن ذلك».

أدار رأسه وحدق إلى وجهي متسائلًا للحظة قبل أن يتعرَّف عليَّ، ثم غاب شيء داخل عينيه وانفرجت زوايا فمه عن ابتسامة: «أوه! مرحبًا نولان. هل تريد مساعدتي في تسطيح بعض الصناديق؟».

تقدمت على ساقي غير الثابتة. لم أفكر في إيدي بريور منذ... لا أعرف متى. كان هناك عرَق شديد على وجهي. أخذت صندوقًا، وضغطته بشكل مسطح، وأضفته إلى الكومة الصغيرة التي كان موريس يصنعها.

تجاذبنا أطراف الحديث لفترة، لكني لا أتذكر عن ماذا.

ثم قال: «أتذكُر تلك الحصون القديمة التي كنت أبنيها؟ تلك الموجودة في القبو؟».

شعرت بإحساس جليدي بالضغط، نوع من الوزن، يضغط على صدري من الداخل.

- بالتأكيد. لماذا؟

لم يرُد لفترة.

سوَّى صندوقًا آخر بالأرض ثم سأل: «هل تظن أنني قتلته؟».

شعرت بصعوبة في التنفس: «إيدي بريور؟».

مجرد قول اسمه جعلني أشعر بالدوار. انتشرت ضربات صداع رهيبة من صدغي وزحفت إلى رأسي.

حدق موريس إلى وجهي، بلا فهم، ثم فتحَ شفتيه: «لا، أبي».

كما لو كان المعنى واضحًا منذ البداية. ثم عاد، ورفع صندوقًا طويلًا آخر، وحدق إليه بتمعن: «كان أبي يجلب لي دائمًا صناديق مثل هذه من العمل. هو يعرف. كم هو مثير أن تمسك بصندوق ولا تتأكد من محتوياته، قد يكون العالم بأكمله مغلَّفًا هناك. مَن يستطيع معرفة ما في الصندوق الخالي من الملامح من الخارج!».

انتهينا من تكديس معظم الصناديق في كومة مسطَّحة واحدة. كنت أرغب في الانتهاء، وأردت أن نذهب إلى الداخل، ونلعب تنس الطاولة في غرفة الاستجمام، ونضع هذا المكان وهذه المحادثة خلفنا.

قلت: «أليس من المفترض أن تربط هذه في حزمة؟».

نظر إلى كومة الورق المقوى الخاصة به، وقال: «نسيت الرباط. لا تقلق. فقط اترك كل هذا هنا. سأعتني به لاحقًا».

***

كان الشفق قد حلَّ عندما غادرت، وكانت السماء فوق ويلبروك سطحًا مسطحًا خاليًا من الغيوم مصبوغًا بالبنفسجي شديد الشحوب. وقف موريس عند إحدى نوافذ غرفة الاستجمام ولوَّح مودِّعًا. رفعت يدي إليه وابتعدت بالسيارة، واتصلوا بي بعد ثلاثة أيام ليخبروني أنه رحل. المحقق الذي زارني في بوسطن لمعرفة ما إذا كنت أعرف أي شيء قد يساعد الشرطة في العثور عليه تمكن من الحصول على اسم أخي بشكل صحيح، لكن النتائج طويلة المدى لتحقيقه في اختفاء أخي لم تسفِر عن نجاح أكثر من بحث كارناهان عن إدوارد بريور.

بعد فترة وجيزة من إعلانه رسميًا مفقودًا، اتصل بيتي ميلهاوسر، منسِّق الرعاية في العيادة المسؤولة عن حالة موريس، ليقول إنهم سيضطرون إلى تخزين ممتلكاته «حتى يعود». حوت العبارة نبرة من التفاؤل الحاد الذي وجدتُه مؤلمًا، أخبروني أنني إذا أردت، يمكنني الحضور وجمع بعض أغراضه لأخذها معي إلى المنزل. قلت إنني سأتوقف في أول فرصة تسنح لي، والتي تبيَّن أنها يوم السبت، في اليوم المحدَّد الذي كنت سأزور فيه موريس لو كان لا يزال هناك.

تركني الموظف وحدي في غرفة موريس الصغيرة في الطابق الثالث. جدران مطلية باللون الأبيض، مرتبة رقيقة على إطار معدني. أربعة أزواج من الجوارب في الخزانة، أربعة أزواج من السراويل الفضفاضة. عبوتان بلاستيكيتان غير مفتوحتين من الملابس الداخلية. فرشاة أسنان. مجموعة من المجلات: «بوبيولار ماشين»، «ريدرز دايجست»، «ذا هاي بلانز ليترالي ريفيو» التي نشرت مقالًا كتبته سابقًا عن قصائد إدجار آلان بو.

في خزانة ملابسه، اكتشفت سترة زرقاء عدَّلها موريس، وربطها بأضواء شجرة عيد الميلاد. وُضِع سلك كهربائي في جيب واحد. ارتداها في حفلة عيد الميلاد السنوية في ويلبروك. كان الشيء الوحيد في الغرفة الذي لم يكن مجهول الهوية تمامًا، العنصر الوحيد الذي جعلني أفكر فيه بالفعل. وضعته في كيس الغسيل.

توقفت في مكاتب الإدارة لأشكر بيتي ميلهاوزر على السماح لي بالمرور عبر غرفة موريس وإخبارها أنني سأغادر. سألتني إذا كنت قد بحثت في خزانته في الأسفل في قسم الحراسة. قلت إنني لا أعرف حتى أن لديه خزانة، وأين يقع قسم الحراسة؟ القبو.

كان الطابق السفلي عبارة عن مساحة كبيرة ذات سقف عالٍ، بأرضية أسمنتية وجدران من الطوب باللون البيج. قُسِّمت الغرفة الطويلة المفردة إلى قسمين بواسطة جدار متصل بسلسلة صلبة مطلية باللون الأسود. من جهة كانت منطقة صغيرة مرتبة لموظفي الحراسة. صف من الخزائن، طاولة بطاقات، مقاعد. دقت آلة شراء المياه الغازية بصوت ثابت أمام الجدار. لم أستطع رؤية ما في الطابق السفلي، أُطفئت الأنوار على الجانب الآخر من صندوق مربوط بسلسلة، لكنني سمعت صوت مرجل يهدر بهدوء في مكان

ما في الظلام، وسمعت المياه تتدفق في الأنابيب. ذكَّرني الصوت بما تسمعه حين تقرِّب أذنك من الأصداف.

عند أسفل الدرج كان هناك حُجرة صغيرة. أطلت النوافذ على مكتب مملوء بالفوضى مغطى بمكاتب وملفات ممتلئة بالورق. جلس خلفها رجل أسود ممتلئ الجسم يرتدي معطفًا أخضر، يتصفح صفحات صحيفة وول ستريت. رآني أقف بجانب الخزائن، نهض وخرج، وصافح يدي، كان قويًّا. اسمه جورج برين، وكان رئيس الحراسة.

وجَّهني إلى خزانة موريس، ووقف على بعد خطوات قليلة ورائي، وذراعاه متقاطعتان فوق صدره، وهو يراقبني أفحصها.

قال برين: «كان ابنك طفلًا يسهل التعامل معه».

كما لو أن موريس كان ابني بدلًا من أخي.

أكملَ: «انجرف إلى عالمه الخاص بين الحين والآخر، ولكن هذا إلى حد كبير هو الحال في هذا المكان. كان جيدًا في عمله رغم ذلك. لم ألتقِه بالداخل قط، أحيانًا كنت أجلس متظاهرًا بربط حذائي ليثرثر مع رفاق آخرين كما يفعل البعض. لكنه فور أن يضع بطاقته في جهاز التعرف يكون مستعدًّا للعمل.

لم يكن هناك في خزانة موريس الكثير. بذلته، حذاؤه، مظلة، غلاف ورقي رفيع مجعد يسمى الأرض المسطحة.

أكملَ: «بالطبع بعد أن ينهي وقت العمل، كانت تلك قصة مختلفة. كان يتسكع لساعات. كان يبني شيئًا ما بصناديقه ويختفي بعيدًا داخل نفسه، ينسى العشاء إذا لم أخبره بالحصول عليه».

سألت فورًا: «ماذا؟!».

ابتسم براين، بتساؤل قليلًا، كما لو كان يجب أن أعرف ما كان يتحدث عنه. سار بجانبي إلى الجدار وقلب مفتاحًا. أُضيئت الأنوار في النصف الآخر من القبو. خلف سلسلة قسمت المكان إلى نصفين، المساحة الفارغة من الأرضية تحت سقف زاحف بمجاري وأنابيب امتلأت بالصناديق، وقد اجتمعت على شكل حصن كملعب للأطفال مترامي الأطراف ومربك مع ما لا يقل عن أربعة مداخل وأنفاق ومزالق ونوافذ مختلفة الأشكال مشوَّهة. طُلي

السطح الخارجي للصناديق بسراخس خضراء وأزهار مموَّجة، مع خنافس بحجم أطباق الفطائر.

قال براين: «أود إحضار أطفالي إلى هنا، وأدعهم يزحفون إلى الداخل هناك لفترة من الوقت. سيصرخون من المتعة».

استدرت وبدأت أسير على الدرَج مرتجفًا، شاعرًا بالبرودة في كل جزء من جسدي، أتنفس بصعوبة. ولكن بعد ذلك، عندما تجاوزت جورج برين، جاءني هاجس، وأمسكت بذراعه وعصرتها، ربما أصعب مما كنت أقصده.

قلت: «أبعِد أطفالك عن هذا الشيء!».

جاء صوتي كهمسة مخنوقة.

وضع يده على معصمي ورفع يدي برفق ولكن بحزم عن ذراعه. كانت عيناه تراقبانني بحذر، نظر إليَّ بنوع من الهدوء والترقب، بالطريقة التي قد ينظر بها رجل إلى الأفعى التي انتزعها من الحشائش، ممسكًا بها خلف الرأس مباشرة حتى لا تعض.

قال: «أنت مجنون مثله، هل فكرت يومًا في الانتقال للعيش هنا؟».

رويت هذه القصة كما حدثت تمامًا قدر استطاعتي، والآن سأنتظر وأرى ما إذا كان بإمكاني، مع ترك الاعتراف هذا ورائي، إعادة إيدي بريور إلى النقطة خلف جدار وعيي. سأعلم ما إذا كان بإمكاني الاستقرار مرة أخرى في العادات الآمنة والتكرار. الفصول الدراسية، والأوراق، والقراءات، ووظائف قسم اللغة الإنجليزية. إعادة بناء الجدار مرة أخرى، لبنة لبنة.

لكنني لست متأكدًا من إمكانية إصلاح ما هُدم. الشقوق قديمة جدًّا، والجدار مبني بشكل سيئ للغاية. لم أكن قط البنَّاء الذي كان عليه أخي. ترددت على المكتبة في مسقط رأسي القديم في فالو كثيرًا مؤخرًا، أقرأ الصحف القديمة في جهاز العرض الخاص، أبحث عن مقال، تقرير صغير، عن حادث على الطريق 111، سقط حجر على الزجاج الأمامي، الفولفو خارج الطريق. كنت أحاول معرفة ما إذا كان أي شخص قد أصيب بشدة. إذا قُتِلَ أحد. الجهل كان ملجئي ذات مرة. الآن أجد أنه من المستحيل أن أتحمل، وربما اتضح أنني كنت أكتب هذا لشخص آخر بعد كل شيء. خطرت في بالي فكرة أن جورج براين ربما كان على حق. ربما يكون الشخص الذي يجب أن أعرض عليه هذه القصة هو بيتي ميلهاوسر، رئيسة منزل الرعاية السابق لموريس.

على الأقل إذا كنت أعيش في ويلبروك، فسأكون في مكان قد أشعر فيه ببعض الصلة مع موريس. أود أن أشعر بالاتصال بشخص ما أو بشيء ما. يمكنني الحصول على غرفته القديمة. يمكنني الحصول على وظيفته القديمة، الخزانة القديمة.

وإذا لم يكن ذلك كافيًا، إن لم تكن عقاقيرهم وجلساتهم العلاجية وعزلتهم قادرة على إنقاذي من نفسي، فهناك دائمًا احتمال آخر. إذا لم يهدم جورج براين متاهة موريس الأخيرة من الورق المقوى، وإذا كانت لا تزال واقفة هناك في الطابق السفلي، فيمكنني دائمًا التسلق في يوم من الأيام، وسحب اللوحات وإغلاقها خلفي. هذا متاح دائمًا. يمكن لأي شيء أن يورَّث في العائلات.

حتى الاختفاء.

لكنني لن أفعل أي شيء بهذه القصة بعد. سأضعها في مغلَّف مانيلا وأتركها في الدرج السفلي الأيمن من مكتبي. سأضعها جانبًا وأحاول استئناف حياتي من حيث توقفت قبل اختفاء موريس. لن أظهِره لأي شخص. لن أفعل أي شيء أحمق. يمكنني الاستمرار لفترة أطول، وسحب نفسي عبر الظلام، عبر المساحات الضيقة لذكرياتي. من يدري ما قد يكمن في الزاوية التالية؟

قد أجد نافذة في مكان ما على طول الطريق، تطل مباشرة على حقل من عباد الشمس.

***

شكر وتقدير

نُشر هذا الكتاب سابقًا مع دار نشر «PS» في إنجلترا منذ قرابة عامين. الشكر واجب لكل من كرَّسوا مجهوداتهم لجعل نشر النسخة الأولى من هذا العمل ممكنة: كريستوفر جولدن، وفنسنت تشونج، ونيكولاس جيفيرز. وأكثر من أي شيء آخر أريد أن أعبِّر عن امتناني وحبي للناشر بيتر كروثر، الذي أخذ مجازفة نشر «شبح القرن العشرين» دون أن يعرف أي شيء عني سوى أنه أحب قصصي.

أنا ممتن لجميع المحرِّرين الذين دعموا عملي على مر السنين، بما في ذلك على سبيل المثال لا الحصر:

ريتشارد شيزمار، وبيل شافر، وآندي كوكس، وستيفن جونز، ودان جاف، وجين كافيلوس، وتيم شيل، ومارك أبلمان، وروبرت أو. الابن، وأدريان برودور، ووين إدواردز، وفرانك سميث، وتيريزا فوكاريل.

أعتذر لأولئك الذين ربما نسيت ذكرهم. وشكر خاص لجنيفر برييل وجو فليتشر، المحرِّرين في دار «ويليا مورو» و«فيكتور جولانز» على التوالي؛ محرِّران أفضل مما يمكن للشخص أن يتمنى.

شكرًا أيضًا لمدير الموقع الخاص بي، شين ليونارد. كما أقدِّر كل العمل الذي قام به وكيلي -ميكي شوات- بالنيابة عني. شكري لوالدي وأخي وأختي وبالطبع عائلتي الغالية على قلبي: لينورا والأولاد.

وماذا عن جزيل الشكر لك، أيها القارئ، لاختيارك هذا الكتاب وإعطائي فرصة للهمس في أذنك لبضع ساعات؟

لطالما خبأ كلٌّ من جين وولف ونيل جايمان قصصًا سرية في صفحات المقدمات الخاصة بهما، لكن لا أعتقد أن أحدًا سبق له وضع قصة سرية في صفحات الشكر والتقدير. بإمكاني أن أكون الأول. الطريقة الوحيدة التي بإمكاني التفكير فيها لشكرك لاهتمامك بقصصي، هي تقديم قصة واحدة إضافية:

آلة كتابة شهرزاد

كان والد إيلينا يذهب إلى القبو كل ليلة، بعد العمل، إلى أبعد ما يمكن أن تتذكره، ولا يصعد حتى ينتهي من كتابة ثلاث صفحات على الآلة الكاتبة الكهربائية من نوع IBM التي كان يشتريها في الكلية، عندما كان لا يزال يعتقد أنه في يوم من الأيام سيكون روائيًّا مشهورًا. كان قد مات لمدة ثلاثة أيام قبل أن تسمع ابنته الآلة الكاتبة في الطابق السفلي، في الوقت المعتاد: دفقة من الضجيج السريع، أعقبها صمت منتظر، ملأه فقط همهمة الآلة.

نزلت إيلينا الدرجات إلى الظلام وساقاها ضعيفتان. ملأت نقرات الآلة الكاتبة الظلامَ ذا الرائحة المكتومة، حتى بدا وكأن الهواء ذاته يهتز محمَّلًا بالذبذبات الكهربية، كما كان الحال قبل هبوب عاصفة رعدية. وصلتْ إلى المصباح بجانب الآلة الكاتبة لوالدها، وأنارته قبل أن ينقلب الناقل لتبدأ موجة أخرى من ضجيج نقرات الآلة الكاتبة. صرخت، ثم صرخت مرة أخرى عندما رأت المفاتيح تتحرك من تلقاء نفسها، والكرة المصنوعة من الكروم تنطلق على الصفيحة السوداء العارية.

في المرة الأولى التي رأت فيها إيلينا الآلة الكاتبة تعمل بمفردها، اعتقدت أنها قد تفقد الوعي من الصدمة. كادت والدتها أن تُصاب بالإغماء عندما أرتها إيلينا الآلة في الليلة التالية.

عندما قفزت الآلة الكاتبة إلى الحياة وبدأت في الكتابة، رفعت والدة إيلينا يديها إلى أعلى وصرخت وتعثرت في ساقيها تحتها، واضطرت إيلينا إلى الإمساك بها من ذراعها لمنعها من الوقوع.

لكن في غضون أيام قليلة اعتادتا ذلك، ثم أصبح الأمر مثيرًا. كانت لدى والدتها فكرة لف ورقة، قبل أن تشغل الآلة الكاتبة نفسها في الساعة 8 مساءً. أرادت والدة إيلينا أن ترى ما كانت تكتبه، إذا كانت رسالة لهم من الخارج. من خلف القبر البارد. أنا أحبك وأشتاق إليك.

لكنها كانت مجرد قصة أخرى من قصصه القصيرة. لم تبدأ حتى ببداية طبيعية. بدأت الصفحة في منتصف الجملة مباشرة. كانت والدة إيلينا هي التي فكرت في الاتصال بالأخبار المحلية. جاء منتِج من القناة الخامسة لرؤية الآلة الكاتبة. بقيت المُنتجة حتى شغَّلت الآلة نفسها وكتبت بضع جمل، ثم نهضت وصعدت السلم بخفة. سارعت والدة إيلينا وراءها، ملأى بالأسئلة المقلِقة.

قالت المنتِجة بنبرة مقتضبة: «التحكم عن بعد».

نظرت إلى الخلف من فوق كتفها بتعبير نفور: «متى دفنتِ زوجك يا سيدتي؟ منذ أسبوع؟ ما مشكلتك؟».

لم تكن أيٌّ من المحطات التلفازية الأخرى مهتمة. قال الرجل في الصحيفة إن الأمر لا يبدو مثل هذا النوع من الأشياء، حتى إن بعض أقاربهم اشتبهوا في أنها كانت مقلبًا سيئ الذوق. ذهبت والدة إيلينا إلى الفراش ومكثت هناك لعدة أسابيع، وقد أقعدها صداع نصفي رهيب، ظلت يائسة ومرتبكة. وفي القبو، كل ليلة، كانت الآلة الكاتبة تعمل، تلقي بالكلمات على الورق في دفعات من الثرثرة الصاخبة.

حضرت ابنة الرجل الميت إلى الآلة الكاتبة، وقد تعلمت بالضبط متى تلف ورقة جديدة، بحيث تنتج الآلة كل ليلة ثلاث صفحات جديدة من القصة، تمامًا كما حدث عندما كان والدها على قيد الحياة. في الواقع، بدت الآلة وكأنها تنتظرها، وهي تدندن بطريقة مرحة، حتى تحتوي على ورقة جديدة لتلطِّخها بالحبر.

بعد فترة طويلة من عدم رغبة أي شخص آخر في التفكير في الآلة الكاتبة بعد الآن، واصلت إيلينا الذهاب إلى الطابق السفلي ليلًا، للاستماع إلى الراديو، وتطبيق الغسيل، ولف ورقة جديدة في الآلة عندما يكون ذلك ضروريًا. كانت طريقة بسيطة بما يكفي لتمضية الوقت، طائشة وحلوة، مثل زيارة قبر والدها كل يوم لترك الزهور النضرة.

أيضًا، أصبحت تحب قراءة القصص عندما تنتهي. قصص عن الأقنعة والبيسبول والآباء وأطفالهم... والأشباح. كان بعضها من قصص الأشباح. لقد أحبت هؤلاء أكثر. ألم يكن هذا هو أول شيء تعلمتْه في كل دورة كتابة خيالية في كل مكان؟ اكتب عما تعرفه؟ كتب الشبح في الآلة عن الموتى بدقة كبيرة.

بعد فترة، كانت شرائط الآلة الكاتبة متوفرة فقط بطلب خاص. ثم توقفت حتى شركة الإصدار عن صنعها. ثم بدأت الكرة الدوارة تهترئ. استبدلتها، ولكن بعد ذلك بدأ «السير» في الالتصاق. ذات ليلة، كانت مغلقة، ولن تتحرك إلى الأمام، وبدأ الدخان الزيتي بالتسرب من تحت الغطاء الحديدي للآلة. طرقت الآلة الكاتبة حرفًا بعد حرف، واحدة فوق الأخرى مباشرة، بنوع من الغضب الجنوني، حتى تمكنت إيلينا من تفكيكها وإغلاقها.

أخذتها إلى رجل يُصلح الآلات الكاتبة القديمة والأجهزة الأخرى. أعادها في حالة تشغيل مثالية، لكنها لم تكتب من تلقاء نفسها مرة أخرى. في الأسابيع الثلاثة التي قضتها في المتجر، فقدت هذه العادة.

عندما كانت طفلة صغيرة، سألت إيلينا والدها عن سبب ذهابه إلى الطابق السفلي كل ليلة ليختلق الأمور، وقال إن السبب في ذلك هو أنه لم يستطع النوم حتى يكتب. أدَّت كتابة الأشياء إلى تحفيز خياله من أجل صناعة أمسية ملأى بالأحلام الجميلة. الآن كانت منزعجة من فكرة أن موته قد يكون بلا هدوء ولا راحة أو أحلام. ولكن أحدًا لم يمد يد العون.

كانت في ذلك الوقت في العشرينيات من عمرها، وعندما توفيت والدتها، امرأة عجوز غير سعيدة، قررت الخروج، ليس فقط عن عائلتها، ولكن عن العالم بأسره، مما يعني بيع المنزل وكل ما كان فيه. بالكاد كانت قد بدأت في فرز الفوضى في الطابق السفلي، عندما وجدت نفسها جالسة على الدرج، تعيد قراءة القصص التي كتبها والدها بعد وفاته. في حياته، تخلى عن تقديم عمله للناشرين، كان قد سئم من الرفض.

ولكن بدا للفتاة أن عمله بعد الوفاة كان أكثر حيوية من عمله السابق، وبدت قصصه عن الملاحقات والظواهر غير الطبيعية لافتة للنظر بشكل خاص. خلال الأسابيع القليلة التالية، جمعت أفضل ما لديها في كتاب واحد، وبدأت في إرساله إلى الناشرين. قال معظمهم إنه لا يوجد سوق لمجموعات كتَّاب ليس لديهم سمعة، ولكن مع مرور الوقت جاء الرد من محرِّر في إحدى

الصحف الصغيرة قال إنه أحبها، وإن والدها كان لديه معلومات جيدة فيما يتعلق بما وراء الطبيعة.

قالت: «إنها كذلك حقًّا، أليس كذلك؟!».

الآن هذه هي القصة كما سمعتها بنفسي لأول مرة من صديق يعمل في مجال النشر. جهل بشكل جنوني جميع التفاصيل المهمة، لذلك لا يمكنني إخبارك بمكان نشر الكتاب أخيرًا أو متى أو أي شيء آخر يتعلق بهذه المجموعة الغريبة. أتمنى لو كنت أعرف المزيد. بصفتي رجلًا مفتونًا بالغموض، أود الحصول على نسخة. لسوء الحظ، فإن عنوان ومؤلف الكتاب غير المحتمَل ليسا معروفَين.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الهاتف الأسود

"مجموعة مبتكرة.. شجاعة وذكية".
- New York Times Book Review

"لطالما تميزت أعمال جو هيل بالخروج عن المألوف، والزحف إلى الحارات الخلفية الأكثر سوادًا وخطورة بأدب الرعب، في أقبية الضواحي وملاعب الكرة وساحات المدارس".
- Washington Post

"الشخصيات شديدة النضج، الخيوط العاطفية معقدة، في 14 قصة داخل مجموعة استثنائية، لا توجد ملاحظة خاطئة أو جهد مخيب للآمال في هذا المجلد".
- Publishers Weekly

"مجموعة رائعة من القصص القصيرة".
- The Village Voice

"عرض جديد ومختلف لقصص من أدب الرعب، نُوصي به للغاية".
- Herald Sun

"ناضجة ومثيرة للتوتر بالقدر ذاته".
- Evening Herald

"كل واحدة من هذه القصص، تأسِرك بسهولة مع أول جملة افتتاحية، لتقودك بثقة وإتقان -بفضل أسلوب كتابتها- إلى حيث يبتلعك الرعب".
- Daily Mail

جو هيل

كاتب رعب وخيال علمي، فاز بجائزة "برام ستوكر" عن روايته الأولى Heart-Shaped Box، روايته الثانية Horns تحولت إلى فيلم سينمائي تقشعر له الأبدان من بطولة دانيال رادكليف، وتصدرت بقية أعماله قائمة الأكثر مبيعًا بنيويورك تايمز.

فاز بجائزة Eisner العالمية عن مجموعته المصورة Locke & Key.

تحول العديد من أعماله إلى أفلام وأعمال درامية.

أعمال أخرى للكاتب:

الهاتف الأسود

إيموجين شابة جميلة وميتة، تنتظر في مسرح برعم الوردة بعد ظُهر أحد الأيام عام 1945.

كان فرانسيس بشريًّا ذات مرة، لكنه الآن جرادٌ يبلغ ارتفاعه ثمانية أقدام، وسوف يرتجف الجميع حين يسمعون غناءه.

جون مُحتَجز في قبو مُلطخ بدماء نصف دزينة من الأطفال المقتولين، مع هاتف عتيق، مفصول منذ فترة طويلة، يرن في الليل بمكالمات من الموتى.

يعرف نولان، ولكن لا يمكنه أبدًا أن يخبر أحدًا بما حدث بالفعل في صيف عام 1977، عندما بنى شقيقُه الأصغر الموهوب حصنًا ضخمًا من الورق المُقوَّى بأبواب سرية تؤدي إلى عوالم أخرى... الماضي لم يمت، لم يكن حتى ماضيًا...

المجموعة الأولى للكاتب الأكثر مبيعًا في نيويورك تايمز جو هيل. مجموعة قصصية تقشعرُّ لها الأبدان للكاتب الذي اعتبره النقَّاد أحد أفضل كُتَّاب الرعب للقرن الحادي والعشرين.

غلاف: عبد الرحمن الصواف

عصير الكتب
www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb

مكتبة
t.me/soramnqraa